جامع السعادات

تأليف
العلامة النراقي

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان



جامع السعادات


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

جامع السعادات

للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى

محمد مهدي النراقي

المتوفي ١٢٠٩ هـ

الجزء الثالث

حققه وعلق عليه

العلامة السيد محمد كلانتر

قدم له

الشيخ محمد رضا المظفر عميد كلية الفقه

الطبعة الرابعة

منشورات دار النعمان

بسم الله الرحمن الرحيم

بقية المقام الرابع

ومنها (١) :

الغرور

معنى الغرور ـ ذمه ـ طوائف المغرورين : المغرورون من الكفار والعصاة والفساق من المؤمنين ـ المغترون من أهل العلم وفرقهم ـ المغترون من الوعاظ كثيرون ـ المغرورون من أهل العبادة فرق كثيرة ـ المغترون من المتصوفة اكثر ـ المغترون من الاغنياء اكثر من سائر الطوائف ـ ضد الغرور الفطانة والعلم والزهد .

* * *

وهو سكون النفس الى ما يوافق الهوى ، ويميل اليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان . فمن اعتقد انه على خير اما في العاجل او في الآجل عن شبهة فاسدة ، فهو مغرور . ولما كان اكثر الناس ظانين بانفسهم خيرا ، ومعتقدين بصحة ما هم عليه من الاعمال والافعال وخيريته ، مع انهم مخطئون فيه ، فهم مغرورون . مثلا من يأخذ المال الحرام وينفقها في مصارف

---

(١) اى من الرذائل المتعلقة باثنتين من القوى الثلاث او بجميعها : وهي القوة العاقلة والغضبية والشهوية . وهذه الرذيلة هي الرذيلة «الواحدة والعشرون» منها .

الخير ، كبناء المساجد والمدارس والقناطر والرباطات وغيرها ، يظن ان هذا خير له وسعادة ، مع انه محض الغرور ، حيث خدعه الشيطان وأراه ما هو شر له خيرا ، وكذا الواعظ الذي غرضه الجاه والقبول من موعظته ، يظن انه في طاعة الله ، مع انه في المعصية بغرور الشيطان وخدعته .

ثم لا ريب في ان سكون النفس الى ما يوافق الهوى ، ويميل الطبع اليه عن شبهة وخيلة ، مركب من امرين : (احدهما) اعتقاد النفس بأن هذا خير له مع كونه خلاف الواقع ،(وثانيهما) حبها وطلبها باطنا لمقتضيات الشهوة او الغضب . فان الواعظ اذا قصد بوعظه طلب الجاه والمنزلة معتقدا انه يجلب به الثواب ، تكون له رغبة الى الجاه واعتقاد بكونه خيرا له ، اذ الغني اذا امسك ماله ولم ينفقه في مصارفه اللازمة ، وواظب على العبادة معتقدا ان مواظبته على العبادة تكفي لنجاته وان كان بخيلا ، يكون له حب للمال واعتقاد بأنه على الخير . ثم الاعتقاد المذكور راجع الى نوع معين من الجهل المركب ، وهو الجهل الذي يكون المجهول المعتقد فيه شيئا يوافق الهوى ، فيكون من رذائل القوة العاقلة ، والحب والطلب للجاه والمال من رذائل قوتي الغضب والشهوة . فالغرور يكون من رذائل القوى الثلاث ، او من رذائل العاقلة مع احداهما .

فصل

(ذم الغرور)

الغرور والغفلة منبع كل هلكة وام كل شقاوة ، ولذا ورد فيه الذم الشديد في الآيات والاخبار ، قال الله ـ سبحانه ـ :

« فَلَا تَغُرَّنَّكُم الحياة الدُّنيا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بالله

الغَرورُ » (١) . وقال عزوجل « ولٰكِنَّكم فَتنتُم أنفُسَكم وتَربَّصتُم وارتبتم وغرَّتكم الامانيُّ حتى جاء أمرُ اللهِ وغرَّكمْ باللهِ الغَرورُ » (٢) .

وقال رسول الله (ص) : « حبذا نوم الاكياس وفطرهم ، كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم ، ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين افضل من ملء الارض من المغترين » . وقال الصادق (ع) : « المغرور في الدنيا مسكين ، وفي الآخرة مغبون ، لانه باع الافضل بالادنى ، ولا تعجب من نفسك ، فربما اغتررت بمالك وصحة جسدك ان لعلك تبقى . وربما اغتررت بطول عمرك واولادك واصحابك لعلك تنجو بهم . وربما اغتررت بجمالك ومنيتك واصابتك مامولك وهـواك ، فظننت انك صادق ومصيب . وربما اغتررت بما ترى من الندم على تقصيرك فى العبادة ، ولعل الله يعلم من قلبك بخلاف ذلك . وربما اقمت نفسك على العبادة متكلفا والله يريد الاخلاص . وربما افتخرت بعلمك ونسبك ، وانت غافل عن مضمرات ما في غيب الله تعالى . وربما توهمت انك تدعو الله وانت تدعو سواه . وربما حسبت انك ناصح للخلق وانت تريدهم لنفسك ان يميلوا اليك . وربما ذممت نفسك وانت تمدحها على الحقيقة » (٣) .

فصل

(طوائف المغرورين)

اعلم ان فرق المغترين كثيرة ، وجهات غرورهم ودرجاته مختلفة ، وما

---

(١) لقمان ، الآية : ٣٣ . فاطر ، الآية : ٥ . (٢) الحديد ، الآية : ١٤ .

(٣) صححناه على مصباح الشريعة : الباب ٣٦ .

من طائفة في العالم مشتركين في وصف بجتمعين على امر ، الا ويوجد فيهم فرق من المغترين . الا ان بعض الطوائف كلهم مغترون ، كالكفار والعصاة والفساق ، وبعضهم يوجد فيهم المغرور وغير المغرور ، وان كان معظم كل طائفة ارباب الغرور . ونحن نشير الى مجاري الغرور ، والى غرور كل طائفة ليتمكن طالب السعادة من الاحتراز عنه ، اذ من عرف مداخل الآفات والفساد ومجاريهما يمكنه ان يأخذ منها حذره ، ويبني على الجزم والبصيرة امره . فنقول :

الطائفة الاولى

(الكفار)

وهم مغرورون بأسرهم ، وهم ما بين من غرته الحياة الدنيا ، وبين من غره الشيطان بالله . واما الذين غرتهم الحياة الدنيا ، فباعث غرورهم قياسان نظمهما الشيطان في قلوبهم : (اولهما) ان الدنيا نقد والآخرة نسيئة ، والنقد خير من النسيئة . (وثانيهما) ان لذات الدنيا يقينية ولذات الآخرة مشكوكة فيها ، واليقيني خير من المشكوك ، فلا يترك به . وهذه اقيسة فاسدة تشبه قياس ابليس ، حيث قال :

« أنا خَيرٌ مِنهُ خَلَقتني مِنْ نارٍ وَخَلَقتَهُ مِن طِين » (١)

وعلاج هذا الغرور ـ بعد تحصيل اليقين بوجود الواجب تعالى وبحقية النبي (ص) ، وهو في غاية السهولة لوضوح الطرق والادلة ـ اما ان يتبع مقتضى ايمانه ويصدق الله تعالى في قوله :

(١) الاعراف ، الآية : ١١ ، ص ، الآية : ٧٦ .

« ما عِندَكُم يَنفدُ وما عِندَ اللهِ باقٍ » (١). وفي قوله تعالى: « والآخِرَةُ خَيرٌ وأبقى » (٢). وقوله: « وما عِندَ اللهِ خَيرٌ وأبقى » (٣). وقوله: « وَما الحَياةُ الدُّنيا إلاّ متاع الغُرورِ » (٤). وقوله تعالى: « ولا تَغُرَّنَّكمُ الحياةُ الدُّنيا ولا يَغُرَّنَّكمْ بِاللهِ الغَرور » (٥).

واما ان يعرف بالبرهان فساد القياسين، حتى يزول عن نفسه ما تأديا اليه من الغرور. وطريق معرفة الفساد في (القياس الاول): ان يتأمل في ان كون الدنيا نقدا والآخرة نسيئة صحيح، الا ان كون كل نقد خيرا من النسيئة غير صحيح، بل هو محل التلبيس، اذ المسلّم خيرية النقد على النسيئة ان كان مثلها في المقدار والمنفعة والمقصود والبقاء، واما ان كان اقل منها في ذلك وادون، فالنسيئة خير، الا ترى ان هذا المغرور اذا حذره الطبيب من لذائذ الاطعمة يتركها في الحال خوفا من الم المرض في الاستقبال ويبذل درهما في الحال ليأخذ درهمين نسيئة، ويتعب في الاسفار ويركب البحار في الحال لأجل الراحة والربح نسيئة. وقس عليه جميع اعمال الناس وصنائعهم في الدنيا: من الزراعة والتجارة والمعاملات، فانهم يبذلون فيها المال نقدا ليصلوا الى اكثر منه نسيئة، فان كان عشرة في ثاني الحال خيرا

(١) النحل، الآية: ٩٦. (٢) الاعلى، الآية: ١٧.
(٣) القصص الآية: ٦٠. الشورى، الآية: ٣٦.
(٤) آل عمران، الآية: ١٨٥. الحديد، الآية: ٢٠.
(٥) لقمان، الآية: ٣٣. فاطر، الآية: ٥.

من واحد في الحال ، فأنسب لذة الدنيا من حيث الشدة والمدة والعدة الى لذة الآخرة من هذه الحيثيات ، فان من عرف حقيقة الدنيا والآخرة ، يعلم انه ليس للدنيا قدر محسوس بالنسبة الى الآخرة ، على ان لذة الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات ، ولذات الآخرة صافية غير ممتزجة بشيء من المكدرات .

واما طريق معرفة فساد (القياس الثاني) بأصليه : هو ان يعرف ان كون لذات الآخرة مشكوكا فيها خطأ ، وان كل يقيني خير من المشكوك غلط: (اما الاول) فلأن الآخرة يقينية قطعية عند اهل البصيرة . وليقينهم مدركان :

ـ احدهما ـ ما يدركه عموم الخلق ، وهو اتفاق عظماء الناس من الانبياء والاولياء والحكماء والعلماء ، فان ذلك يورث اليقين والطمأنينة بعد التأمل ، كما ان المريض الذي لا يعرف دواء علته اذا اتفق جميع ارباب الصناعة على ان دواءه كذا ، فانه تطمئن نفسه الى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين ، بل يثق بقولهم ويعمل به ، وان كذبهم صبي او معتوه او سوادي . ولا ريب في ان المنكرين للآخرة المغترين بالحياة الدنيا من الكفار والبطالين بالنظر الى المخبرين عن احوال الآخرة والمشاهدين لها من الانبياء والاولياء ادون حالا واقل رتبة من صبي او معتوه او سوادي بالنظر الى اطباء بلد او مملكة .

ـ وثانيهما ـ مالا يدركه الا الانبياء والاولياء ، وهو الوحي والالهام ، فالوحي للأنبياء والالهام والكشف للاولياء فانه قد كشفت لهم حقائق الاشياء كما هي عليها ، وشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد انت المحسوسات بالبصر الظاهر ، فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد ، ولا تظنن ان معرفة النبي (ص) لأمر الآخرة ولامور الدين مجرد تقليد

لجبرئيل بالسماع منه ، كما ان معرفتك لها تقليد للنبي ، هيهات! فان الانبياء يشاهدون حقائق الملك والملكوت ، وينظرون اليها بعين البصيرة واليقين ، وان اكد ذلك بالقاء الملك والسماع منه .

واما المغرورون بالله ، وهم الذين يقدرون في انفسهم ويقولون بألسنتهم : ان كان لله معاد فنحن فيه اوفر حظا واسعد حالا من غيرنا ، كما اخبر الله ـ سبحانه ـ عن قول الرجلين المتحاورين ، اذ قال :

« وما أظنُّ الساعَةَ قائِمةً ولئِن رُدِدتُ إلى رَبّي لَأجِدَنَّ خَيراً مِنها منقلباً » (١) .

وباعث ذلك : ما القى الشيطان في روعهم من نظرهم مرة الى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة ، وينظرون الى تأخير الله العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة ، كما قال الله ـ تعالى ـ :

« ويَقولونَ في أنفُسِهِم لولا يُعَذِّبنا اللهُ بِما نقول حسبهم جَهنَّم يَصلَونَها فَبِئسَ المَصير » (٢) .

ومرة ينظرون الى المؤمنين وهم فقراء محتاجون ، فيقولون : لو احبهم الله لاحسن اليهم في الدنيا ولو لم يحبنا لما احسن الينا فيها ، فلما لم يحسن اليهم في الدنيا واحسن الينا فيها فيكون محبا لنا ولا يكون محبا لهم ، فيكون الامر في الآخرة كذلك ، كما قال الشاعر :

كما احسن الله فيما مضى　　　كذلك يحسن فيما بقي

ولا ريب في أن كل ذلك خيالات فاسدة وقياسات باطلة ، فان من ظن ان النعم الدنيوية دليل الحب والاكرام فقد اغتر بالله ، إذ ظن انه كريم

(١) الكهف ، الآية : ٣٧ .　(٢) المجادلة ، الآية : ٨ .

عند الله ، بدليل لايدل على الكرامة بل يدل عند اولى البصائر على الهوان والخذلان ، لان نعيم الدنيا ولذاتها مهلكات ومبعدات من الله ، وان الله يحمى احباءه الدنيا كما يحمي الوالد الشفيق ولده المريض لذائذ الاطعمة. ومثل معاملة الله ـ سبحانه ـ مع المؤمن الخالص والكافر والفاسق ، حيث يزوي الدنيا عن الاول ويصب نعمها ولذاتها على الثاني ، مثل من كان له عبدان صغيران يحب احدهما ويبغض الآخر، فيمنع الاول من اللعب ويلزمه المكتب ويحبسه فيه ، ليعلمه الادب ويمنعه من لذائذ الاطعمة والفواكه التي تضره ويسقيه الادوية البشعة التي تنفعه ، ويهمل الثاني ليعيش كيف يريد ويلعب ويأكل كل ما يشتهي ، فلو ظن هذا العبد المهمل انه محبوب كريم عند سيده لتمكنه من شهواته ولذاته، وان الآخر مبغوض عنده لمنعه عن مشتهياته ، كان مغرورا احمق ، وقد كان الخائفون من ذوي البصائر اذا اقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا : ذنب عجلت عقوبته ، واذا اقبل عليهم الفقر قالوا : مرحبا بشعار الصالحين! واما المغرورن فعلى خلاف ذلك ، لظنهم ان اقبال الدنيا عليهم كرامة من الله وان ادبارها عنهم هوان لهم ، كما اخبر الله ـ تعالى ـ عنه بقوله :

« فَأَمَّا الإِنسانُ اذا ما ابتَلاه ربُّه فأكرَمَه ونَعَّمهُ فيَقول ربِّي أكرَمَنِ ، وأمَّا إذا ما ابتَلاه فَقَدَرَ عَلَيهِ رِزقه فيَقول رَبِّي أهانَنِ »(١)

وعلاج هذا الغرور : ان يعرف ان اقبال الدنيا دليل الهوان والخذلان دون الكرامة والاحسان ، والتجرد منها سبب الكرامة والقرب الى الله ـ سبحانه ـ والطريق الى هذه المعرفة : اما ملاحظة احوال الانبياء والاولياء وغيرهما من طوائف العرفاء وفرق الاتقياء، او التدبر في الآيات والاخبار. قال الله ـ سبحانه ـ

(١) الفجر ، الآية : ١٥ ـ ١٦ .

« أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين ، نسارع لهم في الخيرات بل لايشعرون » (١) . وقال ـ سبحانه ـ : « سنستدرجهم من حيث لايعلمون » (٢) وقال ـ تعالى ـ : « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما اتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » (٣). وقال ـ تعالى ـ : « انما نملي لهم ليزدادوا اثماً » (٤).

الى غير ذلك من الآيات والاخبار .

ومنشأ هذا الغرور : الجهل بالله وبصفاته، فان من عرفه لايأمن مكره ولا يغتر به بأمثال هذه الخيالات الفاسدة ، وينظر الى قارون وفرعون وغيرهما من الملوك والجبابرة ، كيف احسن الله اليهم ابتداء ثم دمرهم تدميرا ، وقد حذر الله عباده عن مكره واستدراجه فقال :

« فلا يأمن مكر الله الآ القوم الخاسرون » (٥). وقال : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » (٦) .

الطائفة الثانية

(العصاة والفساق من المؤمنين)

وسبب غرورهم وغفلتهم اما بعض بواعث غرور الكافرين ـ كما

(١) المؤمنون ، الآية : ٥٦ ـ ٥٧ . (٢) الاعراف ، الآية : ١٨١ .
(٣) الانعام ، الآية : ٤٤ . (٤) آل عمران ، الآية : ١٧٨ .
(٥) الاعراف ، الآية : ٩٩ . (٦) آل عمران ، الآية : ٥٤ .

تقدم - أوظنهم ان الله - تعالى - كريم ورحمته واسعة ونعمته شاملة ، واين معاصي العباد في جنب بحار رحمته ، ويقولون : انا موحدون ومؤمنون ، فكيف يعذبنا مع التوحيد والايمان ، ويقررون ظنهم بما ورد في فضيلة الرجاء - كما تقدم - . وربما اغتر بعضهم بصلاح آبائهم وعلو رتبتهم ، كاغترار بعض العلويين بنسبهم مع مخالفتهم سيرة آبائهم الطاهرين في الخوف والورع . وعلاج هذا الغرور . أن يعرف الفرق بين الرجاء الممدوح والتمني المذموم ، ويعلم أن غروره ليس رجاء ممدوحا ، بل هو تمن مذموم ، كما قال رسول الله (ص) : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله» . فان الرجاء لاينفك عن العمل ، اذمن رجا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه ، وكما ان الذي يرجو في الدنيا ولدا وهو لم ينكح ، او نكح ولم يجامع ، او جامع ولم ينزل ، فهو مغرور احمق ، كذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن ، او آمن ولم يترك المعاصي ، او تركها ولم يعمل صالحا ، فهومغرور جاهل ، كيف وقد قال الله - سبحانه - :

« إنَّ الَّذينَ آمَنوا والَّذينَ هاجَروا وجاهدوا في سبيلِ الله اولئكَ يرجونَ رحمةَ الله » (١).

يعني ان الرجاء يليق بهم دون غيرهم ، وذلك لأن ثواب الآخرة اجر وجزاء على الاعمال ، كما قال - تعالى - :

« جزاءً بما كانوا يعملونَ » (٢). وقال : « وانَّما تُوفَّونَ اجوركم يومَ القيامةِ » (٣). وقال : « وأن ليسَ لِلإنسانِ

(١) البقرة ، الآية : ٢١٨ (٣) آل عمران ، الآية : ١٨٥ .

(٢) السجدة،الآية : ١٧ . الاحقاف،الآية : ١٤ . الواقعة ، الآية :٢٤ .

إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ » (١). وقال : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » (٢).

أفترى أن من استؤجر على اصلاح اوان وشرط له أجرة عليها ، وكان الشارط كريماً يفي بوعده وشرطه ، بل كان بحيث يزيد على ما وعده وشرطه ، فجاء الاجير وكسر الاواني وافسدها جميعا ، ثم جلس ينتظر الاجر زعما منه أن المستأجر كريم ، أفيراه العقلاء في انتظاره راجيا او مغروراً متمنيا ؟ وبالجملة : سبب هذا الغرور الجهل بين الرجاء والعزة ، فليعالجه بما ذكر هنا وفيما سبق .

ثم ان المغرور بعلو رتبه آبائه ، ظانا ان الله تعالى يحب أبناءه ، ومن أحب انسانا أحب أولاده ، أشد حمقا من المغرور بالله ، لأن الله - سبحانه - يحب المطيع ويبغض العاصي من غير ملاحظة لآبائهما ، فكما أنه لا يبغض الاب المطيع ببغضه للولد العاصي فكذلك لايحب الولد العاصي بحبه للأب المطيع ، وليس يمكن أن يسري من الاب الى الابن شيء من الحب والبغض والمعصية والتقوى ، اذلاتزر وازرةوزرأخرى ،فمن زعم انه ينجو بتقوىابيه كان كمن زعم انه يشبع بأكل ابيه ، او يصير عالما بتعلم ابيه ، او يصل الى الكعبة بمشي ابيه ، فهيهات هيهات! ان التقوى فرض عين على كل أحد ، فلا يجزي والد عن ولده شيئا ، وعند الجزاء يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، ولا ينفع أحد أحدا الا على سبيل الشفاعة ، بعد تحقق شرائطها .

ثم العصاة المغرورون ، اما ليست لهم طاعات ، فتمنيهم المغفرة غاية

---

(١) النجم ، الآية : ٣٩ - ٤٠ . (٢) المدثر الآية : ٣٨ .

الجهل - كما مر - ، او لهم طاعات ولكن معاصيهم اكثر ، وهم عالمون بأكثرية المعاصي ، ومع ذلك يتوقعون المغفرة وترجح حسناتهم على سيئاتهم وهو أيضا غاية الجهل ، إذ مثله مثل من وضع عشرة دراهم في كفة ميزان وفي الكفة الاخرى ألفا او ألفين ، وتوقع أن تميل الكفة الثقيلة بالخفيفة ، ومن الذين معاصيهم أكثر من يظن ان طاعاته اكثر من معاصيه ، لأنه لايحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه ، واذا عمل طاعة حفظها وأعتدّ بها ، كالذي يحج طول عمره حجه ويبني مسجدا ، ثم لايكون شيء من عباداته على النحو المطلوب ، ولا يجتنب من أخذ اموال المسلمين ، فينسى ذلك كله ويكون حجه وما بناه من المسجد في ذكره ، ويقول : كيف يعذبني الله وقد حججت وبنيت مسجدا ؟ وكالذي يسبح الله كل يوم مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق اعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول نهاره من غير حصر وعدد ، ويكون نظره الى عدد سبحته مع غفلته عن هذيانه طول نهاره الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة ، وقد كتبه الكرام الكاتبون ، فهو يتأمل دائما في فضيلة التسبيحات ، ولا يلتفت الى ما ورد في عقوبة الكذابين والمغتابين والنمامين والفحاشين ، ولو كان كتبة اعماله يطلبون منه اجرة الزايد من هذيانه على تسبيحاته ، لكان عند ذلك يسعى في كف لسانه عن آفاته وموازنتها بتسبيحاته ، حتى لايكون لها زيادة عليها ليؤخذ منه اجرة نسخ الزائد . فيا عجبا لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفا ان يفوته مقدار قيراط ولا يحتاط خوفا من فوت العليين ومجاورة رب العالمين !

الطائفة الثالثة

اهل العلم

والمغترون منهم فرق :

(فمنهم) من اقتصر من العلم على علم الكلام والمجادلة ومعرفة آداب المناظرة ، ليتفاخر في اندية الرجال ويتفوق على الاقران والامثال ، من غير ان يكون له في العقائد قدم راسخ او مذهب واحد ، بل يختار تارة ذاك وتارة هذا ، وتكون عقيدته كخيط مرسل في الهواء تفيئه الريح مرة هكذا ومرة هكذا ، ومع ذلك يظن بغروره أنه اعرف الناس واعلمهم بالله وبصفاته .

و(منهم) من أقتصر من العلم على علم النحو واللغة ، اوالشعر اوالمنطق ، واغتر به وافنى عمره فيها ، وزعم ان علم الشريعة والحكمة موقوف عليها ، ولم يعلم أن ما ليس مطلوباً لذاته ويكون وسيلة الى ما هو مقصود لذاته يجب ان يقتصر عليه بقدر الضرورة ، والتعمق فيه الى درجات لا تتناهى فضول مستغنى عنها ، وموجب للحرمان عما هو مقصود لذاته .

و (منهم) من اقتصر على فن المعاملات من الفقه ، المتضمن لكيفية الحكم والقضاء بين الناس ، واشتغل باجراء الاحكام ، وأعرض عن علم العقائد والاخلاق ، بل عن فن العبادات من الفقه ، واهمل تفقد قلبه ليتخلى عن رذائل الاخلاق ويتحلى بفضائل الملكات وتفقد جوارحه وحفظها عن المعاصي والزامها الطاعات .

و (منهم) من حصل فن العبادات أيضاً ، بل احكم العلوم الشرعية بأسرها وتعمق فيها واشتغل ، ولكن ترك العلم الالهي وعلم الاخلاق ولم يحفظ الباطن والظاهر عن المعاصي ولم يعمرها بالطاعات .

و (منهم) من أحكم جميع العلوم من العقلية والشرعية وتعمق فيها واشتغل بها إلا أنه أهمل العمل رأساً ، أو واظب على الطاعات الظاهرة وأهمل صفات القلب ، وربما تفقد صفات القلب وأخلاق النفس أيضاً وجاهد نفسه في التبرّي عنها ، وقلع من قلبه منابتها الجلية القوية ، ولكن بقيت في زوايا قلبه خفايا من مكائد الشيطان وخبايا وتلبيسات النفس ما دق وغمض مدركه فلا يتفطن بها .

وجميع هؤلاء غافلون مغرورون ، اذا كان اعتقادهم انهم على خير وسعادة ، وإن كان بينهم تفاوت من حيث الضعف والشدة ، إذ سعادة النفس وخلاصها عن العذاب لاتحصل إلا بمعرفة الله - تعالى - ومعرفة صفاته وافعاله واحوال النشأة الآخرة ، والعلم برذائل الاخلاق وشرائفها ، ثم تهذيب الباطن بفضائل الأخلاق وعمارة الظاهر بصوالح الطاعات والاعمال ، فكل من يعلم بعض العلوم وترك ماهو المهم من العلم - أعني معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات النفس التي هي الصفات المذمومة المانعة عن الوصول إلى الله - وظن انه على خير كان مغروراً ، واذا مات ملوثاً بتلك الصفات كان محجوبا على الله . فمن ترك العلم المهم واشتغل بغيره ، فهو كمن له مرض خاص مهلك فاحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله ، فاشتغل بتعلم مرض آخر يضاد مرضه في المعالجة . كما ان من احكم العلوم بأسرها وترك العمل ، مثل المريض الذي تعلم دواء مرضه وكتبه ، وهو يقرأه ويعلمه المرضى ولا يستعمله قط لنفسه ، فانه لاريب في ان مجرد تعلم الدواء لا يشفيه ، بل لو كتبت منه الف نسخة وعلمه الف مريض حتى شفي جميعهم وكرره كل ليلة الف مرة لم ينفعه ذلك من مرضه شيئاً ، حتى يشتري هذا الدواء ويشربه كما تعلم في وقته ، ومع شربه واستعماله يكون على خطر من شفائه ، فكيف اذا لم يشربه اصلا ،

ولو ظن أن مجرد تعلم الدواء يكفيه ويشفيه فهو مغرور ، فكذلك من احكم علم الطاعات ولم يعملها ، واحكم علم المعاصي ولم يجتنبها ، واحكم علم الأخلاق ولم يزك نفسه عن رذائلها ولم يتصف بفضائلها، فهو في غاية الغرور. إذ قال الله تعالى :

« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها »(١)

ولم يقل : قد أفلح من علم طريق تزكيتها .

ثم من هذه الطائفة فرقة متصفة برذائل الأخلاق والغرور ، أدى بهم الى حيث ظنوا أنهم منفكون عنها ، وأنهم ارفع عند الله من أن يبتليهم بها ، وإنما يبتلى بها العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم . ثم اذا ظهرت عليه مخايل الكبر والرئاسة وطلب العلو والشرف قال : ما هذا تكبراً ، وإنما هو طلب اعزاز الدين ، واظهار شرف العلم ، وارغام انف المخالفين . ومهما ظهرت منه آثار الحسد ، وأطلق لسانه بالغيبة في أقرانه ومن رد عليه شيئاً من كلامه ، لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ، بل يقول : إن هذا غضب للحق ورد على المبطل في عداوته وظلمه ، مع أنه لو طعن في غيره من أهل العلم ، ورد عليه قوله ، ومنع من منصبه ، لم يكن غضبه مثل غضبه الآن ، بل ربما يفرح به ، ولو كان غضبه للحق لا للحسد على اقرانه وخبث باطنه ، لاستوى غضبه فى الحالين . واذا خطر له خاطر الرياء قال : غرضي من اظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بي ، ليهتدوا إلى دين الله ويتخلصوا من عقاب الله . ولا يتأمل المغرور انه ليس يفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتدائهم به ، ولو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان ، وربما يتذكر هذا ومع ذلك لايخليه الشيطان ، بل يقول : إنما ذلك لأنهم اذا اهتدوا بي كان الأجر والثواب لي،

(١) الشمس ، الآية : ٩ .

ففرحي إنما هو بثواب الله لا بقبول الخلق ، هذا ما يظن بنفسه ، والله مطلع على سريرته ، إذ ربما كان باطنه في الخباثة بحيث لو علم قطعاً بأن ثوابه في الخمول واخفاء العلم والعمل أكثر من ثوابه في الاظهار ، لاحتال مع ذلك في اظهار رئاسة ، من تدريس أو وعظ أو امامة أو غير ذلك . واذا كان بحيث يدخل على السلاطين والامراء الظلمة ويثني عليهم ويتواضع لهم ، وخطر له أن مدحهم والتواضع لهم حرام ، قال له الشيطان : ان ذلك عند الطمع في مالهم ، وغرضك من الدخول عليهم دفع الضرر عن المسلمين دون الطمع ، والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض اقرانه قبول عند ذلك السلطان، وكان بحيث يقبل شفاعته في كل احد ، وهو لا يزال يستشفع ويدفع الضرر عن المسلمين ، يثقل ذلك عليه ، بحيث لو قدر أن يقبح حاله عند السلطان لفعل . وربما انتهى الغرور في بعضهم الى أن يأخذ من أموالهم المحرمة ، واذا خطر له أنها حرام ، قال له الشيطان : هذا مال مجهول المالك يجب أن يتصدق به إمام المسلمين ، وأنت إمامهم وعالمهم ، وبك قوام دين الله ، فيحل لك أن تأخذ منها قدر حاجتك وتصرف الباقي على مصالح المسلمين ، فيغتر بهذا التلبيس ولا يزال يأخذها من غير أن يبذل شيئاً منها في مصرف غيره . وربما انتهى الغرور في بعضهم الى حيث انه اذا حضرت مائدتهم واكل طعامهم وقيل له: ان هذا لايليق بمثلك ، قال : الأكل جائز بل واجب ، اذ هذا مال لا يعلم مالكه ، فيجب التصدق به على الفقراء ، ويجب على مثلي بقدر القوة والاستطاعة أن يجتهد في استخلاصه من يد الظالم وايصاله الى اهله - أعني الفقراء - واكلي منها نوع قدرة على استخلاصه ، فآكل منه واتصدق بقيمته على الفقراء ، والله يعلم من باطنه أنه لا يتصدق بقيمته ولا يعتقد بحقيقة مايقوله، وانما هو تلبيس ألقاه الشيطان في روعه، لئلا يضعف اعتقاد العامة في

حقه ، وربما كان بحيث لا يبالي من اخذ مالهم واكل طعامهم خفية ، ولو علم انه يطلع عليه واحد من صويلح العامة المعتقدين به ، امتنع منه غاية الامتناع. وربما كان بعضهم في الباطن مائلا الى الدخول على السلاطين والامراء وتاركاله في الظاهر، وكان الباعث في ذلك طلب المنزلة في قلوب العامة. ومع ذلك يظن أن الاجتناب عنهم عين ورعة وتقواه . وربما كان بعضهم إمام قوم يظن أنه على خير وباعث لترويج الدين واعلاء الكلمة ومقيم بشعار الاسلام، ومع ذلك لو أم غيره ممن هو اعلم واورع منه في مسجده ، أو يتخلف بعض من يقتدي به عن الاقتداء به ، قامت عليه القيامة ، وربما لم يكن باعثه على الحركة الى المسجد للامامة مجرد التقرب والامتثال لأمر الله ، بل كان الباعث محض حب الجاه والرياسة واعتقاد العامة ، أو مركباً منه ومن نية الثواب وربما اتخذ بعضهم الامامة شغلا ووسيلة لأمر المعاش ، ومع ذلك يظن انه مشتغل بامر الخير ، والظاهر في امثال زماننا ندور الامام الذي كان قصده من الامامة مجرد التقرب الى الله ، من دون وجود شيء من حب طلب المنزلة في القلوب ، أو تحصيل المال ، أو دفع بعض الشرور عن نفسه في زوايا قلبه، ولو وجد مثله فهو القدوة الذي يجب ان تشد الرحال من المواضع البعيدة اليه ليقتدى به، ومثله كلما وجد في نفسه قصد التقرب والثواب في الذهاب الى المسجد للامامة ذهب، ولو لم يجد ذلك من نفسه تخلف، وصلى منفرداً، وهو الذي يستوي عنده اقتداء الناس به وعدمه ، ويستوي عنده كثرة المقتدين وقلتهم ، بل يكون حاله عند صلاته وهو إمام لجم غفير كحاله عند صلاته منفرداً ، من دون أن يجد في نفسه تفاوتاً في الحالين .

وبالجملة : اصناف غرور أهل العلم ـ (لا) سيما في هذه الاعصار ـ كثيرة، والمتأمل يعلم أن الغرور أو التلبيس أو غيرهما من ذمائم الأفعال انتهى في

بعضهم الى أن وجودهم مضر بالاسلام والمسلمين وموتهم انفع للأيمان والمؤمنين ، لأنهم دجالو الدين وقوامو مذهب الشياطين ، ومثلهم كما قال ابن مريم ـ عليه السلام ـ : « العالم السوء كصخرة وقعت في فم الوادي ، فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يتخلص الى الزرع » .

الطائفة الرابعة

(الوعاظ)

والمغترون منهم كثيرون :

(فمنهم) من يتكلم في وعظه في اخلاق النفس وصفات القلب ، من الخوف ، والرجاء ، والتوكل ، والرضا ، والصبر ، والشكر ، ونظائرها ، ويظن انه اذا تكلم بهذه الصفات ودعا الخلق اليها صار موصوفاً بها ، وهو منفك عنها في الواقع ، إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين ، ويزعم ان غرضه اصلاح الخلق دون أمر آخر ، ومع ذلك لو أقبل الخلق على احد من اقرانه وصلحوا على يديه ، وكان اقوى منه في الارشاد والاصلاح ، لمات غماً وحسداً ، ولو اثنى احد المترددين عليه على بعض اقرانه ، لصار ابغض خلق الله اليه .

و (منهم) من اشتغل بالشطح والطامات ، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل ، وربما كلف نفسه بالفصاحة والبلاغة ، وتصنع التشبيهات والمقدمات ، وشغف بطيارات النكت وتسجيع الالفاظ وتلفيقها ، طلباً للاعوان والانصار ، وشوقاً الى تكثر البكاء والرقة والتواجد والرغبات في مجلسه ، والتذاذاً بتحريك الرؤوس على كلامه والبكاء عليه ، وفرحاً بكثرة الاصحاب والمستفيدين والمعتقدين به ، وسروراً بالتخصيص بهذه الخاصة

من بين سائر الاقران ، وربما لم يبال بالكذب في نقل الأخبار والآثار ، ظناً منه أنه أوقع في النفوس وأشد تأثيراً في رقة العوام وتواجدهم . ولا ريب في أن هؤلاء شر الناس ، بل شياطين الانس ، ضلوا واضلوا عن سواء السبيل، إذ الأولون إن لم يصلحوا أنفسهم،فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم ، وأما هؤلاء فانهم يصدون عن سبيل الله ، ويجرون الخلق الى الغرور بالله ، لان سعيهم في ذكر ما يسر به العامة، ليصلوا به منهم الى اغراضهم الفاسدة ، فلا يزالون يذكرون ما يقوي الرجاء ، ويزيدهم جرأة على المعاصي ورغبة في الدنيا ، (لا) سيما اذا كان هذا الواعظ أيضا ممن يرغب الى الدنيا،ويسر بوصول المال اليه، ويتزين بالثياب الفاخرة والمراكب الفارهة ، وغيرهما من زينة الدنيا . فمثله من يضل ويكون افساده اكثر من اصلاحه ، ومع ذلك يظن انه مروج الشرع والدين ومرشد الضالين ، فهو اشد المغرورين والغافلين .

و (منهم) من هذب اخلاقه ، وراقب قلبه ، وصفاه عن جميع الكدورات ، وصغرت الدنيا في عينه ، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت اليهم، ودعته الرحمة والشفقة على عباد الله الى نصحهم واستخلاصهم عن امراض المعاصي بالوعظ، فلما استقل به وجد الشيطان مجال الفتنة فدعاه الى الرئاسة دعاء خفياً - اخفى من دبيب النملة - لا يشعر به، ولم يزل ذلك في قلبه يربو وينمو حتى دعاه الى التصنع والتزين للخلق! بتحسين الالفاظ والنغمات والحركات والتصنع في الزي والهيئة والشمائل ، واقبل الناس اليه يعظمونه ويوقرونه توقيراً يزيد على توقير الملوك ، اذ رأوه شافياً لامراضهم بمحض الرحمة والشفقة من غير طمع ، فآثروه بأبدانهم وأموالهم ، وصاروا له كالخدم والعبيد ، فعند ذلك انتشر طبعه وارتاحت نفسه ، وذاق لذة يا لها من لذة ،

وأصاب من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة ، فوقع في أعظم لذات الدنيا بعد قطعه بأنه تارك للدنيا ، فقد غره الشيطان على ما لا يشعر به . وعلامة ثوران حب الرئاسة في باطنه : أنه لو ظهر من اقرانه من مالت القلوب الى قبوله ، وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه ، شق ذلك عليه ، إذ لو لا أن النفس قد استبشرت واستلذت بالرئاسة لكان يغتنم ذلك .

وعلى هذا فينبغي ألا يشتغل أحد بالنصح والوعظ إلا اذا وجد من نفسه أنه ليس له قصد سوى هدايتهم الى الله ـ تعالى ـ ، وكان يسره غاية السرور ظهور من يعينه على ارشادهم أو اهتدائهم من عند انفسهم ، وانقطع طمعه بالكلية عن ثنائهم وأموالهم ، واستوى عنده حمدهم وذمهم ، ولم يبال بذمهم اذا كان الله يمدحه ، ولم يفرح بمدحهم اذا لم يقترن به مدح الله ، ونظر اليهم كما ينظر الى من هو أعلم منه وأورع ، حيث لا ينكر عليه ويراه خيراً من نفسه ، لدلالة الظاهر على ذلك وجهله بالخاتمة ، والى البهائم من حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم ، فانه لا يبالي كيف يراه البهائم ، فلا يتزين لها ، إذ راعى الماشية إنما غرضه رعايتها ودفع الذئب عنها ، دون نظر الماشية اليه بعين المدح والثناء .

ثم لو ترقى الواعظ ، وعلم بهذه المكيدة من الشيطان، واشتغل بنفسه وترك النصح ، أو نصح مع رعاية شرط الصدق والاخلاص ، لخيف عليه الاعجاب بنفسه في فراره عن الغرور ، فيكون اعجابه بنفسه في الفرار عن الغرور غاية الغرور ، وهو المهلك الأعظم من كل ذنب، ولذلك قال الشيطان: « يا ابن آدم ! اذا ظننت أنك بعملك تخلصت مني فبجهلك قد وقعت في حبائلي ». ثم لو دفع عن نفسه العجب، وعلم أن ذلك من الله ـ تعالى ـ لا منه، وأن مثله لا يقوى على دفع الشيطان عنه إلا بتوفيق الله ، وانه ضعيف عاجز

لا يقدر على شيء أصلا ، فضلا عن دفع الشيطان ، لخيف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والامن من مكره ، حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل . ولا ريب أن الآمن من مكر الله خاسر مغرور ، فسبيل النجاة بعد تهذيب النفس وخلوص القصد والانقطاع عن الدنيا ولذاتها ، ان يرى ذلك كله من فضل الله ، وكان خائفاً على نفسه من سلب حاله في كل لحظة ، وغير آمن من مكر الله ، وغير غافل عن خطر الخاتمة . وهذا خطر لا محيص عنه وخوف لا نجاة منه ، إلا بمجاوزة الصراط والدخول في الجنة ، ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء في وقت النزع ـ وكان قد بقي له نفس ـ قال : (أفلت مني يا فلان !؟) ، فقال : (لا ا بعد) .

وصل

(أهل العبادة والعمل)

والمغرورون منهم فرق كثيرة :

(فمنهم) من غلبت عليه الوسوسة في إزالة النجاسة وفي الوضوء ، فيبالغ فيه ولا يرتضى الماء المحكوم بالطهارة في فتوى الشرع ، ويقدر الاحتمالات البعيدة الموجبة للنجاسة ، واذا آل الأمر الى الاكل وأخذ المال قدر الاحتمالات الموجبة للحل ، بل ربما اكل الحرام المحض وقدر له محملا بعيدا لحله ، ولو انقلب هذا الاحتمال من الماء الى الطعام لكان أشبه بسيرة أكابر الأولياء. ثم من هؤلاء من يخرج الى الاسراف في صبه الماء وربما بالغ عند الوضوء في التخليل وضرب احدى يديه على وجهه أو يده الأخرى ، ولا يدري هذا المغرور أن هذا العمل ان كان مع اليقين بحصول ما يلزم شرعاً فهو تضييع للعمر الذي هو اعز الاشياء فيما له مندوحة عنه ، وان كان بدونه بل يحتاط في التخليل ليحصل الجزم بوصول الماء الى البشرة ، فما باله يتيقن

بوصول الماء الى البشرة في الغسل بدون هذه المبالغة والاحتياط مع أن حصول القطع بايصال الماء إلى البشرة في الغسل ألزم وأوجب . ثم ربما لم يكن له مبالغة واحتياط في الصلاة وسائر العبادات ، وانحصر احتياطه ومبالغته بالوضوء ، زاعماً أن هذا يكفي لنجاته ، فهو مغرور في غاية الغرور.

و (منهم) من اغتر بالصلاة فغلبت عليه الوسوسة في نيتها ، فلا يدعه الشيطان حتى يعتقد نية صحيحة ، بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة أو فضيلة الوقت ، وقد يوسوس في التكبير حتى يغير صيغتها لشدة الاحتياط فيه ، يفعل ذلك في أول صلاته ثم يغفل في جميع صلاته ، ولا يحضر قلبه ، ويغتر بذلك ، ويظن أنه اذا أتعب نفسه في تصحيح النية فهو على خير . وربما غلبت على بعضهم الوسوسة في دقائق القراءة ، واخرج حروف الفاتحة وسائر الاذكار عن مخارجها ، فلا يزال يحتاط في التشديدات وتصحيح المخارج والتمييز بين مخارج الحروف المتقاربة ، من غير اهتمام فيما عدا ذلك ، من حضور القلب والتفكير في معاني الاذكار ، ظناً منه أنه اذا صحت القراءة فالصلاة مقبولة ، وهذا اقبح انواع الغرور .

و (منهم) من اغتر بالصوم ، وربما صام الأيام الشريفة ، بل صام الدهر ، ولم يحفظ لسانه عن الغيبة ، ولا بطنه عن الحرام عند الافطار ، ثم يظن بنفسه الخير ، وذلك في غاية الغرور .

و (منهم) من اغتر بالحج ، فيخرج الى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون وطلب الزاد الحلال ، ويضيع في الطريق الصلاة ، ويعجز عن طهارة الثوب والبدن ، ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الاخلاق وذمائم الصفات ، ومع ذلك يظن انه على خير ، فهو في غاية الغرور.

و (منهم) من اغتر بقراءة القرآن ، فيهذ هذاً ، وربما يختم في اليوم

والليلة مرة ، فيجري به لسانه ، وقلبه مردد في اودية الأماني ، وربما اسرع في القراءة غاية السرعة ، ويظن ان سرعة اللسان من الكمالات ، ويتفاخر على الأمثال والأقران .

و (منهم) من اغتر ببعض النوافل ، كصلاة الليل ، أو بمجرد غسل الجمعة ، أو امثال ذلك ، من غير اعتداد بالفرائض ، زاعماً أن المواظبة على مجرد هذه النافلة ينجيه في الآخرة ، فهو أيضاً من المغرورين .

و (منهم) من تزهد وقنع بالدون من المطعم والملبس والمسكن ، ظاناً أنه ادرك رتبة الزهاد ، ومع ذلك راغب في الرئاسة باشتهاره بالزهد ، فهو ترك أهون المهلكين باعظمها ، إذ حب الجاه اشد فسادا من حب المال ، ولو ترك الجاه وأخذ المال لكان اقرب الى السلامة ، فهو مغرور ، إذ ظن أنه من الزهاد ، ولم يعرف أن منتهى لذات الدنيا الرئاسة ، وهو يحبها ، فكيف يكون زاهداً ؟

الطائفة السادسة

(المتصوفة)

والمغترون فيهم اكثر من ان يحصى :

(فمنهم) ارباب الاوقات ، وهم القلندرية الذين لايعرفون معنى التصوف ولا شيئاً من مراسيم الدين ، وصرفوا اوقاتهم في التكدى والسؤال من الناس ، ويظنون أنهم تاركون للدنيا مقبلون على الآخرة ، مع انهم لو ظفروا بشيء من امور الدنيا لأخذوه بجميع جوارحهم ، فهؤلاء ارذل الناس بوجوه كثيرة لا تخفى .

و (منهم) من اغتر بالزي ، والمنطق ، ولبس الصوف ، واطراق الرأس وادخاله في الجيب ، وخفض الصوت ، وتنفس الصعداء ، وتحريك البدن

في الطول والعرض ، والسقوط إلى الأرض ، (لا) سيما اذا سمعوا كلاماً في الوحدة والعشق ، مع عدم اطلاعهم على حقيقة شيء منهما . وربما تجاوز بعضهم من ذلك الى الرقص والتصفيق ، وابداء الشهيق والنهيق ، واختراع الاذكار ، والتغني بالاشعار ... وغير ذلك من الحركات القبيحة والهيئات الشنيعة ، ويظن أن العبد بهذه الحركات والأفعال يصل الى الدرجات العالية ، ولم يعلم المغرور أنها تقرب العبد الى سخط الله وعذابه .

و (منهم) من وقع في الاباحة ، وطوى بساط الشرع والاحكام ، وترك الفصل بين الحلال والحرام ، يتكالب على الحرام والشبهات ، ولا يحترز عن أموال الظلمة والسلاطين . وربما قال : المال مال الله والخلق عيال الله ، فهم فيه سواء . وربما قال : ان الله مستغن عن عملي ، فأى حاجة الى أن أتعب نفسي فيه ؟ وربما قال : لا وزن لأعمال الجوارح ، وإنما النظر الى القلوب ، وقلوبنا والهة الى حب الله واصلة الى معرفة الله . وربما خاضوا في الشهوات الدنيوية ، وقالوا : إنها لا تصدنا عن طريق الله ، لقوة نفوسنا وقوة اقدامنا فيها ، وإنما يحتاج العوام الى تهذيب النفس بالأعمال البدنية ، ونحن مستغنون عنه . فهؤلاء يرفعون درجتهم عن درجة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ إذ كانوا يصرحون بأن ارتكاب الامور المباحة فضلاً عن الخطايا والمعاصي يصدهم عن طريق الله ، حتى يبكون سنين متوالية على ترك الراجح وفعل المرجوح ، فهم أشد الناس غروراً ، وأعظم الخلق حماقة وجهلا .

و (منهم) من يدعي غاية المعرفة واليقين ، والوصول الى درجات المقربين ، ومشاهدة المعبود ، ومجاورة المقام المحمود ، والملازمة في عين الشهود ، وتلقف من الطامات كلمات يرددها ، ويظن أنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن السماء . وينظر الى العباد والفقهاء والمحدثين وسائر اصناف العلماء

بعين الحقارة والازدراء، يقول في العباد : إنهم أجراء مبعوثون ، وفي العلماء: انهم بالحديث عن الله لمحجوبون ، ويدعي لنفسه من الكرامات ما لا يدعيه نبي ولا ولي ، ويدعي كونه واصلا الى الحق فارغاً عن أعباء التكليف ، لا علماً أحكم ولا عملا هذب ، لم يعرف من المعارف إلا أسماء يتفوه بها عند الاغنياء للوصول الى بعض حطامهم الخبيثة ، فهو عند الله من الفجار المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين ، مع ظنه أنه من المقربين ، فهو أشد الغافلين المغرورين .

و (منهم) ملامية يرتكبون قبائح الاعمال وشنائع الافعال الموجبة للبعد عن طريق المروة ، ظناً منهم أن هذا موجب لكسر النفس وازالة ذمائم الاخلاق ، ولم يعلموا ان هذه الافعال من الذمائم ، وقد نهى صاحب الشرع عنه .

و (منهم) من اشتغل بالرياضة والمجاهدة ، وقطع بعض المنازل ، ووصل الى بعض المقامات على قدر سعيه ومجاهدته ، إلا أنه لم يتم سلوكه وانقطع عن سائر المقامات ، اما لاعتراض مفسد في اثناء السلوك ، أو لوقوعه في الاثناء ظناً منه انه وصل الى الله ولم يصل بعد ، فان لله سبعين حجاباً من نور ، ولا يصل السالك الى حجاب من تلك الحجب في الطريق الا ويظن انه قد وصل ، واليه الاشارة في حكاية الخليل ، حيث رأى أولا كوكباً فقال : « هذا ربي » ، ثم انتقل الى القمر ، ثم عنه الى الشمس ، فانه ليس المراد بالكوكب والقمر والشمس هذه الاجسام المضيئة ، فان شأن مثل الخليل أعظم من أن يظن كونها آلهة ، بل هذا ينافي شأنه ورتبته ، فالمراد بها الانوار التي هي من حجب الله ، ويراها السالك في الطريق ، ولا يتصور الوصول الى الله الا بالوصول الى هذه الحجب ، وهي حجب من النور بعضها أعظم من

بعض ، فاستعير لفظ الكواكب لصغره لاقل مراتبها ، والقمر لاوسطها ، والشمس لاعظم مراتبها ، والخليل (ع) لم يزل عند سيره في الملكوت يصل الى نور بعد نور ، ويتخيل اليه في أول ما يلقاه أنه قد وصل ، ثم انكشف له أن وراءه امر ، فيترقى اليه حتى وصل الى الحجاب الاقرب ، فقال: هذا اكبر ، فلما ظهر أنه مع عظمته غير خال عن الهوى في حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال ، قال :

« لاَ أُحِبُّ ٱلآفِلِينَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي ... »(١).

فسالك هذا الطريق قد يغتر في الوقوف على بعض هذه الحجب ، وربما يغتر بالحجاب الاول ، وأول الحجاب بين الله وبين العبد هو قلبه ، فانه ـ أيضاً ـ أمر رباني ونور من أنوار الله ، تتجلى فيه حقيقة الحق كله ، حتى يتسع لجملة العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل ، وعند ذلك يشرق نوره اشراقاً عظيماً ، اذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه ، وهو في أول الامر كان محجوبا ، فاذا تجلى نوره وانكشف فيه جماله بعد اشراق نور الله تعالى ربما التفت صاحب القلب الى القلب ، فيرى من جماله الفائق ما يدهشه ، فربما يسبق لسانه في هذه الدهشة ، فيقول : انا الحق ! فان لم يتضح له ما وراء ذلك ، اغتر به ، ووقف عليه وهلك ، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الآلهية ، ولم يصل بعد الى القمر ، فضلا عن الشمس ، فهو مغرور . وهذا محل الالتباس ، اذ المتجلي يلتبس بالمتجلى فيه ، كما يلتبس لون ما يتراءى في المرآة فيظن أنه لون المرآة ، وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج فيظن أنه لون الزجاج ، كما قيل :

رق الزجاج ورقت الخمر   فتشابها وتشاكل الامر

(١) الانعام ، الآية : ٧٦ و ٧٩ .

فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصارى الى المسيح ، فرأوا اشراق نور الله قد تلألأ فيه ، فغلطوا فيه ، كمن يرى كوكباً في مرآة أو في ماء ، فيظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء ، فيمد اليد اليه ، فهو مغرور . وأنواع الغرور في طريق السلوك الى الله كثيرة لا تخفى على أرباب البصيرة .

ثم أكثر المتلبسين بلباس العارفين ـ مع كذبهم فيما يدعونه ، ونقصانهم في طريق السلوك ، وجهلهم بحقيقة الأمر ، وعدم قطعهم جل المقامات ـ يتشبهون بالصادقين من العرفاء في زيهم وهيئتهم وآدابهم ومراسمهم والفاظهم، ظانين أنهم بهذا التشبه يصلون الى مراتبهم ، فهيهات هيهات ! إن الوصول الى درجة كل أحد إنما تحصل بالاتصاف بأوصافه الباطنة والتخلق باخلاقه النفيسة ، دون التشبه به في حالاته الظاهرة ، وقد شبههم بعض الأكابر بامرأة عجوز سمعت أن الشجعان من المقاتلين تثبت أسماؤهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من اقطار المملكة، فتاقت نفسها الى أن تكون مثلهم، فلبست درعاً ، ووضعت على رأسها مغفراً ، وتعلمت من رجز الأبطال أبياتاً ، وتعلمت كيفية جولانهم فى الميدان ، وتلقفت جميع شمائلهم فى الزي والمنطق والحركات والسكنات، وتوجهت الى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان، فلما وصلت اليه ، أنفذت الى ديوان العرض ، وأمرت بأن تجرد عن المغفر والدرع ، وينظر الى حقيقتها ، وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر شجاعتها ، فلما جردت فاذا هي عجوز ذات منة ضعيفة لا تقدر على شيء ، فقيل لها : اجئت للاستهزاء بالملك واهل حضرته ؟ خذوها والقوها قدام الفيل ، فداسها وتحتها . فهكذا يكون حال المدعين للتصوف والعرفان في القيامة ، اذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا الى القاضي الحق الذي لا ينظر الى الزي واللباس بل الى سر القلب وصفاته .

الطائفة السابعة

(الأغنياء وارباب الأموال)

والمغترون فيهم اكثر من سائر الطوائف :

(فمنهم) من يحرص على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وسائر ما يظهر للناس بالأموال المحرمـــة ، وربما غصب أرض المساجد والمدارس ، وربما صير لها موقوفات اخذها من غير حلها ، ولا باعث له على ذلك سوى الرياء والشهوة ، ولذا يسعى في كتابة اسمه على احجارها ليتخلد ذكره ويبقى بعد الموت أثره ، ويظن المسكين أنه قد استحق المغفرة بذلك ، وأنه مخلص فيه ، ولم يدر أنه تعرض لسخط الله في كسب هذه الأموال وفي انفاقها ، وكان الواجب عليه الامتناع عن اخذها من اهله ، واذا عصى الله واخذها ، كان الواجب عليه التوبة وردها الى اهلها ، فان لم يبق من اخذها منه ولا ورثته ، كان الواجب ان يتصدق بها على المساكين ، مع انه ربما كان في بلده أو في جواره مسكين يكون في غاية الفقر والمسكنة ولا يعطيه درهما .

و (منهم) من ينفق الأموال في الصدقات ، الا أنه يطلب الفقراء الذين عادتهم الشكر والافشاء للمعروف ، ويكره التصدق في السر ، بل يطلب المحافل الجامعة ويتصدق فيها ، وربما يكره التصدق على فقراء بلده ويرغب ان يعطى اهل البلاد الأخر مع اكثرية استحقاق فقراء بلده ، طلباً لاشتهاره بالبذل والعطاء في البلاد الخارجة البعيدة ، وربما يصرف كثيراً منه الى رجل معروف في البلاد وان لم يكن مستحقاً ، ليشتهر ذلك في البلاد ، ولا يعطي قليلا منه الى فقير له غاية الاستحقاق اذا كان خامل الذكر ، يفعل هذا ويظن انه يجلب بذلك الأجر والثواب ، ولم يدر المغرور أن هذا القصد

احبط عمله واضاع ثوابه .

و (منهم) من يجمع مالا من غير حله ، ولا يبالي باخذ المال من أي طريق كان ، ثم يمسكه غاية الامساك ، إلا انه لا يبالي بصرف بعضه في طريق الحج ، إما لنفسه فقط ، أو لأولاده وازواجه ايضاً ، اما للاشتهار ، او لما وصل اليه : ان تارك الحج يبتلى بالفقر .

و (منهم) من غلب عليه البخل ، فلا تسمح نفسه بانفاق شيء من ماله فيشتغل بالعبادة البدنية من الصوم والصلاة ، ظناً منه ان ذلك يكفي لنجاته ، ولم يدر ان البخل صفة مهلكة لا بد من ازالتها ، وعلاجه : بذل المال دون العبادات البدنية . ومثله مثل من دخلت في ثوبه حية ، وقد اشرف على الهلاك ، وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن الصفراء ، وغافل بأن الحية تقتله الآن ، ومن قتلته الحية فأى حاجة له الى السكنجبين ؟

وصل

(ضد الغرور الفطانة والعلم والزهد)

قد عرفت ان الغرور مركب من الجهل وحب مقتضيات الشهوة والغضب ، فضده الفطانة والعلم والزهد ، فمن كان فطناً كيساً عارفاً بربه ونفسه وبالآخرة والدنيا ، وعالماً بكيفية سلوك الطريق الى الله وبما يقربه اليه وبما يبعده عنه ، وعالماً بآفات الطريق وعقباته وغوائله ، ولا جتنب عن الغرور ولم يغره الشيطان في شيء من الامور ، إذ من عرف نفسه بالذل والعبودية وبكونه غريباً في هذا العالم اجنبياً من هذه الشهوات البهيمية ، عرف كون هذه الشهوات مضرة له وان الموافق له طبعاً هو معرفة الله والنظر الى وجهه فلا يسكن نفسه الى شهوات الدنيا ، ومن عرف ربه وعرف الدنيا والآخرة ولذاتهما وعدم النسبة بينهما ثار في قلبه حب الله والرغبة الى دار الآخرة

والانزجار عن الدنيا ولذاتها ، واذا غلبت هذه الارادة على قلبه صحت نيته في الامور كلها ، فان أكل - مثلا - او اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة ، واندفع عنه كل غرور منشأه تجاذب الأغراض والنزوع الى الدنيا والى الجاه والمال ، وما دامت الدنيا أحب اليه من الآخرة وهوى نفسه احب اليه من رضاء الله ، لم يمكنه الخلاص من الغرور . فالاصل في علاج الغرور : ان يفرغ القلب من حب الدنيا ، ويغلب عليه حب الله ، حتى تتقوى به الارادة وتصح به النية ويندفع عنه الغرور . قال الصادق (ع) : « واعلم انك لن تخرج من ظلمات الغرور والتمني الا بصدق الانابة الى الله ، والاخبات له ، ومعرفة عيوب أحوالك من حيث لا يوافق العقل والعلم ، ولا يحتمله الدين والشريعة وسنن القدوة وأئمة الهدى ، وان كنت راضياً بما أنت فيه فما أحد اشقى بعملك منك واضيع عمراً ، فاورثت حسرة يوم القيامة » (١) .

ومنها :

طول الامل

معنى طول الأمل ومرجعه - علاجه - ضده قصر الأمل - اختلاف الناس في طول الأمل - ذكر الموت مقصر للامل - التعجب ممن ينسى الموت - الموت اعظم الدواهي - مراتب الناس في ذكر الموت .

ooo

وهو أن يقدر ويعتقد بقاءه الى مدة متمادية ، مع رغبته في جميع توابع البقاء : من المال والأهل والدار وغير ذلك ، وهو من رذائل قوتي العاقلة والشهوة ، إذ الاعتقاد المذكور راجع الى الجهل المتعلق بالعاقلة ، وحبه

(١) صححناه على مصباح الشريعة - الباب ٣٦ .

لجميع توابع البقاء وميله اليه من شعب حب الدنيا . وجهله راجع الى تعويله : إما على شبابه ، فيستبعد قرب الموت مع الشباب، ولايتفكر المسكين في ان مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر عشير أهل البلد ، وانما قلوا لأن الموت في الشباب اكثر ، والى أن يموت شيخ يموت الف صبي وشاب ، او على صحته وقوته ، ويستبعد مجيء الموت فجأة ، ولا يتأمل في أن ذلك غير بعيد ، ولو سلم بعده فالمرض فجأة غير بعيد ، إذ كل مرض انما يقع فجأة، واذا مرض لم يكن الموت بعيداً . ولو تفكر هذا الغافل ، وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص ، من شباب وشيب وكهولة ، ومن شتاء وخريف وصيف وربيع ، وليل ونهار ، وحضر وسفر ، لكان دائماً مستشعراً غير غافل عنه ، وعظم اشتغاله بالاستعداد له . لكن الجهل بهذه الامور وحب الدنيا بعثاه على الغفلة وطول الأمل ، فهو ابداً يظن أن الموت بين يديه ، ولا يقدر نزوله ووقوعه فيه ، ويشيع الجنائز ولا يقدر ان تشيع جنازته ، لأن هذا قد تكرر عليه، والفه بتكرر مشاهدة موت غيره . وأما موت نفسه ، فلم يألفه ولا يتصور ان يألفه ، لأنه لم يقع ، واذا وقع لايقع دفعة أخرى بعده ، فهو الأول وهو الآخر !

واما حبه لتوابع البقاء : من المال والدار والمراكب والضياع والعقار، فراجع الى الانس بها والالتذاذ بها في مدة مديدة ، فيثقل على قلبه مفارقتها، فيمنع قلبه عن التفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها ، اذ كل من كره شيئاً يدفعه عن نفسه . والانسان لما كان مشغوفاً بالاماني الباطلة ، وبالدنيا وشهواتها ولذاتها وعلائقها ، فتتمنى نفسه أبداً ما يوافق مراده ، ومراده البقاء في الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقرره في نفسه ، ويقدر توابع البقاء من اسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه، فيلهو عن ذكر الموت ولا يقدر قربه ، فان خطر له في بعض الاحيان امر الموت والحاجة

الى الاستعداد له ، سوّف ووعد نفسه الى ان يكبر فيتوب ، واذا كبر اخر التوبة الى ان يصير شيخاً ، واذا صار شيخاً يؤخرها الى أن يفرغ من عمارة هذه الضيعة او يرجع من سفر كذا او يفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له ، ولا يزال يسوف ويؤخر الى ان يخطفه الموت في وقت لا يحتسبه ، فتعظم عند ذلك بليته وتطول حسرته ، وقد ورد ان اكثر اهل النار صياحهم من سوف ، يقولون واحزناه من سوف ! والمسوف المسكين لا يدري ان الذي يدعوه الى التسويف اليوم هو معه غداً ، وانما يزداد بطول المدة قوة ورسوخاً ، إذ الخائض في الدنيا لا يتصور له الفراغ منها قط ، اذ ما قضى من اخذ منها لبانته ، وانما فرغ منها من اطرحها .

فصـــل

(علاج طول الأمل)

لما عرفت ان طول الأمل منشأه الجهل وحب الدنيا ، فينبغي أن يدفع الجهل بالفكر الصافي من شوائب العمى وبسماع الوعظ من النفوس الطاهرة ، فان من تفكر يعلم ان الموت اقرب اليه من كل شيء ، وانه لا بد ان تحمل جنازته ويدفن في قبره ، ولعل اللبن الذي يغطى به لحده قد ضرب وفرغ منه ، ولعل اكفانه قد خرجت من عند القصار وهو لا يدري به . واما حب الدنيا فينبغي ان يدفع من القلب بالتأمل في حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة ، وما ورد في الأخبار من الذم والعقاب في حب الدنيا والرغبة اليها ، ومن المدح والثواب على تركها والزهد عنها ، وقد تقدم ما يكفي لهذا البيان. وينبغي ـ ايضاً ـ ان يتذكر ما ورد في مدح ضد طول الامل ـ اعني قصر الأمل كما يأتي ـ وما ورد في ذم طول الامل ، كقوله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « ان اشد ما اخاف عليكم خصلتان : اتباع الهوى ، وطول الامل . فأما اتباع

الهوى فانه يصد عن الحق ، واما طول الامل فانه الحب للدنيا ـ ثم قال ـ : ان الله يعطي الدنيا من يحب ويبغض واذا احب عبداً اعطاه الايمان ، الا ان للدين ابناء وللدنيا ابناء ، فكونوا من ابناء الدين ولا تكونوا من ابناء الدنيا . الا ان الدنيا قد ارتحلت مولية ، الا ان الآخرة قد اتت مقبلة ، الا وانكم في يوم عمل ليس فيه حساب ، الا وانكم يوشك أن تكونوا في يوم حساب ليس فيه عمل » (١) . وقوله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « نجا أول هذه الامة باليقين والزهد ، ويهلك آخر هذه الامة بالبخل والامل » . وقول أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : « ما أطال عبد الامل الا أساء الامل

وصل

(قصر الأمل)

ضد طول الأمل قصره ، وهو من شعار المؤمنين ودثار الموقنين ، ولذا ورد في الأمر به والنهي عن ضده ما ورد ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « إذا اصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح ، وخذ من دنياك لآخرتك ، ومن حياتك لموتك ، ومن صحتك لسقمك ، فانك لاتدرى ما اسمك غداً » . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ بعد ماسمع أن اسامة اشترى وليدة بمائة دينار الى شهر : « ان اسامة لطويل الأمل . والذي نفسي بيده ! ماطرفت عيناي الا ظننت أن شفري لا يلتقيان

(١) صححنا الحديث على احياء العلوم : ٣٨٤/٤ ، وهو يرويه عن علي (ع) عن النبي (ص) ، ولكن في كنز العمال : ١٦٩/٢ ، يرويه : انه من كلام علي (ع) نفسه ، مع اختلاف يسير عن عبارة الاحياء ، وعبارة الكنز أبلغ وأرصن ، وفيه كلمة (الآخرة) بدل (الدين) ، ونفس الكلام مع اختلاف يسير ايضاً (وهو أبلغ وأعلى من العبارتين) ، مروي في نهج البلاغة : رقم ٤١ من باب الخطب ، فراجع .

حتى يقبض الله روحي ، ولا رفعت طرفي فظننت أني واضعه حتى اقبض ، ولالقمت لقمة إلا ظننت اني لا اسيغها حتى اغص بها من الموت » ، ثم قال : « يا بني آدم ! إن كنتم تعقلون فعدوا انفسكم من الموتى ، والذي نفسي بيده ! أن ماتوعدون لآت وما أنتم بمعجزين ». وروى : « انه - صلى الله عليه وآله - قد اطلع ذات عشية الى الناس ، فقال : ايها الناس ! اما تستحيون من الله تعالى ؟ قالوا : وما ذاك يا رسول الله ! قال : تجمعون مالا تأكلون ، وتأملون مالا تدركون ، وتبنون مالا تسكنون » . « وقال - صلى الله عليه وآله - : اكلكم يحب ان يدخل الجنة ؟ قالوا : نعم يارسول الله ! قال : قصروا من الامل ، واجعلوا آجالكم بين ابصاركم ، واستحيوا من الله حق الحياء » . وكان - صلى الله عليه وآله - يقول في دعائه : « اللهم أني اعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة ، واعوذ بك من حياة تمنع خير الممات ، واعوذ بك من امل يمنع خير العمل » . وكان - صلى الله عليه وآله - يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة ، ويقول لعلي لا ابلغه . وقال عيسى - عليه السلام - : « لا تهتموا برزق غد ، فان لم يكن غداً من آجالكم فستأتي ارزاقكم مع آجالكم ، وان لم يكن غداً من آجالكم فلا تهتموا لأرزاق غيركم » .

فصل

(اختلاف الناس في طول الأمل)

الناس في طول الامل وقصره مختلفون : (فمنهم) من يأمل البقاء ويشتهيه أبداً ، كما قال الله - سبحانه - :

« يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ » (١)

(١) البقرة ، الآية : ٩٦ .

وهو الذي انغمر في الدنيا وخاض في لذاتها ، وليس له من الآخرة نصيب . (ومنهم) من يأمل البقاء الى اقصى مدة العمر الذي يتصور لأهل عصره ، وهو الذي يحب الدنيا حباً شديداً ، ويشتغل بجمع ما يمكنه في هذه المدة ، وربما يجتهد بجمع الازيد منه . (ومنهم) من يأمل اقل من ذلك الى ان ينتهي الى من لا يأمل ازيد من سنة ، فلا يشتغل بتدبير ما وراءها ، ولا يقدر لنفسه وجوده في عام قابل ، فان بلغه حمد الله على ذلك ، ومثله يستعد في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف ، واذا جمع ما يكفيه السنة اشتغل بالعبادة . (ومنهم) من يأمل أقل من السنة الى ان ينتهي الى من لا يأمل ازيد من يوم وليلة ، فلا يستعد الا لنهاره دون غده . (ومنهم) من يكون الموت نصب عينيه ، كأنه واقع به وهو ينتظره ، ومثله يصلي دائماً صلاة المودعين . وروى : « أن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ سأل بعض الصحابة عن حقيقة ايمانه ، قال : ما خطوت خطوة الا ظننت اني لا اتبعها اخرى » . وكان بعضهم اذا يصلي يلتفت يميناً وشمالا ، ولما قيل له : ما هذا الالتفات ؟ قال : « انتظر ملك الموت من اي جهة يأتيني » .

ثم اكثر الخلق ـ (لا) سيما في امثال زماننا ـ قد غلبهم طول الأمل ، بحيث لا يأمل اقل من اقصى مدة السن ، وقلّ فيهم من قصر امله ، والعجب انه كلما يزداد السن يزداد طول الامل ، وفي عصرنا اكثر المشايخ والمعمرين حرصهم وطول املهم اكثر من الشبان ، ومن هنا قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « يشيب ابن آدم وتشب فيه خصلتان : الحرص ، وطول الامل » . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : « حب الشيخ شاب في طلب الدنيا ، وان التفت ترقوتاه من الكبر ، إلا الذين اتقوا ، وقليل ماهم » .

ثم يعرف طول الامل وقصره بالاعمال : فمن اعتنى بجمع اسباب

لا يحتاج اليها في سنة فهو طويل الامل ، وكذلك من انتشرت اموره ، بأن يكون له مع الناس معاملات ومحاسبات الى مدة معينة ، كالسنة وازيد منها ، وكان عليه ديون من الناس كذلك ، ومع ذلك لم يكن مضطرباً ولا خائفاً فهو طويل الامل . فعلامة قصر الامل : أن يجمع امره بحيث لا يكون عليه من الناس شيء ، ولا يسعى لطلب قوت الزائد على اربعين يوماً ، ويصرف اوقاته في الطاعة والعبادة ، ويرى نفسه كمسافر يجتهد في تحصيل الزاد .

فصـــل

(ذكر الموت مقصر للامل)

ذكر الموت يقصر الأمل ويدفع طوله ، ويوجب التجافي عن دار الغرور والاستعداد لدار الخلود ، ولذا ورد في فضيلته والترغيب فيه اخبار كثيرة ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « اكثروا ذكر هادم اللذات » ، قيل : وما هو يا رسول الله ؟ ! قال : « الموت ، فما ذكره عبد على الحقيقة في منعة الا ضاقت عليه الدنيا ، ولا في شدة الا اتسعت عليه » . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : « تحفة المؤمن الموت » . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : « الموت كفارة لكل مسلم » . وقيل له ـ صلى الله عليه وآله ـ : هل يحشر مع الشهداء احد ؟ قال : « نعم ! من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة » . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : « اكثروا من ذكر الموت ، فانه يمحص الذنوب ، ويزهد في الدنيا » . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : « كفى بالموت واعظاً » . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : « الموت الموت ، الا ولا بد من الموت ، جاء الموت بما فيه ، جاء بالروح والراحة والكرة المباركة الى جنة عالية لأهل دار الخلود الذين كان لها سعيهم وفيها رغبتهم » . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ . « اذا استحقت ولاية الله والسعادة ، جاء الأجل بين العينين وذهب

الامل وراء الظهر ، واذا استحقت ولاية الشيطان والشقاوة ، جاء الامل بين العينين وذهب الأجل وراء الظهر» . وذكر عنده ـ صلى الله عليه وآله ـ رجل، فاحسنوا الثناء عليه. فقال ـ صلى الله عليه وآله ـ: «كيف ذكر صاحبكم للموت؟» قالوا : ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت، قال : «فان صاحبكم ليس هنالك». وسئل: أي المؤمنين أكيس واكرم ؟ فقال: «اكثرهم ذكراً للموت، واشدهم استعداداً له ، أولئك هم الاكياس ، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة » . وقال الباقر ـ عليه السلام ـ : «اكثروا ذكر الموت ، فانه لم يكثر ذكره انسان الا زهد في الدنيا » . وقال الصادق ـ عليه السلام ـ : «اذا انت حملت جنازة فكن كانك انت المحمول وكانك سألت ربك الرجوع الى الدنيا ففعل، فانظر ماذا تستأنف ». ثم قال ـ عليه السلام ـ : «عجباً لقوم حبس أولهم عن آخرهم، ثم نودي فيهم بالرحيل وهم يلعبون » . وقال ـ عليه السلام ـ لأبي بصير ـ بعد ماشكى اليه الوسواس ـ : « اذكر يا ابا محمد تقطع أوصالك في قبرك ، ورجوع احبائك عنك اذا دفنوك في حفرتك ، وخروج بنات الماء من منخريك ، واكل الدود لحمك ، فان ذلك يسلي عليك ما أنت فيه »، قال ابو بصير : فوالله ! ما ذكرته إلا سلى عني ما أنا فيه من هم الدنيا . وقال ـ عليه السلام ـ : « من كان كفنه معه في بيته لم يكتب من الغافلين ، وكان ماجوراً كلما نظر اليه » (١) . وقال ـ عليه السلام ـ : « ذكر الموت يميت الشهوات في النفس ، ويقلع منابت الغفلة ، ويقوي القلب بمواعد الله، ويرق الطبع ، ويكسر اعلام الهوى ، ويطفي نار الحرص ، ويحقر الدنيا ، وهو معنى ما قال النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ : (فكر ساعة خير من عبادة سنة)،

(١) صححنا اكثر الاحاديث على الوسائل ـ ج١ : الباب ٢٣ من ابواب الاستحضار في كتاب الطهارة ـ ، وعلى احياء العلوم : ٤ / ٢٨٣ .

وذلك عندما يحل أطناب خيام الدنيا ويشدها في الآخرة ، ولا ينكر نزول الرحمة عند ذكر الموت بهذه الصفة ، ومن لا يعتبر بالموت ، وقلة حيلته ، وكثرة عجزه ، وطول مقامه في القبر ، وتحيره في القيامة ؛ فلا خير فيه . وقال النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ : (اكثروا ذكر هادم اللذات ...) ، ثم ذكر تمام الحديث كما مر . . . ثم قال ـ عليه السلام ـ : والموت أول منزل من منازل الآخرة وآخر منزل من منازل الدنيا ، فطوبى لمن اكرم عند النزول بأولها ، وطوبى لمن حسن مشايعته في آخرها ، والموت أقرب الاشياء من بني آدم ، وهو يعده أبعد . فما أجرأ الانسان على نفسه ، وما اضعفه من خلق ، وفي الموت نجاة المخلصين وهلاك المجرمين ، ولذلك اشتاق من اشتاق الى الموت وكره من كره . قال النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ : (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) » (١) .

فصل

(العجب من ينسى الموت)

عجباً لقوم نسوا الموت وغفلوا عنه ، وهو اظهر اليقينيات والقطعيات في العالم ، واسرع الاشياء الى بني آدم . قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ :

« أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ » (٢) وقال ـ سبحانه ـ : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ

---

(١) صححنا الحديث على مصباح الشريعة : الباب ٨٤ .

(٢) النساء ، الآية : ٧٧ .

الدنيا إلاّ مَتاعُ الغُرُور» (١).

وقال الصادق ـ عليه السلام ـ : « ما خلق الله يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت» .وقال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : « ما انزل الموت حق منزلته من عد غداً من اجله » . وقال ـ عليه السلام ـ : « لو رأى العبد أجله وسرعته اليه، لأبغض العمل من الدنيا» . وقال الصادق (ع) : « ما من أهل بيت شعر ولا وبر إلا وملك الموت يتصفحه كل يوم خمس مرات » . وقد تقدمت اخبار اخر في هذا المعنى .

فصل

(الموت أعظم الدواهي)

اعلم أن الموت داهية من الدواهي العظمى، ومن كل داهية اشد وادهى، وهو من الأخطار العظيمة والاهوال الجسيمة ، فمن علم أن الموت مصرعه والتراب مضجعه ، والقبر مقره وبطن الأرض مستقره ، والدود أنيسه والعقارب والحيات جليسه، فجدير أن تطول حسرته وتدوم عبرته، وتنحصر فيه فكرته وتعظم بليته ، وتشتد لأجله رزيته ، ويرى نفسه في اصحاب القبور ويعدها من الاموات ، إذ كل ما هو آت قريب ، والبعيد ماليس بآت، وحقيق ألا يكون ذكره وفكره وغمه وهمه وقوله وفعله وسعيه وجهده إلا فيه وله، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : «لو أن البهائم يعلمون ما تعلمون ما اكلتم منها سميناً ». وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ لقوم يتحدثون ويضحكون: « اذكروا الموت ، أما والذي نفسي بيده ! لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً » . ومر ـ صلى الله عليه وآله ـ بمجلس قد استعلاه الضحك ،

---

(١) آل عمران ، الآية : ١٨٥ .

فقال : « شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات » . قالوا : وما مكدر اللذات؟ قال : « الموت » .

ثم غفلة الناس عن الموت لقلة فكرهم فيه وذكرهم له ، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ ، بل بقلب مشغول بشهوات الدنيا وعلائقها ، فلا ينفع ذكره في قلبه ، فالطريق فيه : أن يفرغ القلب عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي بين يديه ، كالذي يريد ان يسافر الى بلد بعيد ما بينهما مفازة مخطرة ، أو بحر عظيم لابد أن يركبه ، فانه لا يتفكر إلا فيه ، ومن تفكر في الموت بهذا الطريق وتكرر منه ذلك ، لأثر ذكره في قلبه ، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا ، وتنزجر نفسه عنها ، وينكسر قلبه ، ويستعد لأجله . وأوقع طريق فيه : أن يكثر ذكر أقرانه الذين مضوا قبله، ونقلوا من انس العشرة الى وحشة الوحدة، ومن ضياء المهود الى ظلمة اللحود، ومن ملاعبة الجواري والغلمان الى مصاحبة الهوام والديدان،ويتذكر مصرعهم تحت التراب ، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ، ثم يتفكر كيف محى التراب الآن حسن صورتهم، وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم، وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم وخلت منهم مساكنهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم واوحشت ديارهم،فمهما تذكر رجلا رجلا، وفصل في قلبه حاله وكيفية حياته ، وتوهم صورته ، وتذكر نشاطه وأمله في العيش والبقاء ، ونسيانه للموت ، وانخداعه بمؤاتات الاسباب . وركونه الى القوة والشباب ، وميله الى الضحك واللهو، وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع ، وانه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله ، وكيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه ، وكيف كان يضحك وقد اكل التراب أسنانه ، وكيف دبر لنفسه الأمور وجمع من حطام الدنيا مالا يتفق احتياجه اليه على مر الاعوام والشهور وكر الازمنة والدهور. ثم يتأمل

أنه مثلهم ، وغفلته كغفلتهم ، وسيصير حاله في القبر كحالهم ، فملازمة هذه الأفكار وامثالها ، مع دخول المقابر وتشييع الجنائز ومشاهدة المرضى ، تجدد ذكر الموت في قلبه ، حتى يغلب عليه بحيث يصير الموت نصب عينيه ، وعند ذلك ربما يستعدله ويتجافى عن دار الغرور، واما الذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان فقليل الجدوى في التنبيه والايقاظ . ومهما طاب قلبه بشيء من اسباب الدنيا، فينبغي أن يتذكر في الحال أنه لابد من مفارقته . كما نقل أن بعض الاكابر نظر الى داره فاعجبه حسنها ، فبكى وقال : والله لولا الموت لكنت بها مسروراً .

فصل

(مراتب الناس في ذكر الموت)

الناس بين منهمك في الدنيا خائض في لذاتها وشهواتها ، وبين تائب مبتدىء ، وعارف منتهى .

(فالأول) : لا يذكر الموت ، وإن ذكره فيذكره ليذمه لصده عما يحبه من الدنيا ، وهو الذي يفر منه ، وقال الله ـ تعالى ـ فيه :

« قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ . . . » الآية (١)

وهذا يزيده ذكر الموت بعداً من الله ، إلا اذا استفاد منه التجافي عن الدنيا ، ويتنغص عليه نعيمه ، ويتكدر صفو لذته ، وحينئذ ينفعه ، لأن كل ما يكدر على الانسان اللذات فهو من أسباب نجاته .

(والثاني) : يكثر ذكر الموت لينبعث من قلبه الخوف والخشية ، فيفي

(١) الجمعة ، الآية : ٨ .

بتمام التوبة ، وربما يكرهه خيفة من أن يختطفه قبل الاستعداد وتهيئة الزاد وتمام التوبة ، وهو معذور في كراهة الموت ، ولا يدخل تحت قوله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « من كره لقاء الله كره الله لقاءه »، لان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله ، وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره ، وهو الذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه ، فلا يعد كارهاً للقائه . وعلامة هذا : أن يكون دائم الاستعداد للموت لاشغل له سواه، وإن لم يكن مستعداً له عاملا بما ينفعه في الآخرة التحق بالاول .

(واما الثالث) : فانه يذكر الموت دائماً ، لانه موعد للقاء حبيبه ، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب ، وهذا في غالب الامر يستبطيء مجيء الموت ويحب مجيئه، ليتخلص من دار العاصين وينتقل الى جوار رب العالمين، كما روي : «أن حذيفة لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة لاأفلح من رده ، اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إلي من الغنى ، والسقم احب إلي من الصحة ، والموت أحب الي من الحياة ، فسهل على الموت حتى ألقاك » . وأعلى رتبة منه : من يفوض امره الى الله ، ولا يختار لنفسه شيئاً : من الموت أو الحياة ، والفقر والغنى ، والمرض والصحة ، بل يكون أحب الأشياء اليه احبها الى مولاه ، وهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء الى درجة التسليم والرضا ، وهو الغاية والانتهاء .

تتميم

(المبادرة الى الحسنات)

من علامات قصر الأمل وذكر الموت : المبادرة الى الحسنات والاشتياق الخيرات ، ولذا ورد فيه الترغيب والحذر عن آفة التأخير ، قال رسول الله

ـ صلى الله عليه وآله ـ : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك» وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل. ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » (١) . وكان ـ صلى الله عليه وآله ـ اذا احس من اصحابه غفلة وغرة ، نادى فيهم بصوت عال : « اتتكم المنية ، إما بشقاوة أو بسعادة » . وروى : أنه ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادي : أيها الناس ! الرحيل الرحيل ! . وقال بعض الأكابر : التؤدة في كل شيء خير ، إلا في أعمال الآخرة .

ومنها :

العصيان

ولا ريب في كونه من رذائل قوتي الغضب والشهوة معاً ، لأن بعض انواعه من رذائل احداهما من جانب الافراط أو التفريط ، أو من باب رداءتها ، وبعض آخر من انواعه من رذائل الأخرى . وضده (التقوى والورع) ، وبالمعنى الأعم : اعني الاجتناب عن مطلق المعصية خوفاً من سخط الله ، وقد تقدم ما ورد في فضيلتهما ، فتذكر .

ومنها :

الوقاحة

وهو عدم مبالاة النفس ، وعدم انفعالها من ارتكاب المحرمات الشرعية والعقلية أو العرفية ، وكونه من رداءة قوتي الغضب والشهوة ظاهر .

(١) صححنا الحديث على احياء العلوم : ٤/٢٩٠. وفي نسخ الكتاب (أولج ومن اولج) .

وضدها (الحياء) ، وهو انحصار النفس وانفعالها من ارتكاب المحرمات الشرعية والعقلية والعادية حذراً من الذم واللوم ، وهو أعم من التقوى.إذ التقوى اجتناب المعاصي الشرعية ، والحياء يعم ذلك واجتناب ما يقبحه العقل والعرف أيضاً ، فهو من شرائف الصفات النفسية ، ولذا ورد في فضله ماورد ، قال الصادق ـ عليه السلام ـ : « الحياء من الايمان ، والايمان في الجنة » . وقال ـ عليه السلام ـ « الحياء والعفاف والعي ـ أعني عيّ اللسان لا عي القلب ـ من الايمان » . وقال ـ عليه السلام ـ : « الحياء والايمان مقرونان في قرن ، فاذا ذهب احدهما تبعه صاحبه » . وقال ـ عليه السلام ـ « لا ايمان لمن لا حياء له » . ثم حقيقة الحياء ـ كما عرفت ـ هو الانفعال عن ارتكاب ما يذم شرعاً أو عقلاً أو عرفاً ، فالانفعال عن غير ذلك حمق ، فان الانفعال عن تحقيق احكام الدين أو الجمود عما ينبغي شرعاً وعقلاً لا يعد حياء بل حمقاً. ولذا قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « الحياء حياءان: حياء عقل وحياء حمق ، فحياء العقل هو العلم وحياء الحمق هو الجهل » (١).

ومنها :

الاصرار على المعصية

رجوع رذيلة الاصرار الى أي القوى وذمها ـ ضد الاصرار التوبة وتعريفها ـ هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق ؟ ـ وجوب التوبة ـ تحقيق في وجوبها ـ عموم وجوبها ـ لا بد من العمل بعدها ـ فضيلتها ـ قبولها ـ طريقة التوبة من المعاصي ـ تكفير الصغائر ومعنى الكبائر ـ الصغائر قد تكون كبائر ـ شروط كمال التوبة ـ هل يصح التبعيض فيها ؟ ـ أقسام

(١) صححنا الاحاديث هنا على اصول الكافي (باب الحياء) .

التائبين ـ مراتب التوبة ـ عدم الثقة بالاستقامة لايمنع من التوبة ـ علاج الاصرار على الذنوب ـ الانابة ـ المحاسبة والمراقبة ـ المعنى الظاهر لهما ـ حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا ـ مقامات مرابطة الفعل للنفس .

***

وهو إما ناشىء من رداءة احدى القوتين وخروجها عن اطاعة العاقلة ، أو عن رداءتهما معاً ، فيكون من رذائل القوتين ، وكل مايدل على ذم مطلق المعصية أو على ذم خصوص افرادها المعينة يدل على ذم الاصرار على المعصية بطريق أولى وأوكد . والاخبار الواردة في ذم خصوص افراد المعاصي ربما يظفر بجملة منها في هذا الكتاب عند ذكر كل معصية ، وأما الأخبار الواردة في ذم مطلق الذنب والمعصية فكثيرة جداً ، كقول النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ : « ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يناديان باربعة اصوات ، يقول أحدهما : ياليت هذا الخلق لم يخلقوا ، ويقول الآخر : يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ، فيقول الآخر : فياليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا ، فيقول الآخر : وياليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا عما عملوا . واعلموا أن العبد ليحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام ، وأنه لينظر الى ازواجه في الجنة يتنعمن » . وقال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : « لا تبدين عن واضحة وقد عملت الاعمال الفاضحة ، ولا تأمن البيات وقد عملت السيئات » . وقال الباقر ـ عليه السلام ـ : « إن الله قضى قضاء حتماً ألا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إياه حتى يحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النقمة » . وقال ـ عليه السلام ـ : « ما من شيء أفسد للقلب من خطيئته ، إن القلب ليواقع الخطيئة ، فما يزال به حتى يغلب عليه ، فيصير أعلاه أسفله » . وقال ـ عليه السلام ـ : « إن العبد ليذنب الذنب فيزوى عنه الرزق » . وقال

الصادق ـ عليه السلام ـ : « يقول الله ـ تعالى ـ : إن أدنى ما اصنع بالعبد اذا آثر شهوته على طاعتي أن احرمه لذيذ مناجاتي ». وقال ـ عليه السلام ـ: « من هم بسيئة فلا يعملها، فانه ربما عمل العبد السيئة فيراه الرب ـ تعالى ـ فيقول : وعزتي وجلالي ! لا أغفر لك بعد ذلك ابداً » . وقال (ع) : « أما إنه ليس من عرق يضرب ، ولا نكبة ولا صداع ولا مرض ، إلا بذنب ، وذلك قول الله ـ عز وجل ـ في كتابه :

« وَمَا أَصَابَكُم مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » (١) .

قال ـ عليه السلام ـ : وما يعفو الله اكثر مما يؤاخذ به » . وقال (ع): « إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل ، وان العمل السيء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم » . وقال الكاظم ـ عليه السلام ـ : « حق على الله ألا يعصى في دار إلا اضحاها للشمس حتى يطهرها » (٢) .

والأخبار في هذا المعنى أكثر من أن تحصى ، ولا يتوهم أحد أنه يمكن ألا يصل اليه أثر الذنب ووباله ، فان هذا محال. فانه لم يتجاوز عن الانبياء في تركهم الاولى، فكيف يتجاوز عن غيرهم في كبائر المعاصي. نعم، كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا الى الآخرة ، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً ، ويعذبوا في الآخرة عذاباً اكبر واشد ، أما سمعت أن اباك آدم قد اخرج من الجنة بتركه الأولى ؟ حتى روى : « أنه لما اكل الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته ، وجاء جبرئيل ـ عليه السلام ـ واخذ التاج من رأسه وحل الاكليل عن جنبيه ، ونودي من فوق العرش : اهبطا من

(١) الشورى ، الآية : ٣٠ .

(٢) صححنا الاحاديث هنا على أصول الكافي (باب الذنوب) .

جواري ، فانه لا يجاورني من عصاني ، فالتفت آدم الى حواء باكياً ، وقال: هذا أول شؤم المعصية ، أخرجنا من جوار الحبيب ». وروى :« انه - تعالى- قال : يا آدم! اي جار كنت لك ؟ قال: نعم الجار يارب ! قال : ياآدم! اخرج من جواري وضع عن رأسك تاج كرامتي، فانه لا يجاورني من عصاني».وقد روى : « ان آدم بكى على ذنبه مائتي سنة ، حتى قبل الله توبته وتجاوز عما ارتكبه من ترك الأولى» . فان كانت مؤاخذته في نهي تنزيه مع حبيبه وصفيه هكذا ، فكيف معاملته مع الغير في ذنوب لا تحصى .

وصـــل

(التوبة وتعريفها)

ضد الاصرار (التوبه) ، وهي الرجوع من الذنب القولي والفعلي والفكري ، وبعبارة اخرى : هي تنزيه القلب عن الذنب والرجوع من البعد الى القرب ، وبعبارة أخرى : ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير . وكما ان الاصرار على العصيان من رذائل قوتي الغضب والشهوة، فالرجوع عنه وتركه من فضائلهما ، بمعنى أن العزم على ترك كل معصية يكون من عمل كليهما او احداهما، ومن فعل النفس باعانتهما وانقيادهما للعاقلة . وان كان الباعث على الرجوع وتهييج النفس والقوتين على مباشرة الرجوع والترك هو معرفة عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجاباً بين العبد وبين المحبوب . ويمكن ان يقال : إن التوبة هو الرجوع عن الذنب ، وهو من ثمرات الخوف والحب . فان مقتضى الحب أن يمتثل مراد المحبوب ولا يعصى في شيء مما يريده ويطلب من المحب ، فتكون من فضائل القوتين أيضاً . ويمكن أن يقال : إن التوبة عبارة عن مجموع العلم بضرر الذنوب، وكونها حجاباً بينه وبين الله، والندم الحاصل منه، والقصد المتعلق

بالترك حالا واستقبالا ، والتلافي للماضي والندم ، والقصد بالترك والتلافي من فعل القوتين أو فعل النفس بوساطة القوتين وانقيادهما للعاقلة ، والعلم المذكور من العاقلة ، فتكون التوبة من فضائل القوى الثلاث .

وتوضيح حقيقة التوبة : أنه اذا علم العبد علماً يقينياً أن ما صدر عنه من الذنوب حائلة بينه وبين محابه . ثار من هذا العلم تألم القلب بسبب فوات المحبوب ، وصار متأسفاً على ما صدر عنه من الذنوب ، سواء كانت افعالا أو تروكا للطاعات، ويسمى تألمه ـ بسبب فعله أو تركه المفوت لمحبوبه ـ ندماً . واذا غلب هذا الندم على القلب ،انبعثت منه حالة اخرى تسمى ارادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال بترك الذنب الذي كان ملابساً له ، وبالاستقبال بعزمه على ترك الذنب المفوت لمحبوبه إلى آخر عمره ، وبالماضي بتلافيه ما فات بالجبر والقضاء. فالعلم ـ أعني اليقين بكون الذنوب سموماً مهلكة ـ هو الأول، وهو مطلع اليواقيت، إذ مهما اشرق نور هذا اليقين على القلب أثمر نار الندم على الذنب، فيتألم به القلب، حيث ينظر باشراق نور الايمان واليقين أنه صار محجوباً عن محبوبه ، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة ، فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب ، فيرى محبوبه قد اشرف على الهلاك . فتشتعل نيران الحب في قلبه ، وتنبعث بتلك النيران ارادته للانتهاض للتدارك . فالعلم ، والندم ، والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي : ثلاثة معان مترتبة في الحصول ، يطلق اسم (التوبة) على مجموعها. وربما اطلقت التوبة على مجرد الندم ، وجعل العلم كالسابق والمقدمة، والترك كالثمرة والتابع للمتأخر ، والى هذا الاعتبار يشير قوله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « الندم توبة ». إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه واثمره، أو عن عزم يتبعه ويتلوه، فيكون الندم محفوفاً بطرفيه، اعني ثمرته ومثمره. وبهذا الاعتبار

قيل في حدها : إنها ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ ، أو نار في القلب تلتهب وصدع في الكبد لا ينشعب . وربما اطلقت على مجرد ترك الذنوب حالا والعزم على تركها استقبالا ، وبهذا الاعتبار قيل في حدها : إنها خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء، وإنها تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، أو إنها ترك اختيار الذنب حالا وتوطين القلب وتجريد العزم على عدم العود استقبالا . وعلى هذا لا يكون الندم داخلا في حقيقة التوبة ، وقد صرح بعض الاعاظم بخروجه عنها، محتجاً بأن الندم ـ وهو تألم القلب وحزنه على الذنب ـ غير مقدور ، ولذا ترى تقع الندامة على امور في قلبه وهو يريد ألا يكون ذلك فلا يكون الندم مقدوراً ، وانما المقدور تحصيل أسبابه ، أعني الايمان والعلم بفوات المحبوب وتحقيقهما في قلبه . وعلى هذا فلا يكون الندم من التوبة ، إذ التوبة مقدورة للعبد ومأمور بها . فاللازم فيها التندم دون الندم . وغير خفي بأن الندم كغيره من صفات النفس ، فان أمكن ازالة الصفات النفسية وكسبها فالندم كذلك ، والا لزم بطلان علم الأخلاق بالكلية، وأيضاً اذا امكن تحصيل سبب الندامة ـ اعني العلم بفوات المحبوب ـ لزم ترتب المسبب ـ اعني الندامة عليه ـ فما معنى عدم كونه مقدوراً، فالندامة في الازالة والتحصيل لا يكون اصعب من كثير من الأخلاق النفسية . وبعضهم يعدّ ماعدا التندم من شرائط التوبة ، قال : « وأما الندم ـ اعني تألم القلب على الذنب الذي هو روح التوبة ـ فغير مقدور ، وهو التوبة حقيقة ، وانما المقدور تحصيل أسبابه من العلم والايمان وتحقيقهما في قلبه » انتهى . وفيه مالا يخفى بعلاوة ماسبق، قال الصادق ـ عليه السلام ـ : « التوبة حبل الله ومدد عنايته، ولابد للعبد من مداومة التوبة على كل حال، وكل فرقة من العباد لهم توبة ، فتوبة الأنبياء من اضطراب السر وتوبة الاولياء من تلوين الخطرات،

وتوبة الاصفياء من التنفيس ، وتوبة الخاص من الاشتغال بغير الله ، وتوبة العام من الذنوب . ولكل واحد منهم معرفة وعلم في اصول توبته ومنتهى أمره ، وذلك يطول شرحه هنا .

وأما توبة العام ، فان يغسل باطنه من الذنوب بماء الحسرة ، والاعتراف بجنايته دائماً ، واعتقاد الندم على ما مضى ، والخوف على ما بقي من عمره ، ولا يستصغر ذنوبه فيحمله ذلك الى الكسل ، ويديم البكاء والاسف على ما فاته من طاعة الله ، ويحبس نفسه عن الشهوات ، ويستغيث الى الله ـ تعالى ـ ليحفظه على وفاء توبته ويعصمه عن العود الى ما سلف ، ويروض نفسه في ميدان الجهاد والعبادة ، ويقضي عن الفوائت من الفرائض ، ويرد المظالم ، ويعتزل قرناء السوء ، ويسهر ليله ويظمأ نهاره ، ويتفكر دائماً في عاقبته ، ويستعين بالله سائلا منه الاستقامة في سرائه وضرائه ، ويثبت عند المحن والبلاء كيلا يسقط عن درجة التوابين ، فان في ذلك طهارة من ذنوبه ، وزيادة في عمله ، ورفعة في درجاته . قال الله ـ عز وجل ـ :

« فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذِبِينَ » (١) » (٢) .

تتمة

(هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق ؟)

التوبة انما تكون عن ذنب سبق مثله ، (أما) (٣) ترك ذنب لم يسبق مثله حالا والعزم على تركه استقبالا لا يسمى توبة ، بل يسمى تقوى ، ويسمى

---

(١) العنكبوت ، الآية : ٣ .

(٢) صححنا هذه الرواية على (مصباح الشريعة : الباب ٨٠) .

(٣) وفي النسخ (او) بدل (أما) ، والصحيح ما اثبتناه .

صاحبه متقياً لا تائباً ، ولذا يصح القول بأن النبي - صلى الله عليه وآله - كان متقياً عن الكفر ، ولا يصح القول بأنه كان تائباً عنه . ثم المراد بالمثل السابق أعم من أن يكون مثلا في الصورة او المنزلة ، فالشيخ الهم الذي سبق منه الزنا وقطع الطريق، ولم يقدر الساعة على فعلهما، اذا أراد التوبة عنهما ينبغي أن يتوب عما يماثلهما منزلة ودرجة ،كالقذف والسرقة وامثالهما، إذ لا معنى للتوبة عما يماثلهما صورة - اعني نفس الزنا وقطع الطريق - مع عدم قدرته عليهما ، ولو لم يكن التوبة عما يماثل الشيء في المنزلة والدرجة توبة عن هذا الشيء ، لزم أن يكون باب التوبة مسدوداً بالنسبة الى مثل الشيخ الهم وكل من صدر منه معصية والآن لا يقدر عليها ، وهو باطل ، لانفتاح باب التوبة الى الموت . ولما ذكر ، قال بعض المشايخ في حد التوبة : « إنها ترك اختيار ذنب سبق مثله منزلة لا صورة ، تعظيماً لله وحذراً من سخطه » . فقوله : « سبق مثله » احتراز عن ترك ذنب لم يسبق مثله ، فانه لا يسمى توبة بل تقوى ، وقوله : « منزلة لا صورة » لادخال التوبة عما سبق ولا يقدر الآن على فعله ، وعلى هذا فتوبة العنين عن النظر واللمس وأمثال ذلك يكون توبة عن الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة ، والظاهر أن بناء ذلك على دلالة توبته عما يقدر عليه الآن ، على أنه لو كان قادراً على الزنا لتركه أيضاً ، لاشعاره بأن توبته صدرت عن معرفة ويقين بضرر الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة ، فلو كان قادراً عليه لتركه أيضاً .

قال أبو حامد الغزالي : « إن قلت : هل تصح توبة العنين من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة ؟ قلت : لا ؛ لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله ، فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه » . ثم قال : « ولكني أقول : لو طرأ عليه بعد العنة كشف

ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذي قارفه ، وثار منه احتراق وتحسر وندم ، بحيث لو كانت شهوة الوقاع باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها ، فاني ارجو أن يكون ذلك مكفراً لذنبه وماحياً عنه سيئته ، إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وان لم تطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسر اسباب قضاء الشهوة، ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغاً أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده، فاذن لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه، فان كل من لا يشتهي شيئاً يقدر نفسه قادراً على تركه بأدنى خوف، والله مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه ، فعساه يقبله منه ، بل الظاهر انه يقبله . والحقيقة في هذا كله ترجع الى أن ظلمة المعصية تنمحي عن القلب بشيئين : ـ أحدهما ـ حرقة الندم ، و ـ الآخر ـ شدة المجاهدة بالترك في المستقبل ، وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ، ولكن ليس محالا أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ، ولولا هذا لقلنا : ان التوبة لا تقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة ، وذلك مما يدل ظاهر الشرع على اشتراطه » .

فصل

(وجوب التوبة)

التوبة عن الذنوب بأسرها واجبة : بالاجماع ، والنقل ، والعقل : أما الاجماع ـ فلا ريب في انعقاده . وأما النقل ـ فكقوله ـ تعالى ـ : « وَتُوبُوا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (١) . وقوله ـ تعالى ـ : « يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) النور ، الآية : ٣١.

آمَنوا تُوبُوا إلى ٱللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسى رَبُّكُم أنْ يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئاتِكُمْ » (١) .

ومعنى النصوح : الخالص لله خالياً عن شوائب الأغراض ، من مال أو جاه او خوف من سلطان أو عدم اسباب ، والامر للوجوب ، فتكون التوبة واجبة بمقتضى الآيتين .

وأما العقل ـ فهو أن من علم معنى الوجوب ومعنى التوبة فلا يشك في ثبوته لها . (بيان ذلك) : أن معنى الواجب وحقيقته هو ما يتوقف عليه الوصول الى سعادة الابد والنجاة من هلاك السرمد ، ولو لا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن معنى لوجوبه ، فالواجب ماهو وسيلة وذريعة الى سعادة الأبد . ولا ريب في أنه لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله والانس به ، فكل من كان محجوبا عن اللقاء والوصال محروماً عن مشاهدة الجلال والجمال ، فهو شقي لامحالة ، محترق بنار الفراق ونار جهنم . ثم لامبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات النفسية والغضب والانس بهذا العالم الفاني ، والاكباب على حب مالا بد من مفارقته قطعاً ، ويعبر عن ذلك بالذنوب . ولا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب من زخرف هذا العالم ، والاقبال بالكلية على الله ، طلباً للانس به بدوام الذكر ، والمحبة له بدوام الفكر في عظمته وجلاله وجماله على قدر طاقته ، ولا ريب في أن الانصراف عن طريق البعد الذي هو الشقاوة واجب للوصول الى القرب الذي هو السعادة ، ولا يتم ذلك إلا بالتوبة التي عبارة عن العلم والندم والعزم ، ولا يتم الواجب الا به ، فهو واجب ، فالتوبة واجبة قطعاً .

---

(١) التحريم ، الآية : ٨ .

تذنيب

(تحقيق في وجوب التوبة)

كيف لا تكون التوبة عن المعاصي واجبة، مع أن العلم بضرورة المعاصي وكونها مهلكة من اجزاء الايمان ووجوب الايمان وعا لا ريب فيه ، والعالم بهذا العلم اذا لم يعمل به فكما لايعلمه أو ينكره فلا يكون له هذا الجزء من الايمان ، لان كل علم يراد ليكون باعثاً على العمل ، فلا يقع التفصي عن عهدته مالم يصير باعثاً ، فالعلم بضرر الذنوب إنما اريد ليكون باعثاً على تركها ، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان ، وهو المراد بقول النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » ، وما اراد به نفي الايمان بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله ، فان ذلك لا ينافي الزنا والمعاصي ، وإنما أراد به نفي الايمان بالله لكون الزنا مبعداً عن الله وموجباً لسخطه ، وليس الايمان باباً واحداً ، بل هو ـ كما ورد ـ نيف وسبعون باباً ، أعلاها الشهادتان وادناها اماطة الأذى عن الطريق ، ومثاله قول القائل : ليس الانسان موجوداً واحداً ، بل هو نيف وسبعون موجوداً، أعلاها الروح والقلب وادناها اماطة الاذى عن البشرة، بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأظفار نقي البشرة عن الخبث، حتى يتميز عن البهائم المرسلة المتلوثة بأرواثها ، المستكرهة الصور بطول مخالبها واظفارها ، فالايمان كالانسان، وفقد الشهادتين كفقد الروح الذي يوجب البطلان بالكلية، والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة ويترك سائر اجزائه من الاعمال ، فهو كانسان مقطوع الاطراف مفقوء العينين، فاقد لجميع اعضائه الظاهرة والباطنة، إلا أصل الروح . وكما أن من هذا حاله قريب من الموت ومزايلة الروح الضعيفة المنفردة التي تخلفت عنها الاعضاء التي تمدها وتقويها ، فكذلك من

ليس له إلا أصل الايمان وهو مقصر في الأعمال ، قريب من أن تنقلع شجرة ايمانه اذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للايمان في مقدمة قدوم ملك الموت وروده ، فكل ايمان لم يثبت في النفس اصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه ، لم يثبت على عواصف الاهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة . فالمحجوب عن الايمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الايمان الذي هو اصل ، كما أن الشخص الفاقد لجميع الاطراف التي هي فروع ليساق الى الموت المعدم للروح التي هي أصل ، فلا بقاء للاصل دون الفرع ، ولا وجود للفرع دون الأصل ، ولا فرق بين الاصل والفرع إلا في شيء واحد ، وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعاً يستدعي وجود الأصل ، وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع ، ولكن بقاءه يستدعي وجود الفرع ، فبقاء الأصل بالفرع ووجود الفرع بالأصل ، فمساواة العاصي والمطيع في اسم المؤمن كمساواة شجرة القرع وشجرة الصنوبر في اسم الشجرة ، وإنما يظهر الفرق اذا عصفت الرياح القوية ، فعند ذلك تنقطع اصول شجرة القرع وتتناثر أوراقها ، وتبقى شجرة الصنوبر ثابتة على اصلها وفرعها . ومثل العاصي الذي لا يخاف الخلود في النار لأجل معصيته اتكالا على ايمانه بالتوحيد والرسالة ، كمثل الصحيح الذي يأكل الأغذية المضرة والسموم ولا يخاف الموت اتكالاً على صحته ، فكما يؤدي صحة هذا الصحيح بتناوله السموم والأغذية الى المرض والمرض الى الموت ، فكذلك تؤدى ذنوب العاصي إلى سوء الخاتمة وسوء الخاتمة إلى الخلود في النار ، فالمعاصي للايمان كالسموم والمأكولات المضرة للابدان ، فكما أن مضرة السموم لا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الاخلاط وهو لا يشعر بها الى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة ، فكذلك آثار المعاصي لا تزال

تتراكم في النفس حتى يفسد مزاجها فيسلب عنها اصل الايمان ، فالخائف من الموت في هذه النشأة القصيرة اذا وجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات ، فالخائف من هلاك الابد أولى بأن يجب عليه ترك الذنوب ، ومن تناول السم وندم اذا وجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله باخراجه عن المعدة ، فمتناول سموم الايمان وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن ما دام مهلة التدارك .

فالبدار البدار معاشر اخواني الى التوبة ! قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح ايمانكم عملاً لا ينفع بعده الاحتماء ، ويخرج الأمر فيه عن ايدى اطباء القلوب ، فلا ينفع حينئذ وعظ الواعظين ونصح الناصحين ، وتحق عليكم كلمة العذاب ، وتدخلون تحت عموم قوله ـ تعالى ـ :

« وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ »(١) وقوله تعالى : « خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ »(٢) وغير ذلك من الآيات .

ثم مقتضى الأدلة المذكورة ! كون التوبة واجبة على الفور ، فيجب على كل مسلم أن يتوب عن ذنوبه فوراً ، ولا يجوز له التأخير . قال لقمان لابنه : « يا بني ! لا تؤخر التوبة ، فان الموت يأتي بغتة » . ومن ترك المبادرة الى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين : ـ احدهما ـ أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ديناً وطبعاً فلا يقبل المحو . ـ والثاني ـ أن يعاجله

(١) يس ، الآية : ٩ .

(٢) البقرة ، الآية : ٧ .

المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو . ولذلك ورد : أن اكثر صياح أهل النار من التسويف ، فما هلك من هلك إلا بالتسويف .

فصـــل

(عموم وجوب التوبة)

وجوب التوبة يعم الاشخاص والاحوال ، فلا ينبغي أن ينفك عنه أحد في حالة ، قال الله ـ تعالى ـ :

« وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً »(1)

وهو يعم الكل في الكل . ومما يدل على وجوبها على الكل : أن كل فرد من أفراد الناس اذا بلغ سن التمييز والتكليف قام القتال والنزاع في مملكة بدنه ، بين الشهوات جنود الشياطين ، وبين العقول احزاب الملائكة ، إذ لا تكمل غريزة العقل في أحد إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة ، واذا قام القتال بينهما لابد بحكم العقل والشرع أن يغلب جنود الله على جنود الشيطان ، بقمعها بكسر الشهوات ، ورد النفس على سبيل القهر والغلبة على الصفات المحمودة والعبادات ، ولا معنى لوجوب التوبة إلا هذا . ومما يدل على وجوبها على الدوام وفي كل حال هو أن كل عبد لا يخلو عن معصية بجوارحه ، فان خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن رذائل النفس والهم بالذنوب بالقلب ، فان خلا عن ذلك أيضاً فلا يخلو عن وسوسة الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله ، فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وبصفاته وآثاره ، وكل ذلك نقص يجب الرجوع عنه وهو معنى التوبة .

---

(1) النور ، الآية : ٣١ .

ولعدم خلو احد من الخلق من نوع هذا النقص وأصله في حالة ، وان تفاوتوا في المقادير ، يلزم وجوب التوبة على كل عبد في كل حالة ، ولو خلا عن التوبة عن جميع الذنوب في لحظة واختطفه الموت ، لزم خروج روحه بلا توبة ، لعدم انفكاكه قبل موته ولو بلحظة عن فرد من المعاصي المذكورة، فالتوبة واجبة على كل عبد سالك في كل نفس من أنفاسه ، قال بعض العرفاء (١) : « لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على فوت ما مضى من عمره في غير طاعة الله ، لكان حقيقاً أن يخزيه (٢) ذلك الى الممات ، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله » . ومن عرف قدر العمر وفائدته ، وما يكتسب به من سعادة الأبد ، يعلم أن ما يضيع منه في المعصية وغير التوبة أي حسرة وندامة يترتب عليه ، فان العاقل اذا ملك جوهرة نفيسة ، فان ضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محالة ، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منه أشد ، وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها ، لايصالها العبد الى سعادة الأبد وانقاذها اياه من شقاوة السرمد ، وأي جوهر انفس من هذا ، فمن ضيعها في الغفلة خسر خسراناً مبيناً ، ومن صرفها في معصية فقد هلك هلاكا أبدياً . وقد قيل : إن لله ـ تعالى ـ إلى عبده سرين يسرهما اليه على سبيل الالهام . ـ احدهما ـ اذا خرج من بطن امه يقول له : عبدي ! قد اخرجتك الى الدنيا طاهراً لطيفاً ، واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة ، وانظر كيف تلقاني . ـ والثاني ـ عند خروج روحه يقول : عبدي ! ماذا صنعت في اماناتي عندك ، هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فالقاك على الوفاء ؟ او اضعتها

(١) هو ابو سليمان الداراني فيما نقل عنه في احياء العلوم : ٤ / ١٠ .

(٢) في نسخ جامع السعادات (يجزيه) .

فألقاك بالمطالبة والعقاب ؟ . واليه الاشارة بقوله ـ تعالى ـ :

« أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ »(١) . وبقوله ـ تعالى ـ :

« والَّذِينَ هُمْ لأماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ »(٢) .

وقد روى : أن ملك الموت إذا ظهر للعبد عند موته أعلمه أنه قد بقى من عمرك ساعة لا تستأخر عنها طرفة عين ، فيبدو للعبد من الحزن والحسرة والأسف ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لاعطاها بدل أن يضم الى تلك الساعة ساعة اخرى ليتدارك فيها تفريطه ، ولا يجد اليها سبيلاً ، وقد روى ـ أيضاً ـ : أنه اذا كشف الغطاء للعبد قال لملك الموت : أخرني يوماً اعتذر فيه الى ربي واتوب ، واتزود صالحاً لنفسي ، فيقول : فنيت الأيام فلا يوم ، فيقول : أخرني ساعة ، فيقول : فنيت الساعات فلا ساعة ، فيغلق عليه باب التوبة ، فيغرغر بروحه ، وتتردد انفاسه في شراسيفه ، ويتجرع غصة اليأس عن التدارك ، وحسرة الندامة على تضييع العمر ، فيضطرب اصل ايمانه في صدمات تلك الأهوال ، فإذا زهقت نفسه ، فان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد ، وذلك حسن الخاتمة ، وإن سبق له القضاء بالشقوة ـ والعياذ بالله ـ خرجت روحه على الشك والاضطراب ، وذلك سوء الخاتمة .

تذنيب

التوبة عن بعض المعاصي المذكورة ـ أعني المحرمات وترك الواجبات ـ واجب بفتوى الشرع ، بمعنى أن التارك لهذه التوبة والمرتكب لهذه المعاصي يكون معذباً بالنار ، وهذا الوجوب يشترك فيه كافة الخلق ، وتكليف الجميع به لا يوجب فساداً في النظام الكلي . وأما التوبة عن بعض آخر منها ، كالخواطر

(١) البقرة ، الآية : ٤٠ . (٢) المؤمنون ، الآية ٨ . المعارج ، الآية : ٣٢

والهمم الطارية على القلب والقصور عن معرفة كنه جلال الله وعظمته وامثال ذلك ، فليس واجباً بهذا المعنى ، لمنافاته انتظام العالم . إذ لو كلف الخلق كلهم أن يتقوا الله حق تقاته ، لتركوا المعائش ورفضوا الدنيا بالكلية ، وذلك يؤدي إلى بطلان التقوى رأساً ، لأنه إن فسدت المعايش لم يتفرغ احد للتقوى . فالتوبة عن كل ما هو المرجوح ليست واجبة بهذا الاعتبار ، بل هي واجبة بمعنى آخر ، وهو ما لابد منه للوصول به الى غاية القرب الى الله، والى المقام المحمود والدرجات العالية ، فمن رضى باصل النجاة وقنع به لم تكن هذه التوبة واجبة عليه ، ومن طالب الوصول الى ما ذكر وجبت عليه هذه التوبة وجوباً شرطياً ، بمعنى توقف مطلوبه عليه ، كما جرت عليه طوائف الأنبياء والأولياء واكابر العرفاء والعلماء ، ولأجله رفضوا لذات الدنيا بالكلية . وعلى هذا فما ورد من استغفار الأنبياء والأوصياء وتوبتهم إنما هو من ترك دوام الذكر وغفلتهم عن مقام الشهود والاستغراق لأجل اشتغالهم بالمباحات ، لا عن ذنوب كذنوبنا ، لتعاليهم وتقدسهم عن ذلك . قال الصادق - عليه السلام - : « إن رسول الله - صلى الله عليه وآله - كان يتوب الى الله ويستغفره في كل يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب ، ان الله - تعالى - يخص اولياءه بالمصائب ، وليأجرهم عليها من غير ذنب كذنوبنا ، فان ذنب كل أحد إنما هو بحسب قدره ومنزلته عند الله » . وبمضمونه أخبار أخر .

فصل

(لابد من العمل بعد التوبة)

لا يكفي في تدارك الشهوات والتوبة عن الذنوب بمجرد تركها في المستقبل، بل لابد من محو آثارها التي انطبعت في جوهر النفس بنور الطاعات ، إذ كل شهوة ومعصية صدرت من الانسان ارتفعت منها ظلمة إلى قلبه ، كما ترتفع من

نفس الانسان ظلمة الى وجه المرآة الصقيلة ، فان تراكمت ظلمة الشهوات والمعاصي صارت رينا ، كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثاً ، كما قال - تعالى - :

« كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » (١)

فاذا تراكم الرين صار طبعاً ، فيطبع على قلبه ، كما أن الخبث في وجه المرآة اذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وافسده ، وصار بحيث لا يقبل التصقيل بعده ، فالتائب من الذنوب لابد له من محو تلك الآثار التي انطبعت منها في نفسه ، ولا يكفي مجرد تركها في المستقبل ، كما لا يكفى في تصقيل المرآة وظهور الصور فيها قطع الانفاس والبخارات المسوّدة لوجهها في المستقبل ، ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الآثار ، وكما ترتفع الى النفس ظلمة من المعاصي والشهوات فتظلمها ، فكذلك يرتفع نور من الطاعات وترك الشهوات فينورها ، ولهذا النور تنمحي ظلمة المعاصي والشهوات ، واليه الاشارة بقوله - صلى الله عليه وآله - : « اتبع السيئة الحسنة تمحها » . فاذن لا يستغني العبد في حال من أحواله من محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات ، بمعنى أن تكون الحسنة التي ترتكب لمحو السيئة مناسبة لتلك السيئة ، لقوله - صلى الله عليه وآله - : « اتق الله حيث كنت » ؛ ولأن المرض يعالج بضده ، فكل ظلمة ارتفعت الى القلب ، فلا يمحوها إلا نور يرتفع اليه من حسنة تضادها ، إذ الضد إنما يرتفع بالضد ، فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبحضور مجالس الذكر ، ويكفر القعود في المسجد جنباً بالعبادة فيه ، ويكفر مس المصحف محدثاً باكرامه وتقبيله وكثرة قراءته ، ويكفر شرب الخمر بالتصدق لكل شراب

---

(١) المطففين ، الآية : ١٤ .

حلال هو أحب اليه ... إلى غير ذلك . وليس ذلك - أي ايقاع المناسبة - شرطاً في المحو ، فقد روى : « أن رجلاً قال لرسول الله - صلى الله عليه وآله - : إني عالجت امرأة فاصبت منها كل شيء إلا المسيس ، فاقض عليّ بحكم الله ، فقال : أما صليت معنا ؟ قال : بلى ! فقال : إن الحسنات يذهبن السيئات ».

وينبغي أن تكون التوبة عن قرب عهد بالخطيئة ، بأن يتندم عليها ويمحو آثارها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ، قال الله - تعالى - :

« إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ »(١) . أي عن قرب عهد بعمل السوء . وقال : « وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ » (٢)

قال الصادق - عليه السلام - : « ذلك اذا عاين أمر الآخرة » . وقد ورد مثله عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - أيضاً .

فصل

(فضيلة التوبة)

اعلم أن التوبة أول مقامات الدين ، ورأس مال السالكين ، ومفتاح استقامة السائلين ، ومطلع التقرب الى رب العالمين ، ومدحها عظيم ، وفضلها جسيم ، قال الله - تعالى - :

---

(١) النساء ، الآية : ١٦ .　　(٢) النساء ، الآية : ١٧ .

« إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ » (١)

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « التائب حبيب الله ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له » . وقال الباقر ـ عليه السلام ـ : « إن الله ـ تعالى ـ أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها ، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها » . وقال ـ عليه السلام ـ : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزىء » . وقال الصادق ـ عليه السلام ـ : « إن الله يحب من عباده المفتن التواب » : يعني كثير الذنب كثير التوبة . وقال ـ عليه السلام ـ : « اذا تاب العبد توبة نصوحا ، أحبه الله فستر عليه » فقلت : وكيف يستر عليه؟ قال : « ينسي ملكيه ما كانا يكتبان عليه ، ويوحي الى جوارحه والى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه ، فيلقى الله ـ عز وجل ـ حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب » . وقال الصادق ـ عليه السلام ـ : « إن الله ـ عز وجل ـ اعطى التائبين ثلاث خصال لو اعطى خصلة منها جميع اهل السماوات والأرض لنجوا بها : قوله ـ عز وجل ـ :

« إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ ... » الى آخره (٢) ، وقوله :

« ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ـ الى قوله ـ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ » (٣) .

---

(١) البقرة ، الآية : ٢٢٢ .
(٢) البقرة ، الآية : ٢٢٢ .
(٣) المؤمن ، الآية : ٧ ـ ٩ .

وقوله : « وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلٰهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالحق وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفعَلُ ذٰلِكَ يَلْقَ أثاماً ، يُضاعَفْ لَهُ العَذابُ يَومَ القِيامَةِ وَيُخلَدْ فيهِ مُهاناً ، إلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ — الى قوله — وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحيماً » (١) .

وقال أبو الحسن — عليهما السلام — : « أحب العباد الى الله المنيبون التوابون » .

فصـــل

(قبول التوبة)

التوبة المستجمعة لشرائطها مقبولة بالاجماع ، ويدل عليه قوله — تعالى — : « هُوَ الَّذي يَقبَلُ التَّوبَةَ عَنْ عِبادِهِ » (٢) . وقوله — تعالى — : « غافِرِ الذَّنبِ وَقابِلِ التَّوبِ » (٣) . وقوله — تعالى — : وَمَنْ يَعمَلْ سُوءاً أوْ يَظلِمْ نَفسَهُ ثُمَّ يَستَغفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحيماً » (٤) .

وقول النبي — صلى الله عليه وآله — : « إن الله — تعالى — يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل الى النهار ولمسيء النهار الى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » ، وبسط اليد كناية عن طلب التوبة ، وطالب التوبة يقبله البتة .

---

(١) الفرقان ، الآية : ٦٨ — ٧٠ .　　(٣) المؤمن ، الآية : ٣ .

(٢) الشورى ، الآية : ٢٥ .　　(٤) النساء ، الآية : ١٠٩ .

وقوله - صلى الله عليه وآله - : « إن الحسنات يذهبن السيئات ، كما يذهب الماء الوسخ » . وقوله - صلى الله عليه وآله - : « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم ، لتاب الله عليكم » . وقوله - صلى الله عليه وآله - : « إن العبد ليذنب الذنب فيدخل في الجنة » . قيل : كيف يا رسول الله ؟! قال : « يكون نصب عينيه تائباً منه فاراً حتى يدخل الجنة » . وقوله - صلى الله عليه وآله - : « كفارة الذنب الندامة » . وقوله - صلى الله عليه وآله - : « من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته . ثم قال : إن السنة لكثير ، من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته . ثم قال : إن الشهر لكثير ، من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته . ثم قال : إن الجمعة لكثير ، من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته . ثم قال : إن يوماً لكثير ، من تاب قبل أن يعاين ملك الموت قبل الله توبته » وقال الباقر - عليه السلام - لمحمد بن مسلم : « ذنوب المؤمن اذا تاب منها مغفورة له ، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة ، أما والله إنها ليست إلا لأهل الايمان » ، فقال له : فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب ، وعاد في التوبة ؟ قال : « يا محمد بن مسلم ! أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته ؟ » ، قال : فانه فعل ذلك مراراً ، يذنب ثم يتوب ويستغفر ، فقال : « كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة ، وإن الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات ، فاياك أن تقنط المؤمن من رحمة الله » . وقوله - عليه السلام - : « اذا بلغت النفس هذه - وأهوى بيده الى حلقه - لم تكن للعالم توبة ، وكانت للجاهل توبة » . وقوله - عليه السلام - : « إن آدم - صلى الله عليه - قال : يارب ! سلطت علي الشيطان ، وأجريته مني مجرى الدم ، فاجعل لي شيئاً ، فقال : يا آدم ! جعلت لك : إن من همّ من ذريتك بسيئة لم تكتب عليه ، فان عملها كتبت عليه سيئة

ومن هم منهم بحسنة ، فان لم يعملها كتبت له حسنة ، فان هو عملها كتبت له عشراً ، قال : يا رب ! زدني ، قال : جعلت لك : إن من عمل منهم سيئة ثم استغفر غفرت له ، قال : يا رب ! زدني ، قال : جعلت لهم التوبة ، وبسطت لهم التوبة حتى تبلغ النفس هذه ، قال : يا رب ! حسبي» وقول الصادق - عليه السلام - : « إن الرجل ليذنب الذنب فيدخله الله به الجنة » ، قيل : يدخله الله بالذنب الجنة ؟ قال : « نعم ! إنه ليذنب فلا يزال منه خائفاً ماقتاً لنفسه ، فيرحمه الله فيدخله الجنة » . وقوله - عليه السلام - : « العبد المؤمن اذا ذنب ذنباً أجله الله سبع ساعات ، فان استغفر الله لم يكتب عليه شيء ، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتبت عليه سيئة ، وان المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له ، وإن الكافر لينسى من ساعته» . وقوله -عليه السلام- : « ما من مؤمن يقارف في يومه وليلته اربعين كبيرة فيقول وهو نادم : استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم بديع السماوات والأرض ذا الجلال والاكرام وأسأله أن يصلي على محمد وآل محمد وان يتوب علي ، إلا غفرها الله له ، ولا خير فيمن يقارف في يومه اكثر من اربعين كبيرة » (١) .

وروى : « أن الله - تعالى - لما لعن ابليس سأله النظرة ، فانظره الى يوم القيامة ، فقال : وعزتك لاخرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح ، فقال الله - تعالى : بعزتي لاحجبت عنه التوبة ما دام فيه الروح » . وورد في الاسرائيليات : « أن شاباً عبد الله عشرين سنة ، ثم عصاه عشرين سنة ، ثم نظر في المرآة ، فرأى الشيب في لحيته ، فساءه ذلك ، فقال : إلهي اطعتك عشرين

---

(١) صححنا الاحاديث الواردة في هذا الباب على اصول الكافي : باب الاعتراف بالذنوب ، وباب من يهم بالحسنة أو السيئة ، وباب التوبة ، وباب الاستغفار من الذنوب ، وباب فيما اعطى الله - عز وجل - آدم وقت التوبة .

سنة ثم عصيتك عشرين سنة، فان رجعت اليك اتقبلني ؟ فسمع قائلاً يقول: أحببتنا فاحببناك ، فتركتنا فتركناك ، وعصيتنا فامهلناك ، فان رجعت الينا قبلناك » . والاخبار والآثار في هذا المعنى اكثر من أن تحصى ، وفي بعض الأخبار المتقدمة دلالة عليه ايضاً .

ثم الناظر بنور البصيرة لا يحتاج في هذا المعنى الى بيان ، إذ يعلم أن التوبة توجب سلامة القلب ، وكل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله ، ويعلم ان القلب خلق في الأصل سليماً صافياً ، إذ كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما مرض واسود بامراض الذنوب وظلماتها ، ودواء التوبة يزيل هذه الأمراض ، ونور الحسنات يمحو هذه الظلمات ، ولا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات ، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار ، ولكدورة الوسخ مع بياض الصابون والماء الحار ، نعم اذا تراكمت الذنوب بحيث صار ريناً وطبعاً ، وافسدت القلب بحيث لا يقبل الصفاء والنورانية بعد ذلك ، فمثل هذا القلب لا تفيده التوبة ، بمعنى انه لا يرجع ولا يتوب ، وإن قال باللسان تبت ، إذ اوساخ الذنوب غاصت في تجاويفه وتراكمت فيه بحيث لا يقبل التطهير ، ولو بولغ فيه أدى الى انخراق القلب وهلاكه ، لصيرورة الاوساخ جزءاً من جوهره ، كما أن الثوب الذي غاص الوسخ في تجاويفه وخلله وتراكم فيه ، لو بولغ في تطهيره بالماء والصابون أدى ذلك الى انخراقه . وهذا حال اكثر الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله فانهم لا يرجعون ولا يتوبون ، لصيرورة ذمائم الاخلاق ورذائلها ملكات راسخة في نفوسهم وغاصت اوساخها في تجاويف قلوبهم ، بحيث لا يتنبهون ولا يتيقظون حتى يقصدوا التوبة ، ولو قصدوها فانما هو بمجرد اللسان ، والقلب غافل خال عن الايمان ، بل تتعذر عليه التوبة لبطلان حقيقتها .

فصـــل

(طريق التوبة عن المعاصي)

إعلم أن ما عنه التوبة هي الذنوب التي علمت تفاصيلها في هذا الكتاب ، وهي - كما ذكرناها - لا تخلو عن الصفات والافعال الشيطانية المتعلقة بالوهم، والصفات والافعال السبعية المتعلقة بالقوة السبعية ، والصفات والافعال البهيمية المتعلقة بالقوة البهيمية . ومن حيث تعلق التوبة بها وكيفية الخروج عنها ينقسم الى اقسام ثلاثة :

أحدها - ترك الطاعات الواجبة: من الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والخمس والكفارة وغيرها . وطريق التوبة عنها : أن يجتهد في قضائها بقدر الامكان .

وثانيها - المحرمات التي بين العبد وبين الله ، اعني المنهيات التي هي حقوق الله : كشرب الخمر ، وضرب المزامير ، والكذب ، والزنا بغير ذات بعل . وطريق التوبة عنها : أن يندم عليها ، ويوطن قلبه على ترك العود الى مثلها أبداً .

وثالثها - الذنوب التي بينه وبين العباد ، وهي المعبر عنها بحقوق الناس ، والأمر فيها أصعب وأشكل ، وهي إما في المال ، أو في النفس ، او في العرض ، أو في الحرمة ، أو في الدين :

فما كان في (المال) : يجب عليه أن يرده إلى صاحبه إن أمكنه ، فان عجز عن ذلك لعدم أو فقر ، وجب أن يستحل منه ، وإن لم يحله أو عجز عن الايصال لغيبة الرجل غيبة منقطعة او موته وعـــدم بقاء وارث له ، فليتصدق عنه إن أمكنه . والا فعليه بالتضرع والابتهال الى الله أن يرضيه عنه يوم القيامة ، وعليه بتكثير حسناته وتكثير الاستغفار له ، ليكون يوم القيامة عوضاً عن حقه ، اذ كل من له حق على غيره لابد أن يأخذ يوم القيامة

عوضاً عن حقه ، اما بعض طاعاته أو بتحمل هذا الغير بعض سيئاته .

وما كان في (النفس) : فان كانت جناية جرت عليه خطأ وجب أن يعطى الدية ، وان كان عمداً وجب عليه أن يمكن المجنى عليه أو اولياءه مع هلاكه من القصاص حتى يقتص منه ، أو يجعل في حل ، وان عجز عن ذلك فعليه بكثرة اعتاق الرقاب ، لأن ذلك نوع احياء وايجاد لا يقدر الانسان على اكثر منه ، فيقابل به الاعـــدام والاماتة ، وعليه الرجوع ايضاً الى الله بالتضرع والابتهال أن يرضيه عنه يوم القيامة .

وما كان في (العرض) : بأن شتمه ، أو قذفه ، أو بهته ، أو اغتابه ، فحقه أن يكذب نفسه عند من قال ذلك لديه ، ويستحل من صاحبه مع الامكان ، إن لم يخف تهديده وزيادة غيظه وهيجان فتنته من اظهاره ، فان خاف ذلك ، فليكثر الاستغفار له ، ويبتهل الى الله أن يرضيه عنه يوم القيامة .

وما كان في (الحرمة) : بأن خان مسلماً في اهله وولده او نحوهما ، فلا وجه للاستحلال ، إذ اظهار ذلك يورث الغيظ والفتنة ، لأن من له شوب الرجولية لا يمكن أن يحل من خان في حرمته ووطأ زوجته ، كيف ولو أحله ورضى بذلك كان فيه عرق من الدياثة ، فاللازم لمثله أن يكثر التضرع والابتهال الى الله المتعال ، ويواظب على الطاعات والخيرات الكثيرة لمن خانه في مقابلة خيانته ، وإن كان حياً فليفرحه بالاحسان والانعام وبذل الاموال ، ويكرمه بالخدمة وقضاء الحوائج ، ويسعى في مهماته واغراضه ، ويتلطف به ، ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه ، فاذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه ، فربما سمحت نفسه في القيامة بالاحلال ، فان أبى أن يكون انعامه وتلطفه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة خيانته ، فان كل ظلم وايذاء وحق من حقوق العباد اذا لم يحل صاحبه يوم

القيامة يقتص من الظالم في يوم القيامة بالحكم العدل القهري بأخذ العوض ، سواء رضى الظالم ام لا ، وسواء امتنع صاحب الحق عن القبول والابراء أم لا ، كما أنه يحكم في الدنيا على من اتلف مال غيره باعطاء المثل ، ويقهر على ذلك ، ويحكم على هذا الغير بقبوله ، ويجبر عليه إن امتنع عن الابراء وعن القبول ، فكذلك يحكم أحكم الحاكمين وأعدل العادلين في محكمة القيامة ، فيقتص من كل ظالم موذ بأخذ حسناته ووضعها في موازين ارباب المظالم ، فان لم تف بها حسناته ، حمل من سيئات أرباب المظالم ، فيهلك المسكين بسيئات غيره . وبذلك يعلم : انه لا خلاص لأحد في القيامة إلا برجحان ميزان الحسنات على ميزان السيئات ، ومع الرجحان - ولو بقدر مثقال - تحصل النجاة ، فيجب على كل معتقد بيوم الحساب أن يسعى في تكثير الحسنات وتقليل السيئات ، حتى لا ترجح سيئاته يوم القيامة على حسناته ولو بمثقال فيكون من الهالكين ، وعلى كل حال لا يغفل عن التضرع والابتهال في الليل والنهار الى الله - سبحانه - ، لعله بعميم لطفه لا يفضحه يوم تبلى السرائر ، ويرضى خصمه بخفى ألطافه .

وما كان في (الدين) : بأن نسب مسلماً الى الكفر او الضلالة أو البدعة . فليكذب نفسه بين يدي من قال ذلك عنده ، ويستحل من صاحبه مع الامكان ، وبدونه فليستغفر له ويكثر الابتهال الى الله ليرضيه عنه يوم القيامة .

ومجمل ما يلزم في التوبة عن حقوق الناس : ارضاء الخصوم مع الامكان ، وبدونه التصدق وتكثير الحسنات والاستغفار ، والرجوع الى الله بالتضرع والابتهال ، وليرضيهم عنه يوم القيامة ، ويكون ذلك بمشية الله ، فلعله اذا علم الصدق من قلب عبده ، ووجد ذله وانكساره ، ترحم عليه

وأرضى خصماءه من خزانة فضله ، فلا ينبغي لأحد أن ييأس من روح الله .

فصـــل

(تكفير الصغائر ومعنى الكبائر)

اعلم ان صاحب الشرع قسم الذنوب الى كبيرة وصغيرة ، وحكم بأن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر ، وأن الصلوات الخمس لا تكفر الكبائر وتكفر الصغائر ، قال الله ـ تعالى ـ :

« إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ »(١) . وقال : « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الإِثْمِ وَالْفَواحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ »(٢) .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « الصلوات الخمس والجمعة تكفر ما بينهن ان اجتنبت الكبائر » واجتناب الكبيرة انما يكفر الصغيرة اذا اجتنبها مع القدرة والارادة ، كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه عن الوقاع ويقتصر على نظر ولمس ، فان مجاهدته نفسه في الكف عن الوقاع أشد تأثيراً في تنوير قلبه من اقدامه على النظر في اظلامه ، فهذا معنى تكفيره ، فان كان امتناعه لعجز او خوف او نحو ذلك ، فلا يصلح للتكفير ، فكذلك من لا يشتهي الخمر بطبعه ولو ابيح له لما شربه . فاجتنابه لا يكفر عن الصغائر التي هي من مقدماته كسماع الملاهي والأوتار ومثله .

ثم الكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع والعرف ، لأن الكبير والصغير من المضافات ، وما من ذنب إلا

---

(١) النساء ، الآية : ٣٠ . (٢) النجم ، الآية : ٣٢ .

وهو كبير بالاضافة الى ما دونه ، وصغير بالاضافة الى ما فوقه . وقد اختلف العلماء في تعيين الكبائر اختلافاً لا يكاد يرجى زواله ، واختلفت الروايات فيها ايضاً .

والأظهر بالنظر الى الروايات والى الجمع بينها كون الكبيرة عبارة عما توعد بالنار على فعله او ما ورد في نص الكتاب النهي عنه ، ويعني بوصفه بالكبيرة : ان العقوبة بالنار عظيمة ، او ان تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه . ويمكن ان يقال : ان الشرع لم يعينها ، وابهمها ليكون العباد على وجل منها ، فيجتنبون جميع الذنوب ، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس في طلبها ، و واظبوا في ليال متعددة على العبادات ، وكما ابهم الاسم الأعظم ليواظبوا على جميع اسماء الله . والحاصل : أن كل ما لا يتعلق به حكم الدنيا جاز أن يتطرق اليه الابهام ، والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث انها كبيرة ، فأن موجبات الحدود معلومة بأساميها ، وانما حكم الكبيرة ان اجتنابها يكفر الصغائر وان الصلوات الخمس لا تكفرها ، وهذا أمر يتعلق بالآخرة ، والابهام أليق به ، حتى يكون الناس على وجل وحذر ، فلا يتجرؤن على الصغائر اعتماداً على الصلوات الخمس واجتناب الكبائر .

فصل

(الصغائر قد تكون كبائر)

اعلم أن الصغيرة قد تكبر بأسباب :

احدها ـ الاصرار والمواظبة ، ولذلك قال الصادق ـ عليه السلام ـ : « لا صغيرة مع الاصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار » . والسر فيه : أن الصغيرة لقلة تأثيرها لا تؤثر في القلب باظلامه مرة او مرتين ، ولكن اذا تكررت وتراكمت آثارها الضعيفة صارت قوية وأثرت على التدريج في

القلب ، وذلك كما أن قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة لم يؤثر ، ولذلك قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « خير الأعمال أدومها ، وإن قل » . وإذا كان النافع هو الطاعة الدائمة وإن قلت ، فكذلك الضار هو السيئة الدائمة وإن قلت . ثم معرفة الاصرار موكول الى العرف . قال الباقر ـ ع ـ في قوله ـ تعالى ـ :

(وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)(١) :

« الاصرار : أن يذنب الذنب ، فلا يستغفر ولا يحدث نفسه بتوبة ، فذلك الاصرار » .

وثانيها ـ استصغار الذنب ، فان العبد كلما استعظمه من نفسه صغر عند الله ، وكلما استصغره كبر عند الله ، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به ، واستصغاره يصدر عن الألف به ، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب ، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات ، ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة ، لعدم تأثره به . ولذلك ورد في الخبر : « أن المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره » . وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « اتقوا المحقرات من الذنوب ، فانها لا تغفر » ، قيل : وما المحقرات ؟ قال : الرجل يذنب الذنب ، فيقول طوبى لي لو لم يكن غير ذلك » . وروى : « انه ـ صلى الله عليه وآله ـ نزل بارض قرعاء ، فقال لأصحابه : ائتونا بالحطب ، فقالوا : يا رسول الله ! نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب ، قال : فليأت كل انسان بما قدر عليه . فجاؤا به حتى رموا بين يديه بعضه على بعض ، فقال ـ صلى الله

(١) آل عمران ، الآية : ١٣٥ .

عليه وآله ـ : هكذا تجتمع الذنوب ، إياك والمحقرات من الذنوب فان لكل شيء طالباً ، ألا وإن طالبها يكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في امام مبين » . وقال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : « لا تصغر ما ينفع يوم القيامة ، ولا تصغروا يضر يوم القيامة ، فكونوا فيما أخبركم الله كمن عاين » . وقال الباقر ـ عليه السلام ـ : « اتقوا المحقرات من الذنوب فان لها طالباً ، يقول أحدكم : أذنب واستغفر الله . إن الله ـ تعالى ـ يقول :

« وَنَكْتُبُ ما قَدَّموا وَآثارَهُم وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْناهُ فى إمامٍ مُبين » (١) . وقال ـ عز وجل ـ : « إنَّها إنْ تكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أوفي السَّمواتِ أو فى الأرْضِ يَأْتِ بِها اللهُ إنَّ اللهَ لَطيفٌ خَبيرٌ » (٢) .

وقال الصادق ـ عليه السلام ـ : « إن الله يحب العبد أن يطلب اليه في الجرم العظيم ، ويبغض العبد أن يستخف بالجرم اليسير » . وقال الكاظم ـ عليه السلام ـ : « لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلوا قليل الذنوب ، فان قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيراً ، وخافوا الله في السر حتى تعطوا من انفسكم النصف » (٣) . والسر في عظم الذنب في قلب المؤمن : كونه عالماً بجلال الله وكبريائه ، فاذا نظر الى عظم من عصى به رأى الصغير كبيراً ، وقد أوحى الله الى بعض أنبيائه : « لا تنظر الى قلة الهدية وانظر الى عظم مهديها ، ولا تنظر الى صغر الخطيئة وانظر الى كبرياء من واجهته بها » .

---

(١) يس ، الآية : ١٢ . (٢) لقمان ، الآية : ١٦ .

(٣) صححنا الأحاديث كلها على اصول الكافي (باب التوبة ، وباب تفسير الذنوب) .

ولذلك قال بعض الصحابة للتابعين : « إنكم تعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر ، وكنا نعدها على عهد رسول الله من الموبقات » . إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم ، فكانت الصغائر عندهم بالاضافة الى جلال الله كبائر .

وثالثها ـ أن يأتي بالصغائر ولا يبالي بفعلها ، اغتراراً بستر الله عليه ، وحلمه عنه ، وامهاله إياه ، ولا يعلم أنه انما يمهل مقتاً ليزداد بالامهال اثماً ، فتزهق أنفسهم وهم كافرون . فمن ظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله به ، فهو جاهل بمكامن الغرور ، وآمن من مكر الله الذي لا يأمن منه إلا الكافرون .

ورابعها ـ السرور بالصغيرة واعتداد التمكن من ذلك نعمة ، والغفلة عن كونها نقمة وسبب الشقاوة ، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت وعظم أثرها في تسويد قلبه ، فمن مزق عرض مسلم وفضحه وخجله ، أو غبنه في ماله في المعاملة ، ثم فرح به ، ويقول : أما رأيتني كيف مزقت عرضه ؟ وكيف فضحته ؟ وكيف روجت عليه الزيف ؟ كانت معصيته أشد مما إذا لم يفرح بذلك وتأسف عليه ، إذ الذنوب مهلكات ، واذا ابتلى بها العبد فينبغي أن يتأسف من حيث ان العدو ـ اعني الشيطان ـ ظفر به وغلب عليه ، لا أن يفرح بغلبة العدو عليه ، فالمريض الذي يفرح بانكسار انائه الذي فيه دواؤه لتخلصه من ألم شربه ، لا يرجى شفاؤه .

وخامسها ـ أن يذنب ويظهر ذنبه بان يذكره بعد اتيانه ، أو يأتي به في مشهد غيره ، فان ذلك خيانة منه على الله الذي اسدله عليه ، وتحريك الرغبة والشر فيمن اسمعه ذنبه او اشهده فعله ، فهما خيانتان انضمتا الى خيانته فتغلظت به ، فان انضاف الى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت خيانته رابعة ، وتفاحش الأمر . وهذا لان من

صفات الله انه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر ، فالاظهار كفران لهذه النعمة ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « المستتر بالحسنة تعدل سبعين حسنة ، والمذيع بالسيئه مخذول ، والمستتر بها مغفور له » . وقال الصادق ـ عليه السلام ـ : « من جاءنا يلتمس الفقه والقرآن وتفسيره فدعوه ومن جاءنا يبدي عورة قد سترها الله فنحوه » .

وسادسها ـ ان يكون الآتي بالصغيرة عالماً يقتدي به الناس ، فاذا فعله بحضرة الناس او بحيث اطلعوا عليه ، كبر ذنبه ، وذلك كلبسه الذهب والابريسم ، واخذه مال الشبهة ، واطلاقه اللسان في اعراض الناس ، ونحو ذلك . فهذه ذنوب يقتدى العالم فيها ويتبع عليها ، فيموت ويبقى شره مستطيراً في العالم ، فطوبى لمن اذا مات ماتت معه ذنوبه ، وفي الخبر : « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من اوزارهم شيء » قال الله ـ تعالى ـ

« وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ » (١)

والآثار : ما يلحق الأعمال بعد انقضاء العمل . فعلى العالم وظيفتان : ـ احداهما ـ ترك الذنب ، والأخرى ـ اخفاؤه ، وكما تتضاعف اوزار العالم على السيئات اذا اتبع فيها ، فكذلك يتضاعف ثوابه على الحسنات اذا اتبع.

فصل

(شروط كمال التوبة)

يشترط في تمام التوبة وكمالها بعد تدارك كل معصية بما مر : من طول الندم ، وقضاء العبادات ، والخروج عن مظالم العباد ، وطول البكاء والحزن والحسرة ، واسكاب الدموع ، وتقليل الاكل ، وارتياض النفس ، ليذوب

---

(١) يس ، الآية : ١٢ .

عن بدنه كل لحم نبت من الأغذية المحرمة والمشتبهة ، قال امير المؤمنين (ع) لمن قال بحضرته : استغفر الله : « ثكلتك امك ! اندري ما الاستغفار ؟ ان الاستغفار درجة العليين ، وهو اسم واقع على ستة معان : اولها : الندم على ما مضى ، والثاني : العزم على ترك العود عليه ابداً ، والثالث : ان تؤدي الى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله املس ليس عليك تبعة ، والرابع : ان تعمد الى كل فريضة عليك ضيعتها تؤدي حقها ، والخامس : ان تعمد الى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالاحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ منهما لحم جديد ، والسادس : ان تذيق الجسم الم الطاعة كما اذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول : استغفر الله » .

فصل

(هل يصح التبعيض في التوبة)

اعلم ان التوبة عن بعض الذنوب دون بعض ممكن ويصح ، بشرط الا تكون الذنوب التي يتوب عنها مخالفة بالنوع للذنوب التي لا يتوب عنها ، كان يتوب عن الكبائر دون الصغائر ، او عن القتل والظلم ومظالم العباد دون بعض حقوق الله ، او عن شرب الخمر دون الزنا او بالعكس ، او عن شرب الخمر دون اكل اموال الناس بالباطل خيانة وتلبيساً او غصباً او قهراً ، او عن بعض الصغائر دون بعض الكبائر ، كالذي يتوب عن الغيبة مع اصراره على شرب الخمر . والدليل على امكان ذلك وصحته : ان العبد اذا علم ان الكبائر اعظم اثماً عند الله واجلب لسخط الله ومقته والصغائر اقرب الى تطرق العفو اليها ، فلا يبعد ان يتوب عن الأعظم دون الأصغر ، وكذا اذا تصور ان بعض الكبائر اشد واغلظ عند الله من بعض ، فلا يبعد ان يتوب عن الأغلظ دون الأخف ، وقد تكون ضراوة احد بنوع معصية

شديدة ، فلا يقدر على الصبر عنها ، وتكون ضراوته بنوع آخر منها اقل ، فيمكنه الترك بسهولة ، فيتوب عنه دون الأول ، وان كان الأول اغلظ واشد اثماً ، كالذي شهوته بالخمر اشد من شهوته بالغيبة ، فيترك الغيبة ويتوب عنها دون الخمر ، فالتوبة عن بعض المعاصي دون بعض مع اختلافهما نوعاً بأي نحو كان ممكن وصحيح ، ومعها يندفع عنه اثم ما تاب عنه ، ويكتب عليه اثم ما لم يتب عنه ، بل ربما كان اكثر ما وقع من التوبة من هذا القبيل ، إذ كثر التائبون في الاعصار الخالية والقرون الماضية ، ولم يكن احد منهم معصوماً ، فيكون كل منهم جازماً بأنه يصدر عنه معصية البتة . ويدل على الصحة قوله - عليه السلام - : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » حيث لم يقل : التائب من الذنوب . نعم التوبة عن بعض الذنوب دون بعض مع تماثلهما غير صحيح وغير معقول ، لاستوائهما في حق الشهوة وحق التعرض لسخط الله ، فلا معنى للتوبة عن اخذ الخبز الحرام ، أو عن أخذ الدرهم الحرام دون الدينار الحرام أو عن ترك صلاة الظهر دون العصر ، إذ لو كان ذلك صحيحاً لصح أن يتوب عن أخذ هذا الخبز دون ذلك الخبز ، او عن أخذ هذا الدرهم دون ذلك الدرهم . . . وهكذا . والحاصل : ان التوبة عن بعض الذنوب دون بعض مع تفاوتهما في العقاب واقتضاء الشهوة صحيح ، ومع تماثلهما فيهما غير معقول . ومن العلماء من قال : إن التوبة عن البعض دون البعض لا تصح مطلقاً ، واستدل على ذلك بأن التوبة عبارة عن الندم ، وإنما يندم على السرقة - مثلاً - لكونها معصية لا لكونها سرقة ، ولا يعقل أن يندم عليها دون الزنا ان كان توجعه لأجل المعصية ، اذ العلة شاملة لهما ، لان من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين ، لان التوجع هو بفوات المحبوب ، سواء كان بالسيف او بالسكين ، وكذلك توجع التائب انما هو لفوات المحبوب

بالمعصية، سواء عصى بالسرقة أو بالزنا، وجوابه قد ظهر مما ذكرناه.

فصل

(أقسام التائبين)

التائبون بين من سكنت نفسه عن الشروع إلى الذنوب فلا يحوم حومها، وبين من بقي في نفسه الشروع اليها والرغبة فيها وهو يجاهدها ويمنعها: والاول بين من سكون النزوع وبطلانه فيه لأجل قوة اليقين وصدق المجاهدة، ومن سكونه وانقطاعه بفتور في نفس الشهوة فقط؛ والأول من الأول أفضل من الثاني، والثاني منه أدون من الثاني، والوجه ظاهر. وأيضاً التائبون بين من نسي الذنب من دون اشتغال بالتفكر فيه، وبين من جعله نصب عينيه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندماً عليه. ولا ريب في أن التذكر والاحتراق بالنظر الى المبتدي ومن يخاف عليه العود أفضل، لأنه يصده عنه. والنسيان بالنظر الى المنتهى السالك والواصل الى مرتبة الحب والانس الواثق من نفسه انه لا يعود أفضل، لأنه شغل مانع عن سلوك الطريق، وحاجب من الحضور بلا فائدة. ولا ينافيه بكاء الأنبياء وتناجيهم من الذنوب، لانهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم الى الدرجات اللائقة بالامة، فانهم بعثوا لارشادهم، فعليهم التلبس بما ينتفع الامة بمشاهدته، وإن كان نازلا عن ذروة مقامهم. ولذا قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ: «أما إني لا أنسى، ولكن انسى لأشرع»(١). ولا تعجب من هذا، فان الامم في كنف شفقة الانبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء، وكالمواشي في كنف الرعاة، والاب إذا أراد أن يستنطق ولده الصغير ينزل الى درجة نطق الصبي، والراعي

(٢) الحديث نبوي مروي في احياء العلوم: ٣٨/٤.

لشاة أو طائر يصوت به رغاء أو صفيراً شبيهاً بالبهيمة والطائر ، تلطفاً في تعليمه .

فصل

(مراتب التوبة)

اعلم أن التائب إما يتوب عن المعاصي كلها ويستقيم على التوبة الى آخر عمره ، فيتدارك ما فرط ، ولا يعود الى ذنوبه ، ولا يصدر عنه معصية إلا الزلات التي لا يخلو عنها غير المعصومين ، وهذه التوبة هي التوبة النصوح ، والنفس التي صاحبها هي النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية ، أو يتوب عن كبائر المعاصي والفواحش ويستقيم على امهات الطاعات ، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تصدر عنه في مجاري احواله غفلة وسهوة وهفوة ، لا عن محض العمد وتجريد القصد ، وإذا أقدم على ذنب لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على ألا يعود الى مثله ، ويتشمر للاحتراز عن أسبابه التي تؤدي اليه ، والنفس التي هذه مرتبتها هي النفس اللوامة التي خيرها يغلب على شرها ، ولها حسن الوعد من الله ـ تعالى ـ بقوله :

((الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ المَغْفِرَةِ)) (١) .

والى مثلها الاشارة بقوله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « خياركم كل مفتن تواب » . وفي خبر آخر : « المؤمن كالسنبلة ، يفيء احياناً ويميل احياناً » . وفي خبر آخر : « لابد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة » (٢) : أي

(١) النجم ، الآية : ٣٢ .

(٢) صححنا النبويات الثلاث على احياء العلوم : ٣٩/٤ .

الحين بعد الحين . وكل ذلك شاهد صدق على ان هذا القدر من الذنوب لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبه بدرجة المصرين ، ومن يؤيس مثل هذا عن النجاة ووصوله الى درجة التائبين فهو ناقص، ومثله مثل الطبيب الذي يؤيس الصحيح من دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه مرة أو مرتين ، ومثل الفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار في أوقات نادرة . ولا ريب في نقصانه . فالعالم حق العالم هو الذي لا يؤيس الخلق من درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات. إذ امثال الفترات وما يصدر عن السهو والغفلات لا يفسد النفس ولا يبطلها بحيث لا يقبل الاصلاح ، أو يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب ، فيقدم عليه عمداً وقصدا ، لعجزه عن قهر الشهوة وقمعها ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وتارك لأكثر الذنوب مع القدرة والشهوة ، وإنما قهره بعض الشهوات بحيث يغفل عند هيجانها ويرتكب مقتضاها من دون مجاهدة وندامة ، وعند قضاء هذه الشهوة والفراغ عنها يتندم ، ويقول سأتوب عنها ، لكنه يسول نفسه ويسوف توبته يوماً بعد يوم ، والنفس التي هذه درجتها هي التي تسمى النفس المسولة المسؤل صاحبها ، واليها الاشارة بقوله ـ تعالى ـ :

((وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً))(١) .

فنجاتها من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما يتعاطاه مرجو ، فعسى الله أن يتوب عليها . ولكن يخاف عليها من حيث تسويفها وتأخيرها ،

(١) التوبة ، الآية : ١٠٢ .

فربما اختطفها الموت قبل التوبة ، ويقع أمرها في المشيئة ، فيدخل في زمرة السعداء ، أو يسلك في سلك الأشقياء ، أو يتوب ويجري مدة على الاستقامة، ثم يعود الى الذنوب عمداً وقصداً ، من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف ويتندم، بل ينهمك انهماك الغافل في الذنوب واتباع الشهوات وهذا معدود من المصرين ، ونفسه محسوبة من النفوس الامارة بالسوء الفرارة من الخير ، ومثله إن مات على التوحيد وختم له بالحسنى وغلبت طاعاته على سيئاته كان من أهل الجنة ،وإن ختم له بالسوء كان من أهل النار، وإن مات على التوحيد ولكن ترجحت سيئاته على حسناته فأمره الى الله ، ولعله يعذب في النار مدة بقدر زيادة سيئاته على حسناته ، ثم يتخلص منها بعميم لطفه .

فصل

(عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة)

اعلم أن من تاب ولا يثق من نفسه الاستقامة على التوبة فلا ينبغي أن يمنعه ذلك عن التوبة،علماً منه أنه لا فائدة فيه،فان ذلك من غرور الشيطان، ومن أين له هذا العلم ، فلعله يموت تائباً قبل أن يعود الى الذنب .

وأما الخوف من العود ، فليتداركه بتجريد القصد وصدق العزم ، فان وفى به فقد نال مطلبه ، وإلا فقد غفرت ذنوبه السابقة كلها وتخلص منها ، وليس عليه إلا هذا الذنب الذي أحدثه الآن . وهذا من الفوائد العظيمة والأرباح الجسيمة، فلا يمنعك خوف العود من التوبة، فانك من التوبة أبداً بين احدى الحسنيين : ـ احداهما ـ العظمى : وهي غفران الذنوب السابقة وعدم العود الى ذنبه في الاستقبال . ـ وثانيهما ـ وهي الصغرى : غفران الذنوب الماضية ، وإن لم يمنع العود الى الذنب في المستقبل. ثم اذا عاد الى

الذنب ينبغي أن يتوب عنه دفعة، ويتبعه بحسنة لتمحوها، فيكون ممن خلط عملا صالحاً وآخر سيئاً. والحسنات المكفرة للذنوب إما متعلقة بالقلب: وهي الندم، والتضرع الى الله، والتذلل له، واضمار الخير للمسلمين، والعزم على الطاعات، أو باللسان: وهي الاعتراف بالظلم والاساءة، وكثرة الاستغفار، أو بالجوارح: وهي أنواع الطاعات والصدقات. وينبغي ملاحظة المناسبة بين السيئة التي صدرت عنه والحسنة التي يتبعها لتمحوها. وفي الخبر: ان الذنب اذا اتبع بثمانية اعمال كان العفو عنه مرجوا: أربعة من اعمال القلوب، وهي: التوبة أو العزم على التوبة، وحب الاقلاع عن الذنب، وتخوف العقاب عليه، ورجاء المغفرة. وأربعة من اعمال الجوارح وهي: أن تصلي عقب الذنب ركعتين، ثم تستغفر الله - تعالى - بعدهما سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة، ثم تتصدق بصدقة، ثم تصوم يوماً. وفي بعض الأخبار: تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين، وفي بعضها: تصلي أربع ركعات. ولا تظنن أن الاستغفار باللسان بدون حل عقدة الاصرار لا فائدة فيه أصلا، بل هو توبة الكذابين، لما ورد من: أن المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله، لأن الاستغفار الذي هو توبة الكذابين ولا فائدة فيه أصلا هو الاستغفار بمجرد اللسان وبحكم العادة وعلى سبيل الغفلة، أي ما يكون بمجرد حركة اللسان من دون مدخلية القلب، كما اذا سمع شيئاً مخوفاً، فيقول على الغفلة: استغفر الله، أو نعوذ بالله، من غير شركة للقلب فيه وتأثره منه، وأما اذا انضاف اليه تضرع القلب وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق ارادة وخلوص رغبة وميل قلبي الى انقلاعه عن هذا الذنب فهي حسنة في نفسها، وان علم أن نفسه الامارة ستعود الى هذا الذنب فتصلح هذه الحسنة لأن يدفع بها السيئة،

فالاستغفار بالقلب وان خلا عن حل عقدة الاصرار لا يخلو عن الفائدة ، وليس وجوده كعدمه . وقد عرف ارباب القلوب بنور البصيرة معرفة قطعية يقينية لا يعتريها ريب وشبهة صدق قوله - تعالى - :

((فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)) (١) .

ولذا جزموا وقطعوا بأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر ، ولو كانت كل شعيرة خالية عن اثر لكان لا يرجح الميزان باجتماع الشعيرات ، فميزان الحسنات يترجح بذرات الخيرات الى أن يثقل فتشل كفة السيئات ، فاياك وان تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها ، وتستحقر ذرات المعاصي فلا تتقيها ، كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللا بأنها لا تقدر في كل ساعة الا على خيط واحد ، وأي غنى يحصل منه ، وما وقع ذلك في الثياب ، ولا تدري أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطاً . وان اجسام العالم مع اتساع اقطاره اجتمعت ذرة ذرة ، وربما ترتب على عمل قليل ثواب جزيل ، فلا ينبغي تحقير شيء من الطاعات . قال الصادق - عليه السلام - : « إن الله - تعالى - خبأ ثلاثاً في ثلاث : رضاه في طاعته ، فلا تحقروا منها شيئاً فلعل رضاه فيه ، وغضبه في معاصيه ، فلا تحقروا شيئاً فلعل غضبه فيه . وخبأ ولايته في عباده ، فلا تحقروا منهم احداً فلعله ولي الله » . فاذاً الاستغفار بالقلب حسنة لا يضيع اصلا ، بل ربما قيل : الاستغفار بمجرد اللسان أيضاً حسنة ، إذ حركة اللسان بها غفلة خير من السكوت عنه ، فيظهر فضله بالنظر الى السكوت عنه ، وإن كان نقصاً بالاضافة

---

(١) الزلزلة ، الآية : ٧ - ٨ .

الى عمل القلب ، فينبغي ألا تترك حركة اللسان بالاستغفار ، ويجتهد في اضافة حركة القلب اليها، ويتضرع الى الله أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير.

فصل

(علاج الاصرار على الذنوب)

اعلم أن الطريق الى تحصيل التوبة ، والعلاج لحل عقدة الاصرار على الذنوب : أن يتذكر ما ورد في فضلها ـ كما مر ـ ويتذكر قبح الذنوب وشدة العقوبة عليها، وما ورد في الكتاب والسنة من ذم المذنبين والعاصين، ويتأمل في حكايات الأنبياء وأكابر العباد ، وما جرى عليهم من المصائب الدنيوية ، بسبب تركهم الأولى وارتكابهم بعض صغائر المعاصي ، وأن يعلم أن كل ما يصيب العبد في الدنيا من العقوبة والمصائب فهو بسبب معصيته ـ كما دل عليه الأخبار الكثيرة ـ ويتذكر ما ورد من العقوبات على احاد الذنوب : كالخمر، والزنا ، والسرقة ، والقتل ، والكبر ، والحسد ، والكذب ، والغيبة ، وأخذ المال الحرام ... وغير ذلك من احاد المعاصي مما لا يمكن حصره ، ثم يتذكر ضعف نفسه وعجزها عن احتمال عذاب الآخرة وعقوبة الدنيا ، ويتذكر خساسة الدنيا وشرف الآخرة، وقرب الموت ولذة المناجاة مع ترك الذنوب، ولا يغتر بعدم الأخذ الحالي ، إذ لعله كان من الاملاء والاستدراج . فمن تأمل في جميع ذلك وعلم ذلك على سبيل التحقيق انبعثت نفسه للتوبة ، إذ لو لم ينزعج الى التوبة بعد ذلك ، فهو إما معتوه احمق أو غير معتقد بالمعاد، وينبغي أن يجتهد في قلع اسباب الاصرار من قلبه ؛ اعني الغرور ، وحب الدنيا ، وحب الجاه ، وطول الأمل . . . وغير ذلك .

فصل

(الانابـــة)

اعلم أن الانابة هو الرجوع عن كل شيء عما سوى الله، والاقبال على الله ـ تعالى ـ بالسر والقول والفعل، حتى يكون دائماً في فكره وذكره وطاعته، فهو غاية درجات التوبة وأقصى مراتبها، اذ التوبة هو الرجوع عن الذنب الى الله، والانابة هو الرجوع عن المباحات أيضاً اليه ـ سبحانه ـ فهو من المقامات العالية والمنازل السامية. قال الله ـ سبحانه ـ :

((وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ))(١). وقال ـ سبحانه ـ : ((وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ))(٢). وقال: ((وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ، هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ، ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ، لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ))(٣).

وانابة العبد تتم بثلاثة امور:

الأول ـ أن يتوجه اليه بشراشر باطنه حتى يستغرق قلبه في فكره.

الثاني ـ ألا يكون خالياً عن ذكره وذكر نعمه ومواهبه وذكر أهل حبه وتقربه.

الثالث ـ أن يواظب على طاعاته وعباداته مع خلوص النية.

---

(١) الزمر، الآية: ٥٤.　　(٣) ق، الآية: ٣١ ـ ٣٥.

(٢) المؤمن، الآية: ١٣.

المحاسبة والمراقبة

[تذنيب] ـ اعلم أن المحاسبة والمراقبة قريبة من التوبة في ضديتهما من وجه الاصرار على الذنوب . ومثلها في كونهما من ثمرات الخوف والحب وتعلقهما بقوتي الشهوة والغضب وكونهما من فضائلها ، فنحن نشير هنا الى ما يتعلق بهما من بيان حقيقتهما وفضيلتهما والأعمال التي يتوقف تماميتها عليهما في فصول .

فصل

(المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة)

[المحاسبة] : أن يعين في كل يوم وليلة وقتاً يحاسب فيه نفسه بموازنة طاعاته ومعاصيه ، ليعاتب نفسه ، ويقهرها لو وجدها في هذا اليوم والليلة مقصرة في طاعة واجبة ، أو مرتكبة لمعصية ، ويشكر الله ـ سبحانه ـ لو أتت بجميع الواجبات ولم يصدر منها معصية ، ويزيد الشكر لو صدر منها شيء من الخيرات والطاعات المندوبة .

[والمراقبة] : أن يلاحظ ظاهره وباطنه دائماً ، حتى لا يقدم على شيء من المعاصي ، ولا يترك شيئاً من الواجبات ليتوجه عليه اللوم والندامة وقت المحاسبة . هذا هو المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة ، ويأتي اعتبار امور واعمال أخر فيه عرفاً .

فصل

(حاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا)

اعلم ان الكتاب والسنة واجماع الأمة دالة على ثبوت المحاسبة يوم القيامة ، وحصول التدقيق والمناقشة في الحساب ، والمطالبة بمثاقيل

الذر من الأعمال والخطرات واللحظات ، قال الله ـ سبحانه ـ :

« وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ » (١) . وقال : « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » (٢) . وقال : « وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً » (٣) . وقال : « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ » (٤) . وقال : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً » (٥) . وقال : « ثُمَّ تُرَدُّ فِي

---

(١) الأنبياء ، الآية : ٤٧ .

(٢) المجادلة ، الآية : ٦ .

(٣) الكهف ، الآية : ٥٠ .

(٤) الزلزال ، الآية : ٦ ـ ٨ .

(٥) آل عمران ، الآية : ٣٠ .

كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لايُظْلَمونَ » (١) . وقال :

« فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ » (٢) .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « مامنكم من أحد الا ويسأله رب العالمين ، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان » . وورد بطرق متعددة: ان كل احد في يوم القيامة لايرفع قدماً عن قدم حتى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن جسده فيما ابلاه ، وعن ماله من اين اكتسبه وفيما أنفقه . والآيات والأخبار الواردة في محاسبة الأعمال والسؤال عن القليل والكثير والنقير والقطمير اكثر من أن تحصى ، وبإزائها اخبار دالة على الأمر بالمحاسبة والمراقبة في الدنيا ، والترغيب عليها ، وعلى كونها سبباً للنجاة والخلاص عن حساب الآخرة ، وخطره ومناقشته . فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب ، وطالبها في الأنفاس والحركات ، وحاسبها في الخطرات واللحظات ، ووزن بميزان الشرع أعماله وأقواله : خف في القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه ، وحسن منقلبه ومآبه . ومن لم يحاسب نفسه : دامت حسراته ، وطالت في عرصات القيامة وقفاته ، وقادته الى الخزى سيئاته . قال الله ـ سبحانه ـ :

« وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ » (٣) .

والمراد بهذا النظر : المحاسبة على الأعمال . وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « حاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا». وقال الصادق (ع): « إذا اراداحدكم الا يسأل ربه شيئاً إلاعطاه فلييأس

(١) البقرة ، الآية : ٢٨١ ، آل عمران ، الآية . ١٦١ .

(٢) الحجر ، الآية : ٩٢ . (٣) الحشر ، الآية : ١٨ .

من الناس كلهم ، ولا يكون له رجاء إلا من عند الله ـ تعالى ـ ، فاذا علم الله ـ تعالى ـ ذلك من قلبه لم يسأله شيئاً إلا أعطاه ، فحاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا عليها ، فان للقيامة خمسين موقفاً ، كل موقف مقام ألف سنة . ثم تلا :

« فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » (١) .

وتفريع المحاسبة على الأمر باليأس عن الناس والرجاء من الله ، يدل على أن الانسان إنما يرجو الناس من دون الله في عامة أمره وهو غافل عن ذلك ، وأن عامة المحاسبات إنما ترجع إلى ذلك ، وذكر الوقوف في مواقف يوم القيامة على الأمر بمحاسبة النفس يدل على أن الوقفات هناك إنما تكون للمحاسبات ، فمن حاسب نفسه في الدنيا يوماً فيوماً لم يحتج الى تلك الوقفات في ذلك اليوم ، وقال (ع) : « لو لم يكن للحساب مهول إلا حياء العرض على الله ـ تعالى ـ ، وفضيحة هتك الستر على المخفيات ، لحق للمرء الا يهبط من رؤوس الجبال ، ولا يأوي الى عمران ، ولا يأكل ، ولا يشرب ، ولا ينام ، إلا عن اضطرار متصل بالتلف ، ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة بأهوالها وشدائدها قائمة في كل نفس ، ويعاين بالقلب الوقوف بين يدى الجبار ، حينئذ يأخذ نفسه بالمحاسبة ، كانه الى عرصاتها مدعو وفي غمراتها مسؤول ، قال الله ـ تعالى ـ :

« وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ » (٢) . » (٣) ..

وقال الكاظم ـ عليه السلام ـ : « ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل

(١) المعارج ، الآية : ٤ .　　(٢) الأنبياء ، الآية : ٤٧ .

(٣) صححنا الحديث على مصباح الشريعة : باب ٨٥ ، ص ١٨٦ .

يوم ، فان عمل حسنة استزاد الله ـ تعالى ـ ، وان عمل سيئة استغفر الله منها وتاب اليه » . وفي بعض الأخبار : ينبغي ان يكون للعاقل أربع ساعات : ساعة يحاسب فيها نفسه . . .

فصل

(مقامات مرابطة العقل للنفس)

اعلم ان العقل بمنزلة تاجر في طريق الآخرة ، ورأس ماله العمر ، وقد استعان في تجارته هذه بالنفس ، فهي بمنزلة شريكه اوغلامه الذي يتجرفي ماله ، وربح هذه التجارة تحصيل الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة الموصلة الى نعيم الأبد وسعادة السرمد، وخسرانها المعاصي والسيئات المؤدية الى العذاب المقيم في دركات الجحيم ، أو نقول : رأس مال العبد في دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصي ، وموسم هذه التجارة مدة العمر ، وكما ان التاجر يشارط شريكه اولاً ، ويراقبه ثانياً ، ويحاسبه ثالثاً ، وإن قصر في التجارة ـ بالخيانة والخسران وتضييع رأس المال ـ يعاتبه ويعاقبه ويأخذ منه الغرامة ، كذلك العقل يحتاج في مشاركة النفس الى ان يرتكب هذه الأعمال ، ومجموع هذه الأعمال يسمى بـ (المحاسبة والمراقبة) تسمية الكل باسم بعض أجزائه ، وقد يسمى (مرابطة) أيضاً .

[آ] فأول الأعمال في المرابطة (المشارطة) : وهي أن يشارط النفس ويأخذ منها العهد والميثاق في كل يوم وليلة مرة ألا يرتكب المعاصي ، ولا يصدر منها شيء يوجب سخط الله ، ولا يقصر في شيء من الطاعات الواجبة ، ولا يترك ما تيسر له من الخيرات والنوافل . والأولى أن يكون ذلك بعد الفراغ عن فريضة الصبح وتعقيباتها ، فيخاطب النفس ويقول لها : يانفس ! مالي بضاعة سوى العمر ، ومهما فني فنى رأس المال ، ووقع اليأس عن التجارة

وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد، وقد أمهلني الله فيه بعظيم لطفه ،ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني الى الدنيا يوماً واحداً لأعمل صالحاً ، فاحسبي أنك توفيت ثم رددت ، فاياك أن تضيعي هذا اليوم ، فان كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لاعوض لها ، يمكن أن يشترى بها كنزاً من الكنوز لا يتناهى نعيمها أبد الآباد . ويتذكر ما ورد في بعض الأخبار : من أن كل عبد خلقت له بأزاء كل يوم وليلة من عمره اربع وعشرون خزانة مصفوفة فاذا مات تفتح له هذه الخزائن، ويشاهد كل واحد منها ويدخلها، فاذا فتحت له خزانة خلقت بأزاء الساعة التي أطاع الله فيها، يراها علوة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة، فيناله من الفرح والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسائل عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عن الاحساس بألم النار، وإذا فتحت له خزانة خلقت بأزاء الساعة التي عصى الله فيها ، يراها سوداء مظلمة يفوح نتنها ويتغشاً ظلامها ، فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لينغص عليهم نعيمها ، فاذا فتحت له خزانة بازاء الساعة التي نام فيها أوغفل أواشتغل بشيء من مباحات الدنيا، لم يشاهد فيها ما يسره ولا ما يسوؤه ، وهكذا يعرض عليه بعدد ساعات عمره الخزائن ، وعند ذلك يتحسر العبد على اهماله وتقصيره ، ويناله من الغبن ما لايمكن وصفه ، وبعد هذا التذكر يخاطب نفسه ويقول : اجتهدي اليوم في أن تعمري خزائنك ، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ولا تركني الى الكسل والبطالة فيفوتك من درجات العليين ما يدركه غيرك فتدركك الحسرة والغبن يوم القيامة إن دخلت الجنة ، إذ ألم الغبن والحسرة وانحطاط الدرجة مع وجود ما فوقها من الدرجات الغير المتناهية التي تنال اليها ابناء نوعك مما لا يطاق ، ثم يستأنف لها وصية في أعضائه السبعة :

أعني العين ، والأذن ، واللسان ، والفرج ، والبطن ، واليد ، والرجل ، ويسلمها اليها ، لأنها رعايا خادمة لباقي التجارة ،ولايتم اعمال هذهالتجارة إلا بها ، فيوصيها بحفظ هذه الأعضاء عن المعاصي التي تصدر عنها ، وباعمال كل منها فيما خلق لأجله ، ثم يوصيها بالاشتغال بوظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ، وبالنوافل والخيرات التي تقدر عليها ، وهذه شروط يفتقر اليها كل يوم، لكن إذا اعتادت النفس بتكرر المشارطة والمراقبة بالعمل بها والوفاء بحقها استغنى عن المشارطة فيها ، وإن اعتادت بالعمل في بعضها لم تكن حاجة الى المشارطة فيه ، وبقيت الحاجة اليها في الباقي ، وكل من يشتغل بشيء من اعمال الدنيا : من ولاية ، أوتجارة ، أو تدريس أو امثال ذلك : لايخلو كل يوم منه من مهم جديد ، وواقعة حادثة لها حكم جديد ، ولله فيها حق ، فعليه أن يجدد الاشتراط على نفسه بالاستقامة عليها والانقياد للحق في مجاريها ، وينبغي ان يوصيها بالتدبر في عاقبة كل امر يرتكبه في هذا اليوم والليلة . وهذه الوصية عمدة الوصايا ورأسها ، وقد روى : « أن رجلاً أتى النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ وقال : يارسول الله اوصني ، فقال له : فهل أنت مستوص إن أنا اوصيتك ؟ ـ حتى قال له ذلك ثلاثاً ، وفي كلها يقول الرجل : نعم يارسول الله ! ـ فقال له رسول الله (ص): إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته ، فان يك راشداً فامضه ، وإن يك غياً فانته » ويظهر من هذا الخبر : أن التأمل في عاقبة كل امر اعظم ما يحصل به النجاة فينبغي ان يؤكد العهد والميثاق في ذلك على النفس ويحذرها عن الاهمال ، ويعظها كما يوعظ العبد المتمرد الأبق ، فان النفس بالطبع متمردة عن الطاعات ، مستعصية عن العبودية ، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ، (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) فهذا وما يجرى مجراه هو المشارطة ،

وهو اول مقامات المرابطة .

وثانيها (المراقبة) : وهو ان يراقب نفسه عند الخوض في الاعمال ، فيلاحظها بالعين الكالئة ، فانها إن تركت طغت وفسدت ، ثم يراقب الله في كل حركة وسكون ، بأن يعلم ان الله ـ تعالى ـ مطلع على الضمائر ، عالم بالسرائر ، رقيب على اعمال العباد ، قائم على كل نفس بما كسبت ، وان سر القلب في حقه مكشوف ، كما ان ظاهر البشرة للخلق مكشوف ، بل اشد من ذلك ، قال الله ـ سبحانه ـ :

« إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً » (١) . وقال : « أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ؟ » (٢) .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « الاحسان ان تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » . وفي الحديث القدسي : « إنما يسكن جنات عدن ، الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني ، والذين انحنت اصلابهم من خشيتي ، وعزتي وجلالي ! إني لأهم بعذاب اهل الأرض فاذا نظرت الى اهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب » . وحكي : « ان زليخا لما خلت بيوسف ، فقامت وغطت وجه صنمها ، فقال يوسف . مالك ؟ اتستحيين من مراقبة جماد ولا استحيي من مراقبة الملك الجبار ؟ ! » . وهذه المعرفة ـ اعني معرفة اطلاع الله على العباد واعمالهم وسرائرهم وكونه رقيباً عليهم ـ اذا صارت يقيناً ـ اى خلت عن الشك ـ ثم استولت على القلب سخرت القلب وقهرته على مراعاة جانب الرقيب وصرفت الهمة اليه ، والموقنون بهذه المعرفة مراقبتهم على درجتين : ـ احداهما ـ

(١) النساء ، الآية : ١ .   (٢) العلق ، الآية : ١٤ .

مراقبة المقربين ، وهى مراقبة التعظيم والاجلال ، وهى أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة الجلال ، ومنكسراً تحت الهيبة ، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير ، وهذا هو الذى صار همه هماً واحداً ، وكفاه الله سائر الهموم ، ـ واخراهما ـ مراقبة الورعين من اصحاب اليمين ، وهم قوم غلب عليهم يقين اطلاع الله على ظهورهم وبواطنهم، ولكن لاتدهشهم ملاحظة الجلال والجمال ، بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للالتفات إلى الأحوال والاعمال والمراقبة فيها ، وغلب عليهم الحياء من الله ، فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة ، فانهم يرون الله مطلعاً عليهم ، فلا يحتاجون الى انتظار القيامة . ثم ينبغى للعبد ألا يغفل عن مراقبة نفسه والتضييق عليها في لحظة من حركاتها وسكناتها وخطراتها وأنعالها.

وحالاته لاتخلو عن ثلاثة ، لأنه إما أن تكون في طاعة ، أو معصية ، أومباح . فمراقبته في الطاعة : بالقربة ، والاخلاص ، والحضور ، والاكمال ، وحراستها عن الآفات ، ومراعاة الأدب . ومراقبته في المعصية : بالتوبة ، والندم ، والاقلاع ، والحياء ، والاشتغال بالتكفير . ومراقبته في المباح : بمراعاة الادب ، بأن يأكل بعد التسمية ، وغسل اليدين ، وسائر الآداب المقررة في الشرع للأكل ، ويقعد مستقبل القبلة ، وينام بعد الوضوء على اليد اليمنى مستقبل القبلة ، وبالصبر عند ابتلائه ببلية ومصيبة ، وبالشكر عند كل نعمة ، ويتذكر شهود المنعم وحضوره ، ويكف النفس عن الغضب وسوء الخلق عند حدوث أمر تميل النفس عنده الى الغضب والتضجر والتكلم بما لايحسن من الأقوال ، فان لكل واحد من أفعاله وأقواله حدوداً لابد من مراعاتها بدوام المراقبة ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، وينبغى ألا

يخلو عند اشتغاله بالمباحات عن عمل هو الأفضل ،كالذكر والفكر وتخليص النية ، فان الطعام الذي يتناوله من عجائب صنع الله ، فلو تفكر فيه وتدبر في فوائده وحكمه وما فيه من غرائب قدرة الله لكان ذلك أفضل من كثير من اعمال الجوارح ، والناس عند الأكل على أقسام : (قسم) ينظرون فيه بعين التبصر والاعتبار ، فينظرون في عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به، وكيفية تقدير الله لأسبابها وخلق الشهوة الباعثة عليها وخلق الآلات المسخرة للشهوة وأمثال ذلك ، وهؤلاءهم أولو الألباب . (وقسم) ينظرون فيه بعين المذمة والكراهة ، ويلاحظون وجه الاضطرار اليها ، ويتمنون الاستغناء عنه ، وعدم كونهم مقهورين مسخرين بشهوته ، وهؤلاءهم الزهاد . (وقسم) يرون فيه خالقه ، ويشاهدون في الصنع الصانع ، ويترقون منه الى صفات الخالق ، من حيث إن كل معلول اثر من العلة ، ورشحة من رشحات ذاته وصفاته ، فمشاهدته تذكر العلة، بل التأمل يرشدك الى أن دلالة كل ذرة ترى من ذرات العالم على ربك وخالقك وايجابها لحضوره عندك وظهوره لديك وتوجهه اليك وقربه منك اشد واقوى من دلالة مشاهدتك بدن زيد وصورته وحركاته وسكناته على وجوده وحضوره عندك ، وسر ذلك ظاهر واضح . وهؤلاء المشاهدون الصانع في كل مصنوع والخالق في كل مخلوق ، هم العرفاء المحبون ، اذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وتصنيفه وآثاره ومايتنسب اليه اشتغل قلبه بالمحبوب ،وكل مايتردد العبد فيه وينظر اليه من الموجودات هو صنع الله ـ تعالى ـ ، فله في النظر منها الى الصانع مجال إن فتحت له أبواب الملكوت . (وقسم) ينظرون فيه بعين الحرص والشهوة، وليس نظرهم الى الطعام الا من حيث يوافق شهوتهم وتلتذ به ذائقتهم ، ولذلك يذمونه لو لم يوافق هواهم ، وهؤلاء اكثر أهل الدنيا .

وثالثها ـ أي ثالث مقامات المرابطة واعمالها ـ هو (المحاسبة) بعد العمل ، فان العبد كما يختار وقتاً في أول كل يوم ليشارط فيه النفس على سبيل التوصية بالحق ، ينبغي له أن يختار وقتاً في آخر كل يوم ليطالب النفس فيه بما أوصى به ، ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها ، كما يفعل التجار في آخر كل سنة مع الشركاء . وهذا أمر لازم على كل سالك لطريق الآخرة معتقد للحساب في يوم القيامة . وقد ورد في الأخبار : أن العاقل ينبغي أن يكون له اربع ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر في صنع الله ، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب . ولذلك كان الصدر الأول من الخائفين ومن تقدمنا من سلفنا الصالحين في غاية السعي والاهتمام في محاسبة النفس ، بحيث كانت عندهم من الطاعات الواجبة ، وكانوا أشد محاسبة لنفوسهم من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح ، ويعتقدون أن العبد لا يكون من أهل التقوى والورع حتى يحاسب نفسه اتم من محاسبة شريكه ، وأن من لا يحاسب نفسه إما معتوه أحمق أو لا يعتقد بحساب يوم القيامة ، إذ العاقل المعتقد به مع اهواله وشدائده وما يوجبه من الخجلة والحياء والافتضاح ، إذا علم ان محاسبة النفس في الدنيا تسقطه او توجب خفته ، كيف يجوز له ان يتركها ؟

ثم كيفية المحاسبة بعد العمل : ان يطالب نفسه اولاً بالفرائض التي هي بمنزلة راس ماله . فان ادتها على وجهها شكر الله عليه ورغبها في مثلها ، وان فوتتها من اصلها طالبها بالقضاء ، وإن ادتها ناقصة كلفها بالجبران بالنوافل ، وان ارتكب معصية اشتغل بعتابها وتعذيبها ومعاقبتها ، واستوفى منها مايتدارك به مافرط ، كما يصنع التاجر بشريكه . وكما انه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط والنقير والقطمير ، فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان

حتى لايغبن في شيء منها ، كذلك ينبغي ان يفتش من افعال النفس ويضيق عليها ، وليتق غائلتها وحيلتها ، فانها خداعة مكارة ملبسة . فليطالبها اولاً بتصحيح الجواب عن جميع ماتكلم به طول نهاره ، وليتكفل بنفسه من الحساب قبل ان يتولاه غيره في صعيد القيامة ، ثم بتصحيح الجواب عن جميع افعاله واحواله : من نظره ، وقيامه ، وقعوده ، ونومه ، واكله ، وشربه ، حتى عن سكوته لم سكت ، وعن سكونه لم سكن ، وعن خواطره ، وافكاره ، وصفاته النفسية ، واخلاقه القلبية ، فان خرجت عن عهدة الجواب عن الجميع ، بحيث ادت الحق في الجميع ، ولم يترك شيئاً مما يجب عليها ولم ترتكب شيئاً من المعاصي : حصل لها الفراغ من حساب هذا اليوم، ولم يكن شيئاً باقياً عليها ، وان ادت الحق في البعض دون البعض ، كان قدر ما ادت الحق فيه محسوباً لها ، ويبقى غيره باقياً عليها فيثبته عليها ، وليكتب على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي على شريكه على قلبه وعلى جريدته . ثم النفس غريم يمكن ان تستوفى منها الديون ، اما بعضها فبالغرامة والضمان ، وبعضها برد عينه ، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ، ولايمكن شيء من ذلك الا بعد تحقق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه ، فاذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء .

ورابعها ـ وهو آخر مقامات المرابطة ـ (معاتبة النفس) ومعاقبتها على تقصيرها ، والمجاهدة بتكليفها الطاعات الشاقة ، والزامها الرياضات الشديدة ، فانه إذا حاسب نفسه ، فوجدها خائنة في الأعمال ، مرتكبة للمعاصي ، مقصرة في حقوق الله ، متوانية بحكم الكسل والبطالة في شيء من الفضائل ، فلا ينبغي ان يهملها ، اذ لو اهملها سهل عليه مقارفة المعاصي ، وانس بها بحيث عسر بعد ذلك فطامها عنها . فينبغي للعاقل ان يعاتبها اولاً

ويقول : اف لك يا نفس ! اهلكتيني وعن قريب تعذبين في النار مع الشياطين والاشرار ، فيا ايتها النفس الأمارة الخبيثة ! اما تستحيين وعن عيبك لاتنتهين ؟! فما اعظم جهلك وحماقتك ! اما تعرفين ان بين يديك الجنة والنار وانت صائرة إلى احداهما عن قريب ؟ فمالك تضحكين وتفرحين وباللهو والعصيان تشتغلين ؟ اما علمت ان الموت يأتي بغتة من غير اخبار ، وهو اقرب اليك من كل قريب ؟ فمالك لاتستعدين له ؟ اما تخافين من جبار السماوات والأرض، ولاتستحيين منه؟ تعصين بحضرته وانت عالمة بأنه مطلع عليك ؟ ! ويحك يانفس ! جرأتك على معصية الله ان كانت لاعتقادك انه لا يراك فما اعظم كفرك ، وان كانت مع علمك باطلاعه عليك فما اشد وقاحتك واقل حياؤك ، وما اعجب نفاقك ، وكثرة دعاويك الباطلة ! فانك تدعين الايمان بلسانك ، وأثر النفاق ظاهر عليك ! فتنبهي عن رقدتك وخذي حذرك ! لو ان يهودياً اخبرك في الذ اطعمتك بأنه يضرك لصبرت وتركتيه ! ولو اخبرك طفل بعقرب في ثوبك نزعتيه ! فقول الله وقول انبيائه المؤيدين بالمعجزات وقول الاولياء والحكماء والعلماء اقل تأثيراً عندك من قول يهودي أو طفل ؟! . . . فلا يزال يكرر عليها أمثال هذه المواعظ والتوبيخات والمعاتبات ، ثم يعاقبها ويلزمها مايشق عليها من وظائف العبادات والتصدق بما يحبه ، جبراً لمافات منها وتداركا لما فرط فيها ، فاذا اكل لقمة مشتبهة ينبغي ان يعاقب البطن بالجوع ، واذا نظر الى غير محرم يعاقب العين بمنع النظر ، واذا اغتاب مسلماً يعاقب اللسان بالصمت والذكر مدة كثيرة ، وكذلك يعاقب كل عضو من اعضائه اذا صدرت منه معصية بمنعه من شهواته ، واذا استخف بصلاة الزم نفسه بصلاة كثيرة بشرائطها وآدابها . واذا استهان بفقير اعطاه صفو ماله ، وهكذا الحال في سائر المعاصي والتقصيرات .

وطريق العلاج في إلزام النفس - بعد تقصيرها في العمل على هذه العقوبات وربطها على تلك الطاعات الشاقة والرياضات - أمران :

الأول - تذكر ما ورد في الأخبار من فضيلة رياضة النفس ومخالفتها، والاجتهاد في الطاعة والعبادة ووظائف الخيرات، قال الصادق (ع) : «طوبى لعبد جاهد في الله نفسه وهواه ! ومن هزم جند هواه ظفر برضاء الله، ومن جاوز عقله نفسه الامارة بالسوء بالجهد والاستكانة والخضوع على بساط خدمة الله - تعالى - فقد فاز فوزاً عظيماً، ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الله - تعالى - من النفس والهوى، وليس لقتلهما وقطعهما سلاح وآلة مثل الافتقار الى الله، والخشوع، والجوع والظماء بالنهار، والسهر بالليل، فان مات صاحبه مات شهيداً، وإن عاش واستقام اداه عاقبته الى الرضوان الأكبر، قال الله - عز وجل - :

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » (١).

وإذا رأيت مجتهداً ابلغ منك في الاجتهاد فوبخ نفسك ولمها وعيرها، تحثيثاً على الازدياد عليه، واجعل لها زماماً من الأمر، وعناناً من النهى، وسقها كالرابض للفارة الذى لايذهب عليه خطوة من خطواته إلا وقد صح اولها وآخرها، وكان رسول الله (ص) يصلى حتى تورمت قدماه، ويقول : (أفلا أكون عبداً شكوراً)، أراد أن يعتبر بهامته. فلا تغفلوا عن الاجتهاد والتعبد والرياضة بحال. ألا وإنك لو وجدت حلاوة عبادة الله، ورأيت بركاتها، واستضأت بنورها، لم تصبر عنها ساعة واحدة ولو قطعت ارباً

---

(١) العنكبوت، الآية : ٦٩.

اربأ ، فما أعرض عنها من اعرض إلا بحرمان فوائد السلف من العصمة والتوفيق » (١) . قيل لربيع بن خثيم ! مالك لاتنام بالليل ؟ قال : « لأني اخاف البيات » . والأخبار الواردة في فضل السعي والاجتهاد ومخالفة النفس والهوى اكثر من أن تحصى .

الثاني - مصاحبة أهل السعي ، والاجتهاد في العبادة ، ومجالسة المجاهدين المرتاضين الذين لا ينفكون ساعة من مشاق الطاعات والعبادات والزام نفوسهم على ضروب النكال والعقوبات، فملاحظة احوالهم ومشاهدة أعمالهم أقوى باعث للاقتداء بآثارهم وافعالهم، حتى قال بعضهم : «إذا اعترتني فترة في العبادات ، نظرت الى بعض العبّاد واجتهاده في العبادة فكنت بعد ذلك اعمل اسبوعاً » . إلا أن ذلك غير مرجو في أمثال زماننا ، إذ لم يبق في عباد الله من يجتهد في العبادة اجتهاد الاولين ، وليس فينا من تقرب عبادته عبادة ادنى رجل من سلفنا الصالحين، فينبغي أن يعدل عن المشاهدة الى سماع احوالهم ، ومطالعة حكاياتهم واخبارهم ، ومن لاحظ حكاياتهم وسمع احوالهم واطلع على كيفية اجتهادهم في طاعة الله، يعلم أنهم عباد الله واحباؤه وانهم ملوك الجنة. قال بعض اصحاب امير المؤمنين- عليه الصلاة والسلام-: « صلينا خلفه الفجر ، فلما سلم إنتقل الى يمينه وعليه كآبة ، فمكث حتى طلعت الشمس ، ثم قلب يده وقال : والله لقد رأيت أصحاب محمد (ص) وما أرى اليوم شيئاً شبههم ، وكانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً ، فقد باتوا لله سجداً وقياماً . يتلون كتاب الله - عز وجل - ، ويراوحون بين أقدامهم وجباههم، وكانوا اذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح ، وهملت اعينهم حتى تبل ثيابهم ، وكأن القوم باتوا غافلين ». وكان اويس القرني يقول

(١) الحديث بطوله مروى عن (مصباح الشريعة) : باب ٨١ ص ١٨٤، مع اختلاف يسير هنا ، نصححناه عليه كما كان هناك .

في بعض الليالي : « هذه ليلة الركوع » فيحيى الليل كله في ركعة ، ويقول في بعضها : « هذه ليلة السجود » فيحيى الليل كله في سجدة. وقال ربيع بن خثيم: « أتيت اويساً فوجدته جالساً قد صلى الفجر ، فجلست موضعاً ، وقلت : لاأشغله عن التسبيح . فمكث مكانه حتى صلى الظهر ولم يقم حتى صلى العصر، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ، ثم ثبت حتى صلى العشاء ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ، ثم جلس فغلبته عيناه ، فقال : اللهم إني أعوذ بك من عين نوامة وبطن لا تشبع ». وروى : « أن رجلاً من العباد كلم امرأة ووضع يده على فخذها . ثم ندم فوضع يده في النار حتى نشت (١) عقوبة لها . وبعضهم نظر الى امرأة فجعل على نفسه الا يشرب الماء البارد طول حياته ، فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش . ومر بعضهم بغرفة فقال : متى بنيت هذه الغرفة ؟ ثم اقبل على نفسه وقال : تسألين عما لايعنيك ؟! لاعاقبنك بصوم سنة، نصامها ». وروى : « أن ابا طلحة الانصاري شغل قلبه في الصلاة طير في الحائطة، فتصدق بالحائطة جبراً لما فاته من الحضور في الصلاة » . وكان بعضهم اعتلت احدى قدميه فيصلي على قدم واحدة حتى يصلي الصبح بوضوء العشاء . وكان بعضهم يقول : « ما اخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين صلاة الليل » . وحكى رجل : « أنه نزل بعض أهل الله عندنا بالمحصب (٢) وكان له أهل وبنات ، وفي كل ليل يقوم ويصلي إلى السحر، فاذا كان السحر ينادي بأعلى صوته : ايها الركب المعرسون ا(٣) اكل هذا الليل تنامون فكيف ترحلون؟ فيسمع صوته كل من كان بالمحصب،

(١) النشيش : صوت غليان الماء .

(٢) المحصب ـ بالمهملتين وضم الميم وتشديد الصاد ـ : موضع بمكة على طريق منى ، ويسمى (بطحاء) .

(٣) التعريس : نزول المسافر آخر الليل للنوم والاستراحة، من قولهم: اعرس القوم.

فيتواثبون بين باك وداع ، وقارىء ومتوضىء ، وإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته: «عند الصباح يحمد القوم السرى» ، وهكذا كان عمل عمال الله ، وسلوك سالكي طريق الآخرة ، وحكاياتهم غير محصورة خارجة عن الاحصاء ، اشرنا الى انموذج منها ليعلم الطالبون كيفية سيرة الرجال في مرابطة النفس ومراقبتها ، ويعلمون ان عباد الله ليسوا امثالنا ، بل هم قوم آخرون . قال بعض الحكماء : « إن لله عباداً انعم عليهم فعرفوه ، وشرح صدورهم فأطاعوه وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر اليه ، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين ، وبيوتاً للحكمة ، وتوابيت للعظمة ، وخزائن القدرة ، فهم بين الخلائق مقبلون ومدبرون ، وقلوبهم تجول في الملكوت ، وتلوز (١) بحجب العيوب ، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد ما لا يمكن لواصف أن يصفها ، فهم في باطن امورهم كالديباج حسناً ، وفي الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعاً ، وطريقهم لا يبلغ اليها بالتكليف ، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء » . فعليك يا حبيبي بمطالعة أحوالهم وحكاياتهم ، لينبعث نشاطك وتزيد رغبتك ، واياك أن تنظر الى اهل عصرك ، ولعمري ! قل في امثال زماننا من يذكرك الله رؤيته ، ويعينك في طريق الدين صحبته ، فان تتبع اكثر من في بلدك وعصرك يضلوك عن سبيل الله .

ومنها :

الغفلة

وهي فتور النفس عن الالتفات والتوجه إلى ما فيه غرضها ومطلبها ، إما عاجلاً أو آجلاً . وضدها : النية ، وترادفها : الارادة والقصد ، وهي

(١) في القاموس : اللوز ـ بالزاي ـ : الملاذ والملجأ .

انبعاث النفس وميلها وتوجهها الى ما فيه غرضها ومطلبها حالاً او مآلاً .
والموافق لغرض النفس إن كان خيراً لها وسعادة فى الدنيا او الدين ، فالغفلة عنه وعدم انبعاث النفس الى تحصيله رذيلة ، والنقصان والنية له والقصد اليه فضيلة وكمال ، وإن كان شراً وشقاوة ، فالغفلة عنه وكف النفس منه فضيلة والنية له وارادته رذيلة . ثم باعث النفس على النية او الغفلة والكف ، إن كان من القوة الشهوية كانت النية او الغفلة متعلقة بها فضيلة او رذيلة ، وإن كان من قوة الغضب كانت النية او الغفلة متعلقة بهذه القوة كذلك . فالنية والعزم على التزويج متعلقة بالقوة الشهوية ، وعلى دفع كافر يؤذي المسلمين متعلقة بقوة الغضب ، والنية في العبادات مع انضمام التقرب اليها تسمى اخلاصاً . ثم المتبادر من الموافق للغرض والمطلوب لما كان ما هو كذلك عند العقلاء وارباب البصيرة ، فيكون المراد منه ما هو مرغوب ومطلوب في نفس الأمر وما تحصيله خير وسعادة ، وبهذا الاعتبار تكون الغفلة باطلاقها مذمومة والنية ممدوحة ، فلو ذمت الغفلة باطلاقها ومدحت النية كذلك ، كان بهذا الاعتبار . والآيات والأخبار الواردة في ذم الغفلة خارجة بهذا الاعتبار كما وصف الله الغافلين وقال :

« إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا » (١) . وقال :
« أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » (٢) .

[تنبيه] : الغفلة بالمعنى المذكور اعم من ان يكون فتور النفس وخمودها عن الانبعاث الى ما يراه موافقاً للغرض مع الجهل بالموافق والملائم ، او مع العلم به ومع النسيان عنه ، او مع التذكر له ، وربما خص في عرف

(١) الفرقان ، الآية : ٤٤ .　　(٢) الاعراف ، الآية : ١٧٨ .

أهل النظر بصورة الذهول وعدم التذكر . ثم الكسالة والبطالة قريب من الغفلة بالمعنى العام ، وربما فرق بينهما ببعض الاعتبارات .

تتميم

(الغفلة موجبة للحرمان)

الغفلة والكسالة عما ينبغي تحصيله من أمور الدنيا والدين توجب الحرمان عن سعادة الدارين ، وتؤدي إلى شقاوة النشأتين ، إذ الاهمال في رعاية أمر المعيشة ومصالحها يؤدى الى هلاكة الشخص وانقطاع النوع ، والغفلة عن اكتساب المعارف والأخلاق الفاضلة وعن اداء الفرائض والنوافل تنجر إلى ابطال غاية الايجاد - اعنى بلوغ كل شخص الى كماله المستعد له - وهو مع كونه صريح المضادة والمنازعة لخالق العباد يوجب الهلاكة والشقاوة أبد الآباد .

وصل

ضد الغفلة النية - تأثير النية على الاعمال - النية روح الاعمال والجزاء بحسبها - عبادة الاحرار والاجراء والعبيد - نية المؤمن من العمل - النية غير اختيارية - الطريق في تخليص النية .

* * *

قد عرفت أن ضد الغفلة النية ، وهي انبعاث النفس وتوجهها الى ما يراه موافقاً لغرضها ، وقد عرفت ايضاً ان النية والارادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد ، وهي واسطة بين العلم والعمل ، إذ ما لم يعلم أمر لم يقصده، وما لم يقصد لم يفعل ، فالعلم مقدم على النية وشرطها ، والعمل ثمرتها وفرعها، إذ كل فعل وعمل يصدر عن فاعل مختار فانه لا يتم الا بعلم وشوق وارادة

وقدرة . إذ كل انسان خلق بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه ، ويخالفه بعض الأمور ، فاحتاج الى جلب الموافق ودفع المخالف المنافي ، وهو موقوف على ادراك الملائم النافع ، والمنافي الضار ، إذ ما لم يعرف الشيء لم يعقل طلبه أو الهرب عنه ، وهو العلم ، وعلى الميل والرغبة والشهوة الباعثة عليه ، وهو الشوق ، إذ من أدرك الغذاء أو النار لا يكفيه ذلك للتناول والهرب ، ما لم يكن شوق الى التناول والهرب ، وعلى القصد والشروع والتوجه اليه ، وهو النية ، إذ كم مشاهد للطعام راغب فيه شائق اليه لا يريده لكونه مؤذياً او حراماً او لعذر آخر ، وعلى القدرة المحركة للأعضاء اليه - أي الى جلب الملائم او دفع المضار - وبها يتم الفعل ، فهي الجزء الأخير للعلة التامة التي بها يتم فعل الفاعل المختار ، فالأعضاء لا تتحرك الى جانب الفعل ولا توجده إلا بالقدرة ، والقدرة تنتظر النية ، والنية تنتظر الداعية الباعثة - اعني الشوق - ، والشوق ينتظر العلم او الظن بكون ما يفعل موافقاً له ، فان كان الشوق صادراً عن القوة البهيمية ، بأن يكون الفعل مما تقتضيه هذه القوة ، كأكل ، وشرب ، وجماع ، وكسب مال ، وأمثال ذلك من الالتذاذات الشهوية ، كانت النية والقصد ايضاً متعلقة بهذه القوة معدودة من فضائلها او رذائلها . وإن كان مما تقتضيه القوة السبعية : من دفع موذ ، أو طلب الاستعلاء ، أو تفوق ، وامثال ذلك ، كانت النية ايضاً متعلقة بهذه القوة معدودة من فضائلهما او رذائلهما ، وقد ظهر بما ذكر : أن المحرك الأول هو الغرض المطلوب - أعني المقصود المنوي بعد تعلق العلم به - وهو الباعث الأول ، وينبعث منه الشوق وهو الباعث الثاني ، ويتولد منه القصد والنية وهو الباعث الثالث المحرك للقدرة الباعث لانتهاضها على تحريك الأعضاء الى جانب العمل .

فصل

(تأثير النية على الأعمال)

العمل غرضه الباعث ، أي باعثه الأول ، إما واحد : كالقيام للاكرام ، أو للهرب من السبع المتهجم عليه ، أو متعدد مع استقلال كل واحد بالباعثية متساوياً او متفاوتاً : كالتصدق للفقر والقرابة بالنظر الى من ينتهض فيه كل واحد بانفراده سبباً للاعطاء ، او بدون استقلال واحد لو انفرد ، بل المستقل المجموع ، كالمثال المذكور بالنظر الى من يعطى ماله قريبه الفقير ويمتنع عند الانفراد ، أي لا يعطيه قريبه الغني ، ولا الأجنبي الفقير ، او مع استقلال بعض دون بعض ، بأن يكون للثاني تأثير بالاعانة والتسهيل دون البعث والتحصيل ، ثم يتعدد الجزاء بتعدد البواعث ، إن خيراً فخير : كالدخول في المسجد لزيارة الله ، ولانتظار الصلاة ، والاعتكاف والانزواء والتجرد للذكر ، وترك الذنوب ، وملاقاة الاتقياء واخوانه المؤمنين ، واستماع المواعظ واحكام الدين ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وان شراً فشر : كالقعود فيه للتحدث بالباطل ، وملاحظة النساء ، والمناظرة للمباهاة والمرآة ، وربما كان بعض البواعث خيراً وبعضها شراً : كالتصدق للثواب والرياء ، ودخول المسجد لبعض البواعث الأول ، وبعض البواعث الثانية ، والعمل الذي باعثه من هذا القسم قد ظهر حكمه في باب الاخلاص . ثم باعث العمل المباح ان كان خيراً يجعله عبادة ، كالتطيب يوم الجمعة لاقامة السنة ، وتعظيم المسجد واليوم ، ودفع الاذى بالنتن ، والاكل لقوة العبادات ، والجماع للولد وتطييب خاطر الزوجة ، والترفه بنومة او دعابة مباحة لرد نشاط الصلاة ، وان كان شراً يجعله معصية ، كالتطيب للتفاخر باظهار الثروة والتزين للزنا ، ولا يؤثر في الحرام ، فلا يباح شرب الخمر لموافقة الاقران

والاخوان ، فالمعاصي لا تتغير موضوعاتها بالنية ، بخلاف الطاعات والمباحات ، فانها بالنية الصحيحة تصير أقرب القربات ، وبالفاسدة تصير اعظم المهلكات ، فما اعظم خسران من يغفل عن النية ، ويتعاطى الاعمال تعاطي البهائم المهملة على قصد حظوظ النفس او على السهو والغفلة ، وقد كانت غاية سعي السلف ان يكون لهم في كل شيء نية صحيحة ، حتى في أكلهم وشربهم ونومهم ودخولهم الخلاء .

ولا ريب في امكان تصحيح النية في كل مباح ، بحيث يترتب عليه الثواب ، بل يمكن تصحيح النية في كل نقصان مالي وعرضي ، فان من تلف له مال ، فان قال : هو في سبيل الله ، كان له أجر ، وان سرقه أحد او غصبه يمكن أن ينوي كونه من ذخائر الآخرة ، واذا بلغه اغتياب غيره له فيمكن ان يطيب خاطره بأنه سيحمل عليه سيئاته وينقل الى ديوانه حسناته ، فاياك أن تستحقر شيئاً من نياتك وخطرات قلبك ، ولا تقدم على عمل الا بنية صحيحة ، فان لم تحضرك النية توقف ، اذ النية لا تدخل تحت الاختيار ، وقد قيل : « ان من دعا اخاه الى طعام بدون رغبة باطنة في اجابته ، فان اجابه فعليه وزران : النفاق ، وتعريضه اخاه لما يكرهه لو علمه ، وان لم يجبه ولم يأكل فعليه وزر واحد هو النفاق ! » . فلابد للعبد من خالص النية في كل حركة وسكون ، لانه اذا لم يكن كذلك كان غافلاً ، والغافلون قد وصفهم الله ـ تعالى ـ فقال :

«إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا» (١) .

وصاحب خالص النية صاحب القلب السليم ، قال الصادق (ع) : « صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم ، لان سلامة القلب من هواجس

(١) الفرقان ، الآية : ٤٤ .

المحذورات بتخليص النية لله في الامور كلها ، قال الله ـ عز وجل ـ :

« يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بَنونَ ، إلاّ مَنْ أَتى اللهَ بِقَلْبٍ سَليمٍ » (١).

ثم النية تبدو من القلب على قدر صفاء المعرفة وتختلف على حسب اختلاف الاوقات في معنى قوته وضعفه ، وصاحب النية الخالصة نفسه وهواه مقهورتان تحت سلطان تعظيم الله ـ تعالى ـ والحياء منه ، وهو من طبعه وشهوته ومنيته نفسه ، في تعب ، والناس منه في راحة » (٢) .

فصل

(النية روح الاعمال ، والجزاء بحسبها)

النية روح الاعمال وحقيقتها ، والجزاء يكون حقيقة عليها ، فان كانت خالصة لوجه الله ـ تعالى ـ كانت ممدوحة ، وكان جزاؤها خيراً وثواباً ، وان كانت مشوبة بالاغراض الدنيوية كانت مذمومة ، وكان جزاؤها شراً وعقاباً، قال الله ـ سبحانه ـ :

« وَلا تَطْرُدِ الَّذينَ يَدْعونَ رَبَّهُم بالغَداةِ والعَشيِّ يُريدونَ وَجْهَهُ » (٣) .

---

(١) الشعراء ، الآية : ٨٨ ـ ٨٩ .

(٢) هذا بعض الحديث المذكور في مصباح الشريعة ـ الباب الرابع ص١٢٥ ـ ، وفي البحار ـ الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر ، باب النية وشرائطها ومراتبها ، ص ٧٧ . ط امين الضرب ـ . لكن المذكور في البحار فيه اختلاف يسير عما في المصباح ، فصححناه على البحار ، لكون المذكور في البحار اصح مما في المصباح .

(٣) الانعام ، الآية : ٥٢ .

والمراد بالارادة : النية ، لترادفهما ـ كما تقدم ـ . واوحى الله الى داود : «يا داود : لا تطاول على المريدين ، ولو علم أهل محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم ارضاً يمشون عليها ، يا داود ! لئن تخرج مريداً من كربة هو فيها تستعده، كتبتك عندي حميداً ، ومن كتبته حميداً لا يكون عليه وحشة ولا فاقة الى المخلوقين » . وقال رسول الله (ص) : « انما الاعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه » . وانما قال ذلك حين قيل له : ان بعض المهاجرين الى الجهاد ليست نيته من تلك الهجرة الا أخذ الغنائم من الاموال والسبايا او نيل الصيت عند الاستيلاء، فبين (ص) : أن كل احد ينال في عمله ما يبغيه ، ويصل الى ما ينويه ، كائناً ما كان . دنيوياً كان او أخروياً . وهذا الخبر مما يعده المحدثون من المتواترات وهو اول ما يعلمونه اولادهم ، وكانوا يقولون : انه نصف العلم . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : « ان الله لا ينظر الى صوركم واموالكم ، وانما ينظر الى قلوبكم واعمالكم ، وانما ينظر الى القلوب لانها مظنة النية » . وقال (ص) : « ان العبد ليعمل اعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف مختمة ، فتلقى بين يدي الله ـ تعالى ـ ، فيقول : القوا هذه الصحيفة ، فانه لم يرد بما فيها وجهي ، ثم ينادي الملائكة : اكتبوا له كذا وكذا ، فيقولون : يا ربنا ! انه لم يعمل شيئاً من ذلك ، فيقول الله ـ تعالى ـ انه نواه » . وقال (ص) : « الناس أربعة : رجل آتاه الله ـ عز وجل ـ علماً ومالاً فهو يعمل بعلمه في ماله ، فيقول رجل : لو آتاني الله ـ تعالى ـ مثل ما آتاه لعملت كما يعمل ، فهما في الأجر سواء ، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً ، فهو يتخبط بجهله في ماله ، فيقول رجل : لو آتاني الله مثل ما آتاه لعملت كما يعمل ، فهما في الوزر

سواء ، ألاترى كيف شاركه بالنية في محاسن عمله ومساويه ؟! » . ولما خرج (ص) الى غزوة تبوك ، قال : « ان بالمدينة اقواماً ، ما قطعنا وادياً ، ولاوطأنا موطئاً يغيظ الكفار ، ولا انفقنا نفقة ، ولا أصابتنا مخمصة ، إلا شاركونا في ذلك وهم في المدينة » ، قالوا : وكيف ذلك يارسول الله ، وليسوا معنا ؟! فقال : « حبسهم العذر ، فشاركونا بحسن النية » . وفي الخبر : ان رجلا من المسلمين قتل في سبيل الله بأيدي بعض الكفار، وكان يدعى بين المسلمين قتيل الحمار ، لأنه قاتل رجلا من الكافرين نية أن يأخذ حماره وسلبه ، فقتل على ذلك فاضيف الى نيته . وهاجر رجل الى الجهاد مع اصحاب النبي (ص) ، كانت نيته من المهاجرة ان يأخذ أمرأة كانت في عساكر الكفار ويتزوجها ـ وتسمى أم قيس ـ فاشتهر هذا الرجل عند اصحاب النبي بمهاجر أم قيس » . وفي اخبار كثيرة : « من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة » كما تقدم ، وقد ورد : أنه اذا التقى المسلمان بسيفهما، فالقاتل في النار، وكذا المقتول، لأنه أراد قتل صاحبه . وقال(ص) : « اذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم : فلان يقاتل للدنيا ، فلان يقاتل حمية ، فلان يقاتل عصبية ، ألا فلا تقولوا قتل فلان في سبيل الله إلا لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا » . وقال (ص) : « من تزوج أمرأة على صداق هو لا ينوي اداءه فهو زان ، ومن استدان ديناً وهو لاينوي قضاءه فهو سارق ، ومن تطيب لله ـ تعالى ـ جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه انتن من الجيفة » (١)، وكل ذلك مجازاة على حسب النية. وقال الصادق (ع) : « ان العبد المؤمن الفقير ليقول : يا رب ! ارزقني حتى

---

(١) صححنا النبويات كلها على احياء العلوم : ٤/٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٧ ، باب فضيلة النية .

أفعل كذا وكذا من البر ووجوه الخير ، فاذا علم الله ـ عز وجل ـ ذلك منه بصدق النية كتب له من الأجر مثل مايكتب له لو عمله، إن الله واسع كريم». وسئل (ع) عن حد العبادة التي اذا فعلها فاعلها كان مؤديا ، فقال : « حسن النية بالطاعة» . وقال (ع): «وإنما خلد أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله ـ تعالى ـ ابداً ، وإنما خلد أهل الجنة في الجنة لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً ، فبالنيات خلد هؤلاء وهؤلاء ، ثم تلا قوله ـ تعالى ـ .

« قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ » (١)

قال : على نيته » (٢). وأمثال هذه الأخبار أكثر من أن تحصى . وأي شبهة في أن عماد الأعمال النيات ، والعمل مفتقر الى النية ليصير خيرا ، والنية في نفسها خير وان تعذر العمل ، وعون الله ـ تعالى ـ للعبد على قدر النية ، فمن تمت نيته تم عون الله له ، وإن نقصت نقص بقدره ، فرب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية، ولذلك كان السلف يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العمل، ونقل: «ان بعض المريدين كان يطوف على العلماء ويقول . من يدلني على عمل لا ازال فيه عاملا لله ـ تعالى ـ ، فاني لا احب أن تأتي علي ساعة من ليل او نهار الا وأنا عامل من عمال الله ـ تعالى ـ . فقال له بعض العلماء : أنت قد وجدت حاجتك ، فاعمل الخير مااستطعت ، فاذا فترت أو تركته فهم بعمله ، اذ من هم بعمل الخير كمن يعمل به » . ثم السر في مجازاة الأعمال على حسب النية ، وكون النية حقيقة العمل وعمادا وروحاً له : ان العمل من حيث هو عمل لافائدة فيه، وانما فائدته للأثر الذي

(١) الاسراء ، الآية : ٨٤ .

(٢) صححنا الاخبار كلها على اصول الكافي ـ الجزء الثاني ، باب النية .

يصل منه الى النفس من النورانية والصفاء، ولا يزال يتكرر وصول هذا الأثر من الاعمال اليها حتى تحصل لها غاية الضياء والصفاء، فيحصل لها التجرد التام وينخرط في سلك الملائكة . ولا ريب في أن وصول هذا الأثر من الاعمال انما هو مع صحة النية وخلوصها ، وكونها لله ـ سبحانه ـ من دون شوب الاغراض ، بل التأمل يعطي ان هذا الاثر انما هو حقيقة من محض النية ، وان كانت حادثة لأجل العمل .

فصل

(عبادة الاحرار والاجراء والعبيد)

قد ظهر مما ذكر : أنه لا يحسب من عبادة الله ولا يعد من طاعة الله بحيث يترتب عليه الأجر في الآخرة إلا ما يراد التقرب الى الله والدار الآخرة، أي يراد به وجه الله من حيث هو ، من دون غرض آخر من الأغراض الدنيوية ، أو يراد به التوصل إلى ثوابه ، أو الخلاص من عقابه ، فمن أراد بعبادته محض وجه الله، واخلاصها له لكونه أهلا للعبادة، ولمحبته له لما عرفه بجلاله وجماله وعظمته ولطف فعاله ، فاحبه واشتاق اليه ، ولايريد سواه، ولا يبتهج بغير حبه وانسه والاستغراق في لجة شهوده ، فيفرح بعبادته وتوجيه قلبه اليه بطاعته . فجزاؤه أن يحبه الله ويجتبيه ، ويقربه الى نفسه ويدنيه قرباً معنوياً ودنواً روحانياً ، كما قال في حق بعض من هذا صفته :

« وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ » (١)

والى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين (ع) بقوله : « إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ، ولكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك ».

(١) ص ، الآية : ٢٥ ، ٤٠ .

وأما من غرضه نيل الثواب والخلاص من العقاب ، نظرا الى انه لم يعرف من الله سوى كونه إلهاً صانعاً للعالم قادرا قاهرا عالما ، وان له جنة ينعم بها المطيعين ، ونارا يعذب بها العاصين ، فعبده ليفوز بجنته أو يتخلص من ناره : فجزاؤه بمقتضى نيته ان يدخله جنته ، وينجيه من ناره ، لأن جزاء الأعمال على حسب النيات ، كما اخبر الله ـ تعالى ـ عنه في غير موضع من كتابه ، فان لكل امرىء ما نوى ، ولا تصغ الى قول من ذهب الى بطلان العبادة اذا قصد بفعلها الثواب أو الخلاص من العقاب زعماً منه أن هذا القصد مناف للاخلاص الذي هو ارادة وجه الله وحده ، وان من قصد ذلك إنما قصد جلب النفع الى نفسه ، ودفع الضرر عنها ، لا وجه الله ـ سبحانه ـ ، فان هذا قول من لا معرفة له بحقائق التكاليف ومراتب الناس فيها ، بل ولا معرفة له بمعنى النية وحقيقتها ، فان حقيقة النية عبارة عن انبعاث النفس وميلها وتوجهها الى ما فيه غرضها ومطلبها ، إما عاجلا او آجلا ، لا مجرد قول الناوي عند العبادة : افعل كذا قربة الى الله ، ومجرد تصور هذا القول بخاطره وملاحظته بقلبه وإن لم يكن لنفسه انبعاث الى التقرب ، هيهات هيهات ! إنما هذا تحريك لسان وحديث نفس ، وما ذلك الا كقول الشبعان : اشتهي هذا الطعام ، قاصدا حصول الاشتهاء ، وهذا الانبعاث اذا لم يكن حاصلا للنفس لا يمكنها اختراعه واكتسابه بمجرد القول والتصور ، واكثر الناس تتعذر منهم العبادة ابتغاء لوجه الله وتقرباً اليه ، لانهم لا يعرفون من الله ـ تعالى ـ الا المرجو والمخوف ، فغاية مرتبتهم ان يتذكروا النار ويحذروا انفسهم عقابها ، ويتذكروا الجنة ويرغبوا انفسهم ثوابها ، وخصوصاً من كان ملتفتاً الى الدنيا ، فانه قلما تنبعث له داعية الى فعل الخيرات لينال بها ثواب الآخرة ، فضلا عن عبادته على نية اجلال الله ـ تعالى ـ لاستحقاقه

الطاعة والعبودية ، فانه قل من يفهمها فضلا عمن يتعاطاها ، فلو كلف بها لكان تكليفاً بما لا يطاق ، وليس معنى الاخلاص في العبادة الا عدم كونها مشوبة بشوائب الدنيا والحظوظ العاجلة للنفس ، كمدح الناس ، ونيل المال ، والخلاص من النفقة لعتق العبد ونحو ذلك ، وظاهر انه لا تنافيه ارادة الجنة والخلاص من النار بما وعد في الآخرة ، وان كان من جنس المألوف في الدنيا ، ولو كان مثل هذه النيات مفسدة للعبادات لكان الترغيب والترهيب والوعد والوعيد عبثاً ، اذ كل ما وعد به الجنة واوعد عليه النار مما رغب ووعد به ورهب واوعد عليه ، وما ورد في الترغيب والترهيب والوعد والوعيد من الآيات والاخبار اكثر من ان يحصى ، قال الله ـ سبحانه ـ :

« وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً » (١)

ثم كيف يمكن للعبد الضعيف الذليل المهين الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياتاً ولا شيئاً مما ينفعه ويؤذيه ، أن يستغني عن جلب النفع لنفسه أو دفع الضرر عنها من مولاه ، ومن تأمل يجد أن القائل ببطلان العبادة باحدى النيتين ترجع نيته الصحيحة في عبادته الى احداهما وهو لا يشعر به .

ومما يدل صريحاً على ماذكرناه قول الصادق ـ عليه السلام ـ : « العباد ثلاثة : قوم عبدوا الله ـ عز وجل ـ خوفاً ، فتلك عبادة العبيد ، وقوم عبدوا الله ـ تبارك وتعالى ـ طلب الثواب ، فتلك عبادة الاجراء ، وقوم عبدوا الله ـ عز وجل ـ حباً له ، فتلك عبادة الاحرار ، وهي افضل العبادة » (٢) . وهذا يدل على ان العبادة على الوجهين الاولين لا تخلو من فضل ايضاً ، فضلا عن أن تكون صحيحة . نعم ، لا ريب فى أن العبادة على

(١) الأنبياء ، الآية : ٩٠ .

(٢) صححنا الرواية على اصول الكافي : الجزء الثاني ، باب العبادة .

الوجه الأخير لا نسبة لمنزلتها ودرجتها الى درجة العبادة على الوجهين الأولين، فان من تنعم بلقاء الله والنظر الى وجهه الكريم، يسخر ممن يلتفت الى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر الى وجه الحور العين بالملتفت الى الصور المصنوعة من الطين، وكما يسخر المتنعم بالنظر الى وجوه النساء الجميلة بالخنفساء التي تعرض عن النظر الى وجوههن وتلتفت الى صاحبتها وتألف بها، بل هذه أمثلة أوردناها من باب الاضطرار، إذ التفاوت بين جمال الحضرة الربوبية وجمال الحور العين او النسوان الجميلة اعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين وبين جمال النسوان الجميلة والخنفساء، كيف والتفاوت في الثاني متناه وفي الاول غير متناه، واي نسبة للمتناهي الى غير المتناهي؟

فصل

(نية المؤمن خير من العمل)

لما عرفت ان النية روح العمل وحقيقته، وتوقف نفع العمل عليها دون العكس، وكون الغرض الأصلي من العمل تأثير القلب بالميل الى الله - تعالى - وتوقفه على النية، فهي خير من العمل، بمعنى أن العمل اذا حلل الى جزئيه يكون جزؤه القلبي - اعني النية - خيرا من جزئه الجسماني - اعني ما يصدر من الجوارح -، والثواب المترتب عليه اكثر من الثواب المترتب عليه، ولذا قال الله - سبحانه -:

«لَن يَنالَ اللهَ لُحومُها وَلا دِماؤها وَلٰكِن يَنالُهُ التَّقْوىٰ مِنكُمْ»(١).

(١) الحج، الآية: ٣٧.

فان المقصود من اراقة دم القربان ميل القلب عن حب الدنيا ، وبذلها ايثارا لوجه الله ، دون مجرد الدم واللحم ، وميل القلب انما يحصل عند جزم النية والهم ، وان عاق عن العمل عائق ، (فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) ، والتقوى صفة القلب ، ولذا ترى ان المجامع امرأته على قصد انها غيرها آثم ، بخلاف المجامع غيرها على أنها امرأته ، ولذا ورد : أن من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ، لان هم القلب هو ميله الى الخير وانصرافه عن الهوى ، وهو غاية الاعمال الحسنة، وانما الاتمام بالعمل يزيدها تأكيدا. وبما ذكر ظهر معنى الحديث المشهور : « نية المؤمن خير من عمله، ونية الكافر شر من عمله ». وكل عامل يعمل على نيته .

وحاصله : أن كل طاعة تتضمن نية وعملا ، وكل منهما من جملة الخيرات ، وله أثر في المقصود ، وتكون النية خيرا من العمل وأثرها اكثر من اثره . والغرض : أن للمؤمن اختيارا في النية وفي العمل ، فهما عملان ، والنية من الجملة خيرهما ، اي النية التي هي جزء من طاعته خير من عمله الذي هو جزؤها الآخر .

فان قيل : ما ذكرت لا يفيد ازيد من ان العمل اذا كان مع النية يكون كل من العمل والنية خيرا وذا ثواب . واذا كان بدونها لا يكون خيرا ولا يكون له ثواب، والمقصود كون النية خيرا من العمل في الصورة الاولى وكون ثوابها اعظم ، ولم يظهر وجه الخيرية عما ذكرت .

قلت : ذلك وان ظهر اجمالا ، الا انه لابد لتوضيحه لتظهر جلية الحال ، فنقول :

الوجه في كون النية خيرا من العمل وراجحة عليه في الثواب : انه لا ريب في ان المقصود من الطاعات شفاء النفس وسعادتها في الآخرة وتنعمها

بلقاء الله ـ سبحانه ـ ، والوصول الى اللقاء موقوف على معرفة الله وحبه وانسه ، وهي موقوفة على دوام الفكر والذكر الموجبين لانقطاع النفس من شهوات الدنيا وتوجهها الى الله ـ سبحانه ـ ، فاذا حصل بمجرد المعرفة الحاصلة من الفكر ميل وتوجه الى الله ـ تعالى ـ كان ضعيفاً غير راسخ ، وانما يترسخ ويتأكد بالمواظبة على اعمال الطاعات وترك المعاصي بالجوارح، لأن بين النفس وبين الجوارح علاقة يتأثر لأجلها كل واحد منها عن الآخر ، فيرى أن العضو اذا أصابته جراحة تتألم بها النفس ، وأن النفس اذا تألمت بعلمها بموت عزيز أو بهجوم أمر مخوف تأثرت الأعضاء وارتعدت الفرائص، فالطاعات التي هي فعل الجوارح إنما شرعت للتوصل بها الى صفة النفس ـ اعني التوجه والميل الى الله سبحانه ـ ، فالنفس هو الأصل والمتبوع والأمير ، والجوارح كالخدم والأتباع ، وصفات القلب هي المقصودة لذاتها ، وافعال الجوارح هي المطلوبة بالعرض ، لكونها مؤكدة وموجبة لرسوخ النفس ـ اعني الميل والنية والتوجه ـ ولا ريب في أن ما هو المقصود بالذات خير مما هو مقصود بالعرض ، وثوابه أعظم من ثوابه .

ومن المعاني الصحيحة للحديث : أن المؤمن بمقتضى ايمانه ينوي خيرات كثيرة لا يوفق لعملها ، إما لعدم تمكنه من الوصول الى أسبابها ، أو لعدم مساعدة الوقت على عملها ، أو لممانعة رذيلة نفسانية عنها بعد الوصول الى اسبابها ، كالذي ينوي إن آتاه الله مالا ينفقه في سبيله ، ثم لما آتاه يمنعه البخل عن الانفاق ، فهذا نيته خير من عمله ، وايضاً المؤمن ينوي دائماً أن تقع عباداته على احسن الوجوه ، لأن ايمانه يقتضي ذلك ، ثم اذا اشتغل بها لا يتيسر له ذلك ، ولا يأتي بها كما يريد ، فما ينوي به دائماً خير مما يعمل به في كل عبادة ، والى هذا أشار الباقر (ع) حيث قال : « نية المؤمن خير من عمله ،

وذلك لأنه ينوي الخير ما لا يدركه ، ونية الكافر شر من عمله ، وذلك لأن الكافر ينوي الشر ويأمل من الشر ما لا يدركه » . وقيل للصادق (ع) : سمعتك تقول : نية المؤمن خير من عمله ، فكيف تكون النية خيراً من العمل؟ قال (ع) : « لأن العمل إنما كان رياء للمخلوقين ، والنية خالصة لرب العالمين ، فيعطي - عز وجل - على النية ما لا يعطي على العمل » ثم قال : « إن العبد لينوي من نهاره أن يصلي بالليل فتغلبه عينه فينام ، فيثبت الله له صلاته ويكتب نفسه تسبيحاً ويجعل نومه صدقة » . وبعض الأخبار المتقدمة يعضد ذلك ويؤكده ايضاً . وقيل : معنى الحديث : « إن النية بمجردها خير من العمل بمجرده بلا نية » . وفيه : أن العمل بدون النية لا يتصف بالخيرية أصلاً . فلا معنى للترجيح في الخيرية ، وقيل : سبب الترجيح : « إن النية سر لا يطلع عليه إلا الله ، والعمل ظاهر ، وفعل السر أفضل » . وهذا وإن كان في نفسه صحيحاً ، إلا أنه ليس مراداً من الحديث ، لأنه لو نوى أحد أن يذكر الله - تعالى - بقلبه أو يتفكر في مصالح المؤمنين ، كانت نيته بمقتضى عموم الحديث خيراً من العمل الذي هو الذكر والتفكر ، مع اشتراك النية والعمل في السرية ، وبداهة كون الذكر والتفكر خيراً من نيتهما .

فصل

(النية غير اختيارية)

النية غير داخلة تحت الاختيار ، وذلك لما عرفت من أنها انبعاث النفس وتوجهها وميلها الى ملائم ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلاً أو آجلاً ، وهذا الميل اذا لم يكن حاصلاً للنفس لم يكن اختراعه واكتسابه بمجرد الاخطار بالبال والاجراء على اللسان ، بل ذلك كقول الشبعان : نويت أن اشتهي الطعام وأميل اليه ، أو قول الفارغ : نويت أن أعشق فلاناً وأحبه ،

فلا طريق الى اكتساب صرف القلب الى الشيء وميله اليه وتوجهه نحوه ، إلا باكتساب اسبابه ، وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه ، وإنما قد تنبعث النفس الى الفعل اجابة للغرض الباعث ، الموافق للنفس الملائم لها ، وما لم يعتقد الانسان ان غرضه منوط بفعل من الافعال فلا يتوجه قصده نحوه ، وذلك مما لا يقدر على اعتقاده دائماً ، واذا اعتقد فانما يتوجه القلب اذا كان فارغاً غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه ، وذلك لا يمكن في كل وقت ، والدواعي والصوارف لها اسباب كثيرة بها ، تجتمع وتختلف ذلك بالاشخاص والاحوال والاعمال ، فاذا غلبت شهوة النكاح ولم يعتقد غرضاً صحيحاً في الولد لم يمكنه أن يتزوج على نية الولد ، بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة ، إذ النية اجابة الباعث ، ولا باعث إلا الشهوة ، فكيف ينوي الولد ، ولذا كان أهل السلوك من السلف كثيراً ما يمتنعون عن جملة من الطاعات اذا لم تحضرهم النية ، وكانوا يقولون : ليس تحضرني نية ، وذلك لعلمهم بأن النية روح الاعمال وقوامها ، وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وسبب مقت لا سبب قرب . وروى : « أنه اتى الصادق (ع) مولى له ، فسلم عليه وجلس ، فلما انصرف (ع) انصرف معه الرجل ، فلما انتهى الى باب داره دخل وترك الرجل ، فقال له ابنه اسماعيل : يا أبه ! ألا كنت عرضت عليه الدخول ؟ فقال : لم يكن من شأني ادخاله ، قال : فهو لم يكن يدخل ، قال : يا بني ! إني اكره أن يكتبني الله عراضاً » .

تتميم

(الطريق في تخليص النية)

الطريق في تخليص النية في الطاعات تقوية ايمانه بالشرع ، وتقوية ايمانه بعظم ثواب الطاعات مع خلوص النية ، واذا قوي ايمانه فربما انبعث من نفسه

رغبة الى فعل الطاعة مع خلوص النية ، مثلاً من لم تكن له نية الولد في النكاح بل كانت نيته فيه بجرد قضاء الشهوة ، فينبغي له أن يقوى ايمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير امة محمد (ص) ، ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد ، كثقل المؤونة وطول المتعب وغيره ، واذا فعل ذلك انبعثت من نفسه رغبة الى تحصيل الولد للثواب .

ومنها :

الكراهة

وهي نفرة الطبع عما لا يخلو عن ايلام واتعاب ، فاذا قويت سميت مقتاً ، وضدها الحب ، وهو ميل الطبع الى الشيء الملذ ، فان تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقاً .

اعلم أن عدم الرغبة والغفلة والكراهة والبعد امور متناسبة مترتبة بعضها على بعض ، وكذا اضدادها - اعني الشوق والنية والحب والانس - امور متناسبة يترتب بعضها على بعض ، فنحن هنا نشير اجمالا الى معانيها والفرق بينها ، ثم نذكرها مفصلة على الترتيب .

فنقول : قد عرفت ان الغفلة والنية ضدان ، وهما عبارتان عن عدم انبعاث النفس وانبعاثها الى ما فيه غرضها الملائم اما عاجلاً أو آجلاً ، واما عدم الرغبة والشوق فهما ضدان ومبدآن للغفلة والنية .

بيان ذلك : ان معنى عدم الرغبة ظاهر ، والشوق عبارة عن الرغبة الى الشيء الذي لم يصل اليه وكان مفقوداً عنه بوجه ، فالشوق لا يخلو عن ألم المفارقة ، ولو زالت المفارقة وحصل الوصال انتفى الشوق . ثم فرق الشوق عن النية ظاهر ، فان الشوق بجرد الرغبة الى الشيء من دون اعتبار انبعاث النفس الى طلبه في مفهومه ، والنية هي الانبعاث المذكور ، فالشوق مبدأ

النية ، والنية مترتبة عليه ، وبذلك يظهر الفرق بين ضديهما ايضاً - اعني عدم الرغبة والغفلة .

واما (الكراهة والحب) : فقد عرفت أنهما عبارتان عن نفرة الطبع عن المؤلم ، وعن ميله الى الملذ ، سواء انبعثت النفس عن طلبه ام لا ، وبهذا يفترق الحب عن النية ، فان النية هي انبعاث النفس ، وهو مغاير لمجرد الميل ، بل الميل منشأ للانبعاث ، وسواء حصل الوصول الى الملذ أم لا ، وبهذا يفترق عن الشوق ، فان الشوق يعتبر في مفهومه عدم الوصول ، فالشوق والنية والارادة لا ينفكان عن الحب ، والحب يكون مقارنا لهما ألبتة ، فاذا حصل الوصول الى المطلوب زال الشوق والارادة وبقي الحب بدونهما . وبما ذكر يظهر الفرق بين الكراهة وبين عدم الرغبة والغفلة .

وأما (الانس) : فهو عبارة عن استبشار النفس بما يلاحظه من المطلوب المحبوب بعد الوصول واستحكامه ورسوخه ، والبعد عبارة عن عدم الوصول الى المحبوب او الوصول الى ما لا يستبشر ولا يبتهج بملاحظته ، لعدم الرغبة اليه او للتنفر عنه ، فالحب منشأ الانس ، والانس يترتب عليه ، وهو غاية المحبة ، فلا يخلو انس عن المحبة ، والمحبة قد تكون بدونه ، ثم المطلوب المحبوب قد يكون مطلوباً للقوة العاقلة ، كالعلم بحقائق الاشياء ، وقد يكون مطلوباً للقوة الغضبية ، كالاستيلاء والغلبة ، وقد يكون مطلوباً للقوة الشهوية ، كالمال والازواج ، وعلى كل تقدير تكون الامور المذكورة - اعني عدم الرغبة والغفلة والكراهة والبعد - واضدادها - اعني الشوق والارادة والحب والانس - متعلقة بتلك القوة ، معدودة من رذائلها او فضائلها . ثم المحبوب ان كان يستحسن حبه وطلبه شرعاً وعقلاً ، كان ما يتعلق به من الشوق والارادة والحب والانس من الفضائل واضدادها من الرذائل ، وان

كان مما يذم حبه وطلبه شرعاً وعقلاً كان بالعكس .

فصل

الشوق - افضل مراتب الشوق الشوق الى الله - تعلق الحب بجميع القوى - أقسام الحب بحسب مباديه - لا محبوب حقيقة الا الله - الشهود التام هو نهاية درجات العشق - سريان الحب في الموجودات - رد المنكرين لحب الله - معرفة الله اقوى سائر اللذات - تحقيق رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه - الطريق الى الرؤية واللقاء - تفاوت المؤمنين في محبة الله - الواجب اظهر الموجودات - علائم محبة الله - معنى حب الله لعبده - الحب في الله والبغض في الله - الوفاء في الحب - الانس - الانس قد يثمر الادلال .

❁❁❁

قد تقدم تفصيل الكلام في النية والغفلة .

واما الشوق ، فنقول في بيانه : قد عرفت أن الشوق عبارة عن الميل والرغبة الى الشيء عند غيبته ، فان الحاصل الحاضر لا يشتاق اليه ، اذ الشوق طلب يسوق الى نيل امر ، والموجود لا يطلب ، فالشوق لا يتصور الا الى شيء ادرك من وجه ولم يدرك من وجه ، فما لا يدرك أصلاً لا يشتاق اليه ، اذ لا يتصور ان يشتاق احد الى شخص لم يره ولم يسمع وصفه ، وما ادرك بكماله لا يشتاق اليه ايضاً ، اذ المداوم لمشاهدة المحبوب والوصل اليه من جميع الوجوه لا يتصور ان يكون له شوق ، فالشوق يختص تعلقه بما ادرك من وجه دون وجه ، وهذا انما يكون باحد وجهين :

(احدهما) ان يتضح الشيء اتضاحاً ما ، ولم يستكمل الوضوح ، فاحتاج الى استكماله . فيكون الشوق الى ما بقي من المطلوب مما لم يحصل . مثال ذلك: ان من غاب عنه معشوقه ، وبقي في قلبه خياله ، يشتاق الى استكمال خياله بالرؤية ،

ومن رأى معشوقه في ظلمة ، بحيث لا تنكشف له حقيقة صورته ، يشتاق الى استكمال رؤيته باشراق الضوء عليه ، فلو رآه بتمام الرؤية انتفى الشوق ، كما انه لو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يعقل وجوده .

(ثانيهما) أن يدرك بعض كمالات المحبوب ، ووصل اليه ، وعلم اجمالا ان له كمالات اخر ، ولم يدركها ولم يصل اليها ، فيكون له شوق الى ادراك تلك الكمالات . مثال ذلك : ان يرى وجه محبوبه ، ولا يرى شعره ولا سائر اعضائه ، فيشتاق الى رؤية ذلك .

فصل

(افضل مراتب الشوق الشوق الى الله)

افضل مراتب الشوق هو الشوق الى الله ـ سبحانه ـ والى لقائه ، وهي المظنة الى الوصول اليه ، والى حبه وانسه والتقرب لديه ، وهو رأس مال السالكين ، ومفتاح ابواب السعادة للطالبين ، والوجهان الموجبان للشوق متصوران في حق الله ، بل هما ثابتان وملازمان لجميع العارفين ، فلا يخلو عارف من الشوق الى الله :

أما الوجه الأول ، فلأن ما اتضح للعارفين من الأمور الالهية وإن بلغ غاية الوضوح ، فكأنه من وراء ستر رقيق ، فلا يكون متضحاً غاية الاتضاح ، بل يكون مشوباً بشوائب التخيلات المكدرة للمعلومات والمانعة عن ظهورها اليقيني ، (لا) سيما اذا انضاف اليها شواغل الدنيا ، فكمال الوضوح في الأمور الالهية إنما هو بالمشاهدة واشراق التجلي ، ولا يكون ذلك في هذا العالم ، بل يكون في الآخرة ، فهذا أحـــد الموجبين لشوق العارفين الى الله ـ سبحانه ـ ، وهو الشوق الى استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحا ما .

وأما الثاني ، فلأن الأمور الالهية لا نهاية لها ، وإنما ينكشف لكل

عارف بعضها ، وتبقى امورغير متناهية خفية عنه ، والعارف اجمالا وجودها ، وكونها معلومة لله ـ تعالى ـ ، ويعلم أن ما غاب من علمه من المعلومات اكثر مما حضر ، فلا يزال متشوقاً الى أن يحصل له من المعلومات المتعلقة بعظمة الله وجلاله وصفاته وأفعاله بما لا يعرفها اصلاً ، لا مع الوضوح ولا مع الابهام والاجمال ، والشوق الأول ربما انتهى في الآخرة اذا حصل الشهود واللقاء المعنوي لأجل استخلاص النفس من موانع الطبيعة وقشوراتها وحصول التجرد التام لها ، وأما الشوق الثاني فلا يمكن أن ينتهي في الدنيا ولا في الآخرة ، إذ نهاية ذلك أن ينكشف للعبد في الآخرة من عظمة الله وكبريائه وجلاله وصفاته واحكامه وافعاله ما هو معلوم لله ـ تعالى ـ وهو محال ، إذ معلومات الله المتعلقة بذاته وصفاته وافعاله غير متناهية قوة وشدة وعدة ، فتمتنع احاطة الانسان بها ، فلا يزال العبد عالماً بأنه قد بقي من جلال الله وعظمته ومن صفته وفعله ما لم يتضح له ، فلا يسكن قط شوقه ، وما من عبد إلا ويرى فوق درجته درجات كثيرة لا نهاية لها ، فيشتاق اليها ألبتة ، واذا كان اصل الوصال واللذة حاصلاً ، فربما كان الشوق الى المراتب التي فوق مرتبتها شوقاً لذيذاً لا يظهر فيه ألم ، وربما كانت لطائف الكشف والبهجة ودرجاتهما متوالية الى غير النهاية ، وتحصل للعبد هذه الدرجات في الآخرة على التدريج ، فلا يزال العبد يتصاعد ويترقى اليها ، ولا يزال النعيم واللذة تتزايد له أبد الآباد من غير انقطاع له ، وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلا له عن الاحساس بالشوق الى ما لم يحصل له الله ، فان امكن في الآخرة حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف فى الدنيا ، لكان حصول المعارف والابتهاجات والانوار وتجددها في الآخرة ممكناً ، وإن لم يكتسب اصلها في الدنيا فيتجدد ويتوارد على العبد في الآخرة على الدوام والاستمرار

من دون أن ينتهي الى حد . وربما كان قوله ـ تعالى ـ :

« نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا »(١) :

اشارة الى هذا المعنى ، ويكون المراد به اتمام النور في عين ما استنار في الآخرة استنارة محتاجة الى الظهور ، ثم الى زيادة الاستكمال والاشراق ، وإن اختص حصول نعم الآخرة وانوارها وابتهاجاتها على النعم التي تزود من أصلها ولم يحصل للعبد ما لم يكتسب في الدنيا أصله من الانوار والابتهاجات فيكون ترقي العبد في الآخرة في ازدياد الابتهاج والاشراق فيما حصل له أصله . وعلى هذا ، فربما انتهى الى حد ووقف هناك ولا يتضاعف ، وقوله ـ تعالى ـ : « نورهم يسعى ... الى آخر الآية » يحتمل لهذا المعنى ايضاً ، بأن يكون المراد طلب اتمام نور تزود من الدنيا أصله . (قيل) : وقوله تعالى :

« أَنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً »(٢) :

يدل على أن الانوار لابد أن يتزود أصلها في الدنيا ، ثم يزداد في الآخرة اشراقاً . فاما أن يتجدد نور لم يكتسب أصله في الدنيا فلا .

ثم لا يخفى أن تعيين الاصل والفرع للانوار والابتهاجات ومراتب الآخرة عندنا مشكل ، وليس لنا طريق الى القطع بأن أي شيء أصل لاي نور وبهجة ، وربما كان المظنون عندنا : أن أصل كل نور وسعادة وبهجة هو اليقين القطعي الاجمالي بان الواجب ـ سبحانه ـ في غاية العظمة والجلال

---

(١) التحريم ، الآية : ٨ . (٢) الحديد ، الآية : ١٣ .

والقدرة والكمال ،وأنه تام فوق التمام ، وكل ماسواه من المهيات الموجودة صادرة عنه على أشرف انحاء الصدور وأقواها وأدلها على العظمة ، وأنه لا موجود ولا شيء إلا الواجب وصفاته وأفعاله ، وأن ذاته الاقدس ذات لايمكن أن يكون لذهن من الاذهان العالية، ولالمدرك من المدارك المتعالية عقلاً كان أو نفساً أو غيرهما ، لو أمكن أن يكون مدركاً ، أن يدرك في لحاظ التعقل ذاتاً يمكن أن تكون فوقه أو مثله ، بل كلما تصور اجمالا فهو فوقه ، وكذا صفاته الكمالية وافعاله ، وأن صفاته الكمالية : من عظمته، وجلاله ، وقدرته ، وجماله ، وعلمه ، وحكمته ، وغير ذلك غــير متناهية، وليس لها حد وغاية ، وماتعلق به علمه من مخلوقاته لانهاية له كثرة وقوة وكمالا ، وأن له من المراتب الغير المتناهية من العظمة والجلال مالا يطيق اشرف الموجودات واقواها لادراك أولها ، فمن عرف ذلك وتيقن به، وعلم ان هذا العالم وما فيه لا نسبة له الى عالم الآخرة ومافيه ، وأن الطافه ومزاياه الى عباده الذين عرفوا نسبتهم اليه ، وتيقنوا بأن لاشرافة ولا كمال للنفوس والعقول فوق معرفة ربهم والتقرب اليه والوصول الى حبه وانسه ، فقد وصل الى أصل كل سعادة ونور وبهجة ، لاسيما إذا دفع عن نفسه ذمائم الاخلاق واتصف بفضائلها . وقد ظهر مما ذكر : أنه لا ريب في ثبوت الشوق للعباد الى الله ـ سبحانه ـ . والعجب عن انكر حقيقة الشوق الى الله ـ سبحانه ـ لانكاره المحبة له ـ كما يأتي ـ ، إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب ، وقد عرفت ثبوته من حيث النظر والاعتبار . ولا ريب في ثبوته ـ ايضاً ـ من الآيات والاخبار : قال الله ـ سبحانه ـ :

« فَمَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ ... » الى آخر الآية (١)

(١) الكهف ، الآية : ١١١ .

فان الرجاء لا ينفك عن الشوق . وقال رسول الله (ص) في دعائه : « اللهم إني اسألك الرضاء بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر الى وجهك الكريم ، وشوقاً الى لقائك » . وفي بعض الكتب السماوية : « طال شوق الأبرار الى لقائي . وأنا الى لقائهم لأشد شوقاً » . وفي اخبار داود (ع) : « إني خلقت قلوب المشتاقين من نوري ، ونعمتها بجلالي » . وفيها ايضاً : « أنه تعالى اوحى إلى داود : يا داود ! إلى كم تذكر الجنة ولا تسألني الشوق إلي ؟ قال : يارب ! من المشتاقون اليك ؟ قال : إن المشتاقين إلي الذين صفيتهم من كل كدر ، ونبهتهم بالحذر ، وخرقت من قلوبهم الى خرقا ينظرون إلى ، وانى لأحمل قلوبهم بيدى فأضعها على سمائى ، ثم ادعو بملائكتي ، فاذا اجتمعوا سجدوني ، فأقول : انى لم اجمعكم لتسجدونى ، ولكن دعوتكم لاعرض عليكم قلوب المشتاقين الى ، واباهى بهم اياكم ، فان قلوبهم لتضيء في سمائى للملائكة كما تضيء الشمس لاهل الارض . يا داود ! انى خلقت قلوب المشتاقين من رضوانى ، ونعمتها بنور وجهى ، فاتخذتهم لنفسى محدثين ، وجعلت ابدانهم موضع نظرى الى الارض ، وقطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون به الى ، يزدادون في كل يوم شوقاً » . واوحى الله اليه ايضاً : « يا داود ! لو يعلم المدبرون عني كيف انتظارى لهم ورفقي بهم وشوقي الى ترك معاصيهم ، لماتوا شوقاً إلى ، وتقطعت اوصالهم من محبتي » . وفي بعض الاخبار القدسية : « ان لى عباداً يحبونى واحبهم ، ويشتاقون الى واشتاق اليهم ، ويذكروني واذكرهم ، واول ما اعطيتهم ان اقذف من نورى في قلوبهم ، فيخبرون عني كما اخبر عنهم ، ولو كانت السماوات والارض وما فيهما في موازينهم لاستقللتها لهم ، واقبل بوجهى عليهم ، لا يعلم أحد ما أريد أن أعطيه » . وقال الصادق (ع) : « المشتاق لا يشتهى طعاماً ، ولا يلتذ

شراباً ، ولا يستطيب رقاداً ، ولا يأنس حميماً ، ولا يأوى داراً ، ولا يسكن عمراناً ، ولا يلبس ثياباً ، ولا يقر قراراً ، ويعبد الله ليلاً ونهاراً ، راجياً بأن يصل الى ما يشتاق اليه ، ويناجيه بلسان الشوق معبراً عما في سريرته ، كما أخبر الله - تعالى - عن موسى بن عمران في ميعاد ربه بقوله : (وعجلت اليك رب لترضى) ، وفسر النبي (ص) عن حاله : (أنه ما أكل ولا شرب ولا نام ، ولا اشتهى شيئاً من ذلك في ذهابه ومجيئه اربعين يوماً شوقاً الى ربه) ، فاذا دخلت ميدان الشوق ، فكبر على نفسك ومرادك من الدنيا ، وودع جميع المألوفات ، واصرفه عن سوى مشوقك ، ولب بين حياتك وموتك : لبيك اللهم لبيك ! أعظم الله أجرك ، ومثل المشتاق مثل الغريق ، ليس له همة إلا خلاصه ، وقد نسي كل شيء دونه » (١) ، وما ورد في الادعية المعصومية من طلب الشوق أكثر من أن يحصى ، والظواهر الآتية المثبتة للمحبة والانس تثبت الشوق أيضاً .

وأما (الكراهة والبغض وضدهما - اعني الحب -) فنقول : قدعرفت أن الكراهة والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب ، والحب الذى هو ضدهما عبارة عن ميل الطبع الى الملائم الملذ .

وتوضيح ذلك : أنه لايتصور حب إلا بعد معرفة وادراك ، وكذلك لايتصف بالحب جماد ولايحب الانسان مالا يعرفه ولم يدركه ، فالحب من خاصية الحي الدراك ، بعد حصول الادراك بالفعل .

ثم لما كانت المدركات منقسمة إلى مايوافق طبع المدرك ويلذه ، والى ما يخالفه ويؤلمه ، والى مالا يؤثر فيه بالذاذ وايلام ، فالقسم الاول يكون مرغوباً عند المدرك ، ويسمى رغبة ، وميله اليه حباً ، والقسم الثاني يكون

---

(١) صححنا الحديث على مصباح الشريعة : باب ٩٩ ، ص ١٩٣ - ١٩٤ .

منفوراً عنده ، وتسمى نفرته عنه كراهة وبغضاً ، والثالث لايوصف بميل وكراهة ، فلا يوصف بكونه محبوباً ، ولا مكروهاً . ثم اللذة لما كانت عبارة عن ادراك الملائم الملذ ونيله ، فالحب الذى هو الميل والرغبة اليه لايخلو عن لذة محققة أو خيالية ، وعلى هذا فيمكن أن تعرف المحبة بأنها ابتهاج النفس بادراك الملائم ونيله ، هذا فانك قد عرفت أن المدرك إن كان مما يستحسن حبه شرعاً وعقلاً ، كان كراهته وبغضه من الرذائل وحبه من الفضائل ، وإن كان مما يذم حبه ، كان بالعكس من ذلك .

فصل

(تعلق الحب بجميع القوى)

الحب والكراهة لما كانا تابعين للادراك ، فينقسمان بحسب انقسام القوة المدركة ، التى هى الحواس الظاهرة ، والحواس الباطنة ، والقوة العاقلة . فمن الحب مايتعلق بالحواس الظاهرة ، بمعنى أن المحبوب عماهو مدرك وملذ عندها ، كالصور الجميلة المرئية ، والنغمات الموزونة ، والروائح الطيبة ، والمطاعم النفيسة ، والملبوسات اللينة بالنظر الى الخمس الظاهرة . ومنه ما يتعلق بالحواس الباطنة ، بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها ، كالصور الملائمة الخيالية ، والمعانى الجزئية الملائمة بالنسبة الى المتخيلة والواهمة . ومنه ما يتعلق بالعاقلة ، بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها ، كالمعانى الكلية ، والذوات المجردة . ولاريب في أن العقلى من الحب واللذات أقوى اللذات وابلغها ، إذ البصيرة الباطنة أقوى من البصيرة الظاهرة والعقل أقوى إدراكاً وأشد غوصاً ونفوذاً في حقائق الاشياء وبواطنها من الحس ، وجمال المعانى المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة الحسنة ، فتكون لذة العقل وحبه بما يدركه من الامور الشريفة الالهية التى

جلت عن ادراك الحواس اتم وابلغ ، ولذا جعل رسول الله (ص) الصلاة أبلغ المحبوبات عنده في الدنيا ، حيث قال : « حبب الي من دنياكم ثلاث: الطيب ، والنساء ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » ، فان الالتذاذ بالصلاة لذة عقلية ، كما أن الالتذاذ بالطيب لذة شمية ، وبالنساء نظرية ولمسية .

فان قيل : حقيقة الانسان نفسه الناطقة ، ولها ثلاث قوى ، وهي : العاقلة ، والشهوية ، والغضبية ، وقوى اخرى هي : الحواس الظاهرة والحواس الباطنة ، وشأن العاقلة ـ كما ذكرت ـ ادراك المعاني الكلية ، والحقائق المجردة ، وشأن الحواس الظاهرة ادراك المبصرات والمسموعات والمشمومات والمذوقات والملموسات ، وشأن الحواس الباطنة ادراك المعاني الجزئية ، والصور المدركة بالحواس الظاهرة وضبطها ، ومن جملة مايدرك بالحواس مايتعلق بقوتى الغضب والشهوة ، من الغلبة والاستيلاء والوصول الى المناكح والمطاعم وضدهما ، فالمحب لهذه المدركات والملتذ بها ماذا من النفس وقواها المذكورة ، وهل المحب والملتذ هو المدرك بعينه أو غيره ؟

قلنا : المحب والملتذ أولاً في كل من هذه المدركات هو المدرك ، وثانياً وبالواسطة هو النفس ، إذ كل ادراك يتعلق باحدى القوى ليصل بالآخرة الى النفس ، فيحدث فيها مايقتضيه من اللذة والألم ، إلا أن مايدرك بالحواس مما يتعلق بقوتي الشهوة والغضب لابد أن يصل اليهما ايضاً ، فيحصل لهما اللذة أو الألم ، وبواسطتهما يصل الى النفس ، فالمدرك أولاً للغلبة أو العجز هو الوهم ، فيلتذ أو يتألم ، ثم يصل منه أثر الادراك والالتذاذ والألم الى القوة الغضبية ، ويصل منها الاثر الى النفس فيلتذ أو يتألم ، والمدرك للطعم والريح واللين والنعومة هي الذائقة والشامة واللامسة . فالالتذاذ والتألم لها أولاً وبواسطتها للقوة الشهوية ، وهذا إن كانت الشهوية قوة على حدة سوى

الذائقة والشامة واللامسة وسائر الحواس الظاهرة ، وإن كانت معنى جنسياً شاملاً لجميعها فالامر ظاهر . وبما ذكر ظهر وجه تعلق الحب بجميع القوى.

فصـــل

(اقسام الحب بحسب مباديه)

اعلم ان اسباب الحب ومباديها لما كانت متعددة مختلفة فينقسم الحب لاجلها على أقسام :

47 الاول - حب الانسان وجود نفسه وبقاءه وكماله ، وهو أشد اقسام الحب واقواها، لان المحبة إنما تكون بقدر الملاءمة والمعرفة ، ولاشيء أشد ملاءمة لاحد من نفسه ، ولاهو بشيء اقوى معرفة منه بنفسه ، ولهذا جعلت معرفة نفسه مفتاحا لمعرفة ربه(١) ، وكيف لايكون حب الشيء لذاته اقوى المراتب ، مع أن الحب كلما صار أشد جعل الاتحاد بين المحب والمحبوب أوكد وأبلغ ؟ وأي اتحاد أشد من الوحدة ورفع الاثنينية بالمرة ، كما بين الشيء ونفسه ، فالمحب والمحبوب واحد ، وسبب الحب غريزة في الطباع بحكم سنة الله :

« وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللهِ تَبْدِيلاً » (٢) .

ومعنى حبه لنفسه كونه محباً لدوام وجوده ، ومكرها لعدمه وهلاكه ، فالبقاء ودوام الوجود محبوب ، والعدم ممقوت ، ولذا يبغض كل احد الموت، لابمجرد مايخافه بعده ، أولمجرد مايلزمه من سكراته ، بل لظنه أنه يوجب انعدام كله أو بعضه ، ولذا لو اختطف من غير الم وتعب ، واميت من غير ثواب وعقاب، كان كارهاً لذلك، وكما ان دوام الوجود محبوب فكذلك كمال

---

(١) كما قال امير المؤمنين عليه الصلاة والسلام : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

(٢) الاحزاب ، الآية : ٦٢ . الفتح ، الآية : ٢٣ .

الوجود محبوب ، لأن فاقد الكمال ناقص ، والنقص عدم بالاضافة الى القدر المفقود ، فالوجود محبوب في اصل الذات وبقائه وفي صفات كماله ، والعدم ممقوت فيها جميعاً .

والتحقيق : أن المحبوب ليس إلا الوجود ، والمبغوض ليس إلا العدم ، وجميع الصفات الكمالية راجعة الى الوجود ، وجميع النقائص راجعة الى العدم ، إلا أن كل فرد من الموجود لما كان له نحو خاص من الوجود ، وكانت تمامية نحو وجوده بوجود بعض الصفات الكمالية التي هي من مراتب الموجودات ، فكان وجوده مركب من وجودات متعددة ، فاذا فقد بعضها فكأنه فاقد لبعض اجزاء وجوده ، وبذلك يظهر : أن الموجود كلما كان أقوى وكان نحو وجوده أتم ، كان اجمع لمراتب الوجودات في القوة والشدة والعدة ، وكانت صفاته الكمالية اقوى واكثر ، لكونها من مراتب الوجودات ، فالوجود الواجبي الذي هو التام فوق التمام والقائم بنفسه المقوم لغيره ينطوي فيه جميع الوجودات ، ويكون محيطاً بالكل ، ثم محبة الأولاد من التحقيق يرجع إلى هذا القسم ، لان الرجل إنما يحب ولده ويتحمل المشاق لاجله ، وان لم يصل منه اليه نفع وحظ ، لعلمه بانه خليفته في الوجود بعد عدمه ، فكأن بقاءه نوع بقاء له ، فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وبمنزلة جزء منه ، لما عجز من الطمع في بقاء نفسه ، ولعدم كون بقائه هو بقاؤه بعينه يكون بقاء نفسه أحب اليه من بقاء ولده لو كان طبعه باقياً على اعتداله ، وكذلك حبه لاقاربه وعشيرته يرجع الى حبه لكمال نفسه ، فانه يرى نفسه كبيراً قوياً لاجلهم ، متجملا بسببهم ، إذ العشيرة كالجناح المكمل للانسان (١) .

(١) كما قال أمير المؤمنين ـ عليه الصلاة والسلام ـ في جملة ما أوصى به ولده الامام المجتبي ـ عليهما الصلاة والسلام ـ : « واكرم عشيرتك ، فانهم جناحك الذى به تطير ، واصلك الذي اليه تصير ، ويدك التي بها تصول » نهج البلاغة : ٦٣/٣ ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة .

الثاني ـ حبه لغيره لاجل انه يلتذ منه لذة حيوانية. كحب كل من الرجل والمرأة للآخر لاجل الجماع ، وحب الانسان المأكولات والملبوسات ، والسبب الجامع في هذا القسم هو اللذة ، وهو سريع الحصول وسريع الزوال واضعف المراتب ، لخساسة سببه وسرعة زواله .

الثالث ـ حبه للغير لاجل نفعه واحسانه ، فان الانسان عبد الاحسان ، وقد جبلت النفوس على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها ، ولذا قال رسول الله (ص) : « اللهم لا تجعل لفاجر عليّ يداً فيحبه قلبي » . فالسبب الجامع في هذا القسم هو النفع والاحسان ، وهذان القسمان عنـــد التحقيق يرجعان الى القسم الاول ، لان المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الاسباب الموصولة إلى دوام الوجود وكمال الوجود ، وسبب اللذة باعث لحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود .

والفرق أن الاعضاء ، والصحة ، والعلم ، والطعام ، والشراب ، والجماع محبوبة لان بها كمال وجوده وهي عين الكمال ، وأما الطبيب الذي هو سبب الصحة ، والعالم الذي هو سبب العلم ، ومعطي الطعام والشراب ، والمرأة التي هي آلة الوقاع : محبوبة لا لذواتها ، بل من حيث انها وسائل الى ماهو محبوب لذاته ، فاذن يرجع الفرق الى تفاوت الرتبة ، والكل يرجع الى محبة الانسان نفسه ، فمن أحب المحسن لاحسانه فما احب ذاته تحقيقاً بل أحب احسانه ، ولو زال احسانه زال حبه مع بقاء ذاته ، ولو نقص نقص الحب ، ولو زاد زاد . وبالجملة : يتطرق الى حبه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه .

الرابع ـ أن يحب الشيء لذاته ، لا لحظ يناله منه وراء ذاته ، بل تكون ذاته عين حظه ، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق به ، وذلك

كحب الجمال والحسن، فان كل جمال محبوب عند مدركه، وذلك لعين الجمال، لأن ادراك الجمال عين اللذة، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها. ولا تظنن أن حب الصورة الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة، فان قضاء الشهوة لذة حيوانية قد يحب الانسان الصور الجميلة لأجلها، وادراك نفس الجمال لذة اخرى روحانية يكون محبوباً لذاتها. ولا ريب في أن حب الصور الجميلة بالجهة الأولى مذموم، وبالجهة الثانية ممدوح، والعشق الذي يقع لبعض الناس من استحسان الصور الجميلة يكون مذموماً إن كان سببه اللذة الشهوية الحيوانية، ويكون ممدوحاً إن كان سببه الابتهاج بمجرد ادراك الجمال. ولأجل التباس السبب في هذا العشق اختلف العقلاء في مدحه وذمه. وكيف ينكر حب الصور الجميلة لنفس جمالها من دون قصد حظ آخر، مع أن الخضرة والماء الجاري محبوبان لا لتؤكل الخضرة ويشرب الماء، أو ينال منهما حظ سوى نفس الرؤية، وقد كان رسول الله (ص) تعجبه الخضرة والماء الجاري. والطباع الصافية السليمة قاضية باستلذاذ النظر الى الانوار والازهار والأطيار المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل، حتى الانسان لتنفرج عنه الغموم بمجرد النظر اليها من دون قصد حظ آخر منها. وبما ذكرناه ظهر ضعف ظن بعض ضعفاء العقول، حيث زعموا أنه لا يتصور أن يحب الانسان غيره لذاته، ما لم يرجع منه حظ الى المحب سوى ادراك ذاته، ولم يعلموا أن الحسن والجمال ليس مقصوراً على مدركات البصر، ولا على تناسب الخلقة، إذ يقال: هذا صوت حسن، وهذا طعم حسن، وهذا ريح طيب، وليس شيء من هذه الصفات مدركة بالبصر، وكذا ليس الحسن والجمال مقصوراً على مدركات الحواس، لوجودهما في غيرها، فان اكثر خصال الخير يدرك بالعقل بنور البصيرة الباطنة، إذ يقال: هذا خلق حسن، وهذا علم حسن، وهذه سيرة حسنة، ولا يدرك شيء من هذه

الصفات بالحواس، بل يدرك بالبصيرة الباطنة، وكل هذه الخصال المدركة حسنها بالعقل محبوبة بالطبع ، والموصوف بها أيضاً محبوب عند من عرف صفاته .

ومما يدل على تحقق الجمال المدرك بالعقل وكونه محبوباً : أن الطباع السليمة مجبولة على حب الأنبياء والأئمة - عليهم السلام - مع أنهم لم يشاهدوهم ، حتى أن الرجل قد تجاوز حبه لصاحب مذهبه حد العشق، فيحمله ذلك على أن ينفق جميع امواله في نصرة مذهبه والذب عنه ، ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه أو متبوعه ، مع أنه لم يشاهد قط صورته ولم يسمع كلامه، فما حمله على الحب هو استحسانه بصفاته الباطنة : من الورع ، والتقوى ، والتوكل ، والرضا ، وغزارة العلم ، والاحاطة لمدارك الدين ، وانتهاضه لافاضة علم الشرع ، ونشره هذه الخيرات في العالم ، وجملتها ترجع الى العلم والقدرة ، اذ جميع الفضائل لا تخرج عن معرفة حقائق الامور والقدرة على حمل نفسه عليها بقهر الشهوات ، وهما - اعني العلم والقدرة - غير مدركين بالحواس ، مع أنهما محبوبان بالطبع . ومن الشواهد على المطلوب : أن الناس لما وصفوا (حاتما) بالسخاء و (أنوشيروان) بالعدالة ، أحبهما القلوب حباً ضرورياً ، من دون نظرهم الى صورهما المحسوسة ، ومن غير حظ ينالونه منهما ، بل كل من حكى عنه بعض خصال الخير وصفات الكمال غلب على القلوب حبه ، مع عدم مشاهدته ويأس المحبين من انتشار خيره واحسانه اليهم ، ومن كانت بصيرته الباطنة أقوى من حواسه الظاهرة ، ونور العقل اغلب عليه من آثار الحواس الحيوانية ، كان حبه للمعاني الباطنة اكثر من حبه للمعاني الظاهرة ، فشتان بين من يحب نقشاً على الحائط لجمال صورته الظاهرة ، وبين من يحب سيد الرسل (ص) لجمال صورته الباطنة .

الخامس — محبته لمن بينه وبينه مناسبة خفية ، أو مجانسة معنوية ،

فرب شخصين تتأكد المحبة بينهما عن غير ملاحظة جمال ، ولا طمع في جاه ومال ، بل بمجرد تناسب الأرواح ،كما قال النبي (ص): « الارواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وماتناكر منها اختلف » .

السادس — محبته لمن حصل بينه وبينه الألف والأجتماع في بعض المواضع ، لاسيما اذا كان من المواضع الغريبة ، كالسفن والاسفار البعيدة . والسبب فيه :كون افراد الانسان مجبولة على المؤانسة مع التلاقي والاجتماع ، ولكون المؤانسة مركوزة في طبيعة الانسان سمي انساناً ، فهو مشتق من الانس دون النسيان ـ كما ظن ـ ، والمؤانسة لا تنفك عن المحبة ، وربما كان حصول المؤانسة والحب بين اهل البلد ، أو بينهم وبين اهل القرى ، أو بين أهل البلاد المتباعدة والمواضع المختلفة، من جملة أسرار الأمر بالجمعة والجماعة وصلاة العيدين ، والحج الباعث لاجتماع عموم الخلائق في موقف واحد .

السابع — محبته لمن يشاركه في وصف ظاهر ، كميل الصبي الى الصبي لصباه ، والشيخ الى الشيخ لشيخوخته ، والتاجر الى التاجر لتجارته ، وهكذا . . . فان كل شخص مائل الى من يشاركه في وصفه وصنعته وشغله وحرفته ، والسبب الجامع فيه هو الاشتراك في الوصف والصنعة .

الثامن — حب كل سبب وعلة لمسببه ومعلوله وبالعكس ، فان المعلول لما كان مثالا من العلة ، ومترشحاً عنها ومنبجسا منها ، ومناسباً لها لكونه من سنخها ، فالعلة تحبه لأنه فرعها وبمنزلة بعض اجزائها التي كانت منطوية فيها ، والمعلول يحبها لأنها اصله وبمنزلة كله الذي كان محتويا عليه ، فكان كلا منهما في حبه للآخر يحب نفسه .

ثم السبب ان كان علة حقيقية موجدة ، تكون سببية أقوى في حصول المحبة والاتحاد مما اذا كان علة معدة . فأقوى اقسام المحبة مايكون للواجب

- سبحانه - بالنسبة الى عباده ، وبعد ذلك لا محبة أقوى من محبة العباد العارفين بالنسبة اليه - سبحانه -، فان محبتهم له من حيث كونه موجدا مخرجا لهم من العدم الصرف إلى الوجود، ومعطياً لهم ما احتاجوا اليه في النشأتين ، ومن حيث انه - تعالى - تام فوق التمام في الذات والصفات الكمالية، والنفس بذاتها مشتاقة الى الكمال المطلق، وهذه المحبة فرع المعرفة ولا تحصل بدونها، ولذا قال سيد الرسل (ص) : « ما اتخذ الله ولياً جاهلا قط » . وحب الأب لابنه وبالعكس نسبة هذا القسم ، من حيث إن الأب سبب ظاهر لوجود الابن، وإن لم يكن سبباً حقيقياً، بل علة معدة له، فيحبه لأنه يراه بمنزلة نفسه، ويظنه مثالا من ذاته ، ونسخة نقلتها الطبيعة من صورته ، ويعد وجوده بمنزلة البقاء الثاني لنفسه ، فيظنه أنه جزؤه وفي الخلق والخلق مثله ، وكذا كل ما يريد لنفسه من الكمالات يريد أفضله له، ويفرح بترجيحه عليه، وتفضيله عليه عنده بمثابة أن يقال : انه في الآن أفضل من السابق ، ومما يؤكد محبته له : أنه يرجو منه انجاح مقاصده ومطالبه في حياته ومماته ، وليست محبة الابن للأب كمحبة الأب للابن، بل هو أضعف ، لفقد بعض الأسباب الباعثة له ، ولذا أمر الاولاد في الشريعة بحب الآباء دون العكس ، وكذا المحبة التي بين المعلم والمتعلم من هذا القسم، لأن المعلم كالسبب القريب للحياة الروحاني للمتعلم وافاضة الصورة الانسانية عليه ، كما أن الأب كالسبب لحياته الجسمانية ورتبته الصورية ، فهو والد روحاني له، وبقدر شرافة الروح على الجسم يكون المعلم أشرف من الأب، وعلى هذا ينبغي أن تكون محبة المعلم أدون من محبة الموجد الحقيقي وأكثر من محبة الأب، وقد ورد في الحديث: « ان آباءك ثلاثة : من ولدك ، ومن علمك ، ومن زوجك ، وخير الاباء من علمك » . وسئل من ذي القرنين : ان أباك احب اليك ام معلمك؟ قال: « معلمي احب الي، لأنه

سبب لحياتي الباقية ، وابي سبب لحياتي الفانية ». وقال امير المؤمنين (ع): « من علمني حرفاً فقد صيرني عبداً » . وعلى هذا ينبغي ان يكون حب النبي (ص) واوصيائه الراشدين - عليهم السلام - اوكد من جميع اقسام الحب بعد محبة الله - سبحانه - ، لأنه المعلم الحقيقي والمكمل الاول ، ولذا قال (ص): «لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من نفسه واهله وولده » .

التاسع — محبة المتشاركين في سبب واحد بعضهم لبعض ، كمحبة الاخوان والأقارب . وكلما كان السبب اقرب كانت المحبة اوكد ، ولذا تكون محبة الاخوين اشد من محبة ابناء الاعمام مثلا ، ومن عرف الله وانتساب الكل اليه ، وبلغ مقام التوحيد ، وعرف النسبة والربط الخاص الذي بين الله وبين مخلوقاته، يحب جميع الموجودات من حيث اشتراكه معها في الموجد الحقيقي ، ثم قد يجتمع بعض اسباب المحبة اكثرها في شخص واحد ، فيتضاعف الحب ، كما لو كان لرجل ولد جميل الصورة ، حسن الخلق، كامل العلم ، حسن التدبير، محسن الى والده والى الخلق ، كان حب والده له في غاية الشدة ، لاجتماع اكثر اسباب الحب فيه . وربما احب شخصا آخر لوجود بعض اسباب الحب فيه من دون عكس ، لعدم تحقق سبب من اسباب الحب فيه ، وقد تختلف فيهما اسباب الحب ، فيحب كل منهما الآخر من جهة، وتكون قوة الحب بقدر قوة السبب ، فكلما كان السبب اكثر واقوى كان الحب اشد واوكد .

فصل

(لا محبوب حقيقة الا الله)

اعلم انه لا مستحق للحب غير الله - سبحانه - ، ولا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر الا هو ، ولو كان غيره - تعالى - قابلا للحب وموضعا له فانما هو

من حيث نسبته اليه ـ تعالى ـ ، فمن احب غيره ـ تعالى ـ لامن حيث نسبته اليه ، فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله ، وكيف يكون غيره ـ سبحانه ـ من حيث هو ، لا من جهة انتسابه اليه ، مستحقا للحب ، وهو في نفسه مع قطع النظر عنه ـ تعالى ـ وعن انتسابه اليه ليس الا العدم ، والعدم كيف يصلح للحب ، فينبغي ان يكون حبه لعموم الخلق بعموم النسبة ، اي من حيث انها منه ـ تعالى ـ ، وآثاره ، ومعلولاته ،واضوائه واظلاله ، ولخصوص بعض الخواص الذين لهم خصوصية نسبة اليه ـ تعالى ـ ،كالحب ، والانس، والمعرفة ، والاطاعة لخصوص النسبة ايضا .

ومما يوضح المطلوب : ان جميع اسباب الحب مجتمعة في حق الله ـ تعالى ـ، ولا توجد في غيره حقيقة ، ووجودها في حق غيره وهم وتخيل ومجاز محض لا حقيقة له .

اما السبب الأول — اعني محبة النفس : فمعلوم ان وجود كل احد فرع لوجود ربه وظل له ، ولا وجود له من ذاته ، بل هو من حيث ذاته ليس محض وعدم صرف ، فوجوده ودوام وجوده وكمال وجوده من الله وبالله والى الله ، فهو الموجد المخترع له ، وهو المبقى له ، وهو المكمل لوجوده بايجاد صفات الكمال فيه ، فهو صرف العدم لولا فضل الله عليه بالايجاد ، وهالك بعد وجوده لولا فضله عليه بالابقاء ، وناقص بعد بقائه لولا فضله عليه بالتكميل ، فليس في الوجود شيء له قوام بنفسه الا القيوم المطلق الذي هو قائم بذاته ومقوم لغيره، وحينئذ ، فمحبة كل شيء لنفسه ترجع الى محبة ربه ، وان لم يشعر المحب به ، وكيف يتصور ان يحب الانسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه؟ مع ان من احب الظل احب بالضرورة الاشجار التي بها قوام الظل ، ومن احب النور احب لا محالة

الشمس التي بها قوام النور، وكل ما في الوجود بالاضافة الى قدرة الله -تعالى- كالظل بالاضافة الى الشجر والنور بالاضافة الى الشمس ، اذ الكل من آثار قدرته ، ووجوده تابع لوجوده ، كما ان وجود الظل تابع لوجود الشخص، ووجود النور تابع لوجود الشمس، بل هذا المثال انما هو للتفهم، وبالاضافة الى اوهام العوام، حيث يتوهمون ان الظل والنور تابعان للشخص والشمس وفايضان عنهما ، وعند التحقيق ليس الظل والنور أثرين للشخص والشمس وموجودين بهما ، بل هما فايضان من الله - تعالى - ، موجودان به بعد حصول الشرائط، كما ان اصل الشخص والشمس وشكلهما وصورتهما وسائر صفاتهما منه -تعالى-.

واما السبب الثاني ، والثالث — اعني الالتذاذ والاحسان ، سواء كان متعدياً الى المحب ام لا ؛ فمعلوم انه لا لذة ولا احسان الا من الله - تعالى - ، ولا محسن سوى الله ، فانه خالق الاحسان وذويه ، وفاعل اسبابه ودواعيه ، وكل محسن فهو حسنة من حسنات قدرته وحسن فعاله ، وقطرة من بحار كماله وافضاله .

واما الرابع — اعني الحسن والجمال والكمال : فلا ريب في انه -تعالى- هو الجميل بذاته والكامل بذاته ، وهو الجمال الخالص ، والكمال المطلق ، وحقيقتهما منحصرة به - تعالى - ، وما يوجد في غيره - تعالى - من الجمال والكمال لايخلو عن شوائب الخلل والنقصان، اذ النقص شامل لجميع الممكنات وانما تتفاوت في درجات النقص . وقد عرفت ان الجمال المعنوي اقوى من الجمال الصوري ، ومن كان من اهل البصيرة والكمال يكون حبه للجمال الباطن المعنوي اكثر واقوى من حبه للجمال الصوري ، وحقيقة الجمال المعنوي الذي هو وجوب الوجود ، وكمال العلم والقدرة ، والاستيلاء على الكل ، واستناد الجميع اليه ، منحصر بالله - تعالى - ، فاذا كان الجمال

المشوب بالنقص محبوباً ، فكيف لا يكون الجمال الخالص البحت الذي لا يتصور جمال فوقه محبوباً ، بل المحبوب حقيقة ليس الا هو .

باده، خاك آلودتان مجنون كند   صاف اكر باشد ندانم چون كند(١)

على ان كل جميل بالجمال الظاهر الصوري ، او بالجمال الباطن المعنوي، رشحة من رشحات جماله ، وكل كامل فكماله فرع كماله ، فكل من احب جميلا احب خالقه وما احب احداً غير الله ـ تعالى ـ ، لكنه احتجب عنه تحت وجوه الاحباب واستار الاسباب ، هذا مع ان عمدة جمال المخلوقين انما هو علمهم بالله وبصفاته وافعاله ، وقدرتهم على اصلاح نفوسهم بازالة الرذائل والخبائث الشهوية المانعة عن التقرب الى الله ـ تعالى ـ ، وباتصافهم بمعالي الصفات وشرائفها المقربة الى الله ، وعلى اصلاح عباد الله بالارشاد والسياسة ، ومعلوم ان هذه الامور اضافات الى الله ـ سبحانه ـ ، فحبها يرجع الى حبه ـ تعالى ـ .

واما الخامس ـ اعني المناسبة الخفية والمجانسة المعنوية : فلا ريب في ان النفس الناطقة الانسانية مناسبة مجهولة خفية مع باريها وموجدها ،اذ هي شعلة من شعلات جلاله، وبارقة من بوارق جماله،ولذا قال الله ـ سبحانه ـ :

« قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » (٢) . وقال : « إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » (٣) .

اذ لم يستحق آدم خلافة الله لا بتلك المناسبة ، وبهذه المناسبة ينقطع العبد الى ربه ، ويعرفه عند ابتلائه بمصيبة وبلية ، وهذه المناسبة لا تظهر

---

(١) ان خمركم الملوث بالغبار يجنني !!
فلست ادري ما هو مفعوله ان كان صافياً ؟!!

(٢) بني اسرائيل ، الآية : ٨٥ .

(٣) البقرة ، الآية : ٣٠ .

ظهوراً تاماً إلا بالمواظبة على النوافل بعد احكام الفرائض ، كما قال الله ـ تعالى ـ : « لا يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به » . وهذا موضع تزل فيه الاقدام ، حتى وقع قوم في التشبيه الظاهر ، وآخرون في الحلول والاتحاد ، وأهل الحق الذين انكشفت لهم استحالة التشبيه والاتحاد ، وفساد طرفي التفريط والافراط ، واتضحت لهم حقيقة السر ، وعرفوا تلك المناسبة واستقاموا عليها : هم الاقلون . ثم من المناسبة الظاهرة التي بين العبد وبين ربه هو قرب العبد من الله في الصفات الربوبية والاخلاق الالهية : كالعلم ، والبر ، والاحسان ، واللطف ، وافاضة الخير والرحمة على الخلق ، وارشادهم الى الحق . . . الى غـــير ذلك من الصفات الالهية ، ولذا قيل : تخلقوا باخلاق الله . ولا ريب في ان ذلك يقرب العبد الى الله ، ويصيره مناسباً له . واما العلية والمعلولية فالامر فيه ظاهر ، وباقي الاسباب اسباب ضعيفة نادرة ، اعتبارها في حق الله نقص .

وقد ظهر مما ذكر : أن اسباب الحب بجملتها متظاهرة في حق الله ـ تعالى ـ تحقيقاً لا مجازاً ، وفي اعلى الدرجات لا ادناها . ثم كل من يحب احداً من الخلق بسبب من هذه الاسباب يتصور ان يحب غيره لمشاركته اياه في السبب . والشركة نقصان في الحب ، لا يتصف احد بوصف محبوب إلا ويوجد شريك له فيه ، والله ـ سبحانه ـ هو الذي لا يشاركه غيره في اوصاف الكمال والجمال ، لا وجوداً ولا امكاناً ، فلا جرم لا يكون في حبه شركة ، فلا يتطرق اليه نقصان ، كما لا تتطرق الشركة والنقصان الى اوصاف كماله ، فهو المستحق لاصل المحبة وكمالها ، ولا متعلق للمحبة إلا هو ، إلا انه لا يعرف ذلك إلا العارفون من اوليائه واحبائه ، كما قال سيد الشهداء (عليه السلام)

في دعاء عرفة بقوله : « وانت الذي ازلت الاغيار عن قلوب احبائك ، حتى لم يحبوا سواك ، ولم يلجأوا الى غيرك » .

تكميل

(الشهود التام هو نهاية درجات العشق)

قد صرح اساطين الحكمة : « ان الاشياء المختلفة لا يمكن ان يحصل بينها تشاكل وتآلف تام حتى يحصل بينها الاتحاد والمحبة ، واما الاشياء المتماثلة المتشاكلة فيشتاق بعضها الى بعض ويسر بعضها ببعض ، ويحصل بينها التآلف والحب والوحدة والاتحاد » .

والتوضيح : ان الجواهر البسيطة لتشاكلها وتماثلها يحن بعضها الى بعض فيحصل بينها التآلف التام ، والتوحد الحقيقي في الذوات والحقائق ، بحيث يرتفع عنها التغاير والاختلاف ، إذ التغاير من لوازم المادية . واما الماديات فلا يمكن ان يحصل بينها هذا التآلف والتوحد ، ولو حصل بينهما تآلف وشوق ، فانما هو بتلاقي السطوح والنهايات دون الحقائق والذوات ، وليس يمكن ان يبلغ مثل هذه الملاقاة الى درجة الاتحاد والاتصال فيحصل بينها الانفصال . فالجوهر البسيط المودع في الانسان - اعني النفس الناطقة - اذا صفى عن الكدورات الطبيعية ، وتطهر عن الاخباث الجسمانية ، وتخلى عن حب الشهوات والعلائق الدنيوية ، انجذب بحكم المناسبة الى عالم القدس ، وحدث فيه شوق تام الى اشباهه من الجواهر المجردة ، ويرتفع منها الى ما هو فوق الكل ومنبع جميع الخيرات ، فيستغرق في مشاهدة الجمال الحقيقي ، ومطالعة جمال الخير المحض ، وينمحي في انوار تجلياته القاهرة ، ويصل الى مقام التوحيد الذي هو نهاية المقامات ، فيفيض عليه من انواره ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على خاطر ، فيحصل له من البهجة واللذة

ما يضمحل عنده كل بهجة ولذة ، والنفس التي بلغت هذا المقام لا يتفاوت حالها كثيراً في حالتي التعليق بالبدن والتجرد عنه ، إذ استعمال القوى البدنية لا يصدها عن ملاحظة الجمال المطلق ، وما يحصل لغيرها من السعادة في الآخرة يحصل لها في هذه النشأة :

امروز در آن کوش که بینا باشی
حـــیران جمال آن دلا را باشی
شرمت بادا چو کودکان درشب عید
تا چند در انتظار فردا باشي ؟ (١)

نعم ، الشهود التام ، والابتهاج الصافي عن الشوب ، يتوقف على تجردها الكلي عن البدن ، فانها وإن لاحظت بنور البصيرة في هذه النشأة جمال الوحدة الصرفة ، إلا أن ملاحظتها لا تخلو عن شوائب الكدرة الناشية من الطبيعة ، فالصفاء التام يتوقف على التجرد الكلي ، ولذا تشتاق أبداً الى رفع هذا الحجاب ، ويقول :

حجاب چهرهٔ جان میشود غبار تنم
خوشا دمي كه از اين چهره پرده برفكنم
چنين قفس نه سراي چو من خوش الحاني است
روم بروضهٔ رضوان که مرغ آن چمنم (٢)

---

(١) جاهد اليوم لكي تمسي بصير ولكي يسحرك الحسن المثير
افلا تخجل والعمر قصير في مساء العيد كالطفل الغرير
ترقب الصبح بقلب مستطير ؟!

(٢) درن الابدان قدمد على القلب الغطاءا ما احيلى ساعة انفض عن روحي الغشاءا
لم يكن مألف مثلي قفص .. فلأنتفض عنه للرضوان إذ كنت له اشدو غناءا

وهذه المحبة نهاية درجات العشق ، وغاية الكمال المتصورة لنوع الانسان ، وذروة مقامات الواصلين ، وغاية مراتب الكاملين ، فما بعدها مقام إلا وهو ثمرة من ثمراتها ، كالانس والرضا والتوحيد ، ولا قبلها مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها ، كالصبر والزهد وسائر المقامات . وهذا العشق هو الذي افرط العرفاء وارباب الذوق فى مدحه ، وبالغوا في الثناء عليه نثراً ونظماً . وصرحوا بأنه غاية الاتحاد والكمال المطلق ، ولا كمال إلا هو ، ولا سعادة الا به ، كما قيل :

عشق است هرچه هست بگفتيم وگفته اند

عشقت بوصل دوست رساند بضرب دست (١)

وقيل :

جز محبت هرچه بردم سود در محشر نداشت

دين ودانش عرض كردم كس بچيزي بر نداشت (٢)

فصل

(سريان الحب في الموجودات)

اكثر اقسام المحبة فطرية طبيعية ، كمحبة المتناسبين والمتجانسين ، والعلة والمعلول ، ومحبة الجمال وغير ذلك ، والارادي الكسبي منها قليل ، كمحبة المتعلم للمعلم ، وربما أمكن ارجاعه ايضاً الى الطبيعي . واذا كان الحب طبيعياً فالاتحاد الذى من مقتضياته يكون ايضاً طبيعياً ، فيكون الذلك انفل من

---

(١) كل ما في الحياة عشق ، وقد قالوا

وقلنا : بالسعي وصل الحبيب !

(٢) لم يفدني في الحشر إلا الغرام !

فعلى العلم والرشاد السلام !

العدالة التي تقتضي الاتحاد الصناعي . ثم مع وجود المحبة لا حاجة الى العدالة إذ هي فرع الكثرة المحوجة الى الاتحاد القشري ، فمع وجود الاتحاد الطبيعي لا يقع الاحتياج اليه ، وقد صرح قدماء الحكمة بأن قوام الموجودات وانتظامها بالمحبة ، والمحبة الفطرية ثابتة بينها ، وليس شيء من الموجودات خالياً عنها كما أنه ليس شيء منها خالياً عن الوجود والوحدة ، وقد صرّحوا بأنه كل الوحدة ، فهو سار في جميع الكائنات : من الافلاك والعناصر والمركبات ، إذ الحب والشوق الى التشبه بالفاعل رقص الافلاك وادار رحاها ، (بسم الله مجراها ومرساها) والحب هو سبب ميل العناصر الى اجسادها الطبيعية ، وميل المركبات بعضها الى بعض :

سرّ حب ازلي برهمه اشيا ساريست ورنه بركل نزدي بلبل بيدل فرياد (١)

ثم لما كانت المحبة التي هي ظل الوحدة مقتضية للبقاء والكمال ، وضدها موجباً للفساد والاختلال ، ولكل منهما مراتب ودرجات ، فتختلف الموجودات بحسبها في درجات الكمال والنقصان . والمتأخرون خصصوا الحب بذوي العقول ، فلا يطلقون اسم الحب على ميل العناصر الى مراكزها وميل المركبات بعضها الى بعض ، كميل الحديد الى المغناطيس ، ولا اسم الكراهة والبغض على المنافرة التي بينها ، كمنافرة الحجر الباغض الخل من الخل ، بل يسمونها بالميل والهرب ، وكذا الموافقة والمعاداة اللتين بين العجم من الحيوانات ، لا يطلقون عليها اسم الحب والبغض ، بل يسمونها بالألف والنفرة .

---

(١) آه لولا الحب يسري في جميع الكائنات

ما على الورد غدا البلبل يزجي النغمات

فصـل

(رد المنكرين لحب الله)

قد ظهر مما ذكر : ثبوت حقيقة المحبة ولوازمها من الشوق والانس لله - تعالى - ، وأنه المستحق للحب دون غيره ، وبذلك ظهر فساد زعم من أنكر امكان حصول محبة العبد لله - تعالى - وقال : « لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله ، واما حقيقة المحبة فمحال الا مع الجنس والمثل » .

ولما انكروا المحبة ، انكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه ، ويدل على فساد هذا القول - مضافاً الى ما ذكر - اجماع الامة على كون الحب لله ولرسوله فرضاً ، وما ورد في الآيات والأخبار والآثار من الأمر به والمدح عليه ، واتصاف الانبياء والاولياء به ، وحكايات المحبين ، وقد بلغت من الكثرة والصراحة حداً لا يقبل الكذب والتأويل ، فمن شواهد القرآن قوله - تعالى - :

« يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ »(١) . وقوله : « وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلّهِ » (٢) . وقوله - تعالى - : « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ... - الى قوله - : « أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ ... » الى آخر الآية (٣) .

وأما الاخبار الواردة والآثار ، فقد قال رسول الله (ص) : « لا يؤمن

---

(١) المائدة ، الآية : ٥٧ .

(٢) البقرة ، الآية : ١٦٥ .

(٣) التوبة ، الآية : ٢٥ .

احدكم حتى يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما » . وقال (ص) : « الحب من شروط الايمان » . وقال (ص) : « احبوا الله لما يغذوكم به من نعمة ، واحبوني لحب الله » . وقد نظر (ص) الى بعض اصحابه مقبلاً وعليه اهاب كبش ، فقال (ص) : « انظروا الى هذا الرجل الذي قد نور الله قلبه ، لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله وحب رسوله الى ما ترون » . وقال (ص) في دعائه : « اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك وحب من يقربني الى حبك ، واجعل حبك احب الي من الماء البارد » . وفي الخبر المشهور : « ان ابراهيم (ع) قال لملك الموت ، اذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلاً يميت خليله ؟ فأوحى الله ـ تعالى ـ اليه : هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه ؟ فقال : يا ملك الموت ! الآن فاقبض ». واوحى الله الى موسى (ع) : « يا ابن عمران ! كذب من زعم انه يحبني فاذا جنه الليل نام عني ، اليس كل محب يحب خلوة حبيبه ، ها انا ذا يا ابن عمران مطلع على احبائي ، اذا جنهم الليل حولت ابصارهم الى من قلوبهم ، ومثلت عقوبتي بين اعينهم ، يخاطبوني عن المشاهدة ، ويكلموني عن الحضور ، يا ابن عمران ! هب لي من قلبك الخشوع ، ومن بدنك الخضوع ، ومن عينك الدموع في ظلم الليل ، فانك تجدني قريباً » . وروى : « ان عيسى (ع) مرّ بثلاثة نفر قد نحلت ابدانهم وتغيرت الوانهم ، فقال لهم : ما الذي بلغ بكم ما ارى ؟ فقالوا : الخوف من النار ، فقال : حق على الله ان يؤمن الخائف . ثم جاوزهم الى ثلاثة اخرى ، فاذا هم اشدّ نحولاً وتغيراً ، فقال لهم : ما الذي بلغ بكم ما ارى ؟ فقالوا : الشوق الى الجنة ، فقال : حق على الله ان يعطيكم ما ترجون . ثم جاوزهم الى ثلاثة اخرى ، فاذا هم اشد نحولاً وتغيراً ، كان على وجوههم المرايا من النور ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما ارى ؟ قالوا : حب

الله - عز وجل - ، فقال : انتم المقربون » . وفي بعض الروايات : « انه (ع) قال للطائفتين الأولين : مخلوقا خفتم ، ومخلوقا رجوتم . وقال للطائفة الثالثة : انتم اولياء الله حقاً ، معكم امرت ان اقيم » . وقال رسول الله (ص) : « ان شعيباً (ع) بكى من حب الله - عز وجل - حتى عمى ، فرد الله عليه بصره ، ثم بكى حتى عمى ، فرد الله عليه بصره ، فلما كانت الرابعة اوحى الله اليه : ياشعيب! الى متى يكون هذا ابداً منك ، ان يكن هذا خوفاً من النار فقد اجرتك ، وان يكن شوقاً الى الجنة فقد ابحتك . فقال : إلهي وسيدي ! أنت تعلم اني ما بكيت خوفاً من نارك ، ولا شوقاً الى جنتك ، ولكن عقد حبك على قلبي ، فلست اصبر او اراك . فاوحى الله : اما اذا كان هذا هكذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران » . وروى : « انه جاء اعرابي الى النبي (ص) فقال : يا رسول الله ! متى الساعه ؟ فقال (ص) : ما اعددت لها ؟ قال : ما اعددت لها كثير صلاة ولا صيام ، إلا اني احب الله ورسوله ، فقال له النبي : المرء مع من احب » . وفي اخبار داود : « قل لعبادي المتوجهين الى محبتي : ما ضركم اذا احتجبتم عن خلقي اذ رفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا الي بعيون قلوبكم ، وما ضركم ما زويت عنكم من الدنيا اذ بسطت ديني لكم ، وما ضركم مسخطة الخلق اذ التمستم رضاي » . وفيها ايضاً : « ياداود ! انك تزعم انك تحبني، فان كنت تحبني فاخرج حب الدنيا عن قلبك ، فان حبي وحبها لا يجتمعان في قلب » . وقال امير المؤمنين (ع) في دعاء كميل : « فهبني يا الهي وسيدي ومولاي وربي صبرت على عذابك ، فكيف اصبر على فراقك ؟» . وقال -عليه السلام- : « ان لله - تعالى - شرابا لأوليائه ، اذا شربوا سكروا ، واذا سكروا طربوا ، واذا طربوا طابوا ، واذا طابو ذابوا ، واذا ذابوا خلصوا ، واذا خلصوا طلبوا ، واذا طلبوا وجدوا ، واذا وجدوا وصلوا ، واذا وصلوا

اتصلوا ، وإذا اتصلوا لافرق بينهم وبين حبيبهم » (١) . وقال سيد الشهداء في دعاء عرفة : « أنت الذى أزلت الأغيار عن قلوب احبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا الى غيرك » . وقال (ع) : « يامن أذاق احباءه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين » . وفي المناجاة الانجيلية المنسوبة الى سيد الساجدين (ع) : « وعزتك ! لقد أحببتك محبة استقرت في قلبي حلاوتها ، وانست نفسي ببشارتها . ومحال في عدل أقضيتك أن تسد أسباب رحمتك عن معتقدي محبتك » . وفي مناجاته الأخرى : « إلهي فاجعلنا من الذين توشحت اشجار الشوق اليك في حدائق صدورهم ، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم » . . . ثم قال : « والحقنا بعبادك الذين هم بالبدار اليك يسارعون، وبابك على الدوام يطرقون ، واياك في الليل والنهار يعبدون ، وهم من هيبتك مشفقون ، الذين صفيت لهم المشارب ، وبلغتهم الرغائب ، وانجحت لهم المطالب ، وقضيت لهم من وصلك المآرب ، وملأت لهم ضمائرهم من حبك ، ورويتهم صافي شرابك ، فبك الى لذيذ مناجاتك وصلوا ، ومنك على أقصى مقاصدهم حصلوا » . . . ثم قال : « فقد انقطعت اليك همتي ، وانصرفت نحوك رغبتي ، فأنت لاغيرك مرادي ، ولك لاسواك سهرى وسهادي . ولقاؤك قرة عيني ، ووصلك منى نفسي ، واليك شوقي ، وفي محبتك ولهى ، والى هواك صبابتي ، ورضاك بغيتي ، ورؤيتك حاجتي ، وجوارك طلبي ، وقربك غاية سؤلي ، وفي مناجاتك روحى وراحتي ، وعندك دواء علتي ، وشفاء غلتي ، وبرد لوعتي ، وكشف كربتي » . . . ثم قال : « ولا تقطعني عنك ، ولا تباعدني منك ، يانعيمي وجنتي ! ويادنياى وآخرتي ! » . وقال (ع) ايضاً : « إلهي ! من ذا الذى ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلا ،

(١) لم نعثر على مصدر لهذه الرواية في كتب اصحابنا الامامية ـ رضوان الله عليهم ـ

ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا ، إلهي ! فاجعلني ممن اصطفيته لقربك وولايتك ، وأخلصته لودك ومحبتك ، وشوقته الى لقائك ، ورضيته بقضائك ، ومنحته بالنظر إلى وجهك ، وحبوته برضاك ، وأعذته من هجرك » . . . ثم قال : « وهيمت قلبه لارادتك ، واجتبيته لمشاهدتك ، واخليت وجهه لك ، وفرغت فؤاده لحبك » . . . ثم قال : « اللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح اليك والحنين ، ودهرهم الزفرة والأنين ، وجباههم ساجدة لعظمتك ، وعيونهم ساهرة في خدمتك ، ودموعهم سائلة من خشيتك وقلوبهم معلقة بمحبتك ، وافئدتهم منخلعة من مهابتك . يا من انوار قدسه لأبصار محبيه رائقة ، وسبحات نوروجهه لقلوب عارفيه شائقة ! يامنى قلوب المشتاقين ، وغاية آمال المحبين ! اسألك حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يوصل الى قربك ، وأن تجعلك أحب إلي ممن سواك » . وقال (ع) ايضاً : « إلهي ! ما ألذ خواطر الالهام بذكرك على القلوب ، وما أحلى المسير اليك في مسالك الغيوب ، وما أطيب طعم حبك ، وما أعذب شرب قربك » . وقال (ع) ايضاً : « وغلتي لا يبردها إلا وصلك ، ولوعتي لا يطفيها إلا لقاؤك وشوقي اليك لايبله إلا النظر الى وجهك ، وقراري لايقر دون دنوي منك ، ولهفتي لا يردها إلا روحك ، وسقمي لا يشفيه الا طبك ، وغمي لايزيله الا قربك ، وجرحي لايبرؤه إلا صفحك ، ورين قلبي لايجلوه إلا عفوك ، ووسواس صدري لايزيحه إلا امرك » (١) . وقال الصادق (ع) : « حب الله اذا أضاء على سر عبد أخلاه عن كل شاغل وكل ذكر سوى الله ، والمحب أخلص الناس سراً لله ، وأصدقهم قولا ، وأوفاهم عهداً ، وأزكاهم عملاً ،

(١) صححنا فقرات المناجاة الانجيلية والمناجاة الاخرى على (البحار) باب ادعية المناجاة : مج ١٩ / ١٠٧ ـ ١١٤ ، ط امين الضرب .

وأصفاهم ذكراً ، واعبدهم نفساً ، تتباهى الملائكة عند مناجاته ، وتفتخر برؤيته ، وبه يعمر الله بلاده ، وبكرامته يكرم الله عباده ، ويعطيهم اذا سألوه بحقه ، ويدفع عنهم البلايا برحمته ، ولو علم الخلق ماعله عنـد الله ومنزلته لديه ما تقربوا الى الله إلا بتراب قدميه » . وقال امير المؤمنين (ع) : « حب الله نار لا يمر على شيء إلا احترق ، ونور الله لايطلع على شيء الا اضاء ، وسماء الله ماظهر من تحته شيء الا غطاه ، وريح الله ماتهب في شيء الا حركته ، وماء الله يحيى به كل شيء ، وارض الله ينبت منها كل شيء ، فمن احب الله أعطاه كل شيء من الملك والملك ». وقال النبي (ص) : « إذا أحب الله عبداً من امتي قذف في قلوب اصفيائه وارواح ملائكته وسكان عرشه محبته ليحبوه ، فذلك المحب حقاً ، طوبى له ثم طوبى له ! وله عند الله شفاعة يوم القيامة » (١). الى هنا كلام الصادق ـ عليه السلام ـ . وما ورد في الحب من الاخبار والادعية المعصومية أكثر من أن يحصى ، وحكايات العشاق والمحبين لم تبلغ من الكثرة والتواتر حداً يمكن انكاره ، وقد روى : « أن داود ـ عليه السلام ـ سأل ربه أن يريه بعض أهل محبته ، فقال له : ائت جبل لبنان ، فان فيه اربعة عشر نفساً ، فيهم شبان وكهول ومشايخ ، واذا أتيتهم فاقرأهم مني السلام ، وقل لهم : يقول ربكم : ألا تسألوني حاجة ، فانكم احبائي واصفيائي واوليائي ، افرح لفرحكم واسارع الى محبتكم . فاتاهم داوود ، فوجدهم عند عين من العيون ، يتفكرون في عظمة الله وملكوته ، فلما نظروا إلى داود ، نهضوا ليتفرقوا عنه ، فقال لهم داود : انا رسول الله اليكم ، جئتكم لابلغكم رسالة ربكم ، فاقبلوا

(١) صححنا الاحاديث الثلاثة على (مصباح الشريعة) ـ الباب السابع والتسعون ، ص ١٩٣ .

نحوه ، والقوا اسماعهم نحو قوله ، والقوا ابصارهم الى الارض . فقال داوود : ربكم يقرؤكم السلام ، ويقول لكم : ألا تسألونى حاجة ، ألا تنادونى فاسمع صوتكم وكلامكم؟ فانكم احبائى واصفيائى واوليائى ، افرح لفرحكم واسارع الى محبتكم ، وانظر اليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة . ولما قال داود ذلك جرت الدموع على خدودهم ، وسبح الله كل واحد منهم ومجده ، وناجاه بكلمات تدل على احتراق قلوبهم من الحب والشوق ».

فصل

(معرفة الله اقوى سائر اللذات)

قد عرفت ان الحب هو الميل الى الشيء الملذ الملائم للمدرك والابتهاج بادراك الملائم ونيله ، واللذة هي نفس ادراك الملائم الملذ ونيله . وهذا الادراك إن كان متعلقاً بالقوة العاقلة ـ اى ان كان المدرك هو القوة العاقلة ـ عبر عنه بالعلم والمعرفة ، وقد عرفت انه اقوى واشد واشرف من الادراكات الحسية ، التي هي الابصار والاستماع والذوق والشم واللمس .

ثم هذا الادراك ـ اعني العلم والمعرفة ـ يختلف ايضاً في الشرافة والكمال بحسب شرافة المدرك ، اي المعلوم . فكلما كان المدرك اجل واشرف كان الادراك ـ اى المعرفة به ـ اجل واعلى . ولاريب في ان الواجب ـ سبحانه ـ اشرف الموجودات واجلها ، فالمعرفة به اعلى المعارف واشرفها . ويثبت من ذلك : ان اجل اللذات واعلاها هو معرفة الله ـ تعالى ـ والنظر الى وجهه الكريم ، ولا يتصور ان يؤثر عليها لذة اخرى الا من حرم هذه اللذة . وبيان ذلك بوجه اوضح : ان اللذات تابعة للادراكات ، والانسان جامع لجملة من القوى والغرائز ، ولكل قوة وغريزة لذة ، ولذتها عبارة عن نيلها مقتضى طبعها الذى خلقت له ، فغريزة الغضب لما خلقت

للتشفي والانتقام ، فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام ، وغريزة الشهوة لما خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام ، فلا جرم لذتها في نيل الغذاء ، وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الاستماع والابصار والاستشمام ، وغريزة العقل المسماة بالبصيرة الباطنية خلقت لتعلم بها حقائق الاشياء كلها ، فلذتها في العلم والمعرفة ، والعلم لكونه منتهى الكمال وأخص صفات الربوبية ، يكون اقوى اللذات والابتهاجات ، ولذلك يرتاح الطبع اذا أثني عليه بالذكاء وغزارة العلم ، لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وجمال علمه ، فيعجب بنفسه ، ويلتذ به .

والتحقيق : ان الادراك والنيل الذي هو الكمال ليس إلا العلم ، وسائر الادراكات - اعني نيل الغلبة والغذاء والاسماع والابصار والاستشمام - لا تعد كمالات. ثم ليست لذة كل علم واحدة ، فان لذة العلم بالحراثة والخياطة والحياكة ليست كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمور الخلق ، ولا لذة العلم بالنحو والشعر والتواريخ كلذة العلم بالله وبصفاته وملائكته وملكوت السماوات والأرض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم ، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، فان كان في المعلومات ماهو الاشرف والاجل والاعظم والأكمل ، فالعلم به ألذ العلوم واشرفها واكملها واطيبها ، وليت شعري هل في الوجود شيء اعلى واجمل واشرف واكمل من خالق الاشياء كلها وقيومها ، ومكملها ومربيها ، ومبدئها ومعيدها ، ومدبرها ومرتبها ؟! وهل يتصور أن يكون أحد في الملك والكمال والعظمة والجلال والقدرة والجمال والكبرياء والبهاء اعظم من ذاته في صفات الكمال ونعوت الجلال فوق التمام ، وقدرته وعظمته وملكه وعلمه غير متناهية ؟ فان كنت لا تشك في ذلك ، فينبغي الا تشك في ان لذة المعرفة به أقوى من سائر اللذات لمن له البصيرة الباطنة وغريزة

المعرفة . فان اللذات مختلفة بالنوع أولاً . كمخالفة لذة الوقاع ولذة السماع، ولذة المعرفة ولذة الرئاسة ، وكل نوع مختلف بالضعف والقوة ، كمخالفة لذة الشبق المغتلم (١) من الجماع ، ولذة الفاتر الشهوة منه . وكمخالفة لذة النظر الى الوجه الجميل ولذة النظر الى الوجه الاجمل ، ومخالفة لذة العلم باللغات ولذة العلم بالسماويات . وإنما يعرف اقوى اللذتين من اضعفهما بأن يؤثر عليه ، فان المخير بين النظر الى صورة جميلة وبين استنشاق روايح طيبة، اذا اختار الاول كان عنده الذ من الثاني ، والمخير بين الاكل واللعب بالشطرنج ، اذا اختار الثاني كانت لذة الغلبة في الشطرنج اقوى عنده من لذة الاكل ، وهذا معيار في الكشف عن ترجيح اللذات .

وحينئذ نقول : لا ريب في ان المعاني واللذات الباطنة اغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة ، فلو خير الرجل بين لذة اكل المطاعم الطيبة ولذة الرئاسة والاستيلاء ، فان كان عالي الهمة كامل العقل ، اختار الرئاسة وترك الاكل ، وصبر على الجوع أياماً كثيرة فضلاً عن مدة قليلة . نعم ، ان كان خسيس الهمة ميت القلب ، ناقص العقل والبصيرة ، كالصبي والمعتوه ، ربما اختار لذة الاكل ، وفعل مثله ليس حجة . ثم كما ان لذة الرئاسة والكرامة اغلب وارجح من اللذات الحسية عند من جاوز نقصان الصبي والسفاهة، فكذلك لذة المعرفة بالله ومطالعة جمال الحضرة الربوبية الذ عنده من لذة الرئاسة ، بشرط أن يكون عمن ذاق اللذتين وادركهما ، فلو كان عمن لم يذق لذة المعرفة بالله لم يكن أهلاً للترجيح وعلا للكلام ، لاختصاص لذة المعرفة بمن نال رتبتها وذاقها ، ولا يمكن اثبات ذلك عند من ليس له

(١) الغلمة — وزان غرفة — : شدة الشهوة . وغلم غلماً : من باب تعب ، اذا اشتد شبقه . المغتلم : المنقاد للشهوة .

قلب ، كما لا تثبت لذة الابصار عند الأعمى ، ولذة الاستماع عند الأصم ، ولذة الوقاع عند العنين ، ولذة الرئاسة عند الصبي والمعتوه ، وليت شعري من لا يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر الى وجه الله ـ تعالى ـ وليس له شبه وشكل وصورة ؟ فحقيقة الحال كما قيل : « من ذاق عرف » ، فمن ذاق اللذتين يترك لذة الرئاسة قطعاً ، ويستحقر أهلها لكونها مشوبة بالكدورات ومقطوعة بالموت ، ويختار لذة المعرفة بالله ، ومطالعة صفاته وافعاله ، ونظام مملكته من اعلى عليين الى اسفل السافلين ، فانها خالية عن الانقطاع والمكدرات ، متسعة للمتواردين عليها ، لاتضيق بكثرتهم دائماً ، وعرضها من حيث التفهيم والتمثيل اعظم من السماوات والأرض ، ومن حيث الواقع ونفس الامر فلا نهاية لعرضها ، فلا يزال العارف بمطالعتها ومشاهدتها في جنة غير متناهية الاطراف والاقطار ، يرتع في رياضها ، ويكرع (١) في حياضها ، ويقطع من اثمارها ، وهو آمن من انقطاعها ، إذ ثمارها غير مقطوعة ولا ممنوعة ، بل هي ابدية سرمدية لايقطعها الموت ، إذ الموت لايهدم النفس الناطقة التي هى محل المعرفة ، وإنما يقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من جنسها ، فاذن جميع أقطار ملكوت السماوات والأرض ، بل اقطار عالم الربوبية التي هى غير متناهية ، ميدان للعارفين ، يتبوؤن منها حيث يشاؤن ، من غير حاجة الى حركة اجسامهم ، ومن غير ان يضيق بعضهم على بعض اصلا ، إلا انهم يتفاوتون في سعة ميادينهم بحسب تفاوتهم في اتساع الأنظار وسعة المعارف :

« وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا » (٢).

---

(١) كرع ـ من باب نفع ـ : هو الشرب بفيه من موضعه .

(٢) الانعام ، الآية : ١٣٢ ، الاحقاف ، الآية : ١٩ .

ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم ، ومن عرف هذه اللذة انمحت همومه وشهواته ، وصار قلبه مستغرقاً بنعيمها ، ولا يشغله عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة ، فكيف تشغله عنه لذات الدنيا وعلائقها ، وكان في الدنيا والآخرة مشغولا بربه ، فلو ألقى في النار لم يحس به لاستغراقه ، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت اليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية ، ولعل سيد الرسل (ص) عبر عن هذه اللذة ـ اي لذة مطالعة جمال الربوبية ـ حيث قال حاكياً عن الله ـ سبحانه ـ : «أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» . وهذه اللذة هي المرادة من قوله ـ تعالى ـ :

«فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ» (١)

وربما تعجل بعض هذه اللذات لمن انتهى صفاء قلبه الى الغاية ، ومع ذلك لايخلو عن توسط بعض الحجب المانعة عن الوصول الى كنهها ، مالم يحصل التجرد الكلي وخلع البدن العنصري ، ولذلك قال بعضهم : اني اقول : «يارب يا الله ! فاجد ذلك اثقل على قلبي من الجبال ، لأن النداء يكون من وراء حجاب ، وهل رأيت جليساً ينادي جليسه؟! » . ثم من عرف الله وعرف حقيقة هذه اللذة ، عرف أن اللذات المقرونة بالشهوات المختلفة منطوية تحت هذه اللذة ، كما قيل :

كانت لقلبي أهواء مفرقــة　　فاستجمعت مذ رأتك العين اهوائي
فصار يحسدني من كنت أحسده　　وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي
تركت للناس دنياهم ودينهم　　شغلا بذكرك يا ديني ودنيائي

(١) السجدة ، الآية : ١٧ .

فصـــل

(تحقق رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه)

اعلم ان معرفة الله اذا حصلت في الدنيا لم تكن خالية عن كدرة ما ـ كما اشير اليه ـ ، إلا أنه اذا اكتسب اصلها في الدنيا نزيدها في الآخرة انكشافاً وجلاء بقدر صفاء القلوب وزكائها وتجردها عن العلائق الدنيوية ، الى أن يصير اجلى واظهر من المشاهدة بمراتب ، فالاختلاف بين ما يحصل في الدنيا من المعرفة وما يحصل في الآخرة من المشاهدة واللقاء إنما هو بزيادة الانكشاف والجلاء .

مثال ذلك : ان من رأى انساناً ، ثم غض بصره ، وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر اليها ، ولكن اذا فتح العين وابصر ، ادرك تفرقة بين حالتي غض العين وفتحها، ولا ترجع التفرقة الى اختلاف بين بين الصورتين لاتحادهما ، بل الافتراق انما هو بمزيد الكشف والوضوح ، فالصورة المتخيلة صارت بالرؤية أتم انكشافاً ، فاذاً الخيال اول الادراك ، والرؤية استكمال لادراك الخيال ، وهي غاية الكشف ، لا لأنها في العين ، بل لو خلق الله هذا الادراك الكامل المتجلي في الصدر او الجبهة او اى عضو فرض استحق ان يسمى رؤية . واذا فهمت هـــذا في المتخيلات ـ أي المدركات التي تدخل في الخيال من الصور والاجسام ـ فقس عليه الحال في المعلومات ـ اي ما يدرك بالعقل ـ ، ولا يدخل في الخيال كذات الباري ، وكل ما ليس بجسم ، كالعلم والقدرة والارادة وغيرها ، فان لمعرفتها وادراكها ايضا درجتين : احداهما : اولى ، والثانية : استكمال لها ، وبينهما من التفاوت في مزيد الكشف والايضاح ما بين المتخيل والمرئي ، فتسمى الثانية بالاضافة الى الأولى لقاء ومشاهدة ورؤية ، وهذه التسمية حق ، لان الرؤية سميت

رؤية لأنها غاية الكشف ، وكما ان سنة الله جارية بأن تطبق الاجفان يمنع من تمام الكشف الذي هو الرؤية في المتخيلات ، فكذلك سنته ان النفس ما دامت محجوبة بالبدن وعوارضه وشهواته ، لم يحصل لها تمام الكشف الذي هي المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجية عن الخيال ، فاذا ارتفع بالموت حجاب البدن ، وخلصت النفس ، لم يكن بعد في غاية التنزه عن كدورات الدنيا ، بل كانت ملوثة بها ، الا ان النفوس مختلفة في ذلك : فمنها : ما تراكم عليه الخبث والصدى ، فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها ، فلا تقبل الاصلاح والتصقيل . وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم ابد الآباد . نعوذ بالله من ذلك . ومنها : ما لم ينته الى حد الرين والطبع ، ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل ، وهذه النفوس غير متناهية الدرجات والمراتب . اذ المتلوث بالكدورات عرض عريض في (الواقع) بين الرين والطبع ، وبين التزكية التامة والتجرد الكلي الذي لم يكن فيه شوب من الكدورات. وهذه النفوس المتلوثة على اختلاف درجاتها ومراتبها تحتاج الى التطهير لتستعد للمشاهدة واللقاء بتجلي الحق فيها ، وتطهيرها انما هو بنوع عقوبة من العقوبات الأخروية . وهي كمراتب التلوث غير متناهية الدرجات اولها سكرة الموت ، وآخرها الدخول في النار ، وما بينهما عقوبات البرزخ واهوال القيامة بانواعها ، فكل نفس لابد لها من عقوبة من هذه العقوبات لتتطهر من كدورتها : فمنها : ما يتطهر بمجرد سكرة الموت وشدة النزع ، ومنها : ما يتطهر بها ، وينقص عقوبات البرزخ ، ومنها : ما لا يتطهر إلا بأن يذوق بعض عقوبات الآخرة ، ومنها ما لا يحصل تطهيره إلا بالعرض على النار عرضاً يقمع منها الخبث الذي تدنست به . فربما كان ذلك لحظة حقيقة، وربما كان سبعة آلاف سنة ـ كما وردت به الأخبار ـ وربما كان اقل

أو اكثر ، ولا يعلم تفصيل ذلك الا الله ـ سبحانه ـ ، والمحجوبون الذين بلغوا حد الرين والطبع يكونون مخلدين في النار .

ثم النفوس القابلة للتطهير اذا اكمل الله تطهيرها وتزكيتها ، وبلغ الكتاب أجله ، استعدت حينئذ لصفائها ونقائها عن الكدورات لأن تتجلى فيها جلية الحق ، فتتجلى فيها تجلياً يكون انكشاف تجليه بالاضافة الى ما علمته وعرفته كانكشاف تجلي المرئيات بالاضافة الى المتخيلات ، وهذه المشاهدة والتجلي تسمى رؤية ، لأنه في الظهور والجلاء والوضوح والانكشاف كالرؤية بالبصر ، بل هو فوقه بمراتب شتى ، اذ الرائي في الأول العقل ، وفي الثاني البصر ، وشتان ما بينهما ، فان الاختلاف في مراتب الادراك والرؤية بحسب اختلاف نورية المدرك ، واي نسبة لنورية البصر الى نورية العقل واشراقه ، وما للعقل من النفوذ في حقائق الأشياء وبواطنها أنى يكون للبصر .

وقد ظهر مما ذكر : أنه لا يفوز بدرجة الرؤية والمشاهدة الا العارفون في الدنيا ، لان المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة ، كما تنقلب النواة شجرة والبذر زرعا ، ومن لا نواة له كيف يحصل له النخل ، ومن لم يلق البذر كيف يحصد الزرع ، فمن لم يعرف الله في الدنيا فكيف يراه في الآخرة ، ومن لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في العقبى ، اذ لا يستأنف لاحد في الآخرة ما لم يصحبه في الدنيا ، فلا يحصد المرء الا ما زرع ، ولا يحشر الا على ما مات عليه ، ولا يموت الا على ما عاش عليه .

ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة ، يكون التجلي ايضاً على درجات متفاوتة ، فاختلاف التجلي بالاضافة الى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالاضافة الى اختلاف البذور ، اذ يختلف لا محالة : بكثرتها ، وقلتها ،

وجودتها ، ورداءتها ، وضعفها . ثم كلما كان التجلي والمشاهدة اقوى ، كان ما يترتب عليه من حب الله والانس به اشد واقوى ، وكلما كان الحب والانس أزيد ، كان ما يترتب عليه من البهجة واللذة أعلى وأقوى ، وتبلغ هذه اللذة مرتبة لا تؤثر عليها لذة اخرى من نعيم الجنة ، بل ربما بلغت حداً تتأذى من كل نعيم سوى لقاء الله ومشاهدته ، فالنعمة والبهجة في الجنة بقدر حب الله ، وحب الله بقدر معرفته ، فاصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنه بـ (الايمان) .

فان قيل : اللقاء والمشاهدة ان كانت زيادة كشف للمعرفة حتى تتحقق بين لذة الرؤية ولذة المعرفة نسبة ، لكانت لذة اللقاء والرؤية قليلة ، وان كانت اضعاف لذة المعرفة ، اذ هي في الدنيا ضعيفة . فتضاعفها الى أي حد فرض لا ينتهي في القوة ، الا ان يستحقر في جنبها سائر لذات الجنة ونعيمها.

قلنا : هذا الاستحقار والتقليل للذة المعرفة باعثه عـــدم المعرفة أو ضعفها ، فان من خلا عن المعرفة ، او كانت له معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا لا يدرك لذتها ، فمن كملت معرفته وصفت عن علائق الدنيا سريرته ، قويت بهجته واشتدت لذته بحيث لا توازنها لذة ، فان للعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله - عز وجل - ابتهاجات ولذات لو عرضت عليهم الجنة ونعيمها في الدنيا بدلاً عنها لم يستبدلوها بها . ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها اصلاً الى لذة اللقاء والمشاهدة ، كما لا نسبة للذة خيال المعشوق الى رؤيته ، ولا للذة استنشاق روائح الاطعمة الطيبة الى ذوقها واكلها ، ولا للذة اللمس باليد الى لذة الوقاع .

ومما يوضح ذلك ، ان لذة النظر الى وجه المعشوق تتفاوت بامور :

احدها - كمال جمال المعشوق ونقصانه .

وثانيها ـ كمال قوة الحب والشهوة وضعفه .

وثالثها ـ كمال الادراك وضعفه ، فان الالتذاذ برؤية المعشوق في ظلمة ، أو من بعد ، أو من وراء ستر رقيق ، ليس كالالتذاذ برؤيته على قرب من غير ستر عند كمال الضوء .

ورابعها ـ عدم الآلام الشاغلة والعوائق المشوشة ووجودها ، فان التذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر الى المعشوق ليس كالتذاذ الخائف المذعور او المريض المتألم ، او المشغول قلبه بمهم من المهمات ، فلو كان العاشق ضعيف الحب ، ناظراً الى معشوقه على بعد ومن وراء ستر رقيق ، مشغول القلب بمهمات ، مجتمعة عليه حيات وعقارب تؤذيه وتلدغه ، لم يكن خالياً عن لذة ما في هذه الحالة من مشاهدة معشوقه ، إلا أنه اذا فرض ارتفاع الستر واشراق الضوء ، واندفاع الحيات والعقارب المؤذية ، وفراغ قلبه من المهمات ، وحدوث عشق مفرط ، وشهوة قوية ، بحيث بلغت أقصى الغايات ، تضاعفت لذته ، بحيث لم تكن للذته الاولى نسبة اليها بوجه. فكذلك الحال في نسبة لذة المعرفة في الدنيا مع حجاب البدن والاشتغال بمهماته ، ومع تسلط حيات الشهوات وعقاربها : من الجوع ، والعطش ، والشبق ، والغضب ، والحزن ، والهم ، ومع ضعف النفس وقصورها ونقصانها في الدنيا عن التشوق الى الملأ الاعلى لالتفاتها الى اسفل السافلين الى لذة اللقاء والمشاهدة التي يندفع فيها جميع ذلك عن النفس ، فالعارف لعدم خلوه فى الدنيا عن هذه العوائق والمشوشات وان قويت معرفته لا يمكن ان تكمل لذته وتصفو بهجته ، وان ضعفت عوائقه ومشوشاته في بعض الاحوال وبقى سالماً ، لاح له من جمال المعرفة ما تعظم لذته وبهجته ويدهش عقله ، بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته ، الا ان ذلك كالبرق الخاطف ، ولا يمكن

ان يدوم ، اذ الخلو عن العوائق والمشوشات ليس يمكن ان يدوم ، بل هو آني ، ويعرض بعد الآن من الشواغل والافكار والخواطر ما يشوشه وينقصه ، وهذه ضرورة قائمة في هذه الحياة الفانية . فلا تزال هذه اللذة منغصة الى الموت . وانما الحياة الطيبة بعده ، وانما العيش عيش الآخرة ، فان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون . ولذا كل عارف كملت معرفته في الدنيا وأحب لقاء الله يحب الموت ولا يكرهه ، الا من حيث ارادة زيادة استكمال في المعرفة ، فان المعرفة ـ كما عرفت ـ بمنزلة البذر . وكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وبأفعاله وبأسرار مملكته قويت المشاهدة واشتدت ، وكثر النعيم في الآخرة وعظم ، كما انه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن ، ولا ريب في ان المعرفة لا تنتهي الى مرتبة لا تكون فوقها مرتبة ، اذ بحر المعرفة لا ساحل له . والاحاطة بكنه جلال الله محال . فالعارف وان قويت معرفته ، ربما احب طول العمر وكره الموت لتزداد معرفته .

ثم أهل السنة قالوا : « ان الرؤية في الآخرة مع تنزهها عن التخيل والتصور والتقدير بالشكل والصورة والتحديد بالجهة والمكان : تكون بالعين دون القلب » ! (وهو عندنا باطل) : اذ الرؤية بالعين محال في حق الله ـ تعالى ـ ، سواء كانت في الدنيا او في الآخرة ، فكما لا تجوز رؤية الله ـ سبحانه ـ في الدنيا بالعين والبصر ، فكذلك لا تجوز في الآخرة ، وكما تجوز رؤيته في الآخرة بالعقل والبصيرة لاهل البصائر ـ اعني غاية الانكشاف والوضوح بحيث تأدى الى المشاهدة واللقاء ـ فكذلك تجوز رؤيته في الدنيا بهذا المعنى ، والحجاب بينه وبين خلقه ليس إلا الجهل وقلة المعرفة دون الجسد ، فان العارفين واولياء الله يشاهدونه في الدنيا في جميع احوالهم

ومنصرفاتهم ، وإن كان الحاصل في الآخرة ازيد انكشافاً واشد انجلاء بحسب زيادة صفاء النفوس وزكائها وتجردها عن العلائق الدنيوية - كما تقدم مفصلاً - ، وقد ثبت ذلك من أئمتنا الراشدين العارفين بأسرار النبوة ، روى شيخنا الأقدم (محمد بن يعقوب الكليني) وشيخنا الصدوق (محمد بن علي بن بابويه) - رحمهما الله - باسنادهما الصحيح عن الصادق (ع) : « أنه سئل عما يروون من الرؤية ، فقال : الشمس جزء من سبعين جزء من نور الكرسي ، والكرسي جزء من سبعين جزء من نور العرش ، والعرش جزء من سبعين جزء من نور الحجاب ، والحجاب جزء من سبعين جزء من نور الستر ، فان كانوا صادقين فليملأوا اعينهم من نور الشمس ليس دونها سحاب » . وباسنادهما عن احمد بن اسحاق قال : « كتبت الى ابي الحسن الثالث (ع) أسأله عن الرؤية وما اختلف فيه الناس ، فكتب : لا تجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي والمرئي هواء ينفذه البصر ، فاذا انقطع الهواء عن الرائي والمرئي لم تصح الرؤية وكان في ذلك الاشتباه ، لأن الرائي متى ساوى المرئي في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه ، وكان ذلك التشبيه ، لأن الأسباب لا بد من اتصالها بالمسببات » . وعن ابي بصير عن الصادق (ع) قال : « قلت له : اخبرني عن الله - عز وجل - هل يراه المؤمنون يوم القيامة ؟ قال : نعم ! وقد رأوه قبل يوم القيامة . فقلت : متى ؟ قال : حين قال لهم : ألست بربكم ، قالوا : بلى . . . ثم سكت ساعة ، ثم قال : وإن المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة ، ألست تراه في وقتك هذا ؟! قال ابو بصير : فقلت له : جعلت فداك ! فاحدث بهذا عنك ؟ فقال : لا ! فانك إذا حدثت به فانكره منكر جاهل بمعنى ما تقوله ، ثم قدر أن ذلك تشبيه كفر ، وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين ، تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون » . وسئل أمير المؤمنين (ع) : « هل رأيت ربك حين

عبدته ؟ فقال : ويلك ! ما كنت أعبد رباً لم أره . قيل . وكيف رأيته ؟ قال : ويلك ! لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار ، ولكن رأته القلوب بحقائق الايمان » (١) . وقال سيد الشهداء (ع) . «كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر اليك ، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ، حتى يكون هو المظهر لك ، متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدل عليك ، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل اليك ؟ عميت عين لا تراك عليها رقيباً ، وخسرت صفقة عبد لم تجعل من حبك نصيباً ! » ، وقال (ع) ايضاً : « تعرفت لكل شيء فما جهلك شيء » ، وقال : « وأنت الذي تعرفت الي في كل شيء ، فرأيتك ظاهراً في كل شيء ، وأنت الظاهر لكل شيء » (٢) . وأمثال ذلك مما ورد عنهم ـ عليهم السلام ـ أكثر من أن تحصى .

فصل

(الطريق الى الرؤية واللقاء)

الطريق الى تحصيل محبة الله وتقويتها ثم استعداد الرؤية واللقاء امران : احدهما ـ تطهير القلب من شواغل الدنيا وعلائقها ، والتبتل الى الله بالذكر والفكر ، ثم اخراج حب غير الله من القلب ، إذ القلب مثل الاناء الذي لا يسع الماء ـ مثلاً ـ ما لم يخرج منه الخل . وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وكمال الحب في أن يحب الله بكل قلبه ، وما دام يلتفت الى غيره ، فزاوية من قلبه مشغولة بغيره ، وبقدر ما يشتغل بغير الله ينقص منه حب الله ، إلا أن يكون التفاته الى الغير من حيث إنه صنع الله ـ تعالى ـ وفعله ، ومظهر

(١) صححنا الاحاديث كلها على (اصول الكافي) : الجزء الأول ، باب ابطال الرؤية . وعلى (الوافي) ١ : ٦٩ / ، باب ابطال الرؤية .

(٢) صححنا فقرات دعاء عرفة على (مفاتيح الجنان) : ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤ ، طبعة الكراوري .

من مظاهر اسماء الله ـ تعالى ـ ، والى هذا التجريد والتفريد الاشارة بقوله ـ تعالى ـ :

« قُلِ اللّٰهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ »(١)

وثانيهما ـ تحصيل معرفة الله وتقويتها وتوسيعها وتسليطها على القلب ، والأول ، اعني قطع العلائق ، بمنزلة تنقية الأرض من الحشائش ، والثاني ، أي المعرفة ، بمنزلة البذر فيها ، ليتولد منه شجر المحبة .

ثم لتحصيل المعرفة طريقان :

أحدهما ـ الأعلى ، وهو الاستدلال بالحق على الخلق ، وذلك بأن يعرف الله بالله ، وبه يعرف غيره ، اي افعاله وآثاره ، والى هذا اشير في الكتاب الالهي بقوله :

« أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »(٢).

وهذا الطريق غامض ، وفهمه صعب على الأكثرين . وقد اشرنا الى كيفيته في بعض كتبنا الالهيات .

وثانيهما ـ وهو الادنى ، الاستدلال بالخلق على الحق ـ سبحانه ـ ، وهذا الطريق في غاية الوضوح ، واكثر الافهام يتمكن من سلوكه ، وهو متسع الاطراف ، ومتكثر الشعوب والاكناف ، إذ ما من ذرة من أعلى السماوات الى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات وغرائب بينات ، تدل على وجود الواجب وكمال قدرته وغاية حكمته ونهاية جلاله وعظمته ، وذلك مما لا يتناهى .

« قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ

---

(١) الانعام ، الآية : ٩١ . (٢) فصلت ، الآية : ٥٣ .

البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِماتُ رَبِّي »(١) .

وعدم وصول بعض الافهام من هذا الطريق الى معرفة الله مع وضوحه ، إنما هو للاعراض عن التفكر والتدبر والاشتغال بشهوات الدنيا وحظوظ النفس . ثم سلوك هـذا الطريق ، أي الاستدلال على الله ـ تعالى ـ وعلى كمال قدرته وعظمته ، بالتفكير في الآيات الآفاقية والأنفسية ، خوض في بحار لا ساحل لها ، إذ عجائب ملكوت السماوات والأرض مما لا يمكن أن تحيط به الأفهام ، فان القدر الذي تبلغه افهامنا القاصرة من عجائب حكمته الباهرة تنقضي الاعمار دون ايضاحه ، ولا نسبة لما احاط به علمنا الى ما احاط به علم العلماء ، ولا نسبة له الى ما احاط به علم الأنبياء ، ولا نسبة له الى ما احاط به الخلائق كلهم ، ولا نسبة له الى ما استأثر الله بعلمه ، بل كلما عرفه الخلائق جميعاً لا يستحق أن يسمى علماً في جنب علم الله ، ونحن قد اشرنا الى لمعة يسيرة من عجائب حكمته المودعة في بعض مخلوقاته في مبحث التفكر .

فصل

(تفاوت المؤمنين في محبة الله)

اعلم ان المؤمنين جميعاً مشتركون في اصل محبة الله لاشتراكهم في أصل الايمان ، ولكنهم متفاوتون في قدرها ، وسبب تفاوتهم امران :

احدهما ـ اختلافهم في المعرفة وحب الدنيا ، فان اكثر الناس ليس لهم من معرفة الله إلا ما قرع اسماعهم من كونه متصفاً بصفات كذا وكذا ، من دون وصول الى حقيقة معناها ، والى اعتقادهم بأن الموجودات المشاهدة

(١) الكهف ، الآية : ١١٠ .

صادرة عنه ، من غير تدبر في عجائب القدرة وغرائب الحكمة المودعة فيها

واما العارفون ، فلهم الخوض في بحر التفكر والتدبر في انواع المخلوقات ، واستخراج ما فيها من الحكم الخفية ، والمصالح العجيبة ، التي كل واحد منها كمشعلة في ازالة ظلمة الجهل ، والهداية الى كمال عظمة الله ، ونهاية جلاله وكبريائه ، فمثل الأكثرين كمثل عامي أحب عالماً بمجرد استماعه انه حسن التصنيف ، من دون علم ودراية بما في تصانيفه ، فتكون له معرفة مجملة ، ويكون له بحسبه ميل مجمل ، ومثل العارفين كمثل عالم فتش عن تصانيفه ، واطلع على ما فيها من دقائق المعاني وبلاغة العبارات . ولا ريب في أن العالم بجملته صنع الله وتصنيفه ، فمن عرف ذلك مجملاً تكون له بحسبه محبة مجملة ، ومن وقف على ما فيه من عجائب القدرة ودقائق الحكمة تكون له غاية الحب ، وكلما ازدادت معرفته بوجوه الحكم والمصالح المودعة في كل مخلوق ازداد حبه ، فمن اعتقد أن ما تبنيه النحل من البيوت المسدسة إنما هو بالهام الله ـ تعالى ـ اياها ، من غير استعداد لفهم الحكمة في اختيار الشكل المسدس على سائر الأشكال ، لا يكون في معرفة الله وادراك عظمته وحكمته كمن يفهم ذلك ويتيقنه . ثم كما أن دقائق الحكم وعجائب القدرة غير متناهية ، ولا يمكن لاحد ان يحيط بها ، وإنما ينتهي كل الى ما يستعد له ، فينبغي أن تكون مراتب الحب ايضاً غير متناهية ، وكل عبد ينتهي الى مرتبة تقتضيها معرفته .

وثانيهما ـ اختلافهم في الاسباب المذكورة للحب ، فان من يحب الله لكونه منعماً عليه ومحسناً اليه ، ضعفت محبته لتغيرها بتغير الانعام والاحسان ولا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرجاء والنعماء . وأما من يحبه لذاته ، أو بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته ، فانه لا يتفاوت حبه بتفاوت الاحسان اليه .

فصل

(الواجب اظهر الموجودات)

عجباً لاقوام عميت قلوبهم عن معرفة الله ـ سبحانه ـ ، مع أن الله ـ تعالى ـ أظهر الموجودات وأجلاها ، لان البديهة العقلية قاضية بأنه يجب أن يكون في الوجود موجود قائم بذاته ، أي ما هو صرف الوجود ، ولولاه لم يتحقق موجود أصلا ، فتحقق صرف الوجود القائم بذاته المقوم لغيره أظهر وأجلى من تحقق كل موجود بغيره عند البصيرة الصافية ، قال الله ـ سبحانه ـ :

« اللهُ نورُ السَّماواتِ والأرضِ »(١) .

والنور هو الظاهر لنفسه المظهر لغيره ، ومبدأ الادراك من المدرك إنما هو الوجود ، فكلما ادركته إنما تدرك أولا وجوده ، وإن لم تشعر بذلك . ولا ريب في أن الظاهر لنفسه أظهر من الظاهر بغيره ، وايضاً كل موجود سوى الله ـ سبحانه ـ يعلم وجوده بقليل من الآثار ، فان وجود الحياة لزيد ـ مثلا ـ لا يدل عليه إلا حركته وتكلمه وبعض أخر من اعراض نفسه ، ولا يدل عليه شيء آخر من سائر الموجودات ، وكذا وجود السماء ـ مثلا ـ لا يدل عليه سوى وجود ظهور جسمها وحركتها ، ولا يدل علية شيء آخر من الموجودات التي تحتها وفوقها .

وأما وجود الواجب ـ تعالى ـ فيدل عليه كل شيء ، إذ ليس في الوجود مدرك محسوس او معقول ، وحاضر او غائب ، إلا وهو شاهد ومعرف لوجوده ، فالسبب في خفائه مع كونه أجلى وأظهر من كل شيء غاية وضوحه

---

(١) النور ، الآية : ٣٥ .

وظهوره ، فان شدة ظهور الشيء قد يكون سبباً لخفائه ، لانه يكل المدارك ويحسرها ، فشدة ظهوره ـ سبحانه ـ بلغت حداً بهرت العقول وادهشتها ، فضعفت عن ادراكه . وهذا كما ان الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، لا لخفاء النهار واستتاره ، بل لشدة ظهوره وضعف بصر الخفاش ، فان بصره ضعيف يبهره نور الشمس اذا اشرق ، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره ، فلا يرى شيئاً إلا اذا امتزج بالضوء الظلام وضعف ظهوره ، فكذلك عقولنا ضعيفة ، وجمال الحضرة الالهية في نهاية الاشراق والاستنارة ، وفي غاية الاستغراق والشمول ، حتى لم تعذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السماوات والارض ، فصار ظهوره سبب خفائه ، فسبحان من احتجب باشراق نوره ، واختفى عن العقول والبصائر بشدة ظهوره ! ولا تتعجب من اختفاء شيء بسبب شدة ظهوره ، فان الاشياء إنما تستبان باضدادها ، وما عم وجوده حتى لا ضد له عسر ادراكه . فلو اختلفت الأشياء ، فدل بعضها على الله تعالى ـ دون بعض ، ادركت التفرقة على قرب ، ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد ، اشكل الأمران ، ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض فانا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ، ويزول عند غيبة الشمس ، فلو كانت الشمس دائمة الاشراق لا غروب لها ، لكنا نظن أن لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها ، وهي السواد والبياض وغيرهما ، وأما الضوء فلا تدرك وحده ، لكن لما غابت الشمس واظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالتين ، فعلمنا أن الاجسام قد استضاءت بضوء فارقها عند الغروب ، فعرفنا وجود النور بعدمه . وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد ، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في النور والظلام هذا مع أن النور أظهر المحسوسات ، إذ به تدرك سائر المحسوسات ، فما هو

ظاهر في نفسه مظهر لغيره انظر كيف استبهم امره بسبب ظهوره لولا طريان ضده . فاذن واجب الوجود لذاته هو اظهر الأشياء ، وبه ظهرت الأشياء كلها ، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير ، لانهدت السماوات والأرض ، وبطل الملك والملكوت ، وادركت التفرقة بين الحالتين ، ولو كان بعض الأشياء موجوداً به ، وبعضها موجوداً بغيره ، لادركت التفرقة بين الشيئين في الدلالة ، ولكن دلالته عامة في الاشياء على نسق واحد ، ووجوده دائم في الاحوال يستحيل خلافه ، فلا جرم أورثت شدة ظهوره خفاه كما قيل :

خفيٌّ لافراط الظهور تعرضت لادراكه أبصار قوم أخافش

وحظ عيون الزرق من نور وجهه لشدته حظ العيون العوامش

قال أمير المؤمنين (ع) : « لم تحط به الاوهام ، بل تجلى لها بها ، وبها امتنع منها » . وقال (ع) : « ظاهر في غيب ، وغائب في ظهور» . وقال (ع) : « لا تجنه البطون عن الظهور ، ولا تقطعه الظهور عن البطون ، قرب فنأى ، وعلا فدنا ، وظهر فبطن ، وبطن فعلن ، ودان ولم يدن » : أي ظهر وغلب ولم يغلب . ومن هناك قيل : « عرفت الله بجمعه بين الأضداد » .

فصل

(علائم محبة الله)

محبة العبد لله ـ سبحانه ـ له علامات :

الاولى ـ أن يحب لقاءه بطريق المشاهدة والعيان في دار السلام ، وتوقفه على الموت يحب الموت ويتمنيه ، إذ كل من يحب شيئاً يحب لقاءه ووصله ، واذا علم أنه يمتنع الوصول اليه إلا بالارتحال من الدنيا بالموت لاحب الموت لا محالة ، وكيف يثقل على المحب أن يسافر من وطنه الى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته ، ولذا قال (حذيفة) عند موته : « حبيب جاء على فاقة ، لا أفلح

اليوم من ندم » . قال بعض الاكابر : « لا يكره الموت إلا مريب ، لان الحبيب لا يكره لقاء الحبيب على كل حال » .

ثم من يكره الموت ، فان كانت كراهته له لحب الدنيا والتأسف على فراق الاهل والاولاد والاموال ، وكان حبه للدنيا وتأسفه على مفارقتها في غاية الكمال ، بحيث لم يحب الموت ولم يسر قلبه أصلاً بما يترتب عليه من لقاء الله ـ تعالى ـ ، ولم يجد في قلبه شوقاً اليه مطلقاً ، فلا ريب في كون مثل هذه الكراهة منافياً لاصل الحب ، ولو لم يكن حبه للدنيا في غاية الكمال ، بحيث لم يجد في قلبه ميلاً الى ما يترتب على الموت من لقاء الله ، بل كان محباً للدنيا إلا أنه كان له شوق الى لقاء الله ـ تعالى ـ أيضاً ، او كان لذلك كراهته للموت ضعيفة ، فمثل هذا الحب للدنيا ينافي كمال حب الله ، لان الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب ، ولا يبعد أن تكون معه شائبة ضعيفة من حب الله ، فان الناس متفاوتون في حب الله ، فمنهم من يحبه بكل قلبه ، ومنهم من لا يحبه بكل قلبه ، بل يحب معه غيره أيضاً من الاهل والولد والمال ، فلا جرم يكون فرحه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وكراهته لفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها ، وإن كانت كراهته للموت لاجل ارادته الاستعداد والتهيؤ للقاء الله ، ومشاهدته بتحصيل زيادة العلم والعمل ، لا لحب الاهل والمال ، ولا للتأسف على فراق الدنيا ، فهو لا يدل ضعف الحب ولا ينافي اصله ، وهو كالمحب الذي وصل اليه خبر قدوم حبيبه ، فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليعمر داره ويفرشها ويهيء أسبابها ، ليلقاه فارغ القلب عن الشواغل ، وعلامة ذلك : الجد في العمل ، واستغراق الهم في تحصيل المعرفة ، والاستعداد للآخرة

الثانية ـ أن يؤثر مراد الله ـ سبحانه ـ على مراده ، إذ المحب لا يخالف هوى محبوبه لهوى نفسه ، كما قيل :

اريد وصاله ويريد هجرى　　فاترك ما اريد لما يريد

فمن كان محباً لله : يمتثل أوامره ويجتنب نواهيه ، ويحترز عن اتباع الشهوات ، ويدع الكسالة والبطالة ، ولا يزال مواظباً على طاعته وانقياده ، ويكون مبتهجاً متنعماً بالطاعة ولا يشغلها ، ويسقط عنه تعبها ، وقد روى : « أن زليخا لما آمنت ، وتزوج بها يوسف (ع) ، انفردت عنه ، وتخلت للعبادة ، وانقطعت الى الله - تعالى - ، وكان يوسف يدعوها الى فراشه نهاراً فتدافعه الى الليل ، واذا دعاها ليلا سوفت الى النهار ، فعاتبها في ذلك ، فقالت : يا رسول الله ! إنما كنت أحبك قبل أن أعرف ربك ، فاما إذ عرفته فلا أؤثر على محبته محبة من سواه ، وما أريد به بدلاً » . ثم الحق أن العصيان يضاد كمال المحبة لا أصلها ، ولذا قد يأكل الرجل المريض ما يضره ويزيد في مرضه مع أنه يحب نفسه ، ويحب صحته ، والسبب ضعف المعرفة ، وغلبة الشهوة ، فيعجز عن القيام بحق المحبة .

الثالثة - ألا يغفل عن ذكر الله - سبحانه - ، بل يكون دائماً مستهتراً بذكره ، إذ من أحب شيئاً أكثر ضرورة ذكره وذكر ما يتعلق به ، فمحب الله لا يخلو عن ذكر الله وذكر رسوله وذكر القرآن وتلاوته ، لانه كلامه ، ويكون محباً للخلوة ليتفرد بذكره وبمناجاته ، ويكون له كمال الانس والالتذاذ بمناجاته ، وفي اخبار داود : « كذب من ادعى محبتي ، واذا جنه الليل نام عني ، أليس كل محب يحب لقاء حبيبه ؟ فها أنا ذا موجود لمن طلبني » .

الرابعة - ألا يحزن ولا يتألم عن فقد شيء ، ولا يفرح بوجود شيء ، سوى ما يقربه الى الله او يبعده عنه : فلا ينبغي ان يحزن ويجزع في المصائب ولا يسر بنيل المقاصد الدنيوية ، ولا يتأسف على ما يفوته إلا على ما فات منه من طاعة مقربة الى محبوبه ، او على صدور معصية مبعدة ، او على ساعة

خلت عن ذكر الله والانس به .

الخامسة ـ أن يكون مشفقاً رؤفاً على عباد الله ، رحيماً على اوليائه ، وشديداً على اعداء الله ، كارهاً لمن يخالفه ويعصيه ، إذ مقتضى الحب الشفقة والمحبة لأحباء المحبوب والمنسوبين اليه ، والبغض لأعدائه ومخالفيه .

السادسة ـ أن يكون في حبه خائفاً متذللا تحت سلطان العظمة والجلال ، وليس الخوف مضاداً للحب ، كما ظن ، إذ ادراك العظمة يوجب الهيبة ، وادراك الجمال يوجب الحب ، ولخصوص المحبين خوف الاعراض ، وخوف الحجاب ، وخوف الابعاد ، وخوف الوقوف ، وسلب المزيد . وقال بعض العرفاء : « من عبد الله بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والادلال ، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ، ومن عبده من طريقهما أحبه الله ، فقربه ومكنه وعلمه » .

السابعة ـ كتمان الحب والشوق من اظهاره ومن اظهار الوجد واجتناب الدعوى ، تعظيماً للمحبوب واجلالاً له ، وهيبة منه وغيرة على سره ، فان الحب سر من اسرار المحبوب ، فلا ينبغي افشاؤه ، ولأنه ربما يدخل في الدعوى ما يجاوز حد الواقع ، فيكون من الافتراء ، وتعظم به العقوبة في العقبى والبلية في الدنيا . نعم ، ربما غشيته سكرة في حبه ، حتى يدهش فيها ، وتضطرب احواله ، فيظهر عليه حبه من دون اختيار وتمحل . فمثله معذور ، لأنه تحت سلطان المحبة مقهور ، ومن عرف أن حصول حقيقة المعرفة والمحبة التي تنبغي أن تكون في حق الله يستحيل أن يحصل لأحد ، وأن يطلع على ما اعترف عظماء الانسان ـ أعني الانبياء والأولياء ـ من العجز والقصور ، وان صنفاً واحداً من الأصناف الغير المتناهية من ملائكته ملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء ، هم أهل المحبة لله ، ما خطر على

قلوبهم مذ خلقهم الله ـ وهو ثلاث مائة ألف سنة قبل خلق العالم ـ سوى الله ـ سبحانه ـ ، وما ذكروا غيره ، لاستحيى منه حق الحياء أن يعد ما عليه من المعرفة والمحبة معرفة ومحبة ، وخرس لسانه عن التظاهر بالدعوى . وروى في بعض الأخبار : « ان بعض أهل الله سأل بعض الصديقين أن يسأل الله ـ تعالى ـ أن يعطيه ذرة من معرفته ، ففعل ذلك ، فحار عقله ، وذهل لبه ، ووله قلبه ، وهام في الجبال ، وبقى شاخصا سبعة ايام ، لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء ، فسأل له الصديق ربه أن ينقص بعض الذرة من المعرفة التي اعطاه ، فأوحى الله ـ تعالى ـ اليه : (إنا اعطيناه جزءا من مائة ألف جزء من ذرة من المعرفة ، وذلك ان مائة ألف عبد سألوني شيئا من المحبة في الوقت الذى سألني هذا ، فأخرت اجابتهم الى أن شفعت أنت لهذا ، فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما اعطيته ، فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد ، فهذا ما أصابه من ذلك) . فقال : سبحانك سبحانك ! أنقصه مما أعطيته ، فأذهب الله عنه جملة ما اعطاه ، وأبقى فيه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة ، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه ، وسكن ، وصار كسائر الكمل من العارفين » (١) .

والحق ان حقائق الصفات الالهية أجل واعظم من ادراك العقول البشرية ، ولا تطيق أحد من الكمل أن يتحمل تفهم جزء من الأجزاء الغير المتناهية منها ، فالوصول الى ما عليه الحضرة الربوبية من العظمة والجلال وسائر صفات الكمال في حيز المحال ، (وما قيل أو يقال فيه) وهم أو خيال ، فاين يحصل لأحد ما يليق به من المعرفة والمحبة ؟ فلو امكن ان تدخل امثال هذه العوالم المخلوقة من السماوات والارضين وما فوقهما واضعافهما بقدر

---

(١) صححنا الرواية على (احياء العلوم) : ٤ / ٢٨٨ .

غير متناه في جوف خردلة ، لامكن أن تدخل في اعظم العقول ذرة من عظمته وجلاله ، وغاية المعرفة ان يعرف عظمته وقدرته وجلاله وعزته وسائر اوصافه الكمالية بأمثال هذه العنوانات والتمثيلات ، وهي أيضاً لو ضوعفت الى غير النهاية في ازمنة غير متناهية ، لكانت بيانات قاصرة ، بل وهمية خيالية ، فسبحان من لاسبيل الى معرفته إلا بالعجز عن معرفته !

ومن علامات المحبة الانس والرضا ـ كما يأتي ـ . وقد جمع بعض العارفين علامات المحب في ابيات ، فقال :

لا تخدعن فللمحب دلائل	ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائه	وسروره في كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة	والفقر اكرام وبر عاجل
ومن الدلائل ان ترى من عزمه	طوع الحبيب وان ألح العاذل
ومن الدلائل ان يرى متبسما	والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل ان يرى متفهما	لكلام من يحظى لديه سائل
ومن الدلائل ان يرى متقشفا	متحفظا عن كل ما هو قائل
ومن الدلائل ان تراه مشمراً	في خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه	خوف الظلام فما له من عاذل
ومن الدلائل أن تراه باكيا	ان قد رآه على قبيح فاعل
ومن الدلائل أن تراه راضيا	بمليكه في كل حكم نازل
ومن الدلائل زهده فيما ترى	من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل ان تراه مسلما	كل الامور الى المليك العادل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى	والقلب محزون كقلب الثاكل
ومن الدلائل أن تراه مسافراً	نحو الجهاد وكل فعل فاضل

فصل

(معنى حب الله لعبده)

اعلم ان شواهد الكتاب والسنة ناطقة بأن الله ـ سبحانه ـ يحب العبد، كقوله ـ تعالى ـ :

« يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » (١) . وقوله ـ تعالىٰ ـ : « إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ » (٢). وقوله ـ تعالى ـ : « إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ » (٣) . وقوله ـ تعالى ـ : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » (٤) .

وقال رسول الله (ص) : « ان الله يعطى الدنيا من يحب ومن لايحب ، ولايعطى الايمان الامن يحب » . وقال (ص) : « اذا احب الله عبدا لم يضره ذنب » . وقال (ص) : « اذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فان صبر اجتباه ، وان رضى اصطفاه » . وقال (ص) : « من أكثر ذكر الله أحبه الله » . وقال (ص) حاكيا عن الله : « لا يزال العبد يتقرب اليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ولسانه الذى ينطق به » . وقال (ص) : « اذا احب الله عبدا ، جعل له واعظا من نفسه ، وزاجرا من قلبه ، يأمره وينهاه » . . . وأمثال ذلك اكثر من أن تحصى .

ثم حقيقة الحب ـ وهو الميل الى موافق ملائم ـ غير متصور في حق الله

---

(١) المائدة ، الآية : ٥٧ .

(٢) الصف ، الآية : ٤ .

(٣) البقرة ، الآية : ٢٢٢ .

(٤) آل عمران ، الآية : ٣١ .

ـ تعالى ـ ، بل هذا انما يتصور في حق نفوس ناقصة ، والله ـ سبحانه ـ صاحب كل جمال وكمال وبهاء وجلال ، وكل ذلك حاضر له بالفعل أزلا وابدا ، اذ لايتصور تجدده وزواله ، فلا يكون له الى غيره نظر من حيث انه غير ، بل ابتهاجه بذاته وصفاته وافعاله . وليس في الوجود إلا ذاته وصفاته وافعاله ، ولذلك قال بعض العرفاء ـ لما قرىء قوله ـ تعالى ـ : (يحبهم ويحبونه) ـ : « نحن نحبهم،فانه ليس يحب إلا نفسه » ، على معنى انه الكل وانه في الوجود ليس غيره . فمن لايحب إلاذاته ، وصفات ذاته ، وافعال ذاته وتصانيف ذاته،فلا يجاوز حبه وذاته وتواضع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته، فهو اذاً لايحب إلا ذاته . وليس المراد من محبة الله لعبده هو الابتهاج العام الذي له ـ تعالى ـ بافعاله ، إذالمستفاد من الآيات والاخبار : أن له ـ تعالى ـ خصوصية محبة لبعض عباده ليست لسائر العباد والمخلوقات ،فمعنى هذه المحبة يرجع إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه ، والى تمكينه اياه من القرب اليه ، وإلى ارادته ذلك به في الازل ، والى تطهير باطنه عن حلول الغير به ، وتخليته عن عوائق تحول بينه وبين مولاه ، حتى لايسمع إلا بالحق ومن الحق ، ولا يبصر إلا به ، ولاينطق إلا به ـ كما في الحديث القدسي ـ فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه،وارتفاع الحجاب عن قلبه ، وحصوله في درجة القرب من ربه ، وكل ذلك من فضل الله ـ تعالى ـ ولطفه به .

ثم قرب العبد من الله لايوجب تغيرا وتجددا في صفات الله ـ تعالى ـ ، اذ التغير عليه ـ سبحانه ـ محال ، لانه لايزال في نعوت الكمال والجلال والجمال على ما كان عليه في ازل الآزال ، بل يوجب مجرد تغير العبد بترقيه في مدارج الكمال ، والتخلق بمكارم الاخلاق التى هى الاخلاق الالهية ، فكلما صار اكمل صفة وأتم علما واحاطة بحقائق الامور ، واثبت قوة في

قهر الشياطين وقمع الشهوات ، وأظهر نزاهة عن الرذائل ، وأقوى تصرفا في ملكوت الأشياء ، صار اقرب إلى الله . ودرجات القرب غير متناهية ، لعدم تناهي درجات الكمال ، فمثل تقرب العبد الى الله ليس كتقرب احد المتقاربين إلى الآخر اذا تحركا معا ، بل كتقرب احدهما مع تحركه الى الآخر الذي كان ساكنا ، او كتقرب التلميذ في درجات الكمال إلى استاذه ، فان التلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل الى بقاع العلم ، ويطلب التقرب من استاذه في درجات العلم والكمال ، والاستاذ ثابت واقف ، وان كان التلميذ يمكن ان يصل الى مرتبة المساواة لاستاذه لتناهي كمالاته . وأما العبد ، كائنا من كان ، لايمكن أن يصل الى كمال يمكن أن يكون له نسبة الى كمالاته ـ سبحانه ـ ، لعدم تناهي كمالاته شدة وقوة وعدة ، وعلامة كون العبد محبوبا عند الله . أن يكون هو محبا له ـ تعالى ـ ، مؤثرا اياه على غيره من المحاب ، وان يرى من بواطن اموره وظواهره انه ـ تعالى ـ يهيء له اسباب السعادة فيها ، ويرشده الى ما فيه خيره ، ويصده عن المعاصي باسباب يعلم حصولها منه ـ سبحانه ـ ، انه ـ تعالى ـ يتولى امره ، ظاهره وباطنه ، وسره وجهره ، فيكون هو المشير عليه ، والمدبر لأمره ، والمزين لأخلاقه ، والمستعمل لجوارحه ، والمسدد لظاهره وباطنه ، والجاعل لهمومه هما واحدا ، والمبغض الدنيا في قلبه ، والموحش له من غيره ، والمونس له بلذة المناجاة في خلواته والمكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته .

تذنيب

(الحب في الله والبغض في الله)

اعلم ان الاخبار متظاهرة في مدح الحب في الله والبغض في الله وعظم فضيلته وثوابه ، ومعناه لا يخلو عن ابهام ، فلا بد أن نشير الى بعض هذه

الاخبار . ثم نبين حقيقته ونكشف عن معناه .

أما الاخبار : كقول النبي (ص) : « ود المؤمن للمؤمن في الله أعظم شعب الايمان ، الا ومن أحب في الله . وأبغض في الله . وأعطى في الله . ومنع في الله فهو من اصفياء الله » . وقال (ص) لاصحابه : « أي عرى الايمان اوثق ؟ » فقالوا : الله ورسوله اعلم ـ فقال بعضهم : الصلاة . وقال بعضهم . الزكاة . وقال بعضهم : الصيام . وقال بعضهم : الحج والعمرة . وقال بعضهم : الجهاد ـ فقال رسول الله (ص) : « لكل ما قلتم فضل وليس به . ولكن اوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله . وتوالى اولياء الله والتبري من اعداء الله » . وقال (ص) : « المتحابون في الله يوم القيامة على ارض زبرجدة خضراء في ظل عرشه عن يمينه ـ وكلتا يديه يمين ـ وجوههم أشد بياضا واضوأ من الشمس الطالعة . يغبطهم بمنزلتهم كل ملك مقرب وكل نبي مرسل . يقول الناس : من هؤلاء ؟ فيقال : هؤلاء المتحابون في الله » . وقال سيد الساجدين ـ عليه السلام ـ : « اذا جمع الله ـ عز وجل ـ الأولين والآخرين ، قام مناد فنادى ليسمع الناس ، فيقول : اين المتحابون في الله ؟ قال : فيقوم عنق من الناس . فيقال لهم : اذهبوا الى الجنة بغير حساب . قال : فتلقاهم الملائكة ، فيقولون : الى اين ؟ فيقولون : الى الجنة بغير حساب ، فيقولون : أى حزب انتم من الناس ؟ فيقولون : نحن المتحابون في الله . قال : فيقولون : واى شيء كانت اعمالكم ؟ قالوا : كنا نحب في الله ونبغض في الله . قال : فيقولون : نعم اجر العاملين » . وقال الباقر (ع) : « اذا اردت ان تعلم ان فيك خيرا فانظر الى قلبك ، فان كان يحب أهل طاعة الله ويبغض اهل معصيته ففيك خير والله يحبك ، واذا كان يبغض أهل طاعة الله ويحب اهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك . والمرء مع من احبه » . وقال (ع) : « لو ان رجلا احب رجلا

لله ، لأثابه الله على حبه اياه ، وان كان المحبوب في علم الله من أهل النار ، ولو ان رجلا ابغض رجلا لله ، لاثابه الله على بغضه اياه ، وان كان المبغض في علم الله من اهل الجنة » . وقال الصادق (ع) : « من احب لله ، وابغض لله ، واعطى لله ، فهو ممن كمل ايمانه » . وقال (ع) : « ان المتحابين في الله يوم القيامة على منابر من نور ، قد اضاء نور وجوههم ونور اجسادهم ونور منابرهم كل شيء حتى يعرفوا به ، فيقال : هؤلاء المتحابون في الله » . وقال (ع) : « وهل الايمان الا الحب في الله والبغض في الله ؟ ثم تلا هذه الآية :

« حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الايمانَ وزَيَّنَهُ في قُلوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيانَ أُولٰئِكَ هُمُ الرّاشِدونَ»(١)»

وقال (ع) : « ما التقى المؤمنان قط إلا كان افضلهما اشدهما حبا لأخيه » . وقال (ع) : « من لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له » . والاخبار بهذه المضامين كثيرة (٢) .

واذا عرفت ذلك ، فلنشر الى معنى الحب في الله والبغض في الله فنقول : الحب الذى بين انسانين ، اما يحصل بمجرد الصحبة الاتفاقية ، كالصحبة بحسب الجوار ، او بحسب الاجتماع في سوق ، او مدرسة ، او سفر ، او باب سلطان ، او امثال ذلك ، ومعلوم ان مثل هذا الحب ليس من الحب في الله بل هو الحب بحسب الاتفاق ، او لا يحصل بمجرد ذلك ، بل له سبب وباعث آخر ، وهذا على اربعة اقسام :

---

(١) الحجرات ، الآية : ٧ .

(٢) صححنا الاحاديث كلها على (اصول الكافي) : ج ٢ ، باب الحب في الله والبغض في الله . وعلى (الوافي) : ٣ / ٣٤٤ ، باب الحب فى الله والبغض في الله .

الأول — أن يحب انسان انساناً لذاته ، لا ليتوصل به الى محبوب ومقصود وراءه ، بأن يكون هو في ذاته محبوباً عنده ، بمعنى انه يلتذ برؤيته ومعصيته ومشاهدة اخلاقه ، لاستحسانه له ، فان كل جميل لذيذ في حق من ادرك جماله ، وكل لذيذ محبوب ، واللذة تتبع الاستحسان ، والاستحسان يتبع المناسبة والموافقة والملائمة بين الطباع . ثم ذلك المستحسن ، اما أن يكون جمال الصورة ، وكمال العقل ، وغزارة العلم ، وحسن الأخلاق والافعال ، وكل ذلك يستحسن عند الطباع السليمة ، وكل مستحسن مستلذ به ومحبوب ، ومن هذا القسم أن يحبه لأجل مناسبة خفية معنوية بينهما ، فانه قد تستحكم المودة بين شخصين من غير حسن في خلق وخلق ، ومن دون ملاحة في صورة ، ولا غيرها من الأعضاء ، بل المناسبة باطنة توجب الألفة والموافقة والمحبة ، فان شبه الشيء ينجذب اليه بالطبع ، والأشياء الباطنة خفية ، ولها اسباب دقيقة ليس في قوة البشر أن يطلع عليها ، والى هذا القسم من الحب والموافقة أشار رسول الله (ص) بقوله : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » . فالحب نتيجة التناسب الذي هو التعارف ، والبغض نتيجة التناكر . ومعلوم ان هذا القسم من الحب لا يدخل في الحب لله ، بل هو حب بالطبع وشهوة النفس ، لذا يتصور ممن لا يؤمن بالله ، إلا انه ان اتصل به غرض مذموم صار مذموماً ، وإلا فهو مباح لا يوصف بمدح وذم .

الثاني — أن يحبه لا لذاته ، بل لينال منه محبوباً وراء ذاته ، وكانت لهذا المحبوب فائدة دنيوية . ولا ريب في أن كلما هو وسيلة الى المحبوب محبوب ، وعدم كون هذا الحب من جملة الحب في الله ظاهر .

الثالث — أن يحبه لا لذاته ، بل لغيره ، وذلك الغير راجع الى

حظوظه في الآخرة دون الدنيا ، وذلك كحب التلميذ للاستاذ ، لأن يتوسل به الى تحصيل العلم وتحسين العمل ، ومقصوده من العلم والعمل سعادة الآخرة. وهذا الحب من جملة الحب في الله ، وصاحبه من محب في الله . وكذلك حب الاستاذ للتلميذ ، لأنه يتلقف منه العلم ، وينال بواسطته مرتبة التعليم ، ويترقى به الى درجة التعظيم في ملكوت السماء . قال عيسى (ع) : « من علم وعمل وعلم ، فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السماء » . ولا يتم التعليم إلا بمتعلم ، فهو اذن آلة في تحصيل هذا الكمال ، فان احبه لأنه آلة إذ جعل صدره مزرعة لحرثه ، فهو محب لله .

بل التحقيق : أن كل من يحب احداً لصنعته ، أو فعله الذي يوجب تقربه الى الله ، فهو من جملة المحبين في الله ، كحب من يتولى له ايصال الصدقة الى المستحقين ، وحب طباخ يحسن صنعته في الطبخ لأجل طبخه لمن يضيفه تقرباً الى الله ، وحب من ينفق عليه ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع مقاصده التي يقصده في الدنيا ، ومقصوده من ذلك الفراغ لتحصيل العلم والعبادة ، وحب من يخدمه بنفسه من غسل ثيابه وكنس بيته وطبخ طعامه وأمثال ذلك من حيث أنه يفرغه لتحصيل العلم والعمل . . . وقس على ماذكر امثاله ، والمعيار أن كل من احب غيره من حيث توسله لأجله الى فائدة اخروية فهو محب لله وفي الله .

الرابع — أن يحبه لله وفي الله ، لا لينال منه علماً أو عملا ، أو يتوسل به الى امر وراء ذاته ، وذلك بأن يحبه من حيث انه متعلق بالله ومنسوب اليه ، إما بالنسبة العامة التي ينتسب بها كل مخلوق الى الله ، أو لأجل خصوصية النسبة أيضاً ، من تقربه الى الله ، وشدة حبه وخدمته له -تعالى- . ولا ريب في أن من آثار غلبة الحب أن يتعدى من المحبوب الى كل من يتعلق

به ويناسبه ، ولو من بعد ، فمن احب انساناً حباً شديداً ، أحب محب ذلك الانسان واحب محبوبه ومن يخدمه ومن يمدحه ويثني عليه أو يثني محبوبه ، وأحب أن يتسارع الى رضاء محبوبه ، كما قيل :

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

واما البغض في الله ، فهو ان يبغض انسان انسانا لأجل عصيانه لله ومخالفته له - تعالى - ، فان من يحب في الله لابد ان يبغض في الله ، فانك إن احببت انسانا لأنه مطيع لله ومحبوب عنده ، فان عصاه لا بد ان تبغضه ، لأنه عاص فيه وممقوت عند الله ، قال عيسى (ع) : « تحببوا الى الله ببغض أهل المعاصي ، وتقربوا الى الله بالتباعد عنهم ، والتمسوا رضاه الله بسخطهم » . وروى : « انه - تعالى - اوحى الى بعض انبيائه : اما زهدك في الدنيا فقد تعجلت الراحة ، واما انقطاعك الي فقد تعززت بي ، ولكن هل عاديت في عدواً ، او واليت ولياً ؟ » .

ثم للمعصية درجات مختلفة ، فانها قد تكون بالاعتقاد ، كالكفر والشرك والبدعة ، وقد تكون بالقول والفعل ، وهذا إما ان يكون مما يتأذى به غيره ، كالقتل والغصب والضرب وشهادة الزور وسائر انواع الظلم ، او لا يكون مما يتأذى به غيره ، وهذا إما يوجب فساد الغير ، كالجمع بين الرجال والنساء ، وتهيئة أسباب الشر والفساد على ما هو دأب صاحب الماخور ، أو لا يوجب فساد الغير ، كالزنا وشرب الخمر ، وهذا أيضاً إما كبيرة أو صغيرة . واظهار البغض أيضاً له درجات مختلفة ، كالتباعد والهجران ، وقطع اللسان عن المكالمة والمحادثة ، والتغليظ في القول ، والاستخفاف والاهانة ، وعدم السعي في إطاعته ، والسعي في اساءته

وافساد مآربه ، وبعض هذا أشد من بعض ، كما أن درجات الفسق والمعصية أيضاً كذلك . فينبغي أن يكون الأشد من درجات البغض بازاء الأشد من درجات المعصية والفسق ، والوسط بازاء الوسط، والأضعف بازاء الأضعف. وينبغي ألا يترك أولا النصيحة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتغليظ القول في الوعظ والارشاد ، لا سيما اذا كان العاصي ممن بينه وبينه صحبة متأكدة . ثم العاصي إن كان ممن له صفات محمودة ، كالايمان والعلم والسخاء والعبادة والطاعة أو امثال ذلك ، ينبغي أن يكون مبغوضاً لأجل معصيته ومحبوباً لأجل صفته المحمودة ، وهذا كما أن من وافقك في غرض وخالفك في آخر تكون معه على حالة متوسطة بين التردد اليه والتوحش عنه ، فلا تبالغ في اكرامه مبالغتك في اكرام من يوافقك في جميع اغراضك ، ولا تبالغ في اهانته مبالغتك في اهانة من خالفك في جميع اغراضك .

تتميم

(الوفاء في الحب)

اعلم ان من تمام الحب للاخوان في الله (الوفاء) ، وهو الثبات على الحب ولوازمه وادامته الى الموت وبعده مع اولاده واصدقائه ، وضده (الجفاء) ، وهو قطع الحب أو بعض لوازمه في أيام الحياة او بعد الموت بالنسبة الى أولاده وأحبته ، ولولا الوفاء في الحب لما كانت فيه فائدة ، اذ الحب إنما يراد للآخرة ، فان انقطع قبل الموت لضاع السعي وحبط العمل ، ولذلك قال رسول الله في السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة : « واخوان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه » . وروي : « أنه (ص) كان يكرم بعض العجائز كلما دخلت عليه ، فقيل له في ذلك ، فقال : إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وان كرم العهد من الدين » . فمن الوفاء مراعاة جميع الاصدقاء

والأقارب والمتعلقين ، ومراعاتهم اوقع في القلب من مراعاة الأخ المحبوب في نفسه ، فان فرحه بتفقد من يتعلق به اكثر من فرحه بتفقد نفسه . اذ لا تعرف قوة المحبة والشفقة الا بتعديها من المحبوب الى كل من يتعلق به ، حتى ان من قوي حبه لأخيه تميز في قلبه كلبه الذي على باب داره من سائر الكلاب . ولا ريب في ان المحبة التي تنقطع ـ ولو بعد الممات ـ لا تكون محبة في الله، اذ المحبة في الله دائمة لا انقطاع لها . فما قيل من ان (قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره حال الحياة) انما هو لدلالته على كون الحب في الله. وبالجملة : الوفاء بالمحبة تمامها . ومن آثار الوفاء ان يكون شديد الجزع من مفارقته ، والا يسمع بلاغات الناس عليه ، وان يحب صديقه ويبغض عدوه، وليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في امر يتعلق بالدين، بل من الوفاء المخالفة له وارشاده الى الحق .

هذا واما البعد والانس ، فقد عرفت ان الانس عبارة عن استبشار القلب بما يلاحظه من المحبوب بعد الوصول، والبعد خلافه، والأنس والخوف والشوق كلها من آثار المحبة، وكل واحد منها يرد على المحب بحسب نظره ، وعما يغلب عليه في وقته ، فاذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب الى منتهى الجمال ، واستشعر قصوره من الاطلاع على كنه الجلال ، انبعثت النفس وانزعجت له وهاجت اليه ، فسميت هذه الحالة في الانزعاج (شوقاً) ، وهو بالاضافة الى امر غايب ، واذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف ، وكان نظره مقصوراً على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف ، غير ملتفت الى مالم يدركه بعد، استبشر القلب بما يلاحظه فيه. فيسمى استبشاره (انساً) . وان كان نظره الى صفات العز والجلال والاستغناء وعدم المبالاة ، واستشعر امكان الزوال والبعد ، تألم قلبه بهذا الاستشعار ، فيسمى

تأمله (خوفاً) ، وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات ، فان غلب الأنس وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق اليه من خطر الزوال ، عظم نعيمه ولذته ، وغلب عليه الأنس بالله ، ولم تكن شهوته الا في الانفراد والخلوة ، وذلك لان الانس بالله يلازمه التوحش من غير الله ، بل كلما يعوق من الخلوة يكون اثقل الاشياء على القلب ، كما روى : « ان موسى (ع) لما كلمه ربه ، مكث دهراً لا يسمع كلامه احد من الخلق الا اخذه الغشيان » ، لان الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره، فيخرج عن القلب عذوبة ما سواه ، فان خالط الناس كان كمنفرد في جماعة ، ومجتمع في خلوة ، وغريب في حضر ، وحاضر في سفر ، وشاهد في غيبة ، وغائب في حضور ، ومخالط بالبدن ، منفرد بالقلب المستغرق في عذوبة الذكر ، قال امير المؤمنين (ع) في وصفهم : « هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الامر، فباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون ، وانسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بابدان ارواحها متعلقة بالمحل الاعلى ، اولئك خلفاء الله في ارضه ، والدعاة الى دينه » .

فصل

(الأنس بالله)

من انكر وجود الحب والشوق انكر وجود الانس ايضاً ، ظناً انه يدل على التشبيه، وهو ناش عن الجهل بالابتهاجات العقلية واللذات الحقيقية، وعن القصور في طريق المعرفة ، والجمود على احكام الحس ، والغفلة عن عالم العقل والبصيرة ، وقد ظهر ثبوت الانس من بعض الاخبار السابقة ، ويدل عليه ما ورد في اخبار داود : « ان الله ـ عز وجل ـ اوحى اليه : ياداود ! ابلغ اهل ارضي : اني حبيب لمن احبني ، وجليس لمن جالسني ،

ومؤنس لمن أنس بذكري، وصاحب لمن صاحبني، ومختار لمن اختارني،ومطيع لمن اطاعني ، ما احبني عبد اعلم ذلك يقيناً من قلبه إلا قبلته لنفسي،واحببته حباً لا يتقدمه احد من خلقي . من طلبني بالحق وجدني ، ومن طلب غيري لم يجدني ، فارفضوا يا أهل الأرض ماانتم عليه من غرورها ، وهلموا الى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي ، وآنسوا بي اؤانسكم ، واسارع الى محبتكم » .

فصل

(الأنس قد يثمر الادلال)

قال ابو حامد الغزالي : « الأنس اذا دام وغلب واستحكم ، ولم يشوشه قلق الشوق ، ولم ينغصه خوف البعد والحجاب ، فانه يثمر نوعاً من الانبساط في الاقوال والافعال والمناجاة مع الله ـ سبحانه ـ ، وقد يكون منكراً بحسب الصورة ، لما فيه من الجرأة وقلة الهيبة ، ولكنه محتمل ممن اقيم في مقام الأنس ، ومن لم يقم في ذلك المقام وتشبه بهم في الفعل والكلام ، هلك واشرف على الكفر . ومثاله مناجاة (برخ الأسود) الذي أمر الله ـ تعالى ـ كليمه موسى (ع) أن يسأله ليستسقى لبني اسرائيل ، بعد أن قحطوا سبع سنين ، وخرج موسى في سبعين الفاً ، فاوحى الله ـ عز وجل ـ اليه : كيف استجيب لهم وقد اظلت عليهم ذنوبهم ؟ سرائرهم خبيثة ، يدعونني على غير يقين ، ويأمنون مكري ، ارجع الى عبد من عبادي يقال له (برخ) ، فقل له : يخرج حتى استجيب له. فسأل عنه موسى، فلم يعرف ، فبينا موسى ذات يوم يمشي في طريق ، اذا بعبد اسود قد استقبله ، بين عينيه تراب من اثر السجود ، في شملة قد عقدها على عنقه ، فعرفه موسى بنور الله ـ عز وجل ـ، فسلم عليه وقال له :ما اسمك ؟ فقال: اسمي برخ.قال : فانت طلبتنامنذحين، اخرج فاستسق لنا ، فخرج ، فقال في كلامه : ما هذا من فعالك ،

ولا هـذا من حلمك ، وما الذي بـدا لك ؟ أتمصت عليك غيومك ؟ أم عاندت الرياح عن طاعتك ؟ أم نفد ما عندك ؟ أم اشتد غضبك على المذنبين ؟ ألست كنت غفاراً قبل خلق الخاطئين ؟ خلقت الرحمة وأمرت بالعفو ، أم تربنا انك ممتنع ؟ أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة ؟ ! ... قال : فما برح حتى اخضل بنو اسرائيل بالمطر ، وانبت الله ـ عز وجل ـ العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب ، ثم يرجع (برخ) ، فاستقبله موسى ، فقال: كيف رأيت حين خاصمت ربي ،كيف لنصفني ؟ ! فهمّ به موسى ، فاوحى الله اليه : إن برخا يضحكني كل يوم ثلاث مرات » !! (١) . ولا ريب في ان امثال هذه الكلمات الصادرة عن الانبساط والادلال يحتمل من بعض العباد دون البعض ، فمن انبساط الانس قول موسى :

« إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ » (٢)

وقوله في التعلل والاعتذار ، لما قيل له :

((إِذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ)) (٣) : ((وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ))(٤) . وقوله ((وَيَضِيقُ صَدْرِي))(٥) . وقوله ((اِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ)) (٦) .

---

(١) هذا من عجائب المنقولات الخرافية ، والغريب من (ابى حامد الغزالي) ان يركن الى مثله ، وقد أشار المصنف ـ قدس سره ـ الى بطلان ما نقله بقوله : (ولا ريب) .

(٢) الأعراف ، الآية : ١٥٤ .

(٣) طه ، الآية : ٢٤ . النازعات ، الآية : ١٧ .

(٤) الشعراء ، الآية : ١٤ .

(٥) الشعراء ، الآية : ١٣ .

(٦) طه ، الآية : ٤٥ .

وهذا من غير موسى سوء الادب ، لان الذي اقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل منه ما لا يحتمل من غيره . كيف ولم يحتمل من يونس النبي (ع) ما دون هذا الحال ، اقيم مقام القبض والهيبة ، فعوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث ، فنودي عليه الى يوم الحشر ، لولا ان تداركته نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . ونهى نبينا ان يقتدى به ، فقيل له :

«وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ» (١) .

وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف المقامات والاحوال ، وبعضها لما سبق في الازل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد . قال الله ـ سبحانه ـ :

«تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ» (٢) .

فالانبياء والاولياء مختلفون في الصفات والاحوال ، ألا ترى ان عيسى بن مريم (ع) كان في مقام الانبساط والادلال . ولادلاله له سلم على نفسه ، فقال :

« وَٱلسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا » (٣) .

وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الانس . واما يحيى (ع)

(١) القلم . الآية : ٤٨ .
(٢) البقرة . الآية : ٢٥٣ .
(٣) مريم . الآية : ٣٣ .

فانه اقيم مقام الهيبة والحياء ، فلم ينطق حتى سلم عليه خالقه ، فقال :

« وَسَلامٌ عَلَيْـهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيومَ يَمُوتُ وَيَومَ يُبْعَثُ حَيّاً » (١) .

وانظر كيف احتمل لاخوة يوسف ما فعلوا به ، وقد قال بعض العلماء : « قد عددت من أول قوله ـ تعالى ـ :

« إذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَأخوهُ أحَبُّ إلىٰ أبينا مِنّا »(٢)

الى رأس العشرين آية من اخباره ـ تعالى ـ عنهم ، فوجدت به نيفاً واربعين خطيئة ، بعضها اكبر من بعض ، وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والاربع ، فغفر لهم وعفى عنهم ، ولم يحتمل لعزير في مسألة واحدة سأل عنها في القدر ، حتى قيل : لئن عاد محى اسمه عن ديوان النبوة » . ومن فوائد هذه القصص في القرآن : ان تعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل ، فما في القرآن شيء إلا وفيه اسرار وانوار يعرفها الراسخون في العلم .

تذنيب

(العزلة)

اعلم ان من بلغ مقام الانس ، غلب على قلبه حب الخلوة والعزلة عن الناس . لان المخالطة مع الناس تشغل القلب عن التوجه التام الى الله . فلابد لنا من بيان ان الافضل من العزلة والمخالطة ايهما . فان العلماء في ذلك مختلفون . والاخبار ايضاً في ذلك مختلفة . ولكل واحد منها ايضاً فوائد ومفاسد . فنقول : الظاهر من جماعة : تفضيل العزلة على المخالطة مطلقا .

---

(١) مريم . الآية : ١٤ .　　(٢) يوسف . الآية : ٨ .

والظاهر من الاخرى : عكس ذلك .

نظر الأولين الى اطلاق ما ورد في مدح العزلة ، والى فوائدها وما ورد في مدحها ، كقول النبي (ص) : « ان الله يحب العبد التقي الخفي » ، وقوله (ص) : « أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله ، ثم رجل معتزل في شعب من الشعاب » ، وقوله (ص) لمن سأله عن طريق النجاة : « ليسعك بيتك ، وامسك عليك دينك ، وابك على خطيئتك » ، وقول الصادق (ع) : « فسد الزمان ، وتغير الاخوان ، وصار الانفراد اسكن للفؤاد » ، وقوله (ع) : « اقلل معارفك ، وانكر من تعرف منهم » ، وقوله - عليه السلام - : « صاحب العزلة متحصن بحصن الله - تعالى - ، ومتحرس بحراسته ، فيا طوبى لمن تفرد به سراً وعلانية ! وهو يحتاج الى عشر خصال : علم الحق والباطل ، وتحبب الفقر ، واختيار الشدة ، والزهد ، واغتنام الخلوة ، والنظر في العواقب ، ورؤية التقصير في العبادة مع بذل المجهود ، وترك العجب ، وكثرة الذكر بلا غفلة ، فان الغفلة مصطاد الشيطان ورأس كل بلية وسبب كل حجاب ، وخلوة البيت عما لا يحتاج اليه في الوقت . قال عيسى بن مريم عليهما السلام : (اخزن لسانك لعمارة قلبك ، وليسعك بيتك ، واحذر من الرياء وفضول معاشك ، واستح من ربك ، وابك على خطيئتك ، وفر من الناس فرارك من الأسد والافعى ، فانهم كانوا دواء فصاروا اليوم داء ، ثم الق الله متى شئت)» . قال ربيع بن خثيم : « إن استطعت أن تكون اليوم في موضع لا تعرف ولا تعرف فافعل ، ففي العزلة صيانة الجوارح ، وفراغ القلب ، وسلامة العيش ، وكسر سلاح الشيطان ، والمجانبة من كل سوء ، وراحة القلب ، وما من نبي ولا وصي إلا واختار العزلة في زمانه ، إما في ابتدائه ،

وإما في انتهائه » (١) .

وأما فوائد العزلة ، فكالفراغ للعبادة ، والذكر ، والفكر ، والاستيناس بمناجاة الله ، والاشتغال باستكشاف اسرار الله في ملكوت السماوات والأرض ، والتخلص عن المعاصي التي يتعرض الانسان لها غالباً بالمخالطة : كالغيبة ، والرياء ، وسائر آفات اللسان ، ومسارقة الطبع الأعمال الخفية والأخلاق الردية من الناس ، والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والاستخلاص من الفتن والخصومات واخطارها ، أو من شر الناس وايذائهم قولاً وفعلا ، وقطع طمعه عن الناس ، وقطع طمعهم عنه ، والخلاص من مشاهدة الظلمة ، والفسقة ، والجهال ، والثقلاء ، والحمقى ، ومقاساة أخلاقهم .

ونظر الأخرين ـ اعني القائلين بتفضيل المخالطة على العزلة ـ الى اطلاق الظواهر الواردة في مدح المخالطة والمؤالفة والمؤانسة والى فوائدها ، أما ما ورد في مدحها ، كقول النبي (ص) : « المؤمن إلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » ، وقوله (ص) : « من فارق الجماعة مات ميتة الجاهلية » وكالاخبار الواردة في ذم الهجرة عن الاخوان ، وقوله (ص) : « إياكم والشعاب ، وعليكم بالعامة والجماعة والمساجد » .

وأما فوائد المخالطة : كالتعليم ، والتعلم ، وكسب الأخلاق الفاضلة من مجالسة المتصفين بها ، واستماع المواعظ والنصائح ، ونيل الثواب بحضور الجمعة والجماعة والجنازة ، وعيادة المرضى ، وزيارة الاخوان ، وقضاء حوائج المحتاجين ، ورفع الظلم عن المظلومين ، وادخال السرور على المؤمنين ،

(١) صححنا هذا القول ، وكذا الحديث السابق ، على (مصباح الشريعة) : باب ٢٤ ، وعلى (البحار) : ـ باب العزلة عن شرار الخلق ـ : مج ٥١/٢:١٥ ط أمين الضرب .

والاستيناس بالاخوان ، وبأهل الورع والعبادة والتقوى ، وهو يروح القلب ، ويهيج داعية النشاط في العبادة ، وايصال النفع الى المسلمين بالمال والجاه واللسان ، واستفادة مزيد الأجر والثواب بتحصيل المعاش والكد على العيال ، وارتياض النفس بمقاساة الناس في تحمل أذاهم ، وكسر النفس وشهواتها ، وادراك صفة التواضع لتوقفه على معاشرة الناس ومخالطتهم وعدم حصوله في الوحدة ، واستفادة التجارب والكياسة في مصالح الدنيا والدين ، فانها لا تحصل إلا من مخالطة الخلق ومشاهدة مجاري أحوالهم .

هذه هي فوائد كل من العزلة والمخالطة ، وفوائد كل منهما مفاسد وغوائل للآخر ، وأنت - بعد ما عرفت فوائد كل منهما وغوائله - تعلم أن الحكم بترجيح احدهما على الآخر على الاطلاق خطأ ، كيف يجوز أن يقال : ان العزلة أفضل لشخص جاهل لم يتعلم شيئاً من اصوله وفروعه ، ولم يقرع سمعه علم الأخلاق ، ولم يميز بين فضائل الصفات ورذائلها ، فضلا عن أن تحصل له التخلية والتحلية ، ومع ذلك يمكن أن يحصل ذلك بالمخالطة مع العلماء وأولى الأخلاق الفاضلة ؟ وكيف يجوز أن يقال : إن المخالطة أفضل لمن حصل ما في وسعه وقدرته من العلم والعمل ، ووصل الى مرتبة الابتهاج والالتذاذ بالطاعات والمناجاة ، ولم يترتب على مخالطته مع الناس شيء من الفوائد الدينية والدنيوية ، بل تترتب عليه المفاسد الكثيرة ؟

فالصحيح أن يقال : إن الأفضلية فيهما تختلف بالنظر الى الأشخاص والأحوال والأزمان والأمكنة . فينبغي أن ينظر الى كل شخص وحاله ، والى خليطه ، والى باعث مخالطته ، والى ما يحصل بمخالطته من فوائد المخالطة ، وما يفوت لاجلها من فوائد العزلة . ويوازن بين ذلك ، حتى يظهر الافضل والارجح . ولاختـــلاف ذلك في حق الاشخاص ،

بملاحظة الاحوال والفوائد والآفات . وربما يظهر - بعد التأمل - أن الافضل لبعض الخلق العزلة التامة ، ولبعضهم المخالطة ، ولبعضهم الاعتدال في العزلة والمخالطة . وبما ذكر يظهر أن الافضل لمن بلغ مقام الانس والاستغراق : الخلوة والعزلة ، إذ لا ريب في أن المخالطة توجب السقوط عن مرتبة الشهود والانس ، ولا يتصور من فوائدها شيء يقاوم ذلك . ولذلك كان المحبون المستأنسون بالله يعتزلون عن الخلق ويؤثرون الخلوة . قال أويس القرني : « ما كنت أرى أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره » ، وقال بعضهم : « إذا رأيت الصبح أدركني استرجعت كراهية لقاء الناس » . وقال بعضهم : « سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمناجاة ربه » . وقال بعض الصالحين : « رأيت في بعض البلاد عابداً خرج من بعض قلل الجبال ، فلما رآني تنحى عني وتستر بشجرة . فقلت له : سبحان الله ! أتبخل علي بالنظر اليك ؟ فقال : يا هذا ! اني قمت في هذا الجبل دهراً طويلا اعالج قلبي فى الصبر عن الدنيا واهلها ، فطال في ذلك تعبي وفنى فيه عمري ، فسألت الله - تعالى - أن يعطيني ذلك . فسكن قلبي عن الاضطراب ، وألف الوحدة والانفراد . فلما نظرت اليك خفت ان اوقع في الاول . فاني اعوذ من شرك برب العالمين وحبيب القانتين . ثم صاح وقال : واغماه من طول المكث في الدنيا ! ثم حول وجهه عني وقال : سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذة الخلود وحلاوة الانقطاع اليه ! ما ألهى قلوبهم عن ذكر الجنان وعن الحور الحسان » . وقال بعض الاكابر : « إنما يستوحش الانسان من نفسه لخلو ذاته عن الفضيلة . فبملاقاة الناس ومخالطتهم يفرح ويطرد الوحشة من نفسه . فاذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة ويستخرج العلم والحكمة » ، ومن هنا قيل : « الاستيناس بالناس من علامات الافلاس » .

فمن تيسر له منزلة بدوام الذكر والانس بالله وبدوام الفكر والتحقيق في معرفة الله ، فالتجرد والخلوة افضل له من كل ما يتعلق بالمخالطة . فان غاية العبادات وثمرة المجاهدات أن يموت الانسان محباً لله عارفاً بالله ، ولا محبة إلا بالانس الحاصل بدوام الذكر ، ولا معرفة إلا بدوام الفكر . وفراغ القلب شرط لكل منهما ، ولا فراغ مع المخالطة .

فان قلت : لا منافاة بين المخالطة مع الناس والانس بالله ، ولذا كان الانبياء مخالطين للناس مع غاية استغراقهم في الشهود والانس .

قلنا : لا يتسع للجمع بين مخالطة الخلق ظاهراً والاقبال التام على الله سراً إلا قوة النبوة . فلا ينبغي أن يغتر كل ضعيف بنفسه فيطمع في ذلك . ثم بما ذكرناه يظهر وجه الجمع بين الاخبار الواردة من الطرفين . فان ما ورد في فضيلة العزلة إنما هو بالنظر الى بعض الناس . وما ورد في فضيلة المخالطة انما هو بالنظر الى بعض آخر .

ومنها :

السخط

السخط فيما يخالف هواه من الواردات الالهية والتقديرات الربانية . ويرادفه الانكار والاعتراض . وهو من شعب الكراهة لافعال الله . وهو ينافي الايمان والتوحيد . وما للعبد العاجز الذليل المهين الجاهل بمواقع القضاء والقدر ، والغافل عن موارد الحكم والمصالح ، الاعتراض والانكار والسخط لافعال الخالق الحكيم العليم الخبير . وانى للعبد ألا يرضى بما يرضى به ربه . ولعمري ! أن من يعترض على فعل الله فهو اشد الجهلاء ، ومن لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء . وقد ورد في الخبر القدسي : « خلقت الخير والشر . فطوبى لمن خلقته للخير واجريت الخير على يديه ، وويل

لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه ، وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف ! » . وفي خبر قدسي آخر : « أنا الله لا إله إلا انا ، من لم يصبر على بلائي ، ولم يشكر على نعمائي ، ولم يرض بقضائي ، فليتخذ رباً سواي » وفي مناجاة موسى : « أي رب ! أي خلقك أحب اليك ؟ قال : من إذا اخذت منه المحبوب سالمني . قال : فأي خلقك أنت عليه ساخط ؟ قال : من يستخيرني في الأمر ، فاذا قضيت له سخط قضائي » . وفي الخبر القدسي : « قدرت المقادير ، ودبرت التدبير ، واحكمت الصنع ، فمن رضى فله الرضا مني حين يلقاني ، ومن سخط فله السخط مني حين يلقاني » . وقال الباقر (ع) : «ومن سخط القضاء مضى عليه القضاء ، واحبط الله اجره» . وقال الصادق(ع) : « كيف يكون المؤمن مؤمناً ، وهو يسخط قسمته ، ويحقر منزلته ، والحاكم عليه الله ، وأنا الضامن لمن لم يهجس في قلبه الا الرضا ان يدعو الله فيستجاب له » . وفي بعض الاخبار : « أن نبياً من الانبياء شكى الى الله ـ عز وجل ـ الجوع والفقر والعرى عشر سنين ، فما اجيب اليه ، ثم اوحى الله ـ تعالى ـ اليه : كم تشكو ؟ وهكذا كان بدؤك عندي في ام الكتاب قبل ان اخلق السماوات والارض ، وهكذا سبق لك مني ، وهكذا قضيت عليك قبل ان اخلق الدنيا ، أفتريد أن اعيد خلق الدنيا من اجلك ؟ ام تريد ان ابدل ما قدرته عليك ، فيكون ما تحب فوق ما احب ، ويكون ما تريد فوق ما اريد؟ وعزتي وجلالي ! لئن تلجلج هذا في صدرك مرة اخرى ، لامحونك من ديوان النبوة » (١) . وروى انه : « اوحى الله ـ تعالى ـ الى داود (ع) : تريد واريد وانما يكون ما اريد ، فان اسلمت لما اريد كفيتك ما تريد ، وان لم تسلم

(١) صححنا هذا الحديث ، وكذا الاخبار القدسية السابقة ، على (احياء العلوم) : ٤ / ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .

لما اريد اتبعتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما اريد » (١) .

وبالجملة : من عرف أن العالم بجميع اجزائه ، من الجواهر والاعراض، صادرة عنه على وجه الحكمة والخيرية ، وانها النظام الاصلح الذي لايتصور فوقه نظام ، ولو تغير جزء منه على ما هو اختلت الاصلحية والخيرية ، وعرف الله بالربوبية ، وعرف نفسه بالعبودية ، يعلم ان السخط والاعراض وعدم الرضا بشيء مما يرد ، ويكون غاية الجهل والخطر ، ولذلك لم يكن احد من الانبياء ان يقول قط في أمر : ليت كان كذا ، حتى قال بعض اصحاب النبي (ص) : « خدمت رسول الله (ص) عشر سنين ، فما قال لي لشيء فعلته : لم فعلت ، ولا لشيء لم افعله : لم لم تفعله ، ولا قال في شيء كان : ليته لم يكن ، ولا في شيء لم يكن : ليته كان ، وكان إذا خاصمني مخاصم من اهله ، يقول : دعوه ، لوقضى شيء لكان » . وروى : « ان آدم (ع) كان بعض اولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون ، ويجعل احدهم رجليه على اضلاعه كهيئة الدرج فيصعد الى رأسه ، ثم ينزل على اضلاعه كذلك ، وهو مطرق الى الارض لاينطق ، ولا يرفع رأسه ، فقال له بعض ولده : يا ابت ! أما ترى مايصنع هذا بك ؟ لو نهيته عن هذا . فقال : يابني ! اني رأيت ما لم تروا ، وعلمت ما لم تعلموا ، اني تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة الى دار الهوان ، ومن دار النعيم الى دار الشقاء ، فاخاف ان اتحرك حركة اخرى فيصيبني ما لا اعلم » (٢) .

---

(١) صححناهذا الحديث ،وكذاماروي قبله عن اهل البيت ـعليهم السلام ـ على(اصول الكافي) :ج٢ ـ باب الرضا بالقضاء .وعلى(سفينة البحار) : ١/٢٢٤.

(٢) صححنا الحديث على (احياء العلوم) : ٤/٢٩٥ .

فصـــل

الرضا - فضيلة الرضا - رضا الله - رد انكار تحقيق الرضا - هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا ؟ - طريق تحصيل الرضا - التسليم .

° ° °

ضد السخط (الرضا) ، وهو ترك الاعتراض والسخط باطناً وظاهراً ، قولا وفعلا ، وهو من ثمرات المحبة ولوازمها ، اذ المحب يستحسن كلما يصدر عن محبوبه ، وصاحب الرضا يستوى عنده الفقر والغنى ، والراحة والعناء ، والبقاء والفناء ، والعز والذل ، والصحة والمرض ، والموت والحياة ، ولا يرجح بعضها على بعض ، ولا يثقل شيء منها على طبعه ، اذ يرى صدور الكل من الله - سبحانه - ، وقد رسخ حبه في قلبه ، بحيث يحب افعاله ، ويرجح على مراده مراده - تعالى - ، فيرضى لكل ما يكون ويرد . وروى : « ان واحداً من ارباب الرضا عمر سبعين سنة ، ولم يقل في هذه المدة لشيء كان : ليته لم يكن ، ولا لشيء لم يكن : ليته كان » . وقيل لبعضهم : « ما وجدت من آثار الرضا فى نفسك ؟ فقال : ما في رائحة من الرضا ، ومع ذلك لو جعلني الله جسراً على جهنم ، وعبر عليه الأولون والآخرون من الخلائق ودخلوا الجنة ، ثم يلقونى في النار ، وملأ بي جهنم ، لاحببت ذلك من حكمه ، ورضيت به من قسمه ، ولم يختلج ببالى أنه لم كان كذا ، وليت لم يكن كذا ، ولم هذا حظي وذاك حظهم » . وصاحب الرضا ابداً في روح وراحة ، وسرور وبهجة ، لأنه يشاهد كل شيء بعين الرضا ، وينظر في كل شيء الى نور الرحمة الالهية ، وسر الحكمة الأزلية ، فكأن كل شيء حصل على وفق مراده وهواه . وفائدة الرضا ، عاجلاً ، فراغ القلب للعبادة والراحة من الهموم ، وآجلاً ، رضوان الله والنجاة من غضبه - تعالى - .

فصل

(فضيلة الرضا)

الرضا بالقضاء أفضل مقامات الدين ، واشرف منازل المقربين ، وهو باب الله الاعظم ، ومن دخله دخل الجنة . قال الله ـ سبحانه ـ :

« رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ » (١) .

وعن النبي (ص) : « أنه سأل طائفة من اصحابه : ما أنتم ؟ فقالوا : مؤمنون ، فقال : ما علامة ايمانكم ؟ فقالوا : نصبر على البلاء ، ونشكر عند الرخاء ، ونرضى بمواقع القضاء ، فقال : مؤمنون ورب الكعبة ! » ، وفي خبر آخر ، قال : « حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا انبياء » . وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : « اذا أحب الله عبداً ابتلاه ، فان صبر اجتباه ، فان رضى اصطفاه » . وقال (ص) : « اعطوا الله الرضا من قلوبكم ، تظفروا بثواب فقركم » . وقال (ص) : « إذا كان يوم القيامة ، أنبت الله ـ تعالى ـ لطائفة من امتي اجنحة ، فيطيرون من قبورهم الى الجنان ، يسرحون فيها ، ويتنعمون فيها كيف شاؤوا ، فتقول لهم الملائكة : هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون : ما رأينا حساباً ، فتقول لهم : هل جزتم الصراط ؟ فيقولون : مارأينا صراطاً ، فتقول لهم : هل رأيتم جهنم ؟ فيقولون : ما رأينا شيئاً ، فتقول الملائكة : من أمة من انتم ؟ فيقولون : من امة محمد (ص) ، فتقول : ناشدناكم الله ! حدثونا ماكانت اعمالكم في الدنيا ؟ فيقولون : خصلتان كانتا فينا ، فبلغنا الله هذه المنزلة بفضل رحمته ، فيقولون : وما هما ؟ فيقولون : كنا اذا خلونا نستحيي ان نعصيه ، ونرضى باليسير مما قسم لنا ، فتقول

---

(١) المائدة ، الآية : ١٢٢ . التوبة ، الآية : ١٠١ . المجادلة، الآية : ٢٢ . البينة ، الآية : ٨ .

الملائكة : يحق لكم هذا » . وقال الصادق (ع) . « ان الله بعدله وحكمته وعلمه ، جعل الروح والفرح في اليقين والرضا عن الله ـ تعالى ـ ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط » . وروى : « أن موسى (ع) قال : يارب ! دلني على امر فيه رضاك . فقال ـ تعالى ـ : إن رضاى في رضاك بقضائى » . وروى : « ان بني اسرائيل قالوا له (ع) : سل لنا ربك امراً إذا نحن فعلناه يرضى عنا ، فقال موسى (ع) : إلهى ! قد سمعت ما قالوا ، فقال : ياموسى ! قل لهم يرضون عني حتى ارضى عنهم » (١) . وقال سيد الساجدين (ع) : « الصبر والرضا رأس طاعة الله ، ومن صبر ورضى عن الله فيما قضى عليه فيما احب او كره ، لم يقض الله ـ عز وجل ـ له فيما احب او كره إلا ماهو خير له » . وقال ـ صلوات الله عليه ـ : « الزهد عشرة اجزاء ، اعلى درجة الزهد ادنى درجة الورع ، واعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين، واعلى درجة اليقين ادنى درجة الرضا » . وقال الباقر (ع) : «أحق خلق الله أن يسلم لما قضى الله ـ عز وجل ـ ، من عرف الله ـ عزوجل ـ ومن رضى بالقضاء ، اتى عليه القضاء وعظم الله اجره » . وقال الصادق (ع) : « اعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله » . وقال (ع) : « قال الله ـ عزوجل ـ : عبدى المؤمن ، لا أصرفه في شيء الا جعلته خيراً له ، فليرض بقضائي ، وليصبر على بلائي ، وليشكر نعمائي ، اكتبه يا محمد من الصديقين عندى » . وقال (ع) : « عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله ـ عز وجل ـ له قضاء الا كان خيراً له ، إن قرض بالمقاريض كان خيراً له ، وإن ملك مشارق الارض ومغاربها كان خيراً له » . وقال (ع) : « ان فيما أوحى الله ـ عز وجل ـ الى موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ : ياموسى بن عمران ! ما خلقت خلقاً احب الي من عبدى المؤمن ، وأني انما ابتليته لما هو خير له ، واعافيه لما هو خير له ، وازوى عنه لما هو خير له ،

(١) صححنا الاحاديث على (احياء العلوم) : ٤/٢٩٥ ـ ٢٩٦ .

وأنا اعلم بما يصلح عليه عبدي ،فليصبر على بلائي ، وليشكر نعمائي ، وليرض بقضائي ، اكتبه في الصديقين عندي ، إذا عمل برضاي واطاع امري » .
وقيل له (ع) : بأي شيء يعلم المؤمن أنه مؤمن ؟ قال : « بالتسليم لله ، والرضا فيما ورد عليه من سرور أوسخط » . وقال الكاظم ـ عليه السلام ـ: « ينبغي لمن غفل عن الله ، ألا يستبطئه في رزقه ، ولا يتهمه في قضائه » (١) .

وصــــل

(رضا الله)

قد ظهر من بعض الأخبار المذكورة : أن رضا الله ـ سبحانه ـ من العبد يتوقف على رضا العبد عنه ـ تعالى ـ ، فمن فوائد رضا العبد بقضاء الله وثمراته رضا الله ـ سبحانه ـ عنه ، وهو اعظم السعادات في الدارين ، وليس في الجنة نعيم فوقه ، كما قال ـ سبحانه ـ :

« وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْـبَرُ » (٢) .

وفي الحديث : « إن الله يتجلى للمؤمنين في الجنة ، فيقول لهم : سلوني ، فيقولون : رضاك يا ربنا ! » ، فسؤالهم الرضا بعد التجلي ، يدل على أنه أفضل كل شيء ، وورد في تفسير قوله ـ تعالى ـ : « ولدينا مزيد » : أنه يؤتى لأهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين ليس في الجنان مثلها :

احداها : هدية الله ، ليس عندهم في الجنان مثلها ، وذلك قوله ـ تعالى ـ:

---

(١) صححنا الأحاديث على (اصول الكافي) ج ٢ ـ باب الرضا بالقضاء . وعلى (سفينة البحار) . ١/٥٢٤ . (٢) التوبة ، الآية : ٧٢ .

« فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » (١) .

والثانية : السلام عليهم من ربهم ، فتزيد ذلك على الهدية ، وهو قوله ـ تعالى ـ :

« سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ » (٢) .

والثالثة : يقول الله ـ تعالى ـ : « إني عنكم راض » ، وهو افضل من الهدية والتسليم ، وذلك قوله ـ تعالى ـ :

« وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ » (٣) : أي من النعيم الذي هم فيه.

ومعنى رضا الله عن العبد قريب من معنى حبه له ، إلا أنه في الآخرة سبب لدوام النظر والتجلي في غاية مايتصور من اللقاء والمشاهدة . ولهذا ليست رتبة في الجنة فوقه . ويروه أهل الجنة اقصى الأماني ، وغاية الغايات.

فصل

(رد انكار تحقق الرضا)

من الناس من انكر امكان تحقيق الرضا في أنواع البلاء وفيما يخالف الهوى ، وقال المتمكن فيهما : هو الصبر دون الرضا ، وهو انما اتى من ناحية انكار المحبة ، إذ بعد ثبوت امكان الحب لله واستغراق الهم به لايخفى ايجابه للرضا بافعال المحبوب . وذلك يكون من وجهين :

أحدهما ـ ان يوجب الاستغراق في الحب ابطال الاحساس بالالم ، حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس به ، وتصيبه جراحة ولا يدرك المها . ولا تستبعدن ذلك ، فان المحارب عند خوضه في الحرب ، وعند شدة غضبه أو

---

(١) السجدة ، الآية : ١٧ .　　(٣) التوبة ، الآية : ٧٣ .

(٢) يس ، الآية : ٥٨ .

خوفه ، قد تصيبه جراحة وهو لايحس بها ، فاذا رأى الدم استدل به على الجراحة ، بل الذى يعدو في شغل مهم قد تصيبه شوكة في قدمه ، ولا يحس بألمها لشغل قلبه . والسر : أن القلب اذا صار مستغرقا بامر من الأمور ، لم يدرك ماعداه ، فالعاشق المستغرق الهم بمشاهدة المعشوق أو بحبه ، قديصيبه ما كان يتألم به أو يغتم ، لولا عشقه ، ولا يدرك المه وغمه لاستيلاء الحب على قلبه ، وهذا اذا اصابه من غير حبيبه ، فكيف اذا اصابه من حبيبه . ولا ريب في ان حب الله ـ تعالى ـ أشد من كل حب ، وشغل القلب به اعظم الشواغل ، إذ جمال الحضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ، فمن ينكشف له شيء منها ، فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه ، ولا يحس بما يجرى عليه .

وثانيهما ـ الا يبلغ الاستغراق في الحب بحيث لا يحس بالالم ولا يدركه ولكن يكون راضياً به ، بل راغباً فيه ، مريداً له بعقله ، وان كان كارهاً له بطبعه ، كالذى يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة ، فانه يدرك ألمه ، الا انه راض به وراغب فيه ، فالمحب الخالص لله ، اذا اصابته بلية من الله ، وكان على يقين بأن ثوابها الذى ادخر له فوق ما فاته ، رضى بها ورغب فيها وأحبها وشكر الله عليها . هذا إنكان نظره إلى الثواب والاجر الذى يجازى به على ابتلائه بالمصائب والبلايا ، وربما غلب الحب بحيث يكون حظ المحب ولذته وابتهاجه في مراد حبيبه ورضاه لا لمعنى آخر ، فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا ، وكل ذلك مشاهد محسوس في حب الخلق ، فضلا عن حب الخالق والجمال الازلى الابدى الذى لامنتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التي لا يعتريها الغلط والخطأ ، فان القلوب اذا وقفت بين جماله وجلاله ، فاذا لاحظوا جلاله هابوا ، واذا لاحظوا جماله تاهوا.

ويشهد بذلك حكايات المحبين ، على ما هو في الكتب مسطور ، وفي الالسنة والافواه مذكور . فان للحب عجائب ، من لم يذق طعمها لا يعرفها . وقد روينا : ان اهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر الى وجه يوسف الصديق (ع)، كانوا اذا جاءوا نظروا إلى وجهه ، فشغلهم جماله عن الاحساس بألم الجوع . بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك ، وهو قطع النسوة ايديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله ، حتى ما احسسن بذلك . وروى : « أن عيسى (ع) مر برجل اعمى وابرص ، مقعد مفلوج ، وقد تناثر لحمه من الجذام ، وهو يقول : الحمد لله الذى عافاني مما ابتلى به كثيراً من الناس ! فقال عيسى : ياهذا ! أي شيء من البلاء تراه مصروفا عنك ؟ فقال: ياروح الله ! انا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته ، فقال : صدقت ! هات يدك ، فناوله يده ، فاذا هو أحسن الناس وجهاً ، وافضلهم هيئة ، قد اذهب الله عنه ماكان به ، وصحب عيسى وتعبد به » .

فصل

(هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا)

اعلم ان الدعاء غير مناقض للرضا ، وكذلك كراهية المعاصي ، ومقت أهلها ، وحسم اسبابها ، والسعي في ازالتها بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي ، وقد زعمت طائفة من اهل البطالة والغرور : أن جميع ذلك يخالف الرضا، إذ كل مايقصد رده بالدعاء وانواع المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره ، فيجب للمؤمن أن يرضى به. وقد رأوا السكوت على المنكرات مقاماً من مقامات الرضا ، وسموه حسن الخلق ، وهذا جهل بالتأويل ، وغفلة عن أسرار الشريعة ودقائقها .

أما الدعاء ، فلا ريب في أنا قد تعبدنا به ، وقد كثرت ادعية الانبياء

والأئمة ، وكانوا على أعلى مقامات الرضا ، وتظاهرت الآيات وتواترت الأخبار في الأمر بالدعاء وفوائده وعظم مدحه ، واثنى الله ـ سبحانه ـ على عباده الداعين ، حيث قال :

« وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً » (١) . وقال : « أُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَـكُمْ » (٢) . وقال : « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذا دَعانِ » (٣) .

وهو يوجب صفاء الباطن ، وخشوع القلب ، ورقة النظر ، وتنور النفس وتجليها . وقد جعله الله ـ تعالى ـ مفتاحاً للكشف ، وسبباً لتواتر مزايا اللطف والاحسان . وهو أقوى الأسباب لافاضة الخيرات والبركات من المبادي العالية .

فان قيل : ما يرد على العبد من المكاره والبلايا يكون بقضاء الله وقدره ، والآيات والأخبار ناطقة بالرضا بقضاء الله مطلقاً . فالتشمر لرده بالدعاء يناقض الرضا .

قلنا : إن الله ـ سبحانه ـ بعظيم حكمته ، أوجد الأشياء على التسبيب والترتيب بينهما ، فربط المسببات بالأسباب ، ورتب بعضها على بعض ، وجعل بعضها سبباً وواسطة لبعض آخر ، وهو مسبب الأسباب . والقدر عبارة عن حصول الموجودات في الخارج من اسبابها المعينة بحسب اوقاتها ، مطابقة لما في القضاء ، والقضاء عبارة عن ثبوت صور جميع الأشياء في العالم العقلي على الوجه الكلي ، مطابقة لما في العناية الالهية المسماة بالعناية الاولى،

(١) الانبياء ، الآية : ٩٠ .
(٢) المؤمن ، الآية : ٦٠ .
(٣) البقرة ، الآية : ١٨٦ .

والعناية عبارة عن احاطة علم الله ـ تعالى ـ بالكل على ما هو عليه احاطة تامة ، فنسبة القضاء الى العناية كنسبة القدر الى القضاء . ثم ، من جملة الاسباب لبعض الامور الدعاء والتصدق وامثالهما . فكما أن شرب الماء سبب رتبه مسبب الاسباب لازالة العطش ، ولو لم يشربه لكان عطشه باقياً الى أن يؤدى الى هلاكه ، وشرب المسهل سبب لدفع الاخلاط الردية ، ولولم يشربه لبقيت على حالها ، وهكذا في سائر الاسباب ، وكذلك الدعاء سبب رتبه الله ـ تعالى ـ لدفع البلايا ورفعها ، ولولم يدع لنزل البلاء ولم يندفع .

فلو قيل : لو كان في علم الله ـ تعالى ـ وفي قضائه السابق ، أن زيداً ـ مثلاً ـ يدعو الله ، أو يتصدق ، عند ابتلائه ببلية كذا ، وتندفع به بليته لدعاء أو تصدق ، ودفع بليته ، ولو كان فيهما أنه لا يدعو الله ولا يتصدق ويبتلى بتلك البلية ، ولم يدع الله ، ولم يتصدق ، لم تندفع عنه البلية ، والحاصل : ان كل ما تعلقت به العناية الكلية والقضاء الازلي يحصل مقتضاه في الخارج وعالم التقدير ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فأي فائدة في سعي العبد واجتهاده ؟

قلنا : هذه من جملة شبهات الجبرية على كون العبد مجبوراً في فعله ونفي الاختيار عنه ، ولا مدخلية لها بكون الدعاء غير مناقض للرضا ، وكونه من جملة الاسباب المرتبة منه ـ تعالى ـ لحصول مسبباتها . كالتزويج لتحصيل الولد ، والاكل والشرب لدفع الجوع والعطش ، ولبس الثياب لدفع الحر والبرد ، وغير ذلك . ثم الجواب من الشبهة المذكورة وأمثالها مذكور في موضعها .

وأما انكار المعاصي وكراهتها ، والفرار من أهلها ومن البلد الذي شاعت فيه ، فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا بها ، فقال :

«وَرَضُوا بِالحَيَاةِ الدُّنيا وَاطمَأَنُّوا بها» (١) . وقال :
«رَضُوا بأَنْ يَكونُوا مَعَ الخَوالِفِ وطَبَعَ اللهُ على قُلوبِهِم» (٢).

وفي بعض الأخبار : «من شهد منكراً ورضي به فكأنه قد فعله» . وفي آخر : «لو أن عبداً قتل بالمشرق ورضي بقتله آخر بالمغرب ، كان شريكاً في قتله» . وفي آخر : «إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه» ، قيل وكيف ذلك ؟ قال : «فيبلغه فيرضى به» .

وأما بغض الكفار والفجار والفساق ، ومقتهم والانكار عليهم ، فما ورد فيه من شواهد الكتاب والسنة أكثر من أن يحصى . قال الله ـ سبحانه ـ :

«لا يَتَّخِذِ المُؤمِنُونَ الكافِرينَ أَوْلياءَ» (٣) . وقال :
«يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلياءَ» (٤) .

وفي الخبر : «إن الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق» . وقال (ص) : «اوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله» . وقد تقدمت جملة من شواهد هذا في باب الحب في الله والبغض في الله .

فان قيل : المعاصي ان لم تكن بقضاء الله وقدره فهو محال وقادح في التوحيد ، وإن كانت بقضاء الله مطلقاً فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله ، والآيات والاخبار مصرحة بوجوب الرضا بقضاء الله مطلقاً ، وذلك تناقض ،

---

(١) يونس ، الآية : ٧ .
(٢) التوبة ، الآية : ٨٨ ، ٩٤ .
(٣) آل عمران ، الآية : ٢٨ .
(٤) المائدة ، الآية : ٥٤ .

فكيف السبيل الى الجمع ؟ وأنى يتأتى الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد ؟

قلنا : المقرر عند بعض الحكماء : أن الشرور الواقعة في العالم ، من المعاصي وغيرها ، راجعة الى الاعدام دون الموجودات ، فلا تكون مرادة له ـ تعالى ـ ، ولا داخلة في قضائه ، وعند بعضهم أنها داخلة في قضائه بالعرض لا بالذات ، ولا ضير في كراهة ما ليس في قضاء الله ـ تعالى ـ بالذات . وعند بعضهم : أنها شرور قليلة باعثة لخيرات كثيرة . وعلى هذا ، فينبغي أن تكون مكروهة من حيث ذاتها ، وبهذه الحيثية لا تكون من قضاء الله والرضا به ، وفرضه من حيث كونها باعثة لخيرات كثيرة . والتحقيق : أن الاوصاف الثلاثة ثابتة للشرور الواقعة في العالم ، اعني انها راجعة الى الاعدام وداخلة في قضائه ـ تعالى ـ بالعرض ، وشرور قليلة باعثة لخيرات كثيرة . وعلى هذا فوجه الجمع أظهر . ثم ، لابي حامد الغزالي هنا وجه جمع آخر ، لا يروى الغليل ولا يشفي العليل .

فان قيل : بغض اهل المعاصي ومقتهم موقوف على ثبوت الاختيار لهم وتمكنهم من تركهم ، واثبات ذلك مشكل .

قلنا : لا اشكال فيه ، إذ البديهة قاضية بثبوت نوع اختيار للعباد في افعالهم ، ولا سيما فيما يتعلق به التكليف. والخوض في هذه المسألة مما لا ينبغي فالاولى فيها السكوت ، والتأدب بآداب الشرع ، والرجوع الى ما ورد من العترة الطاهرة . وما يمكن أن يقال فيها قد ذكرناه في كتابنا المسمى بـ (جامع الافكار) .

فصل

(طريق تحصيل الرضا)

الطريق الى تحصيل الرضا ، أن يعلم أن ما قضى الله ـ سبحانه ـ له هو الاصلح

بحاله ، وإن لم يبلغ فهمه الى سره فيه . مع ان السخط والكراهة لا يفيد شيئاً ولا يتبدل به القضاء . فان ما قدر يكون ، وما لم يقدر لم يكن ، وحسرة الماضي وتدبير الآتي يذهبان بتركه الوقت بلا فائدة ، وتبقى تبعة السخط عليه . فينبغي أن يدهشه الحب لخالقه عن الاحساس بالالم ، كما للعاشق ، وان ان يهون عليه العلم بعظم الثواب التعب والعناء ـ كما للمريض والتاجر المتحملين شدة الحجامة والسفر ـ فيفوض امره الى الله ، ان الله بصير بالعباد .

تتميم

(التسليم)

اعلم ان التسليم ، ويسمى تفويضاً ايضاً ، قريب من الرضا ، بل هو فوق الرضا ، لانه عبارة عن ترك الاعراض في الامور الواردة عليه ، وحوالتها باسرها إلى الله ، مع قطع تعلقه عليها بالكلية ، بمعنى ألا يكون طبعه متعلقاً بشيء منها . فهو فوق الرضا ، إذ في مرتبة الرضا كلما يفعل الله به يوافق طبعه ، فالطبع ملحوظ ومنظور له ، وفي مرتبة التسليم يجعل الطبع وموافقته ومخالفته كلها موكولة الى الله ـ سبحانه ـ ، وفوق مرتبة التوكل ايضاً ، إذ التوكل ـ كما يأتي ـ عبارة عن الاعتماد في اموره على الله ، فهو بمنزلة توكيل الله في اموره ، وكأنه يجعل الله ـ تعالى ـ بمثابة وكيله ، فيكون تعلقه باموره باقياً ، وفي مرتبة التسليم يقطع العلاقة من الامور المتعلقة به بالكلية .

ومنها :

الحزن

وهو التحسر والتألم ، لفقد محبوب ، او فوت مطلوب . وهو ايضاً كالاعتراض والانكار ، مترتب على الكراهة للمقدرات الالهية .

والفرق : ان الكراهة في الاعتراض اشد من الكراهة في الحزن ، كما ان ضد الكراهة ـ اعني الحب في ضدهما ـ بعكس ذلك ، اي ظهوره في السرور الذي ضد الحزن اشد من ظهوره في الرضا الذي هو ضد الاعتراض. فان الرضا هو منع النفس في الواردات من الجزع مع عدم كراهة وفرح ، والسرور هو منعها فيها عن الجزع مع الابتهاج والانبساط . فالسرور فوق الرضا في الشرافة ، كما أن الحزن تحت الاعتراض في الخسة والرذالة ، وسبب الحزن وشدة الرغبة في المشتهيات الطبيعية ، والميل الى مقتضيات قوتي الغضب والشهوة ، وتوقع البقاء للامور الجسمانية . وعلاجه : ان يعلم ان ما في عالم الكون والفساد من : الحيوان ، والنبات ، والجماد ، والعروض ، والاموال ، في معرض الفناء والزوال ، وليس فيها ما يقبل البقاء ، وما يبقى ويدوم هو الامور العقلية ، والكمالات النفسية المتعالية عن حيطة الزمان وحوزة المكان وتصرف الاضداد وتطرق الفساد ، واذا تيقن بذلك زالت عن نفسه الخيالات الفاسدة ، والاماني الباطلة . فلا يتعلق قلبه بالاسباب الدنيوية ، ويتوجه بشراشره الى تحصيل الكمالات العقلية ، والسعادات الحقيقية الموجبة للاتصال بالجواهر النورية الباقية ، والمجاورة للانوار القادسة الثابتة ، فيصل الى مقام البهجة والسرور ، ولا تلحقه احزان عالم الزور ، كما اشير اليه في الكتاب الالهي بقوله :

« أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ » (١) .

وفي اخبار داود (ع) : « يا داود ! ما لاوليائي والهم بالدنيا ؟ ان الهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم ، ان محبي من اوليائي ان يكونوا روحانيين لا يغتمون » . والحاصل : ان حب الفانيات والتعلق بما من شأنه

(١) يونس ، الآية : ٦٢ .

الفوات خلاف مقتضى العقل ، وحرام على العاقل أن يفرح بوجود الامور الفانية ، أو يحزن بزوالها . ولقد قال سيد الأوصياء ـ عليه آلاف التحية والثناء ـ ! « ما لعلي وزينة الدنيا ، وكيف افرح بلذة تفنى ، ونعيم لا يبقى؟!» بل ينبغي أن يرضى نفسه بالموجود ، ولا يغتم بالمفقود ، ويكون راضياً بما يرد عليه من خير وشر . وقد ورد في الآثار : « ان الله ـ تعالى ـ بحكمته وجلاله ، جعل الروح والفرح في الرضا واليقين » ، ومن رضى بالموجود ولا يحزن بالمفقود ، فقد فاز بأمن بلا فزع ، وسرور بلا جزع ، وفرح بلا حسرة ، ويقين بلا حيرة ، وما لطالب السعادة أن يكون أدون حالاً من سائر طبقات الناس ، فان كل حزب بما لديهم فرحون ، كالتاجر بالتجارة ، والزارع بالزراعة ، بل الشاطر بالشطارة ، والقواد بالقيادة ، مع أن ما هو السبب والموجب المفرّح في الواقع ونفس الامر ليس إلا لأهل السعادة والكمال ، وما لغيرهم محض التوهم ومجرد الخيال . فينبغي لطالب السعادة أن يكون فرحاناً بما عنده من الكمالات الحقيقية ، والسعادات الأبدية ، ولا يحزن على فقـــد الزخارف الدنيوية ، والحطام الطبيعية ، ويتذكر ما خاطب الله به نبيه (ص) :

« وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » (١).

ومن تصفح فرق الناس ، يجد أن كل فرقة منهم فرحهم بشيء من الأشياء ، وبه اهتزازهم وقوامهم ونظام امرهم . فالصبيان فرحهم باللعب

(١) طه ، الآية : ١٣١ .

وتهيئة اسبابه ، وهو في غاية القبح والركاكة عند من جاوز مرتبتهم . والبالغون حد الرجولية ، بعضهم فرحان بالدرهم والدينار ، وبعضهم بالضياع والعقار ، وآخر بالاتباع والأنصار ، وفرقة بالنسوان والأولاد ، وطائفة بالحرف والصنايع ، وبعضهم بالحسب والنسب ، والآخر بالجاه والمنصب ، وبعضهم بالقوة الجسمانية ، وآخر بالجمال الصوري ، وطائفة بالكمالات الدنيوية : كالخط ، والشعر ، وحسن الصوت ، والطب ، والعلوم الغريبة ، وغير ذلك ، حتى ينتهي الى من لا يفرح إلا بالكمالات النفسية والرياسات المعنوية ، وهم أيضاً مختلفون ، فبعضهم غاية فرحه بالعبادة والمناجاة ، وآخر بمعرفة حقائق الأشياء ، حتى يصل الى من ليس فرحه إلا بالانس بحضرة الربوبية ، والاستغراق في لجة أنواره ، وسائر المراتب عنده فيء زائل وخيال باطل . ولا ريب في أن العاقل يعلم أن ما ينبغي أن يفرح ويبتهج به حصول هذه المرتبة ، وسائر الامور كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء . فلا ينبغي للعاقل أن يحزن بفقدها ويفرح بوجودها . ثم ، من تأمل ، يجد أن الحزن ليس أمراً وجودياً لازماً ، بل هو أمر اختياري يحدثه الشخص في نفسه بسوء اختياره . إذ كلما يفقد من شخص ويحزن لأجله ليس موجوداً لكثير من الناس ، بل ربما لم يملكوه في مدة عمرهم أصلا ، ومع ذلك لا تجدهم محزونين على عدمه ، بل فرحون راضون ، ولو كان الحزن لازماً لفقد هذا الامر لكان كل من فقده محزوناً ، وليس كذلك . وايضاً كل حزن يعرض لاجل مصيبته يزول بعد زمان ويتبدل بالسرور ، ولو كان الحزن لاجلها امراً ضرورياً لازماً لما زال أصلا .

ثم العجب من العاقل أن يحزن من فقد الامور الدنيوية ، مع أنه يعلم ان الدنيا دار الفناء ، وزخارفها متنقلة بين الناس ، ولا يمكن بقاؤها

لأحد ، وجميع الأسباب الدنيوية ودائع الله ينتقل الى الناس على سبيل التبادل والتناوب . ومثلها مثل شمامة تدار في مجلس بين أهله على التناوب ، يتمتع بها في كل لحظة واحد منهم ، ثم يعطيها غيره . فطامع البقاء للحطام الدنيوية كمن طمع في ملكية الشمامة واختصاصها به ، إذا وصلت اليه نوبة الاستمتاع ، واذا استردت منه عرض له الحزن والخجلة . وما المال والأهلون الا ودائع ، ولابد يوماً أن ترد الودائع . فلا ينبغي للعاقل أن يغتم ويحزن لاجل رد الوديعة ، كيف والحزن بردها كفران للنعمة ؟ اذ اقل مراتب الشكر ان ترد الوديعة الى صاحبها على طيب النفس ، لاسيما اذا استرد الاخس - اعني الخبائث الدنيوية - ، وبقى الاشرف - اعني النفس وكمالاتها العلمية والعملية - ، فينبغي لكل عاقل الا يعلق قلبه بالأمور الفانية ، حتى لايحزن بفقدها . قال سقراط : « إني لم أحزن قط ، إذ ما أحببت قط شيئاً حتى أحزن بفوته ، ومن سره الا يرى مايسوؤه ، فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقداً »

ومنها :

عدم الاعتماد

أو ضعفه في اموره على الله ، والوثوق بالوسائط ، والنظر اليها فيها . وسببه : اما ضعف اليقين ، أو ضعف القلب ، أو كلاهما . فهو من رذائل قوتي العاقلة والغضب . ولا ريب في أنه من المهلكات العظيمة وينافي الايمان ، بل هو من شعب الشرك . ولذا ورد في ذمه من الآيات والأخبار ما ورد ، قال الله - سبحانه - :

« إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ »(١). وقال : « إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِزْقَ وَاعْبُدُوهُ »(٢) . وقال : « وَللهِ خَزَائِنُ السمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلٰكِنَّ المُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ »(٣).

وفي اخبار داود (ع) : « ما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيته ، إلا قطعت اسباب السماوات من يديه ، واسخطت الارض من تحته ، ولم ابال بأى واد هلك » . قال رسول الله (ص): « من اغتر بالعبيد اذله الله » . وقيل : « مكتوب في التوراة : ملعون من ثقته بانسان مثله » . فينبغى المؤمن ان يتخلى عنه باكتساب ضده ، أعني التوكل ، كما يأتى .

وصل

التوكل ـ فضيلة التوكل ـ درجات التوكل ـ السعى لا ينافي التوكل ـ الاسباب التي لا ينافي السعى اليها التوكل ـ اعقل وتوكل ـ درجات الناس فى التوكل ـ تفنيد زعم ـ طريق تحصيل التوكل .

***

التوكل اعتماد القلب في جميع الأمور على الله . وبعبارة اخرى : حوالة العبد جميع اموره على الله ، وبعبارة اخرى : هو التبرى من كل حول وقوة،

---

(١) الاعراف ، الآية : ١٩٣ .　　　(٣) المنافقون ، الآية : ٧ .

(٢) العنكبوت ، الآية : ١٧ .

والاعتماد على حول الله وقوته . وهو موقوف على أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه لافاعل الا الله ، وانه لاحول ولا قوة الا بالله ، وان له تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد ، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ، ولا وراء منتهى علمه علم ، ولا وراء منتهى عنايته عناية . فمن اعتقد ذلك اتكل قلبه لا محالة على الله وحده ، ولم يلتفت الى غيره ، ولاإلى نفسه اصلاً . ومن لم يجد ذلك من نفسه فسببه ، إما ضعف اليقين ، أو ضعف القلب ، ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه . فان القلب الضعيف ينزعج تبعاً للوهم ، وطاعة له من غير نقصان في اليقين ، كانزعاجه أن يبيت مع ميت في قبر أو فراش ، مع يقينه بأنه جماد في الحال لايتصور منه إضرار ، فلا ينبغي أن يخاف منه ويفرّ عنه ، كما لا يفر من سائر الجمادات . وكذا من كان ضعيف القلب وتناول العسل ـ مثلاً ـ ، فشبه العسل بين يديه بالعذرة ، فربما نفر طبعه لضعف قلبه ، وتعذر عليه ان يتناوله ، مع يقينه بأنه عسل ولا مدخلية للعذرة فيه . فالتوكل لايتم الا بقوة اليقين وقوة القلب جميعاً ، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته ، فالسكون في القلب شيء آخر ، واليقين شيء آخر . فكم من يقين لاطمأنينة معه ، كما قال ـ تعالى ـ :

« أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قالَ : بلىٰ ! وَلٰكِنْ لِيطْمَئِنَّ قَلْبي » (١) .

فالتمس أن يشاهد إحياء الميت بعينه ليثبت اليقين في خياله ، فان النفس تتبع الخيال وتطمئن به ، ولا تطمئن باليقين في ابتداء امره الى ان تبلغ

---

(١) البقرة ، الآية : ٢٦٠ .

درجة النفس المطمئنة ، وذلك لايكون في البداية . وكم من مطمئن لا يقين له ، كأرباب الملل والمذاهب الباطلة . فان اليهودى مطمئن القلب الى تهوده، وكذا النصراني ، ولا يقين لهما أصلا ، وإنما يتبعون الظن وما تهوى الانفس . واذا توقف التوكل على اليقين وقوة القلب ، وارتفع بضعف احدهما ، يظهر أن التوكل من الفضائل المتعلقة بقوتي العاقلة والغضبية معاً ، وضده - اعني عدم التوكل - من رذائل احدهما أو كليهما . ثم ، إنك قد عرفت في باب التوحيد ، أن عماد التوكل وما يبتني عليه ، هو المرتبة الثالثة من التوحيد ، وهي أن تنكشف للعبد باشراق نور الحق بأنه لافاعل إلا هو ، وأن ما عداه من الاسباب والوسائط مسخرات مقهورات تحت قدرته الازلية . فطالب التوكل يلزم عليه أن يحصل هذه المرتبة من التوحيد ليحصل له التوكل . وقد عرفت - ايضاً - أن المرتبة الثانية منه - اعني التوحيد الاعتقادى - إذا قويت ربما اورثت حال التوكل ، الا ان التوكل كما ينبغي موقوف على المرتبة الثالثة منه .

فصل

(فضيلة التوكل)

التوكل منزل من منازل السالكين ومقام من مقامات الموحدين ، بل هو أفضل درجات الموقنين . ولذا ورد في مدحه وفضله وفي الترغيب فيه ما ورد من الكتاب والسنة ، قال الله - تعالى - :

« وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (١) . وقال :

---

(١) المائدة ، الآية : ٢٦ .

« وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » (١) . وقال : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » (٢). وقال : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » (٣) . وقال : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (٤) .

أى عزيز لا يذل من استجار به ، فلا يضع من لاذ بجنابه ، وحكيم لايقصر عن تدبير من توكل على تدبيره . وقال رسول الله (ص) : « من انقطع الى الله ، كفاه الله كل مؤنة ، ورزقه من حيث لايحتسب . ومن انقطع الى الدنيا ، وكله الله اليها » . وقال (ص) : « من سره ان يكون اغنى الناس ، فليكن بما عند الله اوثق منه بما في يده » . وقال (ص) : « لو انكم تتوكلون على الله حق توكله ، لرزقتم كما ترزق الطيور ، تغدو خماصاً وتروح بطانا ». وعن على بن الحسين - عليهما السلام - قال : « خرجت حتى انتهيت الى هذا الحائط ، فاتكأت عليه ، فاذا رجل عليه ثوبان ابيضان ينظر في تجاه وجهي ، ثم قال : يا علي بن الحسين ! مالى أراك كئيباً حزيناً ؟ أعلى الدنيا؟ فرزق الله حاضر للبر والفاجر . قلت : ماعلى هذا أحزن ، وإنه لكما تقول. قال : فعلى الآخرة ؟ فوعد صادق يحكم فيه ملك قاهر قادر . قلت : ما على هذا احزن ، وإنه لكما تقول . فقال : مم حزنك ؟ قلت : مما نتخوف من فتنة ابن الزبير وما فيه الناس . قال : فضحك ، ثم قال : يا على بن الحسين !

(١) آل عمران ، الآية : ١٢٢ ، ١٦٠ . المائدة ، الآية : ١٢ . التوبة ، الآية : ٥٢ . ابراهيم ، الآية: ١١ . المجادلة ، الآية : ١٠. التغابن ، الآية: ١٣.

(٢) آل عمران ، الآية : ١٥٩ .

(٣) الطلاق ، الآية : ٣ .

(٤) الانفال ، الآية ٥٠ .

هل رأيت أحداً دعا الله فلم يجبه ؟ قلت : لا ! قال : فهل رأيت أحداً توكل على الله فلم يكفه ؟ قلت : لا ! قال : فهل رأيت أحداً سأل الله فلم يعطه ؟ قلت : لا ! . . . ثم غاب عني » ، ولعل الرجل كان هو الخضر - على نبينا وعليه السلام - . وقال الصادق (ع) : « اوحى الله الى داوود : ما اعتصم بي عبد من عبادى دون أحد من خلقي ، عرفت ذلك من نيته ، ثم تكيده السماوات والارض ومن فيهن ، إلا جعلت له المخرج من بينهن » . وقال (ع) : « إن الغنى والعز يجولان ، فاذا ظفرا بموضع التوكل اوطنا » . وقال (ع): « من أعطى ثلاثاً لايمنع ثلاثاً : من أعطى الدعاء أعطي الاجابة ، ومن اعطى الشكر أعطي الزيادة ، ومن أعطى التوكل اعطي الكفاية . ثم قال : أتلوت كتاب الله - عز وجل - (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ، وقال : (ولئن شكرتم لازيدنكم) ، وقال : (ادعوني استجب لكم) ؟ » . وقال (ع) : « أيما عبد أقبل قبل مايحب الله - تعالى - اقبل الله قبل مايحب ومن اعتصم بالله عصمه الله ، ومن اقبل الله عليه وعصمه ، لم يبال لو سقطت السماء على الأرض ، أو كانت نازلة نزلت على أهل الأرض فتشملهم بلية ، كان في حزب الله بالتقوى من كل بلية ، أليس الله - تعالى - يقول : (إن المتقين في مقام امين) ؟ » . وقال (ع) : « ان الله - تعالى - يقول : وعزتي وجلالى ومجدي وارتفاعي على عرشي ! لأقطعن امل كل مؤمل من الناس في غيرى باليأس ، ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس ، ولانحينه من قربي ، ولأبعدنه من وصلي ، أيؤمل غيرى فى الشدائد والشدائد بيدى ويرجو غيرى ؟ ويقرع بالفكر باب غيري ، وبيدى مفاتيح الابواب وهي مغلقة ؟ وبابى مفتوح لمن دعاني ، فمن ذا الذي املني لنوائبه فقطعته دونها ، ومن ذا الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه مني ؟ جعلت آمال عبادي محفوظة ،

فلم يرضوا بحفظي ، وملأت سماواتي بمن لا يمل من تسبيحي ، وأمرتهم الا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي ، فلم يثقوا بقولي ، ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبي أنه لا يملك كشفها احد غيري إلا من بعد اذني ؟ فما لي اراه لاهياً عني ؟ اعطيته بجودي مالم يسألني ، ثم انتزعته عنه فلم يسألني رده ، وسأل غيري ، أفتراني ابدأ بالعطاء قبل المسأله ؟ ثم اسأل فلا اجيب سائلي ؟ ابخيل أنا فيبخلني عبدي ؟ اوليس الجود والكرم لي ؟ أو ليس العفو والرحمة بيدي ؟ أو لست أنا محل الآمال ؟ فمن يقطعها دوني ؟ أفلا يخشى المؤملون أن يؤملوا غيري ؟ فلو أن اهل سماواتي واهل ارضي أملوا جميعاً ، ثم اعطيت كل واحد منهم مثل ما امل الجميع ، ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرة ، وكيف ينقص ملك انا قيمه ؟ فيا بؤساً للقانطين من رحمتي ! ويا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني ! » (١) .

فصل

(درجات التوكل)

للتوكل في الضعف والقوة ثلاث درجات :

الأولى ـ أن يكون حاله في حق الله والثقة بعنايته وكفالته كحاله بالثقة بالوكيل ، وهذه اضعف الدرجات ، ويكثر وقوعها ويدوم مدة مديدة ، ولا ينافي اصل التدبير والاختيار ، بل ربما زاول كثيراً من التدبيرات بسعيه

(١) صححنا الاحاديث على (اصول الكافي) : ج ٢ ، باب التفويض الى الله والتوكل عليه. وعلى (البحار) : باب التوكل والتفويض والرضا : مج ١٥ ٢ / ١٥٣ ، ط (امين الضرب) . وللعلامة (المجلسي) ـ قدس سره ـ في الموضع المذكور ، في الحديث الخامس ، تحقيق دقيق وبيان لطيف ، لا يسع المقام ذكره هنا ، فمن اراد الوقوف عليه فعليه بمراجعة الموضع المذكور .

واختياره . نعم ينافي بعض التدبيرات ، كالتوكل على وكيله في الخصومة ، فانه يترك تدبيره من غير جهة الوكيل ، ولكن لايترك الذي اشار اليه وكيله ، ولا التدبير الذي عرفه من عادته وسنته دون تصريح اشارته .

الثانية ـ أن تكون حاله مع الله كحال الطفل مع امه ، فانه لا يعرف غيرها ، ولا يفزع إلا اليها ، ولا يعتمد إلا عليها . فان رآها تعلق في كل حال بذيلها ، وان ورد عليه امر في غيبتها كان اول سابق لسانه ياأماه ! . والفرق بين هذا وسابقه ، ان هذا متوكل قد فنى في موكله عن توكله ، أي ليس يلتفت قلبه الى التوكل ، بل التفاته إنما هو الى المتوكل عليه فقط ، فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه . وأما الاول فتوكل بالكسب والتكلف ، وليس فانيا عن توكله ، اى له التفات الى توكله ، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده . وهذا أقل وقوعاً ودواماً من الاول ، إذ حصوله إنما هو للخواص ، وغاية دوامه أن يدوم يوماً أو يومين ، وينافي التدبيرات ، إلا تدبير الفزع الى الله بالدعاء والابتهال ، كتدبير الطفل في التعلق بامه فقط .

الثالثة ـ وهي اعلى الدرجات ، أن يكون بين يدى الله في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدى الغاسل ، بأن يرى نفسه ميتاً ، وتحركه القدرة الأزلية كما يحرك الغاسل الميت . وهو الذى قويت نفسه ، ونال الدرجة الثالثة من التوحيد . والفرق بينه وبين الثاني ، أن الثاني لايترك الدعاء والتضرع كما ان الصبي يفزع الى امه ، ويصيح ويتعلق بذيلها ، ويعدو خلفها ، وهذا ربما يترك الدعاء والسؤال ثقة بكرمه وعنايته ، فهذا مثال صبي علم أنه إن لم يرص بامه فالأم تطلبه ، وإن لم يتعلق بذيلها فهي تحمله ، وإن لم يسأل اللبن فهي تسقيه . ومن هذا القسم توكل ابراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ

لما وضع في المنجنيق ليرمى به الى النار ، واشار اليه روح الامين بسؤال النجاة والاستخلاص من الله ـ سبحانه ـ فقال : « حسبي من سؤالي علمه بحالي » . وهذا نادر الوقوع ، عزيز الوجود ، فهو مرتبة الصديقين ، واذا وجد فدوامه لا يزيد على صفرة الوجل ، او حمرة الخجل ، وهو ينافي التدبيرات ما دام باقياً ، إذ يكون صاحبه كالمبهوت . ثم ، توكل العبد على الله قد يكون في جميع اموره ، وقد يكون في بعضها . وتختلف درجات ذلك بحسب كثرة الامور المتوكل فيها وقلتها . وقال الكاظم (ع) في قوله ـ عز وجل ـ :

« وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » (١) .

« التوكل على الله درجات ، منها أن تتوكل على الله في امورك كلها ، فما فعل بك كنت عنه راضياً ، تعلم انه لا يألوك خيراً وفضلاً ، وتعلم ان الحكم في ذلك له ، فتوكل على الله بتفويض ذلك اليه ، وثق به فيها وفي غيرها » . ولعل سائر درجات التوكل أن يتوكل على الله في بعض اموره دون بعض ، وتعدد الدرجات حينئذ بحسب كثرة الامور المتوكل فيها وقلتها .

فصل

(السعي لا ينافي التوكل)

اعلم أن الامور الواردة على العباد إما أن تكون خارجة عن قدرة العباد ووسعهم ، بمعنى أنه لا تكون لها أسباب ظاهرة قطعية أو ظنية لجلبها أو دفعها ، أو تكون لها اسباب جالبة لها أو دافعة اياها ، إلا أن العبد لا يتمكن منها .

فمقتضى التوكل فيها ترك السعي بالتمحلات والتدبيرات الخفية ، وحوالتها على رب الارباب ، ولو دبر في تغييرها بالتمحلات والتكلفات ،

---

(١) الطلاق ، الآية : ٣ .

لكان خارجاً عن التوكل رأساً ، او لا تكون خارجة عن قدرتهم ، بمعنى أن لها أسباباً قطعية أو ظنية يمكن للعبد ان يحصلها ويتوصل بها الى جلبها أو دفعها . فالسعي في مثلها لا ينافي التوكل ، بعد أن يكون وثوقه واعتماده بالله دون الاسباب . فمن ظن ان معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالعقل رأساً ، والسقوط على الارض كالخرقة الملقاة ، فقد أبعد عن الحق ، لان ذلك محرم في الشرع الاقدس . فان الشارع كلف الانسان بطلب الرزق بالاسباب التي هداه الله اليها ، من زراعة ، او تجارة ، او صناعة ، او غير ذلك مما أحله الله ، وبابقاء النسل بالتزويج ، وكلفه بأن يدفع عن نفسه الاشياء المؤذية بالتوسل الى الاسباب المعينة لدفعها . وكما ان العبادات امور امر الله ـ تعالى ـ عباده بالسعي فيها ، ليحصل لهم بها التقرب اليه والسعادات في دار الآخرة ، فكذلك طلب الحلال ودفع الضرر والالم عن النفس والاهل والعيال امور امرهم الله ـ تعالى ـ ، ليحصل لهم بها التوسل الى العبادات وما يؤدي الى التقرب والسعادة . ولكنه ـ سبحانه ـ كلفهم ايضاً بألا يثقوا إلا به ، ولا يعتمدوا على الاسباب . كما انه ـ سبحانه ـ كلفهم بألا يتكلوا على اعمالهم الحسنة ، بل على فضله ورحمته . فمعنى التوكل المأمور به في الشريعة : اعتماد القلب على الله في الامور كلها ، وانقطاعه عما سواه . ولا ينافيه تحصيل الاسباب اذا لم يسكن اليها ، وكان سكونه الى الله ـ سبحانه ـ دونها مجوزاً في نفسه أن يؤتيه الله مطلوبه من حيث لا يحتسب ، دون هذه الاسباب التي حصلها ، وأن يقطع الله هذه الاسباب عن مسبباتها .

فصل

(الاسباب التي لا ينافي السعي اليها التوكل)

الاسباب التي لا ينافي تحصيلها ومزاولتها للتوكل ، هي الاسباب القطعية او الظنية ، وهي التي يقطع او يظن بارتباط المسببات بها بتقدير الله ومشيته ارتباطاً مطرداً لا يتخلف عنها ، سواء كانت لجلب نفع او لدفع ضر منتظر او لازالة آفة واقعة ، وذلك كمد اليد الى الطعام للوصول الى فيه ، وحمل الزاد للسفر ، واتخاذ البضاعة للتجارة ، والوقاع لحصول الاولاد ، واخذ السلاح للعدو ، والادخار لتجدد الاضطرار ، والتداوي لازالة المرض ، والتحرز عن النوم في ممر السيل ومسكن السباع وتحت الحائط المائل ، وغلق الباب ، وعقل البعير ، وترك الطريق الذي يقطع او يظن وجود السارقين او السباع الضارة فيه ... وقس عليها غيرها .

واما الاسباب الموهومة ، كالرقية ، والطيرة ، والاستقصاء في دقائق التدبير ، وابداء التمحلات لاجل التبديل والتغيير ، فيبطل بها التوكل ، لان امثال ذلك ليست باسباب عند العقلاء ، وليست مما امر الله - تعالى - بها ، بل ورد النهي عنها ، على ان المأمور به الاجمال في الطلب وعدم الاستقصاء. قال رسول الله (ص) : « ألا إن الروح الامين نفث في روعي : انه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله - تعالى - ، واجملوا في الطلب » . وقال - صلى الله عليه وآله - : «ما أجمل في الطلب من ركب البحر» . وقال الصادق (ع): « ليكن طلب المعيشة فوق كسب المضيع ، ودون طلب الحريص ، الراضي بدنياه ، المطمئن اليها ، ولكن أنزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفف، ترفع نفسك عن منزلة الواهن الضعيف ، وتكتسب ما لا بد منه ، إن الذين

اعطوا المال ثم لم يشكروا لا مال لهم » . وقال (ع) : « اذا فتحت بابك ، وبسطت بساطك ، فقد قضيت ما عليك » .

فصل

(إعقل وتوكل)

اعلم ان التوكل لا يبطل بالاسباب المقطوعة والمظنونة ، مع ان الله قادر على اعطاء المطلوب بدون ذلك ، لان الله ـ سبحانه ـ ربط المسببات بالاسباب ، وابى ان يجري الاشياء إلا بالاسباب . ولذا لما اهمل الاعرابي بعيره ، وقال : توكلت على الله ، قال له النبي (ص) : « إعقلها وتوكل » . وقال الصادق (ع) : « اوجب الله لعباده ان يطلبوا منه مقاصدهم بالاسباب التي سببها لذلك وامرهم بذلك » . وقال الله ـ تعالى ـ :

« خُذُوا حِذْرَكُمْ » (١) . وقال فى كيفية صلاة الخوف: « وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ » (٢). وقال : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ ما استَطَعتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الخَيْلِ » (٣) . وقال لموسى : « فَاسْرِ بِعبادي ليلاً » (٤) ، والتحصن بالليل اختفاء عن اعين الاعداء دفعاً للضرر .

وفي الاسرائيليات : « ان موسى بن عمران (ع) اعتل بعلة ، فدخل عليه بنو اسرائيل ، فعرفوا علته ، فقالوا له : لو تداويت بكذا لبرئت ، فقال : لا اتداوى حتى يعافيني الله من غير دواء . فطالت علته ، فاوحى الله اليه :

---

(١) النساء ، الآية : ٧٠ .

(٢) النساء ، الآية : ١٠١ .

(٣) الانفال ، الآية : ٦١ .

(٤) الدخان ، الآية : ٢٣ .

وعزتي وجلالي ! لا ابرؤك حتى تتداوى بما ذكروه لك . فقال لهم : داووني بما ذكرتم . فداووه ، فبرىء . فاوجس في نفسه من ذلك ، فاوحى الله ـ تعالى ـ اليه : أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك علي ، فمن أودع العقاقير منافع الاشياء غيري ؟ » . وروى : « أن زاهداً من الزهاد ، فارق الامصار وأقام في سفح جبل ، فقال : لا اسأل احداً شيئاً حتى يأتيني ربي برزق ، فقعد سبعاً ، فكاد يموت ، ولم يأته رزق ، فقال : يا رب ! إن احييتني فأتني برزق الذى قسمت لي ، وإلا فاقبضني اليك . فاوحى الله ـ تعالى ـ اليه : وعزتي وجلالي ! لا أرزقك حتى تدخل الامصار ، وتقعد بين الناس . فدخل المصر فأقام ، فجاء هذا بطعام ، وهـذا بشراب ، فاكل وشرب . فاوجس في نفسه ذلك ، فاوحى الله اليه : أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا ، أما علمت اني ارزق عبدي بايدي عبادي احب الي من أن ارزقه بيد قدرتي ؟ » .

فصـــل

(درجات الناس في التوكل)

اعلم أن درجات الناس ـ كما عرفت ـ في التوكل مختلفة ، بحسب تفاوت مراتبهم في قوة اليقين وضعفه ، وفي قوة التوحيد وضعفه :

فمنهم : من كمل ايمانه ويقينه ، بحيث سقط وثوقه عن الاسباب بالكلية ، وتوجه بشراشره الى الواحد الحق ، ولا يرى مؤثراً إلا هو ، وليس نظره الى غيره اصلاً ، وقلبه مطمئن ساكن بعنايته ، بحيث لا يختلج بباله احتمال أن يكله ربه الى غيره ، ولا يعتري نفسه اضطراب اصلاً ، فلا بأس لمثله أن يعرض عن الاسباب المقطوعه أو المظنونة بالكلية ، لان الله سبحانه يحفظه ويحرسه ويصلح اموره ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، سواء

حسب الاسباب ام لا ، وسواء كسب أم لم يكتسب ، إلا أنه ربما لم يترك السبب والكسب ويتبع امر الله فيه ، إلا أنه ليس وثوقه إلا بالله دون السبب والكسب . وما ورد من حكايات بعض الكمل من الاولياء ، من انهم يسافرون في البوادي التي لا يطرقها الناس بغير زاد ثقة بالله ، ويصل اليهم الرزق ، أو لا يتحرزون من السباع الضارة ، أو يغلظون القول بالنسبة الى أهل الاقتدار من الملوك والسلاطين من دون خوف ومبالاة ، اعتماداً على الله ، والله ـ سبحانه ـ ينجيهم منهم ، كانوا منهم : أي من الكاملين في التوكل . قال الصادق (ع) : « أبى الله ـ عز وجل ـ أن يجعل ارزاق المؤمنين إلا من حيث لا يحتسبون » . وإنما خصه بالمؤمنين ، لان كمال الايمان يقتضي ألا يثق صاحبه بالاسباب وأن يتوكل على الله ـ عز وجل ـ وحده . وكمال الايمان إنما يكون لصاحب العلم المكنون من الانبياء والاولياء ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ومنهم : من لم يبلغ قوة ايمانه ويقينه حداً تغيب عن نظره الاسباب والوسائط ، ويكون مقصور الالتفات الى جناب الحق . فهذا هو الذي لا ينبغي له أن يعرض عن الاسباب ويتركها ، لان مثله ليس له المظنة التي توصله الى المقصد بدون الوسائط : اعني قوة التوكل على الله واليقين به سبحانه .

فصل

(تفنيد زعم)

بعض الناس زعم : أن حق التوكل أن يكتفي بالاسباب الخفية عن الاسباب الجلية ، كأن يسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس بغير زاد ، بعد أن راض نفسه على جوع الاسبوع وما يقاربه ، بحيث يصبر عنه من غير ضيق قلب ، واضطراب نفس ، وتشويش خاطر ، وفتور في ذكر الله ،

وبعد أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق له ، وأن يوطن نفسه على أنه إن مات جوعاً كان خيراً له في الآخرة .

وكان يجلس في مسجد أو بيته ويترك الكسب ، ويتفرغ للعبادة ، والفكر والذكر ، واستغرق وقته بها ، بحيث لا يستشرف نفسه الى الناس في انتظاره ومن يدخل فيحمل اليه شيئاً ، بل يكون قوي القلب في الصبر والاتكال على الله . وهذا محض الخطأ ، إذ من جاهد نفسه وراضها بحيث يصبر على جوع الاسبوع ، ويمكنه التقوت بالحشيش ، صارت الاسباب له جلية . فان عدم الحاجة احد الغنائين . ثم إن كان اعتماده ـ حينئذ ـ على صبره وتمكنه من التقوت بالحشيش ، فاين التوكل ؟ وإن كان وثوقه بالله وحده ، فليقم في بلده مع الاسباب ، كما أمر الله به في الشرع . وأما توطين نفسه باختياره على الموت فممنوع عقلاً ، ومحرم شرعاً ، قال الله ـ سبحانه ـ :

« وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ »(١).

واما الجالس في بيته ، التارك لكسبه ، يعبد الله من دون طلب ، فهو ايضاً قد ترك متابعة امر الله . قال الصادق ـ عليه السلام ـ : « إن من يقوته أشد عبادة منه » . وربما يكون مثله كلاً على الناس ، فان حاله ينادي بالبؤس واليأس ، بل هو ضرب على تواطن الناس وتعرض للذل . وبالجملة لا مدخل لخفاء الاسباب وجلائها في التوكل ، بعد ما تقرر ان معناه الثقة بالله وحده ، لا بالاسباب ، فسواء وجود الاسباب وفقدها وجلاؤها وخفاؤها .

فصل

(طريق تحصيل التوكل)

الطريق الى تحصيل التوكل ـ بعد تقوية التوحيد والاعتقاد بأن

---

(١) البقرة ، الآية : ١٩٥ .

الامور باسرها مستندة اليه سبحانه ، وليس لغيره مدخلية فيها - أن يتذكر الآيات والاخبار المذكورة الدالة على فضيلته ومدحه ، وكونه باعث النجاة والكفاية ، ثم يتذكر أن الله - سبحانه - خلقه بعد أن لم يكن موجوداً، واوجده من كتم العدم ، وهيأ له ما يحتاج اليه ، وهو أرأف بعباده من الوالدة بولدها ، وقد ضمن بكفالة من توكل عليه ، فيستحيل ان يضيعه بعد ذلك ولا يكفيه مؤنته ، ولا يوصل اليه ما يحتاج اليه ، ولا يدفع عنه ما يؤذيه ، لتقدسه من العجز والنقص والخلف والسهو . وينبغي أن يتذكر الحكايات التي فيها عجائب صنع الله في وصول الارزاق الى صاحبها ، وفي دفع البلايا والاسواء عن بعض عبيده ، والحكايات التي فيها عجائب قهر الله في اهلاك اموال الاغنياء واذلال الاقوياء ، وكم من عبد ليس له مال وبضاعة ويرزقه الله بسهولة ، وكم من ذي مال وثروة هلكت بضاعته او سرقت وصار محتاجا ، وكم من قوي صاحب كثرة وعدة وسطوة صار عاجزاً ذليلاً بلا سبب ظاهر ، وكم من ذليل عاجز صار قوياً واستولى على الكل . ومن تأمل في ذلك يعلم أن الامور بيد الله ، فيلزم الاعتماد عليه والثقة به . والمناط أن يعلم أن الامور لو كانت بقدرة الله - سبحانه - من غير مدخلية للاسباب والوسائط فيها ، فعدم التوكل عليه - سبحانه - والثقة بغير غاية الجهل ، وإن كانت لغيره - سبحانه - من الوسائط والاسباب مدخلية ، فالتوكل من جملة أسباب الكفاية وانجاح الامور ، إذ السمع والتجربة شاهدان بأن من توكل على الله وانقطع اليه كفاه الله كل مؤنة . فكما ان شرب الماء سبب لازالة العطش ، وأكل الطعام سبب لدفع الجوع ، فكذا التوكل صعب رتبه مسبب الاسباب لانجاح المقاصد وكفاية الامور . وعلامة حصول التوكل ، ألا يضطرب قلبه ، ولا يبطل سكونه بفقد اسباب نفسه

وحدوث اسباب ضره . فلو سرقت بضاعته ، أو خسرت تجارته ، أو تعوق أمر من اموره ، كان راضيا به ، ولم تبطل طمأنينته ، ولم تضطرب نفسه ، بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحداً . فان من لم يسكن الى شيء لم يضطرب بفقده ، ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن اليه واطمأن به .

ومنها :

الكفران

(وضده الشكر)

الشكر ـ فضيلة الشكر ـ الشكر نعمة يجب شكرها ـ المدارك لتمييز محاب الله عن مكارهه ـ اقسام النعم واللذات ـ الأكل ـ لا فائدة في الغذاء ما لم يكن بشهوة وميل ـ عجائب المأكولات ـ حاجة تحضير الطعام الى آلاف الأسباب ـ تسخير الله التجار لجلب الطعام ـ نعم الله في خلق الملائكة للانسان ـ الاسباب الصارفة للشكر ـ طريق تحصيل الشكر ـ الصحة خير من السقم .

* * *

وبعد ما تعرف حقيقة الشكر ، وكونـــه متعلقاً بأي القوى ، تعرف بالمقايسة حقيقة الكفران وكونه من رذائل القوى .

فنقول : الشكر هو عرفان النعمة من المنعم ، والفرح به ، والعمل بموجب الفرح باضمار الخير ، والتحميد للمنعم ، واستعمال النعمة في طاعته. أما المعرفة ، فبأن تعرف أن النعم كلها من الله ، وأنه هو المنعم ، والوسائط مسخرات من جهته . ولو انعم عليك احد ، فهو الذي سخره لك ، والقى في قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطراً الى الايصال اليك ؛ فمن عرف ذلك ، حصل احد اركان الشكر لله ، وربما كان بمجرد ذلك

شكراً ، وهو الشكر بالقلب. كما روى : « ان موسى قال في مناجاته : إلهي! خلقت آدم بيدك ، واسكنته جنتك ، وزوجته حواء امتك ، فكيف شكرك؟ فقال : علم ان ذلك مني فكانت معرفته شكرا » .

ثم هذه المعرفة فوق التقديس وفوق بعض مراتب التوحيد ، وهما داخلان فيها ، إذ التقديس تنزيهه ـ سبحانه ـ عن صفات النقص ، والتوحيد قصر المقدس عليه ، والاعتراف بعدم مقدس سواه ، وهذه المعرفة هي اليقين بأن كل ما في العالم موجود منه ، والكل نعمة منه ، فينطوي فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل ، ولذلك قال رسول الله (ص) : « من قال : سبحان الله ، فله عشر حسنات ، ومن قال : لا إله إلا الله ، فله عشرون حسنة ، ومن قال : الحمد لله ، فله ثلاثون حسنة » . فسبحان الله : كلمة تدل على التقديس ، ولا إله إلا الله : كلمة تدل على التوحيد ، والحمد لله : كلمة تدل على معرفة النعم من الواحد الحق . ولا تظنن ان هذه الحسنات بازاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير عقد القلب بمعانيها ، بل هي بازاء الاعتقاد بمعانيها التي هي المعارف المعدودة من ابواب الايمان واليقين . واما الفرح بالمنعم ، مع هيئة الخضوع والتواضع ، فهو ايضاً من اركان الشكر . بل كما ان المعرفة شكر قلبي برأسه ، فهو ايضاً في نفسه شكر بالقلب ، وانما يكون شكراً إذا كان فرحه بالمنعم او بالنعمة لا من حيث إنه نعمة ومال ينتفع به ويلتذ منه في الدنيا ، بل من حيث إنه يقدر بها على التوصل الى القرب من المنعم ، والنزول في جواره ، والنظر الى وجهه على الدوام ، وامارته الا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة الآخرة ومعينه عليها ، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله وتصده عن سبيله ، لأنه ليس يريد النعمة لذاتها ، بل من حيث انها توصله الى مجاورة المنعم وقربه ولقائه . واما

العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم ، فهو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ، وهو يتعلق بالقلب واللسان والجوارح . اما المتعلق بالقلب فقصده الخير واضماره لكافة الخلق . واما المتعلق باللسان فاظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه . واما المتعلق بالجوارح ، فاستعمال نعم الله في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، حتى ان من جملة شكر العينين أن يستر كل عيب يراه من مسلم، ومن جملة شكر الاذنين أن يستر كل عيب يسمعه من مسلم ، فيدخل هذا وامثاله في جملة شكر نعمة هذه الاعضاء . بل قيل : من كفر نعمة العين ولم يستعملها فيما خلقت لأجله كفر نعمة الشمس ايضاً ، إذ الابصار انما يتم بها، وانما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ، ويتقي بهما ما يضره فيهما . بل المراد من خلق السماء والارض وخلق الدنيا واسبابها أن يستعين الخلق بها على الوصول الى الله ، ولا وصول اليه إلا بمحبته والانس به في الدنيا ، والتجافي عن الدنيا وغرورها ولذاتها وعلائقها ، ولا انس الا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الذكر والفكر إلا ببقاء البدن ، ولا يبقى البدن إلا بالارض والماء والهواء والنار ، ولا يتم ذلك إلا بخلق الارض والسماء وخلق سائر الاشياء ، وكل ذلك لاجل البدن . والبدن مطية النفس . والنفس الراجعة الى الله هي المطمئنة بطول العبادة والمعرفة . فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الاسباب التي لا بد منها لاقدامه على تلك المعصية . وإذا عرفت حقيقة الشكر ، تعرف بالمقايسة حقيقة الكفران ، فانه عبارة عن الجهل بكون النعم من الله ، أو عدم الفرح بالمنعم والنعمة من حيث ايصالها الى القرب منه ، أو ترك استعمال النعمة فيما يحبه المنعم، او استعمالها فيما يكرهه .

ثم ، بما ذكرناه، وإن ظهر أن حقيقة الشكر ملتئمة من الامور الثلاثة ، إلا أنه قد يطلق الشكر على كل واحد ايضاً ، كما قال الصادق (ع): «شكر كل نعمة ، وإن عظمت ، أن تحمد الله » ، وقال (ع) : « شكر النعم اجتناب المحارم، وتمام الشكر قول الرجل : الحمد لله رب العالمين ». وسئل عنه (ع): « هل للشكر حد إذا فعله العبد كان شاكراً ؟ قال : نعم ! قيل : ماهو ؟ قال: يحمد الله على كل نعمة عليه في أهل ومال ، وإن كان فيما انعم عليه في ماله حق أداه . ومنه قوله ـ جل وعز ـ :

« سُبْحانَ الَّذي سَخَّرَ لَنا هٰذا وَما كُنّا لَهُ مُقْرِنينَ »(١) . ومنه قوله ـ تعالى ـ : « رَبِّ أَنْزِلْني مُنْزَلاً مُباركاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلينَ » (٢) . وقوله : « رَبِّ أَدْخِلْني مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْني مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لي مِن لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصيراً »(٣) ».

وقال (ع) : « كان رسول الله (ص) إذا ورد عليه أمر يسره ، قال : الحمد لله على هذه النعمة . واذا ورد عليه أمر يغتم به ، قال : الحمد لله على كل حال » . وقال (ع) : « اذا أصبحت وأمسيت ، فقل عشر مرات : اللهم ما أصبحت بي من نعمة أو عافية في دين او دنيا ، فمنك وحدك لا شريك لك ، لك الحمد ولك الشكر بها علي يارب . حتى ترضى وبعد الرضا . فانك اذا قلت ذلك ، كنت قد أديت شكر ما أنعم الله به عليك في ذلك اليوم وفي

---

(١) الزخرف ، الآية : ١٣ . (٣) الاسراء ، الآية : ٨٠ .

(٢) المؤمنون ، الآية : ٢٩ .

تلك الليلة » . وفي رواية : « كان نوح (ع) يقول ذلك اذا اصبح ، فسمى بذلك عبداً شكوراً » . وقال (ع): « اذا ذكر أحدكم نعمة الله ، فليضع خده على التراب شكراً لله ، فان كان راكباً فلينزل وليضع خده على التراب . وان لم يكن يقدر على النزول للشهرة فليضع خده على قربوسه(١) ، وان لم يقدر فليضع خده على كفه ، ثم ليحمد الله على ما انعم عليه » . وروى : « أن الصادق (ع) قد ضاعت دابته ، فقال : لئن ردها الله علي لاشكرن الله حق شكره » . قال الراوي: فما لبث أن اوتي بها ، فقال : « الحمد لله » . فقال قائل له : جعلت فداك ! أليس قلت لاشكرن الله حق شكره ؟ فقال ابو عبد الله (ع) : «ألم تسمعني قلت: الحمد لله ؟ » (٢) . ثم الشكر باللسان لاظهار الرضا من الله ، ولذا امر به . وقد كان السلف يتساءلون بينهم ، ونيتهم استخراج الشكر لله ، ليوجر كل واحد من الشاكر والسائل . وقد روي : « ان رسول الله (ص) قال لرجل : كيف اصبحت ؟ فقال : بخير . فأعاد عليه السؤال ، فأعاد عليه الجواب ، فأعاد السؤال ثالثة ، فقال : بخير ، أحمد الله واشكره . فقال (ص) : هذا الذي اردت منك » .

« تنبيه » لا ريب في ان الجزء الاول من الشكر - اعني معرفة النعم من الله - من متعلقات العاقلة وفضائلها . والثاني - اعني الفرح للنفس - ان كان من النعم العقلية الروحانية ، يكون متعلقاً بالعاقلة ايضاً ، وان كان لاجل وصول نعمة الغلبة والاستيلاء - مثلا - على عدو ظالم ، يكون متعلقاً بالقوة الغضبية ، وان كان من نعمة المال والاولاد ، يكون متعلقاً بالقوة الشهوية .

(١) القربوس - بفتحتين - : حنو السرج ، اي قسمه المقوس المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخره .

(٢) هذه الرواية مذكورة في (اصول الكافي) : ج ٢ - باب الشكر . وفي (الوافي) : ٣/٢٢٤ - باب الشكر . الا ان المنقول في نسخ (جامع السعادات) فيه اختلاف كثير عما في الموضعين ، فصححناها عليهما .

والجزء الثالث - اعني العمل بمقتضى الفرح الحاصل من معرفة المنعم - فهو من ثمرات الحب للمنعم والخوف من زوال نعمته . وبهذا يظهر : أن الشكر والكفران من متعلقات القوى الثلاث ، والأول من فضائلها اذا امتزجت وتسالمت ، والثاني من رذائلها .

فصـــل

(فضيلة الشكر)

الشكر أفضل منازل الأبرار ، وعمدة زاد المسافرين الى عالم الأنوار ، وهو موجب لدفع البلاء وازدياد النعماء ، وقد ورد به الترغيب الشديد ، وجعله الله سبباً للمزيد . قال الله - سبحانه - :

« ما يَفْعَـــلُ اللهُ بِعـذابِكُمْ إنْ شَـكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ »(١) . وقال: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » (٢) . وقال . « فَاذْكُرُوني أَذْكُرْكُم وَاشْـكُرُوا لي وَلا تَكْفُرُونِ »(٣) . وقال : « وَسَنَجْزِي الشَّاكِـرِينَ» (٤) .

ولكونه غاية الفضائل والمقامات ، ليس لكل سالك أن يصل اليه ، بل ليس الوصول اليه الا لأوحدي من كمل السالكين . ولـذا قال الله رب العالمين :

((وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّـكُورُ))(٥) . وكفى به شرفاً

(١) النساء ، الآية : ١٤٦ .

(٢) ابراهيم ، الآية : ٧ .

(٣) البقرة ، الآية : ١٥٢ .

(٤) آل عمران ، الآية : ١٤٥ .

(٥) سبأ ، الآية : ١٣ .

وفضلاً، أنه خلق من اخلاق الربوبية، كما قال الله ـ سبحانه ـ:
((وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ)) (١) . وهو فاتحة كلام أهل الجنة
وخاتمته ، كما قال الله ـ تعالى ـ : ((وَقَالَ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي
صَدَقَنَا وَعْدَهُ)) (٢) . وقال: « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ
لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » (٣) .

وقال رسول الله (ص) . « الطاعم الشاكر ، له من الاجر كأجر الصائم المحتسب . والمعافى الشاكر، له من الاجر كأجر المبتلى الصابر . والمعطى الشاكر ، له من الاجر كأجر المحروم القانع » . وقال (ص) : « ان للنعم أوابد كأوابد الوحش ، فقيدوها بالشكر » . وقال (ص) : « ينادي مناد يوم القيامة : ليقوم الحمادون ! فيقوم زمرة . فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة » . فقيل : من الحمادون ؟ فقال : « الذين يشكرون الله على كل حال » . وقال السجاد (ع) : « إن الله ـ سبحانه ـ يحب كل عبد حزين ، ويحب كل عبد شكور » . وقال الباقر (ع) : « كان رسول الله (ص) عند عائشة ليلتها ، فقالت : يا رسول الله ! لم تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : يا عائشة ! ألا أكون عبداً شكوراً ؟ ... قال : وكان يقوم على اطراف اصابع رجليه ، فأنزل الله ـ تعالى ـ : طه ! ما انزلنا عليك القرآن لتشقى » . وقال الصادق (ع) : « ما انعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمد الله ظاهراً بلسانه ، فتم كلامه ، حتى يؤمر له بالمزيد » . وقال

(١) التغابن ، الآية : ١٧ . (٣) يونس ، الآية : ١٠ .
(٢) الزمر ، الآية : ٧٤ .

(ع) : « ثلاث لا يضر معهن شيء : الدعاء عند الكرب ، والاستغفار عند الذنب ، والشكر عند النعمة » (١) . وقال (ع) : « في كل نفس من انفاسك شكر لازم لك ، بل الف او أكثر ، وأدنى الشكر رؤية النعمة من الله - تعالى - من غير علة يتعلق القلب بها دون الله - عز وجل - ، أو الرضا بما اعطى ، والا تعصيه بنعمته وتخالفه بشيء من أمره ونهيه بسبب نعمته . فكن لله عبداً شاكراً على كل حال ، تجد الله رباً كريماً على كل حال، ولو كان عند الله - تعالى - عبادة تعبد بها عباده المخلصون افضل من الشكر على كل حال ، لاطلق لفظة منهم عن جميع الخلق بها، فلما لم يكن افضل منها خصها من بين العبادات ، وخص اربابها ، فقال : (وقليل من عبادي الشكور). وتمام الشكر الاعتراف بلسان السر ،خاضعاً لله بالعجز عن بلوغ ادنى شكره ، لان التوفيق للشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها ، وهي اعظم قدرا واعز وجودا من النعمة التي من اجلها وفقت له ، فيلزمك على كل شكر شكر اعظم منه ، الى ما لا نهاية له ، مستغرقاً في نعمه ، قاصرا عاجزا عن درك غاية شكره ، واني يلحق العبد شكر نعمة الله ، ومتى يلحق صنيعه بصنيعه ، والعبد ضعيف لا قوة له ابدا الا بالله - عز وجل - ، والله غني عن طاعة العبد قوي على مزيد النعم على الابد ، فكن لله عبدا شاكرا على هذا الاصل، ترى العجب »(٢) . ثم كما ان الشكر من المنجيات الموصلة الى سعادة الابد وزيادة النعمة في الدنيا ، فضده - اعني الكفران - من المهلكات المؤدية الى شقاوة السرمد وعقوبة الدنيا وسلب النعم . قال الله - سبحانه - :

(١) صححنا الاحاديث على (اصول الكافي) : ج ٢ ، باب الشكر . وعلى (البحار) مج ١٥ : ٢/ ١٣٢ - ١٣٥ ، باب الشكر .

(٢) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب السادس . وعلى (سفينة البحار) ١ / ٧١٠ .

« فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذاقَها اللهُ لِباسَ الجُوعِ والخَوْفِ »(١) . وقال ـ تعالى ـ : « إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّروا ما بِأَنْفُسِهِمْ »(٢) .

وقال الصادق (ع) : « اشكر من أنعم عليك ، وانعم على من شكرك ، فانه لا زوال للنعماء اذا شكرت ولا بقاء لها إذا كفرت . الشكر زيادة في النعم ، وامان من الغير » أي من التغيير .

فصـــل

(الشكر نعمة يجب شكرها)

لما كانت حقيقة الشكر عبارة عن عرفان كل النعم من الله مع صرفها في جهة محبة الله ، فالشكر على كل نعمة أن تعرف كونها من الله وتصرفها في جهة محبته . ولا ريب في أن هـــذه المعرفة والصرف ايضاً نعمة من الله ، إذ جميع ما نتعاطاه باختيارنا نعمة من الله ، لان جوارحنا ، وقدرتنا ، وارادتنا ، ودواعينا ، وافاضة المعارف علينا ، وسائر الامور التي هي اسباب حركاتنا ، بل نفس حركاتنا ، من الله . وعلى هذا فالشكر على كل نعمة نعمة اخرى من الله يحتاج الى شكر آخر . وهو ان يعرف ان هـــذا الشكر ايضاً نعمة من الله ـ سبحانه ـ . فيفرح به ويعمل بمقتضى فرحه . وهذه المعرفة والفرح تحتاج الى شكر آخر ، وهكذا . فلابد من الشكر في كل حال . وليس يمكن ان تنتهي سلسلة الشكر الى ما لا يحتاج الى شكر . فغاية شكر العبد ان يعرف عجزه عن اداء حق شكره ـ تعالى ـ . اذ عرفان

---

(١) النحل ، الآية : ١١١ . (٢) الرعد ، الآية : ١٢ .

عجزه مسبب عن عرفان جميع النعم ، حق شكره من الله ، وهذا غاية ما يمكن للعبد . ويشهد بذلك ما روى : « أن الله ـ عز وجل ـ اوحى الى موسى (ع): يا موسى ! اشكرني حق شكري . فقال : يا رب ! كيف اشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به الا وانت انعمت به علي ؟ قال : يا موسى ! الآن شكرتني ، حيث علمت ان ذلك مني » . وكذلك اوحى ذلك الى داود ، فقال: « يا رب ! كيف اشكرك وانا لا استطيع ان اشكرك الا بنعمة ثانية من نعمك » . وفي لفظ آخر : « وشكري لك نعمة اخرى منك ، ويوجب علي الشكر لك ، فقال : اذا عرفت هذا فقد شكرتني » . وفي خبر آخر : « اذا عرفت ان النعم مني ، رضيت عنك بذلك شكراً » . وروى : « أن السجاد ـ عليه السلام ـ كان اذا قرأ هذه الآية (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) يقول : سبحان من لم يجعل في احد من معرفة نعمه الا المعرفة بالتقصير عن معرفتها ! كما لم يجعل في احد من معرفة ادراكه اكثر من العلم بانه لا يدركه » ، فشكره ـ تعالى ـ معرفة العارفين بالتقصير عن معرفة شكره ، فجعل معرفتهم بالتقصير شكراً ، كما علم العارفين بأنهم لا يدركونه ، فجعله ايماناً ، علماً منه أنه فقد وسع العباد فلا يتجاوز ذلك ، فان شيئاً من خلقه لا يبلغ مدى عبادته ، فكيف يبلغ مدى عبادته من لا مدى له ولا كيف ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وقال ابو الحسن (ع) : « من حمد الله على النعمة فقد شكره ، وكان الحمد لله افضل من تلك النعمة » (١) ، يعني أنه نعمة فوق تلك النعمة ، يستدعي شكراً آخر .

---

(١) صححنا الروايات الثلاث على (اصول الكافي) ج ٢ ، باب الشكر ، وعلى (الوافي) : ٣ / ٣٢٤ باب الشكر .

فصل

(المدارك لتمييز محاب الله عن مكارهه)

لما عرفت أن الشكر عبارة عن استعمال نعم الله فيما يحبه ، والكفران عبارة عن نقيض ذلك ـ اعني ترك استعمالها فيه أو استعمالها فيما يكرهه ـ فلابد من معرفة ما يحبه وما يكرهه ، وتمييز محابه عن مكارهه ، حتى يتمكن من اداء الشكر وترك الكفران ، لتوقفهما على معرفتهما وتمييزهما . وهذا التمييز والتعريف له مدركان :

احدهما ـ الشرع ، فانه كشف عن جميع ما يحبه وما يكرهه ، وعبر عن الاول بالواجبات والمندوبات ، وعن الثاني بالمحرمات والمكروهات . فمعرفة ذلك موقوفة على معرفة جميع احكام الشرع في افعال العباد ، فمن لم يطلع على حكم في جميع افعاله ، لم يمكنه القيام بحق الشكر .

وثانيهما ـ العقل والنظر بعين الاعتبار ، فان العقل متمكن ـ في الجملة ـ من أن يدرك بعض وجوه الحكم في بعض الموجودات . فان الله ـ سبحانه ـ ما خلق شيئاً في العالم إلا وفيه حكم كثيرة ، وتحت كل حكمة مقصود ومصلحة ، وهذا المقصود والمصلحة هو محبوب الله ـ تعالى ـ . فمن استعمل كل شيء على النحو الذي يؤدي الى المقاصد المطلوبة وعلى الجهة التي خلق لها فقد شكر نعم الله ـ تعالى ـ ، وإن استعمل شيئاً على النحو الذي لم يؤد الى المقصودة منه أو في جهة غير الجهة التي خلق لها ، فقد كفر نعمة الله .

ثم العقل لا يتمكن من معرفة كل حكمة مطلوبة من كل شيء ، إذ الحكم المقصودة من الأشياء ، إما جلية او خفية . أما الجلية : كحكمة حصول الليل والنهار في وجود الشمس ، وحكمة انتشار الناس وسكونهم في وجود الليل والنهار ، وحكمة انشقاق الأرض بانواع النبات في وجود الغيم ونزول

الأمطار ، وحكمة الابصار في العين ، والبطش في اليد ، والمشي في الرجل ، وحصول الأولاد وبقاء النسل في آلات التناسل وخلق الشهوة ، وحكمة المضغ والطحن في خلق الأسنان وأمثال ذلك . وأما الحكم الخفية : كالحكم التي في خلق الكواكب السيارة والثابتة ، واختصاص كل منها بقدر معين وموضع خاص ، والحكم التي في بعض الاعضاء الباطنية للحيوان ، من الامعاء والمرارة والكلية وآحاد العروق والاعصاب والعضلات ، وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظة وغير ذلك. فهذه الحكم وامثالها لا يعرفها كل أحد ، ومن يعرف منها شيئاً فلا يعرف إلا قدراً يسيراً . فان جميع اجزاء العالم ، سماءه وكواكبه ، وما فيها من الاوضاع والحركة والاختصاصات ، وعناصره من كثرة النار والهواء والماء والارض ، وما فيها من البحار والجبال والرياح ، والمعادن والنبات والحيوان ، لا تخلو ذرة من ذراته من حكم كثيرة من عشرة الى الف او اكثر ، وقليل منها جلية ، واكثرها دقيقة خفية ، وبعضها متوسط في الجلاء والخفاء ، يعرفها المتفكرون في خلق السماوات والارض ، واكثر الحكم الدقيقة مما لا يعرفها غير خالقها وموجدها . ثم ما عدا الانسان من الاشياء المجردة والمادية ، والروحانية والجسمانية ، جارية على وفق الحكمة ، ومستعملة ذواتها واجزاؤها وما يتعلق بها على الوجه الذي هو مقتضى المصلحة المقصودة منها . واما الانسان ، فلكونه محل الاختيار ومجراه ، فقد يجري ويستعمل الاشياء التي يتمكن من استعمالها على خلاف ذلك ، فيكون كافراً بنعمة الله ـ سبحانه ـ . فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة الله في اليد ، اذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يؤذيه ، ويأخذ ما ينفعه ، لا ليهلك به غيره ، ومن نظر الى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ، لانها خلقت

ليبصر بها ما ينفعه في دينه ودنياه ، ويتقي بها ما يضره فيهما ، ومن ادخر الدراهم والدنانير وحبسهما فقد كفر نعمة الله فيهما ، لانهما حجران لا منفعة ولا عوض في اعيانهما ، وانما خلقهما الله ـ تعالى ـ ليكونا حاكمين يحصل بهما التعديل والمساواة والتقدير بين سائر الاموال من الاعيان المتنافرة المتباعدة، فهما عزيزان في أنفسهما ، ولا غرض في اعينهما ، ونسبتهما الى سائر الاموال نسبة واحدة ، فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء ، لا كمن ملك ثوباً ، فانه لا يملك الا الثوب ، فان احتاج الى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب ، اذ لا غرض له في ذاته ، بخلاف النقدين ، فانهما من حيث الصورة كأنهما ليسا بشيء ، ومن حيث المعنى كأنهما كل شيء ، والاشياء انما تستوى نسبتها الى المختلفات ـ اذا لم يكن لها صورة خاصة تقيدها بخصوصها ـ كالمرآة لا لون لها وتحكى كل لون ، وكالحرف لا معنى لها في نفسها ، بل تظهر لها المعاني في غيرها ، وكذلك النقدان ، لا غرض فيهما مع كونهما وسيلة الى كل غرض ، فالحكمة في خلقهما أن يحكما بين الأموال بالعدل ، وتعرف بهما المقادير المختلفة ، وتقوم بهما الأشياء المتباينة ، ويحصل التوصل بهما الى سائر الاموال ، فيلزم اطلاقهما لتداولهما الايدي ، وتحصل بهما التسوية في تبادل الاعيان والمنافع المتخالفة ، فمن ادخرهما وحبسهما فقد ظلمهما ، وابطل الحكمة فيهما ، وكفر نعمة الله فيهما ، وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن ، ومن لم يدخرهما ولم يتصرف أزيد مما يحصل به التوصل الى ما يحتاج وانفق الزائد في سبيل الله ، فهو الذي استعملهما على وفق الحكمة وشكر نعمة الله فيهما ، ولما عجز أكثر الناس عن قراءة الاسطر الالهية المكتوبة على صفحاتهما في فائدتهما وحكمتهما بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت ، أخبرهم الله عن ذلك بقوله :

« وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »(١) .

وبما ذكرنا من وجه الحكمة فيهما ، يظهر أن من اتخذ الأواني منهما فقد كفر نعمة الله فيهما ايضاً ، وكذا من عامل معاملة الربا فيهما فقد كفر النعمة وظلم ، لأنهما إنما خلقا لغيرهما لا لأنفسهما ، إذ لا غرض في عينهما . فاذا اتجر في عينهما فقد اتخذهما مقصوداً لأنفسهما على خلاف وضع الحكمة ، وكذلك الحكمة في خلق الاطعمة أن يغتذى بها ، فلا ينبغي أن تصرف عن جهتها وتقيد في الايدي ، بل اللازم أن تخرج من يدي المستغني عنها الى المحتاج . ولذا ورد في الشرع حرمة الاحتكار والمنع عن معاملة الربا في الاطعمة ، لان ذلك يوجب صرفها عن الحكمة المقصودة منها . وإذا عرفت ذلك ، فقس عليه جميع افعالك واعمالك وحركاتك وسكناتك ، فان كل فعل يصدر منك إما شكر أو كفران لا يتصور أن ينفك عنهما ، مثلاً لو استنجيت باليمين ، فقد كفرت نعمة اليدين ، اذ خلق الله اليدين وجعل احداهما اقوى واستحق الاقوى لرجحانه التفضيل ، وتفضيل الناقص عليه عدول عن العدل ، وهذا التفضيل انما يتصور بأن تصرف الاقوى في الافعال الشريفة ، كأخذ المصحف وأكل الطعام ، وتصرف الاضعف في الاعمال الخسيسة ، كازالة النجاسة ، فمن خالف ذلك فقد عدل عن العدل وابطل الحكمة وكفر النعمة . وكذلك اذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت لان الخف وقاية للرجل ، فللرجل فيه حظ ، والبداء في الحظوظ ينبغي أن تكون بالاشرف ، وهو العدل والعمل على وفق الحكمة ، فخلافه ظلم وكفران .

(١) التوبة ، الآية : ٣٥ .

وكذلك ان استقبلت القبلة عند قضاء الحاجة ، فقد كفرت نعمة الله في خلق الجهات وخلق سعة العالم ، لانه خلق الجهات متعددة متسعة ، وشرف بعضها بأن وضع فيه بيته ، فينبغي استقباله بالأفعال الشريفة ، كالصلاة والجلوس للذكر والاغتسال والوضوء ، دون الافعال الخسيسة ، كقضاء الحاجة ورمي البزاق ، فمن قضى حاجته أو رمى بزاقه الى جهة القبلة فقد ظلمها وكفر نعمة الله ، وكذلك من كسر غصناً من شجرة من غير حاجة مهمة ، ومن غير غرض صحيح ، فقد كفر نعمة الله في خلق الاشجار وفي خلق اليد . أما اليد فلأنها لم تخلق للعبث ، بل للطاعة المعينة عليها . وأما الشجر، فلان الله ـ تعالى ـ خلقه ، وخلق له العروق وساق اليه الماء ، وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده ، فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدالة . نعم ان كان له غرض صحيح في كسره فله ذلك . اذ الشجر والحيوان جعلا فداءين لاغراض الانسان ، فانهما جميعا فانيان هالكان ، فافناء الأخس في بقاء الاشرف مدة ما أقرب الى العدل من تضييعهما جميعاً . واليه الاشارة بقوله ـ تعالى ـ :

« وَسَخَّرَ لَكُمْ ما في السَّماوات وما في الأَرضِ جَميعاً » (١).

ثم هذه الافعال المتصفة بالكفران ، بعضها يوجب نقصان القرب وانحطاط المنزلة ، وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب الى عالم البعد الذي هو افق الشياطين . ولذلك يوصف بعضها ـ في لسان الفقه ـ بالكراهة وبعضها بالحظر . وقد سومح في الفقه حيث جعل فيه بعض هذه المكاره مكروهة غير محظورة ، مع ان جميعها عدول عن العدل ، وكفران

(١) الجاثية ، الآية : ١٢ .

للنعمة ، ونقصان عن الدرجة المبلغة الى القرب ، لأن الخطاب به انما هو الى العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الأنعام ، وقد انغمسوا في ظلمات اعظم من ان تظهر امثال هذه الظلمات بالاضافة اليها . فان المعاصي كلها ظلمات ، الا أن بعضها فوق بعض ، فيتمحق بعضها في جنب البعض . ولذا ترى أن السيد يعاتب عبده اذا استعمل سكينه بغير اذنه ، ولكن لو قتل بهذا السكين أعز اولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير اذنه حكم ونكاية في نفسه . ولذا جميع هذه المكاره موصوفة عند ارباب القلوب بالحظر ، ولا يتسامحون في شيء مما راعاه الأنبياء والأولياء من الآداب . حتى نقل : « ان بعضهم جمع اكراراً من الحنطة ليتصدق بها ، فسئل عن سببه فقال : لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهواً ، فأريد ان اكفره بالصدقة » .

فصل

(اقسام النعم واللذات)

اعلم ان النعمة عبارة عن كل خير ولذة وسعادة ، بل كل مطلوب ومؤثر . وهي تنقسم الى مؤثر لذاته لا لغيره ، اي تكون غاية مطلوبة لذاتها ليس فوقها غاية اخرى ، وهي مخصوصة بسعادة الآخرة التي لا انقضاء لها ، اعني لذة النظر الى وجه الله ، وسعادة لقائه ، وسائر لذات الجنة ، من البقاء الذي لا فناء له ، والسرور الذي لا غم فيه ، والعلم الذى لا جهل معه ، والغنى الذي لا فقر بعده ، وغير ذلك . فانها لا تطلب ليتوصل بها الى غاية اخرى مقصودة وراءها ، بل تطلب لذاتها ، وهذه هي النعمة الحقيقية واللذة الواقعية ، ولذلك قال رسول الله (ص) : « لا عيش الا عيش الآخرة » ، وغالب هذه النعمة والسعادة واقواها واشرفها هي اللذة والبهجة المرضية العقلية دون الجسمانية — كما لا يخفى — ، فيختص بادراكها العقل ،

ولاحظ السمع والبصر والشم والبطن والفرج فيها . والى ما يقصد لغيره، أي تكون مطلوبة لاجل الغاية المطلوبة لذاتها ووسيلة اليها ، سواء أكانت مقصودة لذاتها ايضاً أم لا . وهي تنقسم الى اربعة اقسام :

القسم الاول ـ وهو الأقرب الأخص : الفضائل النفسية المذكورة في هذا الكتاب ، ويجمعها العلم والعفة والشجاعة والعدالة، وهذه مع كونها لذيذة في نفسها ، تكون وسيلة الى النعمة التي هي غاية الغايات بلا توسط وسيلة اخرى . ولذلك قلنا : هي اقرب الوسائل واخصها . واشرفها العلم ، واشرف افراد العلم : العلم بالله وصفاته وملائكته ورسله، واحوال النشأة الآخرة ، وسائر افعاله ، وعلم المعاملة الراجع الى علم الاخلاق، إذ هو الذي يؤدي الى السعادة الحقيقية بلا توسط شيء آخر ، وسائر العلوم إنما هي مقصودة من حيث كونها وسائل الى هذا العلم،وهذه الفضائل لذيذة في الدنيا والآخرة نافعة فيهما ، اي تؤدي الى الراحة فيهما ، وجميلة على الاطلاق ، اي تستحسن في جميع الاحوال . وضدها ـ اعني الجهل والأخلاق السيئة ـ ضارة مؤلمة في الدارين ، قبيحة على الاطلاق . وسائر الصفات ليست جامعة لهذه الاوصاف . فان اكل لذائذ الأطعمة وطيباتها يوجب اللذة والنفع ، اى حصول الراحة في الحال ، ولكنه ضار في المآل ، وترك الشهوات بعكس ذلك .

ثم لذة المعرفة وفضائل الأخلاق دائمة لازمة لا تزول ابداً ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وعقلية يختص بادراكها العقل دون سائر الحواس . واما غيرها من اللذات ، فبعضها مما يشترك فيه الانسان وبعض الحيوانات، كلذة الرئاسة والغلبة والاستيلاء ، وهذه اللذة موجودة في الأسد والنمر وبعض اخر من الحيوانات . وبعضها مما يشترك فيه الانسان وسائر

الحيوانات ، كلذة البطن والفرج ، وهي اخس اللذات ، ولذلك اشترك فيها كل ما دب ودرج ، حتى الديدان والحشرات . فمن جاوز هذه اللذة ، تشبثت به لذة الغلبة والاستيلاء ، فان جاوزها أيضاً ارتقى الى اللذة العقلية فصار اقرب اللذات عليه لذة المعرفة ، لاسيما لذة معرفة الله ومعرفة صفاته وافعاله . وهذه مرتبة الصديقين ، ولا ينال تمامها إلا بخروج حب الرئاسة من القلب ، وآخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرئاسة والجاه ، ولذلك قمعها بالكلية ، بحيث لا يقع بها الاحساس قط ، يشبه ان يكون خارجاً عن مقدرة البشر . نعم ربما غلبت لذة المعرفة في احوال ، بحيث لا يقع معها الاحساس بلذة الجاه والرئاسة ، إلا ان ذلك لا يدوم ، بل تعتريه الفترات ، فتعود الى الحالة البشرية . وعلى هذا ، تنقسم القلوب الى أربعة أقسام : قلب : لا يحب إلا الله ، ولا يستريح إلا اليه ، وليس فرحه إلا بزيادة المعرفة والفكر فيه ، ولا يسكن إلا بحبه وأنسه . وقلب : أغلب احواله الأنس بالله والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ، ولكن في بعض الأوقات والأحوال يعتريه الرجوع الى أوصاف البشرية . وقلب : أغلب أحواله التلذذ بالجاه والرئاسة والمال وسائر الشهوات البدنية ، وفي بعض الأوقات يتلذذ بالعلم والمعرفة وحب الله والانس به . وقلب : لا يدري مالذة المعرفة وما معنى الأنس بالله ، وانما لذته بالرئاسات والشهوات . والأول ـ إن كان ممكناً في الوجود فهو في غاية الندور . والثاني ـ ايضاً نادر . والسر في ندور هذين القسمين : ان من انحصرت لذاته بمعرفة الله وحبه وانسه ، أو غلب عليه ذلك ، فهو من ملوك الآخرة . والملوك هم الأقلون ولا يكثرون . فكما لا يكون الفائق في الملك والاستيلاء في الدنيا الا نادراً ، واكثر الناس دونهم ، فكذا في ملك الآخرة فان الدنيا مرآة الآخرة . إذ الدنيا عالم

الشهادة وفي الآخرة عالم الغيب ، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب ، كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة . وهي وإن كانت الثانية في رتبة الوجود ، إلا انها في أمر الرؤية أولى ، لأنك ترى صورتك في المرآة أولا ، ثم ترى نفسك ، فتعرف بالصورة القائمة بالمرآة صورتك التي هي قائمة بك ثانياً على سبيل المحاكاة ، فانقلب التابع في الوجود متبوعاً في حق الرؤية والمعرفة ، وانقلب المتأخر متقدماً . وهذا النوع من الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم . وكذا عالم الملك والشهادة يحاكي عالم الغيب والملكوت ، فمن الناس من لا ينظر في مرآة عالم الشهادة إلا بنظر الاعتبار ، فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويعبر به الى عالم الملكوت ، فيسمى عبوره عبرة ، وقد امر الخلق به ، فقيل :

« فَاعْتَبِرُوا يا أُولي الأبصار » (١)

ومنهم من عميت بصيرته ، فلم يعتبر ، فاحتبس في عالم الملك والشهادة ، وستفتح الى حبسه له أبواب جهنم . وأما الثالث — فاكثر وجوداً منه . وأما الرابع — فدار الدنيا طافحة به ، لقصور أكثر الناس عن ادراك لذة العلم ، إما لعدم الذوق ، إذ من لم يذق لم يعرف ولم يشتق ، إذ الشوق فرع الذوق . وذلك إما لقصور فطرتهم وعدم اتصافهم بعد بالصفة التي بها يستلذ العلم ، كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل ، ولا يستلذ إلا باللبن ، فهؤلاء ممن يحيى باطنهم بعد كالطفل . وإما لمرض قلوبهم او موتها بسبب اتباع الشهوات ، كالمريض الذي لا يدرك لذة الشكر ، أو الميت الذي سقط عنه الادراك ، وهؤلاء كالمرضى او الأموات بسبب اتباع الشهوات .

القسم الثاني — الفضائل البدنية : وهي أربعة : الصحة ، والقوة ، وطول العمر ، والجمال .

(١) الحشر ، الآية : ٢ .

الثالث — النعم الخارجة المضيفة بالبدن : وهي : المال ، والجاه ، والأهل ، وكرم العشيرة .

الرابع — الاسباب التي تناسب من وجه الفضائل النفسية ، ويعبر عنها بالنعم التوفيقية : وهي : هداية الله ، ورشده ، وتسديده ، وتأييده . وهذه الجملة مما يتوقف بعضها على بعض ، الى ان ينتهي الى السعادة التي هي مطلوبة لذاتها . والتوقف إما على سبيل اللزوم والضرورة ، كتوقف سعادة الآخرة على الفضائل النفسية والبدنية ، وتوقف الفضائل النفسية على صحة البدن ، او على سبيل النفع والاعانة ، كتوقف الفضائل النفسية والبدنية على النعم الخارجة . ووجه كونها معينة نافعة في تحصيل العلم وتهذيب الأخلاق وصحة البدن ظاهر . واعانة الجمال في كسب الفضائل النفسية والبدنية ، بني على ان القبيح مذموم ، والطباع عنه نافرة ، فحاجات الجميل الى الاجابة اقرب ، وجاهه في الصدور اوسع . وايضاً الغالب دلالة الجمال على فضيلة النفس ، لان نور النفس اذا تم اشراقه تأدى الى البدن ، ولذلك عول اصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيئات البدن . ثم انا لا نعني بالجمال ما يحرك الشهوة ، فان ذلك انوثة ، بل نعني به البراءة عن العيوب والنقص والزيادة ، وارتفاع القامة على الاستقامة ، مع الاعتدال في اللحم ، وتناسب الاعضاء ، وتناسب خلقة الوجه ، بحيث لا تنبو الطباع عن النظر اليه . واما احتياج الفضائل الخلقية والجسمية الخارجية الى النعم التوفيقية ، فلأن المراد بالتوفيقية هو التآلف بين ارادة العبد وبين قضاء الله وقدره ، بشرط كون المراد والمقضي سعادة . وبعبارة اخرى : هو توجيه الاسباب نحو المطلوب .

واما الهداية ، فلها مراتب : اولاها : الهداية العامة ، وهي ارادة طريق الخير وتعريفه . وثانيتها : الخاصة ، وهي الافاضات المتتالية الواردة من

الله على بعض عبيده ، نظراً الى مجاهدتهم . وثالثها : الهداية المطلقة ، وهي النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية ، فيهتدى بهما الى ما لايهتدى اليه بالعقل . وتوقف تحصيل كل خير وفضيلة ، كائناً ما كان ، على مساعدة القضاء والقدر ، وعلى العلم بطريق الخير ، ظاهر .

واما الرشد ، فالمراد به العناية الآلهية ، التي تعين الانسان عند توجهه الى مقاصده ، فيقويه على ما فيه صلاحه ، ويفتره عما فيه فساده ، ويكون ذلك من الباطن . وبعبارة اخرى : هو هداية باعثة الى وجهة السعادة محركة اليها . وقد ظهر احتياج تحصيل الخير والسعادة اليه من مفهومه .

واما التسديد ، فهو توجيه حركاته الى صوب المطلوب وتيسرها عليه ، ليصل اليه في اسرع وقت . فالهداية محض التعريف ، والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك ، والتسديد اعانة ونصرة بتحريك الاعضاء الى صوب الصواب والسداد . وقد ظهر وجه كون التسديد معيناً في طلب الخير ايضاً من حاق معناه .

واما التأييد ، فانه جامع للكل ، اذ هو عبارة عن تقوية امره بالبصيرة ، فكأنه من داخل ، وبقوة البطش ومساعدة الاسباب من خارج . وتقرب منه العصمة ، وهي عبارة عن وجود الهي يسنح في الباطن ، يقوى به الانسان على تحرى الخير وتجنب الشر ، حتى يصير كمانع باطق غير محسوس يمنع عن الشر ، وهو المراد من برهان الرب في قوله ـ تعالى ـ :

« وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ » (١) .

---

(١) يوسف ، الآية : ٢٤ .

تنبيه

اعلم ان النعم الاخروية، التي هى الغايات المطلوبة لذواتها ، وتفصيلها واسبابها وما يتوقف وجودها عليه ، الى ان ينتهي الى مسبب الاسباب ، مما لايمكن دركها، والعقول البشرية قاصرة عن درك قليلها فضلا عن كثيرها.

واما الوسائل الاربعة من النعم التي انقسم كل منها ايضاً الى اربعة اقسام ، وصار مجموعها ستة عشر قسماً ، فيستدعى كل قسم من الستة عشر اسباباً ، وتلك الاسباب اسباباً ، حتى تنتهي بالآخرة الى مسبب الاسباب وموجد الكل . والمتفكر يعلم ، ان كلا منها يتوقف على نعم واسباب اخرى متسلسلة خارجة عن حد الاحصاء. فان نعمة الصحة التي من النعم الواقعةفي المرتبة المتأخرة تتوقف على اسباب ونعم من جملتها نعمة الاكل،فان احصاءها وان لم يكن ممكناً ، الا انا نشير الى بعضها على سبيل التلويح دون الاستقصاء، لتقاس عليها البواقي . فنقول :

نعمة الاكل تتوقف على ادراك الغذاء واسبابه ، وعلى شهوة الطعام وميله وارادته واسبابه، وعلى القدرة الى تحصيله واسبابه ، وعلى وجود اصل الغذاء المأكول وتكونه ، وعلى اصلاحه بعد وجوده وتكونه ، وعلى الاسباب الموصلة له الى كل انسان لو كان بعيدا عنه ، وعلى اسباب الطحن والجذب والهضم والدفع وسائر الافعال الباطنة الى ان يصير جزء للبدن ، وعلى الملائكة الموكلين على فعل من الافعال المذكورة . فها هى نذكرها اجمالا وتلويحاً في فصول :

فصـــل

(الاكل)

الاكل يتوقف اولا على أدراك الغذاء المأكول رؤية ولمساً واستشماماً وذوقاً ، اذ ما لم يبصره لم يمكنه تمييزه وطلبه ، وما لم يلامسه لم يتمكن من درك بعض اوصافه اللازمة في الاكل ، وما لم يشمه لم يتشخص ما يكره رائحته عما تطيب رائحته ، وربما توقف تحصيله على استشمام رائحته من بعد، لاسيما لبعض الحيوانات ، وما لم يذقه لم يدرك انه موافق او مخالف له ، وبذلك ظهر توقفه على خلق الحواس المدركة الظاهرة، فخلقها الله ـ سبحانه ـ. ثم ، الاسباب التي يتوقف عليها خلق هذه الحواس مما لا تتناهى ، فلا نتعرض لبيانها . وبعد ادراك الغذاء ـ على ما ذكر ـ لا بد له من قوة اخرى يعرف بها كون الغذاء الذي ذاقه سابقاً ورآه مرة اخرى موافقاً او مخالفاً، وهذه القوة هي الحس المشترك الذي يتأدى اليه جميع المحسوسات ويجتمع فيه ، فانك اذا اكلت شيئاً اصفر ـ مثلا ـ فوجدته مرا مخالفاً لك فتركته ، فاذا رأيته مرة اخرى فــلا تعرف انه مر مالم تذقه ، اولا الحس المشترك، اذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة ، والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة، فلا بد من حاكم يجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعاً، حتى اذا أدرك الصفرة حكم بأنه مر ، فيمتنع عن تناوله ثانياً . وهذه القوة ـ اعني الحس المشترك ـ يتوقف خلقه على اسباب ونعم لا يمكن احصاؤها ، فلتذرها على سنابلها .

ثم الادراك بالحواس الظاهرة والحس المشترك ، مما تشترك فيه سائر الحيوانات ، ولو انحصر ادراك الانسان ايضاً به لكان ناقصاً . اذ البهيمة

تأكل ما تستلذ به في الحال ويضرها في ثاني الحال ، فتمرض وتموت ، اذ ليس لها الا الاحساس بالحاضر ، واما ادراك العواقب فليس لها اليه سبيل . فيتوقف تمييز صلاح العواقب وفسادها على قوة اخرى . فخلق الله للانسان العقل ، به يدرك مضرة الاطعمة ومنفعتها في المآل ، وبه يدرك كيفية طبخ الاطعمة وتركيبها واعداد اسبابها ، فينتفع بعقله في الاكل الذي هو سبب صحته ، وهو اخس فوائد العقل واقل الحكم فيه ، اذ الحكم والفوائد المترتبة عليه اكثر من ان تحصى ، واعظم الحكم فيه معرفة الله ومعرفة صفاته وافعاله . والعقل بمنزلة السلطان في مملكة البدن ، والحواس الخمس كالجواسيس واصحاب الاخبار والموكلين بنواحي المملكة ، وقد وكل كل واحد منها بامر خاص . فواحدة بأخبار الالوان ، واخرى بأخبار الاصوات ، واخرى بأخبار الروائح ، واخرى بأخبار الطعوم ، واخرى بأخبار الحر والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة . فهذه الجواسيس يقتنصون الاخبار من اقطار المملكة ، ويسلمونها الى الحس المشترك ، وهو قاعد في مقدمة الدماغ ، مثل صاحب الكتب والقصص على باب الملك ، يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم ، ويأخذها ويسلمها الى العقل الذي هو السلطان مختومة ، اذ ليس له الا اخذها وحفظها ، واما معرفة حقائق ما فيها فليس اليه . ولكن اذا صادف القلب العاقل الذي هو الامير والملك ، سلم ، لانها آتية اليه مختومة ، فيفتشها الملك ويطلع على اسرار المملكة ، ويحكم فيها بأحكام عجيبة لايمكن استقصاؤها ، وبحسب مايلوح له من الاحكام والمصالح يحول الجنود ــ اعني الاعضاء ــ في الطلب او الهرب او اتمام التدبيرات التي تعن له . ثم عجائب حكم العقل والاسباب التي يتوقف خلقه عليها ليس دركها في مقدرة البشر ، وهذه ما يتوقف عليه الاكل من الادراكات واسبابها .

فصـــل

(لا فائدة في الغذاء ما لم يكن بشهوة وميل)

اذا ادرك الغذاء ، لم يفد فائدة ما لم تكن شهوة له وميل وشوق اليه . اذ لولا الميل اليه لكان ادراكه بأي حس وقوة فرضاً معطلاً . ألا ترى أن المريض يرى الطعام ويدرك انه انفع الاشياء له ، وقد سقطت شهوته ، فلا يتناوله ، فيبقى البصر والادراك معطلاً في حقه ؟ فيتوقف الأكل على ميل الى الموافق ، ويسمى شهوة ، ونفرة عن المخالف ، ويسمى كراهة . فخلق الله شهوة الطعام وسلطها على الانسان كالمتقاضي الذي يضطره الى التناول ، وهذه الشهوة لولم تسكن بعـــد أخذ قدر الحاجة لاسرفت وأهلكت نفسه ، فخلق الله الكراهة عند الشبع لترك الأكل بها ، ولم يجعلها كالزرع الذي لا يزال يجتذب الماء اذا انصب في اسفله حتى يفسد ، ولذلك يحتاج الى آدمي يقدّر غذاءه بقدر الحاجة ، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء اخرى ، ثم مجرد الميل والشهوة لا يكفي ، ما لم تنبعث الداعية الى تناول الغذاء . فخلق الله ـ تعالى ـ له الارادة — أعني انبعاث النفس الى تناوله . وربما حصل الاحتياج الى قوة الغضب ـ ايضاً ـ ليدفع عن نفسه المؤذي وما يضاده ويخالفه ، ومن اراد ان يأخذ منه ما حصله من الغذاء . ثم لكل واحد من الشهوة ، والكراهة ، والارادة ، والغضب ، اسباب لا يمكن احصاؤها، ثم بعد ادراك الغذاءوميله وشهوته وارادته ، لايفيد شيئاً من ذلك ما لم يتحقق الطلب والأخذ بالفعل بآلاتهما . فكم من زمن شائق الى شيء بعيد منه مدرك له مائل اليه مريد له ، لا يمكنه أن يمشي اليه لفقد رجله ، او لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده او لفلج أو عذر فيهما . فلابد من آلات للحركة ، وقدرة في تلك الآلات على الحركة ، لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلباً . فلذلك

خلق الله ـ تعالى ـ لك الأعضاء التي تنظر الى ظاهرها ولا تعرف اسرارها . فمنها ما هو آلة للطلب ، كالرجل للانسان ، والجناح للطير ، والقوائم للدواب . ومنها ما هو آلة لدفع المؤذي والمانع من طلب الغذاء ، كالقرن لبعض الحيوانات ، والانياب لبعض أخر منها ، والمخلب لبعض آخر منها ، والاسلحة للانسان القائمة مقام هذه الآلة . ومنها ما هو آلة للأخذ والتناول كاليدين للانسان . ثم لهذه الاعضاء اسباب وحكم خارجة عن الحد والحصر وقد تقدم قليل من حكمها وعجائبها في باب التفكر .

فصل

(عجائب المأكولات)

عمدة ما يتوقف عليه الاكل واصله ومناطه ، هي الاغذية والاطعمة المأكولة ، ولله ـ تعالى ـ في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى ، واسباب متوالية لا تتناهى . والاغذية والادوية من الاطعمة لم يبلغ عددها من الكثرة حداً يمكن احصاؤها وحصرها ، فضلاً عن بيان عجائبها واسبابها ، فنحن نترك الجميع ، ونأخذ من جملتها حبة من الحنطة ، ونبين بعض اسبابها وحكمها وعجائبها . فنقول :

قد خلق الله في حبة الحنطة من القوى ما يغتذى به كما خلق فيك . فان النبات انما يفارقك في الحس والحركة دون الاغتذاء ، لانه يغتذى بالماء . ولا نتعرض لذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء الى نفسه ، بل نشير الى لمعة من كيفية اغتذاء الحبة . فنقول :

ان الحبة لا تغتذي بكل شيء ، بل يتوقف اغتذاؤها على ارض فيها ماء . ولا بد ان تكون ارضها رخوة متخلخلة يتغلغل الهواء اليها ، فلو تركتها في ارض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء . ثم الهواء لا يتسرب اليها

بنفسه ، فلابد من حصول اسباب الريح حتى تحرك الهواء وتضربه وينفذ فيها بقهر وعنف ، واليه الاشارة بقوله ـ تعالى ـ :

« وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ » (١) .

والقاحها انما هو ايقاعها الازدواج بين الهواء والماء والارض . ثم لا يكفي ذلك في انباته في برد مفرط ، فيحتاج الى حرارة الصيف والربيع . فهذه اربعة اسباب ، فان الماء لابد ان ينساق الى ارض الزراعة من البحار والشطوط والانهار والعيون والسواقي ، فانظر كيف خلق الله جميع ذلك . ثم الارض ربما تكون مرتفعة لا ترتفع اليها مياه العيون والقنوات ، فخلق الله الغيوم ، وهي سحب ثقال حاملات للماء ، وسلط عليها الرياح لتسوقها باذنه الى اقطار العالم من المرتفعات والمنخفضات ، وترسلها مدراراً على الاراضي في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة ، ثم خلق الجبال حافظة للمياه تنفجر منها العيون تدريجاً على قدر الحاجة ، ولو خرجت دفعة لغرقت البلاد ، وهلك الزرع والمواشي . ونعم الله ـ تعالى ـ وعجائب صنعه وحكمته في السحاب والبحار والجبال والامطار لا يمكن احصاؤها واما الحرارة ، فانها لا يمكن أن تحصل في الماء والارض ، لكونهما باردين . فخلق الله الشمس ، وسخرها ، وجعلها — مع بعدها عن الارض — مسخنة لها في وقت دون وقت ، ليحصل الحر عند الحاجة اليه ، والبرد عند الافتقار اليه ، وهذه اخس حكم الشمس ، والحكم فيها اكثر من ان تحصى . ثم النبات ان ارتفع على الارض كان في الفواكه انعقاد وصلابة، فتفتقر الى رطوبة تنضجها ، فخلق الله القمر ، وجعل من خاصيته الترطيب، كما يظهر لك ذلك اذا كشفت رأسك له في الليل ، فانه تغلب على رأسك

---

(١) الحجر ، الآية : ٢٢ .

الرطوبة للمعبر عنها بـ (الزكام) ، فهو بترطيبه ينضج الفواكه ويرطبها ، ويصبغها بتقدير الخالق الحكيم ، وهذا ايضاً أخس فوائد القمر وحكمه ، وما فيه من الحكم والفوائد لا مطمح في استقصائه ، بل كل كوكب في السماء فقد سخر لفوائد كثيرة لا تفي القوى البشرية باحصائها . وكما أنه ليس في اعضاء البدن عضو لا فائدة فيه ، فكذلك ليس عضو من اعضاء بدن العالم لا تكون فيه فائدة أو فوائد كثيرة . والعالم كله كشخص واحد ، وآحاد أجسامه كالأعضاء له ، وهي متفاوتة تفاوت اعضاء البدن ، وشرح ذلك ليس في مقدرة البشر ، وكلها مسخرات لله ـ سبحانه ـ ، وآثار من قدرته الكاملة ، ورشحات من أبحر عظمته الباهرة ، وليست في انفسها إلا اعدام صرفة . فأرباب القلوب العارفون بالله المحبون له ، إذا نظروا الى ملكوت السماوات والأرض ، والآفاق والأنفس ، والحيوانات والنباتات ، لا ينظرون اليها إلا من حيث إنها آثار قدرة ربهم ، ورشحات صفاته ، ويكون تفكرهم وسعيهم في العثور على عجائبها وحكمها ، وابتهاجهم وشغفهم لأجل ذلك . كما أن من أحب عالماً لم يزل مشغوفاً بطلب تصانيفه ، فيزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حباً له . فكذلك الامر في عجائب صنع الله ، فان العالم كله من تصنيفه ـ تعالى ـ ، بل جميع المصنفين ايضاً من تصنيفه الذي صنفه بواسطة قلوب عباده ، فان تعجبت من تصنيف ، فلا تتعجب من المصنف، بل من الذي سخر المصنف لتأليفه بما انعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه. كما إذا رأيت لعب المشعوذ (١) يترقص ويتحرك حركات موزونة متناسبة، فلا تتعجب من اللعب ، فانها خرق محركة لا متحركة ، ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة عن الابصار . وقد ظهر أن غذاء النبات

(١) المشعوذ : الرجل الحيال ، الذي يصنع الشعبذة .

لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ، ولا يتم ذلك إلا بالافلاك التي هي مركوزة فيها ، ولا تتم الافلاك إلا بحركاتها ، ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها ، وكذلك تتسلسل الاسباب الى أن تنتهي الى مسبب الاسباب وغاية الكل ، وليس لنا سبيل الى ادراك تفاصيلها واستنباط عجائب حكمها ودقائق مصالحها .

فصل

(حاجة تحضير الطعام الى الاف الاسباب)

ثم ما ينبت من الارض من النبات ، وما يحصل من الحيوانات ، لا يمكن أن تقضم وتؤكل كذلك ، بل لا بد في كل واحد من اصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف ، بالقاء البعض وابقاء البعض ، الى غير ذلك من الاعمال التي لا تحصى ، وكل من الاطعمة يتوقف اصلاحها على امور خاصة كثيرة ، واستقصاء ذلك في كل طعام طويل ، فلنأخذ رغيفاً واحداً ، وننظر الى بعض ما يحتاج اليه حتى يستدير ويصلح للأكل ، اذ بيان جميع ما يحتاج اليه حتى يستدير الرغيف الواحد ليس ممكناً ، فنقول :

أول ما يتوقف عليه هذا الرغيف الارض ، ثم إلقاء البذر فيها ، ثم الثور الذي يثير الارض مع آلاته ، كالفدان وغير ذلك ، ثم تنقية الارض من الحشائش ، والتعهد بسقي الماء الى أن ينعقد الحب ويبدو صلاحه ، ثم الحصاد ، ثم الفرك ، ثم التنقية والتصفية ، ثم الطحن ، ثم العجن ، ثم الخبز . فتأمل عدد هذه الافعال ، واستحضر سائر الافعال التي لم نذكرها ، ثم تذكر عدد الاشخاص القائمين بها ، وعدد الآلات التي يحتاج اليها من الحديد والخشب والحجر وغيرها . وانظر الى اعمال الصناع في اصلاح آلات الحراثة والتصفية والطحن والخبز من نجارة وحدادة وغيرهما ، واحتياج

كل منها الى آلات كثيرة . ثم انظر كيف ألف الله ـ سبحانه ـ بين قلوب هؤلاء الصناع المصلحين ، وسلط عليهم الانس والمحبة ، حتى ائتلفوا واجتمعوا وبنوا المدن والبلاد ، ورتبوا المساكن والدور متجاورة متقاربة ، وبنوا الاسواق والخانات وسائر أصناف البقاع ، ولو تفرقت آراؤهم ، وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحوش ، لتبددوا وتباعدوا ، ولم ينتفع بعضهم ببعض ، ثم لما كان في جبلة الانسان الغيظ والعداوة ، والحسد والمنافسة ، والانحراف عن الحق ، وربما زالت المحبة بين البعض لا عراض ، فيزدحمون عليها ، ويتنافسون فيها ، وربما أدى الى التنافر والتقابل . فبعث الله الانبياء بالشرائع والقوانين ليرجعوا اليها عند التنازع ، فيرتفع نزاعهم . ثم بعث العلماء الذين هم ورثة الانبياء لحفظ هذه الشرائع والعلم بها ، وبعث الله السلاطين حتى يقيموا الناس قهراً عليها لو أرادوا التخلف عنها ، فسلط الله السلاطين اولى القوة والعدة على الناس ، وألقى رعبهم في قلوبهم ، والهمهم اصلاح العباد ، بأن رتبوا الرؤساء والقضاة والحكام والسجن والاسواق ، واضطروا الخلق الى قانون الشرع والعدل ، وألزموهم التآلف والتعاون ، ومنعوهم عن التفرق والتباغض . فاصلاح الرعايا والصناع بالسلاطين ، وإصلاح السلاطين بالعلماء ، وإصلاح العلماء بالانبياء ، واصلاح الانبياء بالملائكة ، واصلاح الملائكة بعضهم ببعض ، الى ان ينتهى الى حضرة الربوبية ، التي هي ينبوع كل نظام ، ومطلع كل حسن وجمال ، ومنشأ كل ترتيب وتأليف . وقد ظهر مما ذكر : أن من فتش يعلم : ان رغيفاً واحداً لا يستدير بحيث يصلح للاكل ما لم يعمل عليه آلاف الوف من الملائكة وصناع الانس .

فصل

(تسخير الله التجار لجلب الطعام)

ثم جميع الأطعمة لما لم يمكن أن يوجد في كل مكان وبلد ، إذ لكل واحد شروط مخصوصة لأجلها ، لا يمكن إلا أن يوجد في بعض الأماكن دون بعض ، والناس منتشرون على وجه الأرض ، وقد يبعد عنهم بعض ما يحتاجون اليه من الأطعمة ، بحيث تحول بينهم وبينها البراري والبحار ، فسخر الله ـ تعالى ـ التجار ، وسلط عليهم حرص المال وشره الربح ، حتى يقاسوا الشدائد ، ويركبوا الأخطار في قطع المفاوز وركوب البحار ، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق . فانظر كيف علمهم الله صناعة السفن وكيفية الركوب فيها ، وكيف خلق الحيوانات وسخرها للحمل والركوب في البوادي والجبال ، من الجمال وكيفية قطعها البراري والمراحل تحت الأعباء الثقيلة وصبرها على الجوع والعطش ، ومن الخيل وكيفية سرعة سيرها وحركاتها ، ومن الحمار وصبره على التعب ، وانظر كيف خلق الله ما يحتاج اليه السفن وهذه الحيوانات من الأسباب والغذاء ، وينتهي الى حد لا يمكن تحديده .

فصل

(نعم الله في خلق الملائكة للانسان)

ثم مجرد وجود الغذاء وحضوره واصلاحه لا يفيد فائدة ما لم يؤكل ويصير جزء للبدن . وهذا موقوف على اعمال كثيرة ، محتاجة الى أسباب كثيرة ، من الطحن ، والجذب ، والهضم المعدي والكبدي ، وغير ذلك من الأفعال التي يحتاج كل منها الى أسباب كثيرة . وقد أشرنا الى لمعة من

كيفية ذلك في باب التفكر ، فارجع اليه . وهنا نشير الى أنموذج من نعمة الله في خلق الملائكة . فنقول :

إن كثرة الملائكة لم تبلغ حداً يمكن تصوره تفصيلا أو إجمالاً ، ولهم طبقات وأصناف : منها : طبقات الملائكة الأرضية . ومنها : الملائكة السماوية . ومنها : حملة العرش العظيم . ومنها : المسلسلون . ومنها: المهيمنون . . . وغير ذلك مما لم نسمع اسمهم ورسمهم ، ولا يحيط بهم إلا الله - سبحانه - . فكل صنع من صنائع الله في الارض والسماء لا يخلو عن ملك أو ملائكة موكلين به . فانظر كيف وكلهم الله بك فيما يرجع الى الاكل والاغتذاء الذي كلامنا فيه ، دون ما يجاوز ، وذلك من صنائع الله وافعاله ، ومن الوحي الى الأنبياء والهداية والارشاد وغيرها ، فان استقصاء ذلك ليس من مقدورات البشر . فنقول : إن كل جزء من اجزاء بدنك ، بل من اجزاء النبات ، لا يغتذي إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة ، هم أقل الأعداد ، الى عشرة الى مائة ، الى أكثر من ذلك بمراتب .

بيان ذلك : ان معنى الاغتذاء : أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء تلف من بدنك . وهذا موقوف على حركات وتغيرات واستحالات للغذاء ، حتى يصير جزء للبدن ، كالجذب والهضم وصيرورته لحماً وعظماً . ومعلوم أن الغذاء والدم واللحم اجسام ليست لها قدرة ومعرفة واختيار حتى تتحرك وتتغير بانفسها ، ومجرد الطبع لا يكفي في ترددها في اطوارها ، كما أن البر بنفسه لا يصير طحيناً وعجيناً وخبزاً مطبوخاً إلا بصناع ، والصناع في الباطن هم الملائكة ، كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد . فالغذاء ، بعد وضعه في الفم إلى أن يصير دماً ، لا بد له من صناع من الملائكة ، ولا نتعرض لهم ولبيان عددهم ، ونقول : بعد صيرورته دماً الى أن يصير جزء للبدن ، يتوقف على سبعة من

الملائكة ، إذ لا بد من ملك يجذب الدم الى جوار اللحم والعظم، إذ الدم لا يتحرك بنفسه ، ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره ، ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ، ومن رابع يكسوه صورة اللحم والعظم والعرق ، ومن خامس يدفع الفضل الزائد من الحاجة ، ومن سادس يلصق ما اكتسب صفة اللحم باللحم ، وما اكتسب صفة العظم بالعظم ، وما اكتسب صفة العرق بالعرق حتى لا يكون منفصلا ، ولا بد من سابع يراعى المقادير في الالصاق ، فيلحق بالمستدير على مالا يبطل استدارته ، وبالعريض على ما لا يبطل عرضه ، وبالمجوف على ما لا يبطل تجويفه ، وهكذا ... ويراعى في الالصاق لكل عضو مايليق به ويحتاج اليه. فلو جمع لانف الصبي - مثلا - من الغذاء ما يجمع على فخذه ، لكبر أنفه ، وبطل تجويفه ، وتشوهت صورته ، بل ينبغي أن يسوق الى الاجفان مع رقتها والى الافخاذ مع غلظتها ، والى الحدقة مع صفائها ، والى العظم مع صلابته، مايليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل ، ويراعى العدل في القسمة والتقسيط ، وإلا بطلت الصورة ، وتشوهت الخلقة ، ورق بعض المواضع وضعف البعض . فمراعاة هذه الهندسة مفوضة الى ملك من الملائكة . وإياك وأن تظن ان الدم بطبعه يهندس شكل نفسه ، فان من احال هذه الامور الى الطبع جاهل ولا يدري مايقول، فان أراد من الطبع قوة عديمة الشعور، ويقول : ان كل فعل من هذه الافعال موكول الى قوة لا شعور لها ، فنقول : ذلك أدل على عظمة الله وحكمته وقدرته ، اذ لا ريب في ان ما لا شعور له ليس في نفسه أن يفعل فعلا ما ، فضلا عن ان يفعل أفعالا متقنة محكمة ، مشتملة على الحكم الدقيقة والمصالح الجلية والخفية . فتكون هذه شروطاً ناقصة لايجاد الله - سبحانه - هذه الأفعال بلا واسطة ، أو بواسطة عدد هذه

القوى من الملائكة . وعلى اي تقدير ، لا بد من سبعة اشخاص من مخلوق الله ـ سبحانه ـ مسخرين في باطنك ، موكلين بهذه الافعال ، قد شغلوا بك ، وانت في النوم تستريح ، وفي الغفلة تتردد ، وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خبر لك منهم ، وكذلك في كل جزء من اجزائك التى لا تتجزأ ، حتى يفتقر بعض الأجزاء ــ كالعين والقلب ــ الى أكثر من مائة ملك . ثم الملائكة الأرضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم ، لا يحيط بكنهه الا الله ، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش ، والمنعم على جميعهم بالتأييد والتسديد والهداية المهيمن القدوس ، المتفرد بالملك والملكوت والعز والجبروت . ومن اراد ان يعلم ـ اجمالا ـ كثرة الملائكة الموكلين بالسماوات والارضين ، وأجزاء النبات والحيوانات ، والسحب والهواء والبحار والجبال والامطار وغير ذلك ، فليرجع في ذلك الى الاخبار الواردة من الحجج ـ عليهم السلام ـ . ثم لا بد أن يفوض كل فعل من الافعال السبعة المذكورة الى ملك من الملائكة ، ويكون الموكل به ملكاً واحداً على حدة ، ولا يمكن أن يفوض جميعها الى ملك واحد ، كما لا يمكن أن يتولى انسان واحد سبعة أعمال في الحنطة ، كالطحن وتمييز النخالة ، ودفع الفضلة عنه ، وصب الماء عليه ، والعجن ، وقطعها كسرات مدورة ، وترقيقها رغفانا عريضة ، والصاقها بالتنور . اذ الملك وحداني الصفة ، ليس فيه خلط وتركيب من المتضادات . فلا يكون لكل واحد منهم الا فعل واحد ، كما اشير اليه بقوله ـ تعالى ـ :

«وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ» (١) .

---

(١) الصافات ، الآية : ١٦٤ .

ولذلك ، ليس بينهم تحاسد وتنافس . ومثالهم في تعيين مرتبة كل واحد منهم وعدم مزاحمة الآخر له مثال الحواس الخمس ، وليس كالانسان الذي يتولى بنفسه اموراً مختلفة ، وسبب ذلك اختلاف صفاته ودواعيه ، فانه لما لم يكن وحداني الصفة لم يكن وحداني الفعل ، ولذلك ترى أنه يطيع الله تارة ويعصيه أخرى . وذلك غير موجود في الملائكة ، فانهم مجبولون على الطاعة لم تتصور في حقهم معصية ، ولكل منهم طاعة خاصة معينة . فالراكع منهم راكع أبداً ، والساجد منهم ساجد دائما ، والقائم منهم قائم أبدا ، لا اختلاف في افعالهم ولا فتور ، ولكل واحد منهم مقام معلوم . واذ قد ظهر لك عدد ما يحتاج اليه بعض افعال مجرد الاغتذاء من الملائكة الارضية المستمدين من الملائكة السماوية ، فقس عليه سائر افعال الاغتذاء ، وسائر افعالك الباطنة والظاهرة ، فان بيان ذلك ليس ممكناً . ثم قس على ذلك اجمالا جملة صنائع الله وافعاله الواقعة في عالمي الجبروت والملكوت ، وعالم الملك والشهادة ، فسماواته وارضه وما بينهما وما تحتهما وما فوقهما ، فان اعداد الملائكة والموكلين بها غير متناهية ، كيف ومجامع طبقات الملائكة وانواعهم خارجة عن الاحصاء ، فضلا عن الآحاد الداخلة تحت الطبقات ؟

وقد ظهر مما عرفت من توقف كل نعمة على نعم كثيرة متسلسلة ، الى أن ينتهي الى الله ، واتصال البعض بالبعض ووقوع الارتباط والترتب بينهما : أن من كفر نعمة الله فقد كفر كل نعمة في الوجود ، فمن نظر الى غير محرم — مثلا — فقد كفر ، ففتح العين نعمة الله في الأجفان ، ولا تقوم الأجفان الا بالعين ، ولا العين الا بالرأس ، ولا الرأس إلا بجميع البدن ، ولا البدن الا بالغذاء ، ولا غذاء الا بالماء والأرض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر وسائر الكواكب ، ولا يقوم شيء من ذلك الا

بالسماوات ولا السماوات إلا بالملائكة . فان الكل كالشيء الواحد ، يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط اعضاء البدن بعضها ببعض. فاذن قد كفر كل نعمة في الوجود، من ابتداء الثرى الى منتهى الثريا. وحينئذ لا يبقى جماد ولا نبات ولا حيوان ، ولا ماء ولا هواء ، ولا كوكب ولا فلك ولا ملك ، إلا يلعنه . ولذلك ورد في الأخبار: « ان البقعة التي يجتمع فيها الناس ، إما تلعنهم إذا تفرقوا ، أو تستغفر لهم » . وكذلك ورد : « أن الملائكة يلعنون العصاة » . وورد : « ان العالم يستغفر له كل شيء ، حتى الحوت في البحر» . وأمثال هذه الأخبار الدالة على ما يفيد المراد خارجة بطرفه عن الاحصاء ، وكل ذلك اشارة الى أن العاصي بتطريفة واحدة يجني على جميع الملك والملكوت .

ثم جميع ما ذكرناه إنما يتعلق بجزء من المطعم ، فاعتبر ما سواه . ثم تأمل هل يمكن أن يخرج أحد عن عهدة الشكر ؟ كيف ولله في كل طرفة على كل عبد من عبيده نعم كثيرة خارجة عن الاحصاء ؟ فان في كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين، إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ، ولو لم يخرج لهلك ، وبانقباضه يجتمع روح الهواء الى القلب ، ولو لم يدخل نسيم الهواء فيه لا نقطع قلبه وهلك . ولما كان اليوم والليلة أربعاً وعشرين ساعة ، وفي كل ساعة يوجد الف نفس تخميناً ، واذا اعتبرت ذلك وقست عليه سائر النعم ، يكون عليك في كل يوم وليلة آلاف الوف نعمة في كل جزء من اجزاء بدنك ، بل في كل جزء من اجزاء العالم ، وكيف يمكن احصاء ذلك، ولذلك قال الله ـ تعالى ـ :

« وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لاَ تُحْصُوهَا » (١)

وورد : « ان من لم يعرف نعمة الله إلا في مطعمه ومشربه ، فقد قل

(١) ابراهيم ، الآية : ٣٤ . النحل ، الآية : ١٨ .

علمه وحضر عذابه ». فالبصير لا تقع عينه في العالم على شيء، ولا يلم خاطره بموجود، إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليه. ولذلك قال موسى بن عمران: « إلهي! كيف أشكرك ولك علي في كل شعرة من جسدي نعمتان: أن لينت اصلها، وان طمست رأسها ».

فصل

(الأسباب الصارفة للشكر)

اعلم أن السبب الصارف لأكثر الخلق عن الشكر، إما قصور معرفتهم بأن النعم كلها من الله - سبحانه -، أو قصور معرفتهم واحاطتهم بصنوف النعم وآحادها، او جهلهم بحقيقة الشكر وكونه استعمال النعمة في اتمام الحكمة التي اريدت بها وظنهم ان حقيقة الشكر مجرد ان يقولوا بلسانهم: الحمد لله، أو الشكر لله، أو الغفلة الناشئة عن غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان، بحيث لا يتنبهون للقيام بالشكر، كما في سائر الفضائل والطاعات، او عدم احتسابهم للجهل ما يعم الخلق ويشملهم في جميع الاحوال من النعم نعمة. ولذلك لا يشكرون على جملة من النعم، لكونها عامة للخلق، مبذولة لهم في جميع الحالات. فلا يرى كل واحد لنفسه اختصاصاً بها، فلا يعدها نعمة. وتأكد ذلك بألفهم واعتيادهم بها، فلا يتصورون خلاف ذلك، ويظنون ان كل انسان يلزم ان يكون على هذه الاحوال. فلذلك تراهم لا يشكرون الله على روح الهواء، ووفور الماء، وصحة البصر والسمع، وامثال ذلك. ولو اخذ بمخنقهم، حتى انقطع عنهم الهواء، وحبسوا في بيت حمام فيه هواء حار، او بئر فيها هواء تقبل رطوبة الماء، ماتوا. فان ابتلى واحد بشيء من ذلك، ثم نجى منه، ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله

عليه . وكذا البصير ، اذا عميت عينه ، ثم اعيد عليه بصره ، عده نعمة وشكره ، ولو لم يبتل بالعمى وكان بصيرا دائماً كان غافلا عن الشكر . وهذا غاية الجهل ، إذ شكرهم صار موقوفاً على ان تسلب منهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الاحوال ، مع ان النعمة في جميع الاحوال اولى بالشكر! فلما كانت رحمة الله واسعة قد عمت الخلق في جميع احوالهم لم يعدها الجاهلون نعمة . ومثلهم كمثل العبد السوء الذى لو لم يضرب بطر وترك الشكر ، واذا ضرب فى غالب الاحوال ترك ساعة شكر المولى على ذلك . ومن تأمل يعلم ان نعمة الله عليه في شربة ماء عند عطشه اعظم من ملك الارض كلها . كما نقل : « ان بعض العلماء دخل على بعض الخلفاء ، وفي يده كوز ماء يشربه ، فقال له : عظني . فقال : لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل أموالك وملكك كله ، ولو لم تعطه بقيت عطشاناً ، فهل تعطيه ؟ قال : نعم ! قال : فكيف تفرح بملك لا يساوي شربة ماء؟ ! » . هذا مع أن كل عبد لو أمعن النظر في حاله ، لرأى من الله نعمة أو نعماً كثيرة تخصه لا يشاركه فيها أحد ، أو يشاركه يسير من الناس ، إما في العقل ، أو في الخلق ، أو في الورع والتقوى ، أوفى الدين ، أو في صورته وشخصه ، أو اهله وولـــده ، أو مسكنه وبلده ، أو رفقائه وأقاربه ، أو عزه وجاهه ، أو طول عمره وصحة جسمه ، أو غير ذلك من محابه . بل نقول : لو كان أحد لا يكون مخصوصاً بشيء من ذلك ، فلا ريب في أنه يعتقد في نفسه اختصاصه ومزيته في بعض هـذه على سائر الخلق . فان أكثر الناس يعتقدون كونهم اعقل الناس ، أو أحسن أخـــلاقاً منهم ، مع أن الامر ليس كذلك . ولذلك لا يشكون من نقصان العقل كما يشكون من قلة المال ، ولا يسألون الله أن يعطيهم العقل كما يسألون منه زيادة المال ، ويرى من غيره عيوباً يكرهها واخلاقاً يذمها ، ولا يرى ذلك من نفسه.

وبالجملة : كل أحد يقدر في نفسه من المحاب وصفة الكمال ما لا يراه في غيره ، وإن لم يكن مطابقاً للواقع . ولذلك لو خير بأن يسلب منه ماله ويعطى ما خصص به غيره ، لكان لا يرضى به . بل التأمل يعطى : أن كل واحد من أكثر الناس لا يرضى أن يكون في جميع الصفات والافعال والدين والدنيا مثل شخص آخر من الناس كائناً من كان ، بل لو وكل اليه الاختيار ، وقيل له : أنت مخير في صيرورتك مثل من شئت وأردت من أفراد الناس ، لم يختر إلا نفسه . والى هذا أشار الله ـ سبحانه ـ بقوله :

« كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ »(١)

واذا كان الأمر هكذا ، فانى له لا يشكر الله على ذلك مع قطع النظر عن النعم العامة ؟ ولو لم يكن لشخص من نعم الله إلا الأمن والصحة والقوة، لعظمت النعمة في حقه ولم يخرج عن عهدة الشكر . قال رسول الله (ص) : « من أصبح آمناً في سربه ، معافى في بدنه ، وعنده قوت يومه ، فكأنما خيرت له الدنيا بحذافيرها » . ومهما فتشت الناس ، لوجدتهم يشكون عن امور وراء هذه الثلاث ، مع أنها وبال عليهم . بل لو لم تكن للانسان نعمة سوى الايمان الذي به وصوله الى النعيم المقيم والملك العظيم، لكان جديراً به أن يستعظم النعمة ويصرف في الشكر عمره . بل ينبغي للعاقل ألا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والايمان . ونحن نعلم من العلماء من لو سلم اليه جميع ما دخل تحت ملوك الأرض من الشرق الى الغرب ، من اموال واتباع، وانصار وبلدان وممالك، بدلا عن عشر عشير من علمه لم يأخذه، لرجائه أن نعمة العلم تفضي به الى قرب الله ـ تعالى ـ في الآخرة. بل لو سلم اليه جميع ذلك عوضاً عن لذة العلم في الدنيا، مع نيله في الآخرة الى مايرجوه،

(١) المؤمنين ، الآية : ٥٤ . الروم ، الآية : ٣٢ .

لم يأخذه ولم يرض به، لعلمه بأن لذة العلم دائمة لاتنقطع، وثابتة لاتسرق ولا تغصب، وصافية لا كدورة فيها، بخلاف لذات الدنيا .

فصـــل

(طريق تحصيل الشكر)

الطريق الى تحصيل الشكر أمور :

الأول — المعرفة والتفكر في صنائعه - تعالى - ، وضروب نعمه الظاهرة والباطنة والعامة والخاصة .

الثاني — النظر الى الادنى في الدنيا والى الأعلى في الدين .

الثالث — أن يحضر المقابر ، ويتذكر أن أحب الاشياء الى الموتى وأهم سؤالهم ودعواهم من الله أن يردوا الى الدنيا ، ويتحملوا ضروب الرياضات ومشاق العبادات في الدنيا ، ليتخلصوا في الآخرة من العذاب ، أو يزيد ثوابهم وترتفع درجاتهم . فليقدر نفسه منهم مع اجابة دعوته ورده الى الدنيا ، فليصرف بقية عمره فيما يشتهي أهل القبور العود لأجله .

الرابع — أن يتذكر بعض ما ورد عليـــه في بعض أيام عمره من المصائب العظيمة والأمراض الصعبة التي ظن هلاك نفسه بها ، فليتصور أنه هلك بها ، ويغتنم الآن حياته وماله من النعم ، فليشكر الله على ذلك ، ولا يتألم ولا يحزن من بعض ما يرد عليه عما ينافي طبعه .

الخامس — أن يشكر في كل مصيبة وبلية من مصائب الدنيا من حيث إنه لم تصبه مصيبة اكبر منها ، وإنه لم تصبه مصيبة في الدين . ولذلك قال عيسى (ع) في دعائه : « اللهم لاتجعل مصيبتي في ديني ! » . وقال رجل لبعض العرفاء : « دخل اللص في بيتي وأخذ متاعي » فقال له : « اشكر الله او

كان الشيطان يدخل بدله في قلبك ويفسد توحيدك ، ماذا كنت تصنع ؟ » .
ومن حيث إن كل مصيبة إنما هي عقوبة لذنب صدر منه ، فاذا حلت به هذه العقوبة حصلت له النجاة من عقوبة الآخرة ، كما قال رسول الله (ص) : « إن العبد اذا أذنب ذنباً فاصابته شدة أو بلاء في الدنيا، فالله اكرم من ان يعذبه ثانياً ». وقد ورد هذا المعنى بطرق متعددة من أئمتنا ـ عليهم السلام ـ أيضاً، فليشكر الله على تعجيل عقوبته وعدم تأخيرها الى الآخرة . ومن حيث ان هذه المصيبة كانت مكتوبة آتية اليه ألبتة ، فقد أتيت وفرغ منها . ومن حيث ان ثوابها اكثر منها وخير له ، لما يأتي في باب الصبر من عظم مثوبات الابتلاء بالمصائب في الدنيا . ومن حيث انها تنقص في القلب حب الدنيا والركون اليها ، وتشوق الى الآخرة والى لقاء الله سبحانه . اذ لا ريب في أن من اتاه النعم في الدنيا على وفق المراد، من غير امتزاج ببلاء ومصيبة ، يورث طمأنينة القلب الى الدنيا وأنساً بها ، حتى تصير كالجنة في حقه ، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته ، واذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يأنس بها، وصارت الدنيا سجناً عليه، وكانت نجاته منها كالخلاص من السجن. ولذلك قال رسول الله (ص): « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر». فمحن الدنيا ومصائبها ورياضاتها توجب انزعاج النفس عنها، والتفاتها الى عالمها الاصلي ، وتشوقها الى الخروج عنها اليه ورغبتها الى لقاء الله وما أعد في الدار الآخرة لأهلها.

فان قلت : غاية مايتصور في البلاء أن يصبر عليه ، وأما الشكر عليه فغير متصور ، إذ الشكر إنما يستدعي نعمة وفرحا ، والبلاء مصيبة وألم ، فكيف يشكر عليه ؟ وعلى هذا ينبغي ألا يجتمع الصبر والشكر على شيء واحد، إذ الصبر يستدعي بلاء وألماً ، والشكر يستدعي نعمة وفرحاً ، فهما متضادان غير مجتمعين ، فكيف حكمتم باجتماعهما في المصائب والبلايا الدنيوية ؟

قلنا : كل واحد من النعمة والبلاء ينقسم الى مطلق ومقيد . فالنعمة المطلقة كسعادة الآخرة والعلم والايمان والاخلاق الحسنة في الدنيا ، والنعمة المقيدة في الدنيا ـ اي ما هو نعمة وصلاح من وجه وبلاء وفساد من وجه ـ كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه .والبلاء المطلق ، كشقاوة الآخرة والكفر والجهل والأخلاق السيئة والمعاصي في الدنيا ، والبلاء المقيد ، كمصائب الدنيا ، من الفقر والخوف والمرض وسائر اقسام المحن والمصائب ، فانها وإن كانت بلاء في الدنيا ، ولكنها نعم في الآخرة . وعند التحقيق لا تخلو عن تكفير الخطيئة ، او رياضة النفس ، او زيادة التجرد ، او رفع الدرجة . فالنعمة المطلقة بأزائها الشكر المطلق ، ولامعنى لاجتماع الصبر معه ، والصبر الذي يجتمع معه لاينافيه ، كما يأتي.والبلاء المطلق لم يؤمر بالصبر عليه ، إذ لا معنى للصبر على الكفر والمعصية ،بل يجب عدم الصبر عليه والسعي في تركه . واما البلاء المقيد ، فهو الذي يجتمع فيه الصبر والشكر ، وليس اجتماعهما من جهة واحدة حتى يلزم اجتماع الضدين ، بل الصبر من حيث ايجابه الاغتمام والألم في الدنيا ، والشكر من حيث ادائه الى سعادة الآخرة وغيرها مما ذكر .

ثم لو لم يصبر على جهة شريفة ، ولم يشكر على جهة خيريته ، صار بلاء مطلقاً لزم تركه بالرجوع الى الصبر والشكر . واما النعمة المقيدة ، كالمال والثروة ، فان ادت الى اصلاح الدين كانت نعمة مطلقة يجب عليها الشكر ولم يكن محلا للصبر، وإن ادت الى فساده كانت بلاء مطلقاً واجب الترك، وان ادت الى بلاء الدنيا ، كأن يصير ماله سببا لهلاك اولاده وفساد مزاجه ، ويصير فوته باعثا لابتلائه ببعض المصائب الدنيوية ،كان حكمه حكم البلاء المقيد. ثم يأتي في باب الصبر : ان الصبر قد يكون على الطاعة وعلى المعصية ، وفيهما

يتحقق الشكر والصبر ، إذ الشكر - كما عرفت - هو عرفان النعمة من الله والفرح به، وصرف النعمة الى ماهو المقصود منها بالحكمة، والصبر - كما يأتي - هو ثبات باعث الدين، اعني العقل النظري ، في مقابلة باعث الهوى ، اعني القوة الشهوية . ولا ريب في انه في اداء الطاعة وترك المعصية يتحقق الثبات المذكور ، إذ هو صرف النعمة الى ما هو المقصود ، أذ باعث الدين انما خلق لحكمة دفع باعث الهوى ، وقد صرفه الى مقصود الحكمة . وانت خبير بأنه وان تحقق الشكر والصبر في هذه الطاعة وترك هذه المعصية، الا ان ماتصبر عليه هو هذه الطاعة وترك هذه المعصية، اذ الصبر انما هو عليهما، واما الشكر فعلى باعث الدين ، اعني العقل الباعث لهذه الطاعة وترك هذه المعصية، فالمشكور عليه هو باعث الدين دون نفس الطاعة وترك المعصية ، فاختلف فيهما الصبر والشكر في المتعلق ، اي مايصبر عليه وما يشكر عليه ، واتحدا في فعل الصبر والشكر ، اذ فعل الصبر هو الثبات والمقاومة ، وهو عين الطاعة وترك المعصية ، وفعل الشكر هو صرف النعمة في مقصود الحكمة ، وهو ايضاً عين الطاعة وترك المعصية . ويمكن ان يقال : ان من فعل هذه الطاعة،وترك هذه المعصية ، عرف كونهما من الله وفرح به ، ويعمل طاعة اخرى شكراً له. وعلى هذا فيتحد متعلقا الشكر والصبر في هذه الطاعة وترك هذه المعصية ، اعني المشكور عليه ومايصبر عليه، اذ هما نفس هذه الطاعة وترك هذه المعصية بعينها، ويختلف فعلاهما . اذ فعل الصبر هو هذه الطاعة وترك هذه المعصية، وفعل الشكر تحميد او طاعة اخرى .

فصـــل

(الصحة خير من السقم)

لا تظنن بما قرع سمعك من فضيلة البلاء وادائه الى سعادة الأبد انه خير من العافية في الدنيا، بل مع ذلك كله العافية في الدنيا خير من البلاء والمصيبة

فيها ، فاياك ان تسأل من الله البلايا والمصائب في الدنيا ، فان رسول الله (ص) كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الاخرة ، وكان يقول هو والانبياء والاوصياء ـ عليهم السلام ـ : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة » ، وكانوا يستعيذون من شماتة الاعداء وسوء القضاء . وقال (ص) . « سلوا الله العافية ، فما اعطى عبد افضل من العافية الا اليقين » ، واشار باليقين الى عافية القلب من الجهل والشك ، وهو اعلى واشرف من عافية البدن . وقال (ص) فى دعائه : « والعافية احب الي » .

وبالجملة : هذا اظهر من ان يحتاج الى الاستشهاد . اذ البلاء انما يصير نعمة بالاضافة الى ما هو اكثر منه في الدنيا والآخرة ، وبالاضافة الى ما يرجى من الثواب في الآخرة ، ومن حيث يوجب تجرد النفس وانقطاعها من الدنيا وميلها الى الآخرة . فينبغي ان يسأل تمام النعمة في الدنيا ، والثواب في الآخرة على شكر المنعم ، والتجافي عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود ، فانه قادر على اعطاء الكل ، وما نقل عن بعض العارفين ، من سؤالهم المصائب والبلاء ، كما قال بعضهم : « اود ان اكون جسراً على النار يعبر على الخلق كلهم فينجون ، واكون انا في النار » ، وقال سمنون المحب : « وليس لي في سواك حب ، فكيفما شئت فاختبرني » ، فمبناه على غلبة الحب ، بحيث يظن المحب بنفسه انه يحب البلاء . ومثل ذلك حالة تعتريه ، وليس لها حقيقة . فان من شرب كأس المحبة سكر ، ومن سكر توسع في الكلام ، ولما زال سكره علم ان ما غلب عليه كانت حالة لا حقيقة . فما تسمعه من هذا القبيل فهو كلام العشاق الذين افرط حبهم ، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعول عليه . وقد روى : « ان فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه ، فقال : ما الذي يمنعك عني ، ولو اردت ان اقلب لك ملك سليمان ظهراً لبطن لفعلته لاجلك ؟ فسمع ذلك

سليمان (ع)، فطلبه وعاتبه في ذلك ، فقال. يا نبي الله كلام العشاق لايحكى».
ونقل : « ان سمنون المحب بعد ما قال البيت المذكور ، ابتلى بمرض الحصر، فكان يصيح ويجزع ، ويسأل الله العافية ، ويظهر الندامة عما قال ، ويدور على ابواب المكاتب ، ويقول للصبيان : ادعوا لعمكم الكذاب » . والحاصل : ان صيرورة البلاء احب عند بعض المحبين من العافية، لاستشعارهم رضا المحبوب لأجله، وكون رضاه عندهم احب والذ من العافية انما يكون في غليان الحب، فلا يثبت ولا يدوم . ومع ذلك كله، فاعلم ان الظاهر من بعض الاخبار الآتية في باب الصبر : ان في الجنان درجات عالية لايبلغها احد الا بالمصائب الدنيوية والصبر والشكر عليها ، ويؤيده ابتلاء اكابر النوع ، من الانبياء والاولياء ، بالمصائب العظيمة في الدنيا ، وما ورد من ان اعظم البلاء موكل بالانبياء ثم بالأولياء ، ثم بالأمثل فالامثل في درجات العلاء والولاء . وعلى هذا ، فالظاهر اختلاف اصلحية كل من البلاء والعافية باختلاف مراتب الناس . فمن كان قوى النفس صابرا شاكراً في البلاء ، ولم يصده عن الذكر والفكر والحضور والانس والطاعات والاقبال عليها ، ولم يصر باعثاً لنقصان الحب لله ، فالبلاء في حقه افضل في بعض الأوقات ، اذ بأزائه فى الآخرة من عوالي الدرجات مالا يبلغ بدونه ، ومن كان له ضعف نفس يوجب ابتلاءه بالمصائب جزعاً او كفرانا ، او منعه عن شيء مما ذكر ، فالعافية اصلح في حقه ، وربما كان البلاء مما منعه من الوصول الى المراتب العظيمة ، فلا ريب في ان العافية وعدم هذا البلاء افضل واعلى منه. فان البصير الذي توسل بعينيه الى النظر الى عجائب صنع الله ، وتوصل به الى معرفة الله ، وتمكن لأجل العينين الى مطالعة العلوم وتصنيف الكتب الكثيرة من انواع العلوم ، وتبقى آثاره العلمية على مر الدهور ، وينتفع من علومه الناس ابداً ، وربما بلغ لأجل العينين الى غاية

درجات المعرفة والقرب والحب والانس والاستغراق ، ولو لا وجود العينين له لم يبلغ الى شيء من ذلك، فلا ريب في أن وجود البصر لمثله أفضل واصلح من عدمه ، ولو لا ذلك لكانت رتبة شعيب مثلا ـ وقد كان ضريراً من بين الأنبياء ـ فوق رتبة موسى وابراهيم وغيرهما ـ عليهم السلام ـ لأنه صبر على فقد البصر ، وموسى لم يصبر عليه . ولكان الكمال في ان يسلب الانسان الأطراف كلها ويترك كلحم على وضم . وهذا باطل ، فان كل واحد من الأعضاء آلة في الدين ، فيفوت بفواتها ركن من الدين . ويدل على ذلك ماورد في عدة من الاخبار : « أن كل ما يرد على المؤمن من بلاء أو عافية أو نعمة أو بلية ، فهو خير له واصلح في حقه » ،وما ورد في بعض الاحاديث القدسية : « إن بعض عبادي لا يصلحه إلا الفقر والمرض ، فاعطيته ذلك ، وبعضهم لا يصلحه إلا الغنى والصحة ، فاعطيته ذلك » . وبذلك يجمع بين اخبار العافية واخبار البلاء .

ومنها :

الجزع

وهو اطلاق دواعي الهوى ، من الاسترسال في رفع الصوت ، وضرب الخدود ، وشق الجيوب ، او ضيق الصدر والتبرم والتضجر . وهو وان كان من نتائج ضعف النفس وصغرها الذي من رذائل القوة الغضبية فقط ، الا انه لما كان ضده الصبر ، وله اقسام بعضها من متعلقات القوة الشهوية ـ كما يأتي ـ فلذلك لم نذكره في متعلقات قوة الغضب فقط ، بل ذكرناه هنا . ثم الجزع في المصائب من المهلكات ، لأنه في الحقيقة انكار لقضاء الله ، واكراه لحكمه ، وسخط على فعله . ولذا قال رسول الله (ص) : « الجزع عند البلاء تمام المحنة ».

وقال (ص) : « ان عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وان الله اذا احب قوماً ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط ». وفي الخبر القدسي : « من لم يرض بقضائي ، ولم يشكر على نعمائي، ولم يصبر على بلائي، فليطلب رباً سواي » . وروى : « ان زكريا لما هرب من الكفار ، واختفى في الشجرة ، وعرفوا ذلك ، جاؤا بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار رأس زكريا، فان أنة ، فأوحى الله اليه : يا زكريا ! لئن صعدت منك أنة ثانية لأمحونك من ديوان النبوة! فعض زكريا (ع) على اصبعه حتى قطع شطرين ». وبالجملة : العاقل يعلم ان الجزع في المصائب لا فائدة فيه ، اذ ما قدر يكون ، والجزع لا يرده . ولا ريب في أنه يترك الجزع بعد مضي مدة ، فليتركه اولا حتى لا يضيع اجره . وقد نقل : « انه مات ابن لبعض الأكابر ، فعزاه مجوسي ، وقال له : ينبغي للعاقل ان يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة ايام. فقال : اكتبوه عنه » . وقال الصادق (ع) : « الصبر يظهر ما في بواطن العباد من النور والصفاء ، والجزع يظهر ما في بواطنهم من الظلمة والوحشة . والصبر يدعيه كل احد وما يثبت عنده الا المخبتون ، والجزع ينكره كل احد وهو ابين على المنافقين ، لأن نزول المحنة والمصيبة يخبر عن الصادق والكاذب . وتفسير الصبر ما يستمر مذاقه ، وما كان عن اضطراب لا يسمى صبراً . وتفسير الجزع اضطراب القلب وتحزن الشخص ، وتغير اللون والحال. وكل نازلة خلت اوائلها من الاخبات والانابة والتضرع الى الله فصاحبها جزوع غير صابر . والصبر ما اوله مر وآخره حلو ، من دخله من اواخره فقد دخل ، ومن دخله من اوائله فقد خرج . ومن عرف قدر الصبر لا يصبر عما منه الصبر ، قال الله ـ تعالى ـ في قصة موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ : فكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ، فمن صبر كرهاً ، ولم يشك الى الخلق ،

ولم يجزع بهتك ستره ، فهو من العام ، ونصيبه ما قال الله ـ عز وجل ـ : وبشر الصابرين : اي بالجنة والمغفرة . ومن استقبل البلاء بالرحب ، وصبر على سكينة ووقار ، فهو من الخاص ، ونصيبه ما قال الله ـ عز وجل ـ : ان الله مع الصابرين » (١) .

فصـــل

الصبر ـ مراتب الصبر ـ اقسام الصبر ـ فضيلة الصبر ـ الصبر عــلى السراء ـ اختلاف مراتب الصبر في الثواب ـ طريق تحصيل الصبر ـ التلازم بين الصبر والشكر ـ القانون الكلي في معرفة الفضائل ـ تفضيل الصبر على الشكر .

***

ضد الجزع (الصبر) ، وهو ثبات النفس وعدم اضطرابها في الشدائد والمصائب، بأن تقاوم معها، بحيث لا تخرجها عن سعة الصدر وما كانت عليه قبل ذلك من السرور والطمأنينة ، فيحبس لسانه عن الشكوى ، واعضاءه عن الحركات الغير المتعارفة . وهذا هو الصبر على المكروه ، وضده الجزع . ولـه اقسام اخر لها اسماء خاصة تعد فضائل اخر : كالصبر في الحرب ، وهو من انواع الشجاعة ، وضده الجبن . والصبر في كظم الغيظ ، وهــو الحلم ، وضده الغضب . والصبر على المشاق ، كالعبادة ، وضده الفسق ، اي الخروج عن العبادات الشرعية . والصبر على شهوة البطن والفرج من قبائح اللذات ، وهي العفة ، واليه اشير في قوله ـ سبحانه ـ :

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : باب ٩٢ . وعلى (البحار) : باب الصبر واليسر بعد العسر ، مج ١٥ : ٢ / ١٤٣ .

« وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ، فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ »(١) .

وضده الشره . والصبر عن فضول العيش ، وهو الزهد ، وضده الحرص . والصبر في كتمان السر ، وضده الاذاعة . والأولان ، كالصبر على المكروه من فضائل قوة الغضب . والرابع ، من نتائج المحبة والخشية . والبواقي ، من فضائل قوة الشهوة ـ كما يأتي ـ . وبذلك يظهر : أن من عد الصبر مطلقاً من فضائل القوة الشهوية أو القوة الغضبية إنما أراد به بعض أقسامه .

ويظهر من ذلك : أن أكثر أخلاق الايمان داخل في الصبر . ولذلك لما سئل رسول الله (ص) عن الايمان ، قال : « هو الصبر ، لأنه أكثر اعماله وأشرفها »، كما قال : « الحج عرفة ». وقد عرّف مطلق الصبر بأنه مقاومة النفس مع الهوى ، وبعبارة أخرى : أنه ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى . والمراد بباعث الدين هو العقل النظري الهادي الى طريق الخير والصلاح ، والعقل العملي المنفذ لأحكامه المؤدية الى الفوز والفلاح . والمراد بباعث الهوى هو قوة الشهوة الخارجة عن اطاعة العقل . والقتال دائما بين الباعثين قائم ، والحرب بينهما أبداً سجال (٢) ، وقلب العبد معركته ، ومدد باعث الدين من الملائكة الناظرين لحزب الله ، ومدد باعث الهوى من الشياطين الناصرين لأعداء الله ، فان ثبت باعث الدين بامداد الملائكة حتى قهر باعث الهوى واستمر على مخالفته ، غلب حزب الله والتحق بالصابرين ، وإن تخاول وضعف حتى غلب باعث الهوى بامداد الشياطين ولم يصبر على

(١) النازعات ، الآية : ٤٠ ـ ٤١ .

(٢) « الحرب بينهم سجال » : مثل مشهور ، أي تارة لهم وتارة عليهم .

دفعه ، التحق باتباع الشياطين . وعمدة ما يثبت به باعث الدين هي قوة المعرفة ، أي اليقين بكون الهوى عدوا قاطعاً لطريق الوصول الى الله مضادا لأسباب السعادات في الدنيا والاخرة . ثم باعث الدين اما يقهر داعي الهوى بالكلية ، بحيث لا تبقى له قوة المنازعة ، فيدوم الصبر ،وتستقر النفس في مقام الاطمئنان ، وتنادي من وراء سرادقات الجمال بخطاب : « يا أيتها النفس المطمئنة ! ارجعي الى ربك راضية مرضية » ، فتدخل في زمرة الصديقين السابقين ، وتنسلك في سلك عباده الصالحين . أو يغلب داعى الهوى وينقهر باعث الدين ، بحيث لا تبقى له قوة المنازعة ، وييأس عن المجاهدة والمقاومة ، فتسلم نفسه الشريفة الملكوتية التي هي سر الله ووديعته الى حزب الشيطان . ومثله مثل من أخذ اعز اولاده المتصف بجميع الكمالات ، ويسلمه الى الكفار من اعدائه ، فيقتلونه لديه ، ويحرقونه بين يديه ، بل هو أسوأ حالا منه بمراتب ـ كما لا يخفى ـ . إذ لا يكون لأحدهما الغلبة التامة ، بل يكون بينهما تنازع وتجاذب ، فتارة يغلب هذا ، وتارة يغلب ذاك ، فتكون النفس في مقام المجاهدة الى أن يغلب احد الباعثين ، فتدخل في حزب الله أو حزب الشيطان . ثم غلبة أحد الباعثين على الآخر إما أن تكون في جميع مقتضياته أو بعضها ، وتخرج من القسمين ثلاثة أحوال :

الأولى ـــ أن يغلب باعث الدين على جميع الشهوات في جميع الأوقات.

الثانية ـــ أن يغلب عليه الجميع في الجميع .

الثالثة ـــ أن يغلب على بعض دون بعض في الجميع ، أو يغلب عليها كلا أو بعضاً دون بعض .

وقد أشير الى أهل الحالة الأولى في الكتاب الالهي بقوله ـ تعالى ـ :

« يا أيتها النفس المطمئنة ... الى آخر الآية » (١).

والى الثانية بقوله : « ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (٢) . والى الثالثة بقولـه : « خلطوا عمـلاً صالحـاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهـم » (٣) .

فصـــل

(مراتب الصبر)

الصبر على المكروه ومشاق العبادات وعن ترك الشهوات إن كان بيسر وسهولة فهو الصبر حقيقة ، وإن كان بتكلف وتعب فهـــو التصبر مجازاً . واذا أدام التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى ، تيسر الصبر ولم يكن له تعب ومشقة ، كما قال الله ـ سبحانه ـ :

« فأما من أعـطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى » (٤) .

ومتى تيسر الصبر وصار ملكة راسخة أورث مقام الرضا ، واذا أدام مقام الرضا أورث مقام المحبة . وكما ان مقام المحبة أعلى من مقام الرضا ، فكذلك مقام الرضا أعلى من مقام الصبر . ولذلك قال رسول الله (ص) : « اعبد الله على الرضا ، فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » .

---

(١) الفجر ، الآية : ٢٧ ـ ٢٨ . (٣) التوبة ، الآية : ١٠٣ .

(٢) السجدة ، الآية : ١٣ . (٤) الليل ، الآية : ٥ ـ ٧ .

قال بعض العارفين : « أهل الصبر على ثلاث مقامات : الأول : ترك الشكوى ، وهذه درجة التائبين . الثاني : الرضا بالمقدر ، وهذه درجة الزاهدين . الثالث : المحبة لما يصنع به مولاه ، وهذه درجة الصديقين » . وكأن هذا الانقسام مخصوص بالصبر على المكروه من المصائب والمحن . ثم باعث الصبر إما اظهار الثبات وطمأنينة القلب عند الناس ، ليكون عندهم مرضياً ، كما نقل عن معاوية : أنه أظهر البشاشة ، وترك الشكوى في مرض موته ، وقال :

وتجلدي للشامتين أريهم　　اني لريب الدهر لا اتزعزع

وهذا صبر العوام ، وهم الذين يعملون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون . أو توقع الثواب ونيل الدرجات الرفيعة في دار الآخرة ، وهذا صبر الزهاد والمتقين ، واليه الاشارة بقوله ـ تعالى ـ :

« إِنَّما يُوَفَّى الصّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ » (١) .

أو الالتذاذ والابتهاج بورود المكروه من الله ـ سبحانه ـ . اذ كل ما يرد من المحبوب محبوب ، والمحب يشتاق الى التفات محبوبه ويرتاح به ، وان كان ما يؤذيه ابتلاء وامتحاناً له ، وهذا صبر العارفين ، واليه الاشارة بقوله ـ تعالى ـ :

« وَبَشِّرِ الصّابِرِينَ ، الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنّا لِلّهِ وَإِنّا إِلَيْهِ راجِعُونَ ، أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ » (٢) .

(١) الزمر ، الآية : ١٠ .　　(٢) البقرة ، الآية : ١٥٥ ـ ١٥٧ .

وقد ورد : ان الامام محمد بن علي الباقر ـ عليهما السلام ـ قال لجابر ابن عبد الله الأنصاري ـ وقد اكتنفته علل واسقام ، وغلبه ضعف الهرم ـ : « كيف تجد حالك ؟ » قال: أنا في حال الفقر أحب إليّ من الغنى، والمرض أحب اليّ من الصحة ، والموت أحب إلي من الحياة . فقال الامام (ع) : « أما نحن أهل البيت، فما يرد علينا من الله من الفقر والغنى والمرض والصحة والموت والحياة ، فهو أحب الينا » . فقام جابر ، وقبل بين عينيه ، وقال : صدق رسول الله (ص) حيث قال لي : « يا جابر ! ستدرك واحداً من اولادي اسمه اسمي ، يبقر العلوم بقرا » .

تذنيب

(أقسام الصبر)

الصبر باعتبار حكمه ينقسم الى الاقسام الخمسة ، فالصبر عن الشهوات المحرمة وعلى مشاق العبادات الواجبة فرض ، وعلى بعض المكاره وأداء المندوبات نفل ، وعلى الأذية التي يحرم تحملها حرام ، كالصبر على قطع يده ، أو يد ولده ، أو قصد حريمه بشهوة محظورة ، وعلى أذى تناله بجهة مكروهة في الشرع . وبذلك يظهر ان كل صبر ليس محموداً ، بل بعض أنواعه ممدوح وبعض انواعه مذموم ، والشرع محكم ، فما حسنه حسن ، وما قبحه قبيح .

فصـــل

(فضيلة الصبر)

الصبر منزل من منازل السالكين ، ومقـــام من مقامات الموحدين . وبه ينسلك العبد في سلك المقربين ، ويصل الى جوار رب العالمين . وقد أضاف الله أكثر الدرجات والخيرات اليه ، وذكره في نيف وسبعين موضعاً

من القرآن . ووصف الله الصابرين بأوصاف ، فقال ـ عز من قائل ـ :

« وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا »(١). وقال : « وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا »(٢) . وقال: « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »(٣) . وقال : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا »(٤) . فما من فضيلة إلا واجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولذا قال: « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب »(٥). ووعد الصابرين بأنه معهم ، فقال : « واصبروا إن الله مع الصابرين » (٦) . وعلق النصرة على الصبر ، فقال : « بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين »(٧).وجمع للصابرين الصلوات والرحمة والهدى.فقال: « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » (٨) .

(١) السجدة ، الآية : ٢٤ .
(٢) الأعراف ، الآية : ١٣٧ .
(٣) النحل ، الآية : ٩٦ .
(٤) القصص ، الآية : ٥٤ .
(٥) الزمر ، الآية : ١٠ .
(٦) الانفال ، الآية : ٤٦ .
(٧) آل عمران ، الآية : ١٢٥ .
(٨) البقرة ، الآية : ١٥٧ .

والآيات الواردة في مقام الصبر خارجة عن حد الاستقصاء ، والاخبار المادحة له أكثر من أن تحصى . قال رسول الله (ص) : « الصبر نصف الايمان » . وقال (ص) : « من أقل ما اوتيتم اليقين وعزيمته الصبر ، ومن اعطى حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار ، ولئن تصبروا على مثل ما انتم عليه احب الي من ان يوافيني كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكني أخاف أن يفتح عليكم الدنيا بعدي فينكر بعضكم بعضاً ، وينكركم اهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه»... ثم قرأ قوله ـ تعالى ـ :

((ما عِنْدَكُم يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللهِ باقٍ)) (١) .

وقال (ص) : « الصبر كنز من كنوز الجنة » . وقال (ص) : « أفضل الاعمال ماأكرهت عليه النفوس». ولا ريب في ان الصبر مما تكرهه النفوس، ولذا قيل : « الصبر صبر » . وقال (ص) : « في الصبر على تكرّه خير كثير » . وقال (ص) : « الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا جسد لمن لا رأس له ، ولا ايمان لمن لا صبر له ». وسئل (ص) عن الايمان ، فقال : « الصبر والسماحة » . وقال (ص) : « ما تجرع عبد قط جرعتين أحب الى الله من جرعة غيظ ردها بحلم وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ، ولا قطرت بقطرة أحب الى الله ـ تعالى ـ من قطرة دم اهريقت في سبيل الله وقطـرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله ، وما خطا عبد خطوتين احب الى الله ـ تعالى ـ من خطوة الى الصلاة الفريضة وخطوة الى صلة الرحم » . وروى : « أنه ـ تعالى ـ أوحى الى داود (ع) : يا داود ! تخلق باخلاقي ، وإن من اخلاقي اني انا الصبور » . وروى : « أن المسيح قال

(١) النحل ، الآية : ٩٦ .

للحواريين : إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون »(١). وقال (ص) : « ما من عبد مؤمن اصيب بمصيبة فقال ـ كما امره الله ـ: إنا لله وانا اليه راجعون ، اللهم اجرني في مصيبتي واعقبني خيراً منها ، إلا وفعل الله ذلك » . وقال (ص) : « قال الله ـ عز وجل ـ : اذا وجهت الى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه او ماله او ولده ، ثم استقبل ذلك بصبر جميل ، استحييت منه ان انصب له ميزاناً وانشر له ديواناً » (٢) . وقال (ص) : « الصبر ثلاثة : صبر عند المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية . فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ، ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين السماء الى الارض ، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ، ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين تخوم الارض الى العرش ، ومن صبر على المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ، ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين تخوم الارض الى منتهى العرش» . وقال (ص) : «سيأتي على الناس زمان لا ينال الملك فيه إلا بالقتل والتجبر ، ولا الغنى إلا بالغصب والبخل ، ولا المحبة إلا باستخراج الدين واتباع الهوى ، فمن ادرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى ، وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبة ، وصبر على الذل وهو يقدر على العز ، آتاه الله ثواب خمسين صديقاً ممن صدق بي » (٣) . وقال (ص) : « ان الله ـ تعالى ـ قال لجبرئيل : ماجزاء من سلبت كريمته ؟ فقال : سبحانك ! لا علم لنا الا ما علمتنا . قال : جزاؤه

(١) صححنا النبويات على (احياء العلوم) : ٥٣/٤ ، كتاب الصبر .

(٢) صححنا الرواية على (البحار) : مج ١٥ : ٢/ ١٤٨ ، باب الصبر واليسر بعد العسر .

(٣) صححنا الرواية ، وكذا ما قبلها ، على (اصول الكافي) : ج ٢ ، باب الصبر . وعلى (الوافي) : ٣٢١/٣ ـ ٣٢٣ ، باب الصبر .

الخلود في داري ، والنظر الى وجهي » . وقال (ص) لرجل قال له : ذهب مالى وسقم جسمي : « لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه ، ان الله اذا احب عبداً ابتلاه ، واذا ابتلاه صبره » . وقال (ص) . « إن الرجل ليكون له الدرجة عند الله ـ تعالى ـ لايبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك » . وقال (ص) : « اذا اراد الله بعبد خيراً ، واراد ان يصافيه ، صب عليه البلاء صباً وثجه عليه ثجا ، فاذا دعاه ، قالت الملائكة : صوت معروف ، واذا دعاه ثانياً ، فقال : يارب ! قال الله ـ تعالى ـ : لبيك عبدي وسعديك ! الا تسألني شيئاً إلا اعطيتك ، او رفعت لك ما هو خير ، وادخرت لك عندي ما هو افضل منه . فاذا كان يوم القيامة جيء بأهل الاعمال فوزنوا اعمالهم بالميزان، اهل الصلاة والصيام والصدقة والحج ، ثم يؤتى باهل البلاء ، فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان، يصب عليهم الأجر صباً كما كان يصب عليهم البلاء صبا ، فيود اهل العافية في الدنيا لو انهم كانت تقرض اجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به اهل البلاء من الثواب، فذلك قوله ـ تعالى ـ : إنما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب » . وقال(ص) : « إذا رأيتم الرجل يعطيه الله مايحب ،وهو مقيم على معصيته ، فاعلموا أن ذلك استدراج » ... ثم قرأ قوله ـ تعالى ـ :

« فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ » (١) .

يعني : لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخيرات ، حتى اذا فرحوا بما أوتوا ـ أي بما اعطوا من الخير ـ اخذناهم بغتة . وروى : « أن نبياً من الانبياء شكى الى ربه ، فقال : يا رب ، العبد المؤمن يعطيك

(١) الانعام ، الآية : ٤٤ .

ويجتنب معاصيك تزوى عنه الدنيا وتعرضه للبلاء ، ويكون العبد الكافر لا يعطيك ويجترى على معاصيك تزوى عنه البلاء وتبسط له الدنيا ! فاوحى الله ـ تعالى ـ اليه : ان العباد لي والبلاء لي، وكل يسبح بحمدي. فيكون المؤمن عليه من الذنوب ، فازوى عنه الدنيا واعرض له البلاء ، فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقاني ، فاجزيه بحسناته، ويكون الكافر له من الحسنات فابسط له في الرزق وازوى عنه البلاء، فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقاني فأجزيه بسيئاته » (١) . وعن أبي عبد الله (ع) قال : « قال رسول الله (ص) : قال الله ـ عز وجل ـ : اني جعلت الدنيا بين عبادي قرضا ، فمن اقرضني منها قرضاً اعطيته بكل واحدة منهن عشراً الى سبعمائة ضعف وما شئت من ذلك ، ومن لم يقرضني منها قرضاً فاخذت منه شيئاً قسراً ، اعطيته ثلاث خصال لو اعطيت واحدة منهن ملائكتي لرضوا بها مني . قال : ثم تلا ابو عبد الله (ع) قوله ـ عز وجل ـ (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم) ، فهذه واحدة من ثلاث خصال ،(ورحمة) اثنتان، (واولئك هم المهتدون) ثلاث. ثم قال ابو عبد الله (ع) : هذا لمن أخذ الله منه شيئاً قسراً » . وقال أمير المؤمنين (ع) : « بني الايمان على اربع دعائم : اليقين، والصبر، والجهاد، والعدل». وقال أمير المؤمنين (ع) « الصبر صبران : صبر عند المصيبة حسن جميل ، وأحسن من ذلك الصبر عندما حرم الله ـ عز وجل ـ عليك » . وقال علي (ع) : « الصبر وحسن الخلق والبر والحلم من أخلاق الانبياء » . وقال أمير المؤمنين (ع) : « أيما رجل حبسه السلطان ظلماً فمات ، فهو شهيد ، وان ضربه فمات ، فهو

---

(١) صححنا الاحاديث الاربع على (احياء العلوم) : ٤/ ١١٤ ، باب الصبر.

شهيد » (١) . وقال أمير المؤمنين (ع) : « من اجلال الله ومعرفة حقه ألا تشكو وجعك ، ولا تذكر مصيبتك » . وقال امير المؤمنين (ع) : « ألا أخبركم بأرجى آية في كتاب الله ؟ قالوا : بلى ! فقرأ عليهم :

"وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ" (٢) .

فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار ، فاذا عافاه الله في الدنيا فالله أكرم من ان يعذبه ثانياً ، وان عفى عنه في الدنيا فالله اكرم من ان يعذبه يوم القيامة » . وقال الباقر (ع) : « الجنة محفوفة بالمكاره والصبر ، فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة . وجهنم محفوفة باللذات والشهوات ، فمن اعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار » . وقال (ع) : « مروة الصبر في حال الفاقة والحاجة والتعفف والغنى اكثر من مروة الاعطاء » (٣) . وقال (ع) : « لما حضرت ابي علي بن الحسين ـ عليهما السلام ـ الوفاة ، ضمني الى صدره ، ثم قال : يا بني ! أوصيك بما اوصاني به ابي حين حضرته الوفاة ، وبما ذكر ان اباه اوصاه به ، قال : يا بني! اصبر على الحق وان كان مراً » . وقال الصادق (ع) : « اذا دخل المؤمن قبره ، كانت الصلاة عن يمينه والزكاة عن يساره ، والبر مطل عليه ، ويتنحى الصبر ناحيته . فاذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته ، قال الصبر للصلاة والزكاة والبر :

---

(١) صححنا الروايات الثلاث على (اصول الكافي) : ج٢ ، باب الصبر. وعلى (الوافي) : ٣/ ٣٢١ ـ ٣٢٣ ، باب الصبر .

(٢) الشورى ، الاية : ٣٠ .

(٣) قال العلامة (المجلسي) ـ قدس سره ـ في (بحار الانوار) : مج ١٥ ج ٢ ، في باب الصبر على المصيبة ، في ذيل هذا الخبر : « بيان المروة : هي الصفات التي بها تكمل انسانية الانسان » .

دونكم صاحبكم،فان عجزتم عنه فانا دونه ». وقال (ع):« إذا كان يوم القيامة، يقوم عنق من الناس ، فيأتون باب الجنة ، فيضربونه ، فيقال لهم : من انتم ؟ فيقولون : نحن اهل الصبر ، فيقال لهم: على ما صبرتم ؟ فيقولون: كنا نصبر على طاعة الله ونصبر عن معاصي الله ، فيقول الله - تعالى - : صدقوا ! ادخلوهم الجنة . وهو قول الله - تعالى - : إنما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب » . وقال (ع) : « من ابتلى من المؤمنين ببلاء فصبر عليه ، كان له مثل اجر الف شهيد » . وقال (ع) : « إن الله - عز وجل - انعم على قوم فلم يشكروا ، فصارت عليهم وبالا ، وابتلى قوما بالمصائب فصبروا ، فصارت عليهم نعمة». وقال (ع) : « من لا يعد الصبر لنوائب الدهر يعجز ». وقال(ع): « إن من صبر صبر قليلا، وإن من جزع جزع قليلا... ثم قال: عليك بالصبر في جميع امورك ، فان الله - عز وجل - بعث محمداً (ص) فأمره بالصبر والرفق ، فقال :

« وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً » (١) » .

وقال ابو الحسن (ع) لبعض اصحابه : « ان تصبر تغتبط ، والا تصبر ينفذ الله مقاديره ، راضيا كنت ام كارها » (٢) . والاخبار في فضيلة الصبر على البلاء وعظم ثوابه واجره اكثر من ان تحصى . ولذلك كان الاتقياء والاكابر محبين طالبين له ، حتى نقل : « ان واحداً منهم دخل على ابن مريض له ، فقال : يا بني ! لئن تكن في ميزاني احب إلي من ان اكون في ميزانك .

(١) المزمل ، الاية : ١٠ .

(٢) صححنا الاحاديث الواردة عن اهل البيت - عليهم السلام - في باب الصبر ، على الجزء الثاني من(اصول الكافي) باب الصبر ، وعلى (الوافي) : ٣/٢٢١ - ٢٢٣ ، كتاب الصبر .

فقال : يا أبه ! لئن يكن ماتحب أحب الى من أن يكون ما احب » . وقال بعضهم ! « ذهبت عيني منذ ثلاثين سنة ، ما علم به أحد » .

فصل

(الصبر على السراء)

كل ما يلقى العبد في الدنيا ، وما يوافق هواه ، أو لا يوافقه ، بل يكرهه ، وهو في كل منهما محتاج الى الصبر . اذ ما يوافق هواه ، كالصحة الجسمية ، واتساع الاسباب الدنيوية ، ونيل الجاه والمال ، وكثرة الأولاد والاتباع ، لو لم يصبر عليه ، ولم يضبط نفسه عن الانهماك فيه والاغترار به ، أدركه الطغيان والبطر . (فان الانسان ليطغى ان رآه استغنى) . وقال بعض الأكابر : « البلاء يصبر عليه المؤمن ، والعوافي لا يصبر عليها الا الصديق » . وقال بعض العرفاء : « الصبر على العافية اشد من الصبر على البلاء» . ولذا لما توسعت الدنيا على الصحابة وزال عنهم ضيق المعاش ، قالوا : « ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وابتلينا بفتنة السراء فلا نقدر على الصبر عليها » . ومن هنا قال الله ـ سبحانه ـ :

« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ » (١) . وقال : « إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ » (٢) .

ومعنى الصبر على متاع الدنيا : ألا يركن اليه ، ويعلم أنه مستودع عنده ، وعن قريب يسترجع عنه ، فلا ينهمك في التنعم والتلذذ ، ولا يتفاخر

(١) المنافقون ، الآية : ٩ . (٢) التغابن ، الآية : ١٤ .

به على فاقده من اخوانه المؤمنين ، ويرعى حقوق الله في ماله بالانفاق ، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفي منصبه باعانة المظلومين، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه .

والسر في كون الصبر عليها اشد من الصبر على البلاء : انه ليس مجبوراً على ترك ملاذ الدنيا ، بل له القدرة والتمكن على التمتع بها ، بخلاف البلاء، فانه مجبور عليه ، ولا يقدر على دفعه ، فالصبر عليه أسهل . ولذا ترى أن الجائع إذا لم يقدر على الطعام أقدر على الصبر منه إذا قدر عليه .

وأما ما لا يوافق هواه وطبعه ، فله ثلاثة اقسام :

الأول — ما يكون مقدوراً للعبد ، كالطاعات والمعاصي . أما الطاعة ، فالصبر عليها شديد ، لأن النفس بطبعها تنفر عنها ،وتشتهي التقهر والربوبية، كما يأتي وجهه. ومع ذلك يثقل عليها بعض العبادات باعتبار الكسل،وبعضها باعتبار البخل ، وبعضها باعتبارهما، كالحج والجهاد،فلا تخلو طاعة من اعتبار يشق على النفس ان تصبر عليه ، ومع ذلك يحتاج المطيع فيها الى الصبر في حالات ثلاثة تتضاعف لأجلها الصعوبة ، إذ يحتاج اليها قبل العمل في تصحيح النية والاخلاص ، وتطهيرها عن شوائب الرياء ، وفي حالة العمل لئلا يغفل عن الله في اثنائه، ولا يخل بشيء من وظائفه وآدابه ، ويستمر على ذلك الى الفراغ وبعد الفراغ عنه،لئلا يتطرق اليه العجب،ولا يظهر رياءوسمعة. والنهي عن ابطال العمل وعن ابطال الصدقات بالمن والاذى امر بهذا القسم من الصبر . وأما المعاصي ، فلكون جميعها مما تشتهيها النفس ، فصبرها عليها شديد ، وعلى المألوفة المعتادة اشد ، إذ العادة كالطبيعة الخامسة ، ولذا ترى أن كل معصية شاعت وتكررت ثقل استنكارها ، فان الاستبعاد فى مثل لبس الحرير اكثر من الاستبعاد في اطلاق اللسان طول النهار في اعراض الناس ، مع ان الغيبة أشد من الزنا ، كما نطقت به الاخبار . فاذا انضافت

العادة الى الشهوة،ظهر جندان من جنود الشيطان على جند الله، فيصعب تركها.

ثم المعصية ان كانت مما يسهل فعلها ، كان الصبر عنها اشد ، كمعاصي اللسان من الغيبة والكذب ، ولو كانت مع ذلك مشتملة على تمام ماتقتضيه جبلة النفس من الاستعلاء والربوبية ، كالكلمات التي توجب نفي الغير والقدح فيه ، والثناء على ذاتها تصريحاً أو تعريضاً ، كان الصبر عنها اشد . اذ مثل ذلك - مع كونها مما تيسر فعله وصار مألوفاً معتاداً - انضافت اليه شهوتان للنفس فيه : احداهما نفي الكمال من غيرها، واخراهما اثباته لذاتها. وميل النفس الى مثل تلك المعصية في غاية الكمال ، إذ به يتم ما تقتضيه جبلتها من التفوق والعلو ، فصبرها عنها في غاية الصعوبة . وقد ظهر مما ذكر : أن اكثر ما شاع وذاع من المعاصي إنما يصدر من اللسان. فينبغي لكل أحد ان يجتهد في حفظ لسانه بتقديم التروي على كلام يريد أن يتكلم به ، فان لم يكن معصية تكلم به ، وإلا تركه ، ولو لم يقدر على ذلك ، وكان لسانه خارجاً عن اطاعته في المحاورات، وجبت عليه العزلة والانفراد وتركه التكلم مع الناس ، حتى تحصل له ملكة الاقدار على حفظه ، ثم صعوبة الصبر وسهولته لما كانت تختلف في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعاصي قوة وضعفاً، فينبغي لكل طالب السعادة أن يعلم ان داعية نفسه الى اي معصية اشد ، فيكون سعيه في تركها اكثر . ثم حركة الخواطر باختلاج الوساوس ايسر بكثير من حركة اللسان بقبائح الكلمات ، فلا يمكن الصبر عنها اصلا ، إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه ، كمن اصبح وهمومه هم واحد . واكثر جولان الخاطر إنما يكون في فائت لا تدارك له ، او في مستقبل لا بد وان يحصل منه ما هو مقدور . وكيف كان فهو تصور باطل ، وتضييع وقت . إذ آلة استكمال

العبد قلبه ، فاذا غفل القلب في لحظة من ذكر يستفيد به انساً بالله ، او فكر يستفيد به معرفة بالله ، ويستفيد بالمعرفة حب الله ، فهو مغبون .

الثاني — ماليس حصوله مقدوراً للعبد ، ولكنه يقدر على دفعه بالتشفي ، كما لو اوذى بفعل او قول ، او جنى عليه في نفسه او ماله ، فان حصول الاذية والجناية وان لم يرتبط باختياره، إلا انه يقدر على التشفي من المؤذي او الجاني بالانتقام منه ، والصبر على ذلك بترك المكافات . وهو قد يكون واجباً ، وقد يكون فضيلة ، وهو اعلى مراتب الصبر . ولاجل ذلك خاطب الله نبيه (ص) بقوله :

« وَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ »(١). وبقوله : « فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً »(٢). وبقوله : « وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ »(٣). وقال : « وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » (٤). وقال: « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ »(٥).

---

(١) الاحقاف ، الآية : ٣٥ .
(٢) المزمل ، الآية : ١٠ .
(٣) الأحزاب ، الآية : ٤٨ .
(٤) آل عمران، الآية :١٨٦ .
(٥) النحل ، الآية : ١٢٦ .

وقال رسول الله (ص) : « صل من قطعك ، واعط من حرمك ، واعف عمن ظلمك » . وروى : « أنه (ص) قسم مرة مالا ، فقال بعض الاعراب من المسلمين : هذه قسمة ما اريد بها وجه الله ! فاخبر به رسول الله ، فاحمرت وجنتاه ، ثم قال : رحم الله أخي موسى ، قد اوذي باكثر من هذا فصبر » .

الثالث — ما ليس مقدوراً للعبد مطلقاً ، كالمصائب والنوائب . والصبر عليه شديد في غاية الصعوبة ، ولا ينال إلا ببضاعة الصديقين ، والوصول اليه يتوقف على اليقين التام . ولذا قال النبي (ص) : « أسألك من اليقين ما يهون علي مصائب الدنيا » . وقد تقدم بعض الاخبار الواردة في فضيلة هذا القسم من الصبر . وقال (ص) : « قال الله : اذا ابتليت عبدي ببلائي فصبر ، ولم يشكني الى عواده ، أبدلته لحماً خيراً من لحمه ، ودماً خيراً من دمه ، فان ابرأته ابرأته ولا ذنب له ، وان توفيته فالى رحمتي » . وقال (ص) : « من اجلال الله ومعرفة حقه ، ألا تشكو وجعك ، ولا تذكر مصيبتك » . وقال (ص) : « من ابتلى فصبر ، واعطى فشكر ، وظُلم فغفر ، أولئك لهم الامن وهم مهتدون » . وقال (ص) : « إن الله - تعالى - قال لجبرئيل : ما جزاء من سلبت كريمته ؟ فقال : سبحانك ! لا علم لنا إلا ما علمتنا . قال : جزاؤه الخلود في داري ، والنظر الى وجهي » . وقال داود (ع) : « يا رب ! ما جزاء الحزين يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك؟ قال : جزاؤه أن ألبسه لباس الأمان ، لا انزعه عنه ابداً » . وقال لابنه سليمان - عليهما السلام - : « يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر في ما قد فات » . وروي : « أن من ابتلي بموت ثلاثة أولاد ، لم يرد على النار اصلا » .

تذنيب

(اختلاف مراتب الصبر في الثواب)

لما كان الصبر على العافية بمعنى ترك الشهوات المحرمة وعدم الانهماك فيها، فهو راجع الى الصبر عن المعصية . وعلى هذا ، فاقسام الصبر ثلاثة : الصبر على المصائب والنوائب ، والصبر على الطاعة ، والصبر عن المعصية . ثم ما تقدم من الخبر النبوي صريح في كون الاول اقل ثواباً ، والآخر أكثر ثواباً ، والوسط وسطاً بينهما . وربما ظهر من بعض الاخبار : كون الأول أكثر ثواباً . وابو حامد الغزالي رجح الأول اولا ، وبه صرح بعض المتأخرين من اصحابنا للخبر النبوي ، ثم رجح الثاني ثانياً محتجاً بما روى عن ابن عباس أنه قال : « الصبر في القرآن على ثلاثة اوجه ، صبر على أداء فرائض الله - تعالى - فله ثلاثمائة درجة ، وصبر عن محارم الله - تعالى - وله ستمائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الاولى ، فله تسعمائة درجة » . وبأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم ، وأما الصبر على بلاء الله فلا يقدر عليه الا ببضاعة الصديقين ، لكونه شديداً على النفس .

وعندي : ان القول بكون احدهما أكثر ثواباً على الاطلاق غير صحيح ، إذ القول بأن الصبر عن كلمة كذب او لبس ثوب من الحرير لحظة اكثر ثواباً من الصبر على موت كثير من أعز الاولاد بعيد ، وكذا القول بأن الصبر على فقد درهم اكثر ثواباً من كف النفس عن كبائر المعاصي وفطامها عن ألذ اللذات والشهوات مع القدرة عليها أبعد ، فالصواب : التفصيل بأن كل صبر من اي قسم كان من الثلاثة إذا كان على النفس أشد واشق فثوابه اكثر مما كان اسهل وأيسر ، كائناً ما كان ، لما ثبت وتقرر أن أفضل الاعمال احمزها ، وبه يحصل الجمع والتلاؤم بين الأخبار .

فصل

(طريق تحصيل الصبر)

الطريق الى تحصيل الصبر : تقوية باعث الدين ، وتضعيف باعث الهوى .
والاول : انما يكون بأمور :

الاول — أن يكثر فكرته فيما ورد من فضل الصبر وحسن عواقبه في الدنيا والآخرة ، وأن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات ، وانه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة ، إذ فاته ما لايبقى معه إلا مدة الحياة في الدنيا ، وحصل له مايبقى بعد موته أبد الدهر ، فيجازى على المدة القصيرة الفانية بالمدة الطويلة الخالدة ، وعلى الغاية القريبة الزائلة بالغاية المديدة الباقية . ومن أسلم خسيسا في نفيس ، فلا ينبغي أن يحزن بفوات الخسيس في الحال .

الثاني — أن يتذكر قلة قدر الشدة الدنيوية ووقتها ، واستخلاصه عنها عن قريب ، مع بقاء الاجر على الصبر عليها .

الثالث — أن يعلم أن الجزع قبيح مضر بالدين والدنيا ، ولا يفيد ثمرة إلا حبط الثواب وجلب العقاب ، كما قال أمير المؤمنين (ع) : « ان صبرت جرت عليك المقادير وانت مأجور ، وان جزعت جرت عليك المقادير وأنت مازور » .

الرابع — أن يعوّد مصارعة هذا الباعث باعث الهوى تدريجا ، حتى يدرك لذة الظفر بها ، فيتجرى عليها ، ويقوى متنه في مصارعتها . فان الاعتماد والممارسة للاعمال الشاقة يؤكد القوى التي تصدر منها تلك الاعمال . ولذا تزيد قوة الممارسين للاعمال الشاقة ـ كالحمالين والفلاحين ـ على قوة التاركين لها . فمن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما شاء وأراد .

واما الثاني : أعني تضعيف الهوى ، انما يكون بالمجاهدة والرياضة ،

من الصوم والجوع وقطع الاسباب المهيجة للشهوة من النظر الى مظانها وتخيلها ، وبالتسلية بالمباح من الجنس الذي يشتهيه بشرط الا يخرج عن القدر المشروع .

تتميم

إن قيل : الصبر في المصائب إن كان المراد به الا تكون فى نفسه كراهة المعصية فذلك غير داخل تحت الاختيار ، إذ الانسان مضطر الى الكراهة ، فبماذا ينال درجة الصبر في المصائب ؟

قلت : من كان عارفا بالله وبأسرار حكمته وقضائه وقدره ، بأن يعلم يقينا بأن كل امر صدر من الله وابتلى به عباده من ضيق اوسعة ، وكل امر مرهوب او مرغوب على وفق الحكمة والمصلحة بالذات ، وما عرض من ذلك عما يعد شراً فأمر عرضي لا يمكن نزع الخير المقصود منه ، وان ذلك اذا كان متيقنا له ، استعدت نفسه للصبر ومقاومة الهوى في الغم والحزن ، وطابت بقضائه وقدره ، وتوسع صدره بمواقع حكمه ، وايقن بأن قضاءه لم يجر إلا بالخيرة . وقد أشار الى ذلك امير المؤمنين (ع) بقوله: « اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين ». ومن بلغ بهذه الدرجة ، يتلذذ بكل ما يرد عليه . ومثله يتمتع بثروة لا تنفد ، ويتأيد بعز لا يفقد ، فيسرح في ملك الابد ، ويعرج الى فضاء السرمد . هذا مع ان العبد إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع ، وشق الجيوب ، وضرب الخدود ، والمبالغة في الشكوى ، واظهار الكآبة ، وتغيير العادة في الملبس والمطعم ونحوها ، وهذه الامور داخلة تحت اختياره ، فينبغي ان يجتنب عنها ، ويظهر الرضا بالقضاء ، ويبقى مستمراً على عادته ، ويعتقد ان ذلك

كان وديعة فاسترجعت، ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب وجريان الدمع ، لان ذلك مقتضى البشرية . ولذلك لما مات ابراهيم ولد النبي(ص) فاضت عيناه بالدمع ، فقيل له : اما نهيتنا عن هذا ؟ قال . « هذه رحمة ، انما يرحم‌الله من عباده الرحماء ». وقال ايضا(ص): « العين تدمع والقلب يحزن ، ولا يقول ما يسخط الرب » . بل ذلك لا يخرج عن مقام الرضا أيضاً ، فان المقدم على الفصد والحجامة راض به ، مع أنه متألم بسببه لا محالة . نعم ، من كمال الصبر كتمان المصائب ، لما ورد من أن كتمان المصائب والاوجاع والصدقة من كنوز البر . وقد ورد المدح في كثير من الأخبار على عدم الشكاية من الامراض والمصائب . وقال الباقر (ع) : « الصبر الجميل ، صبر ليس فيه شكوى الى الناس » . وفي بعض الأخبار : « أن الشكاية أن تقول : ابتليت بما لم يبتل به احد ، واصابني ما لم يصب أحداً ، وليس الشكوى أن تقول: سهرت البارحة ، وحميت اليوم ، ونحو ذلك » . وقال الصادق (ع) : « من اشتكى ليلة ، فقبلها بقبولها ، وأدى الى الله شكرها، كانت كعبادة ستين سنة ». قيل له : ما قبولها ؟ قال : « يصبر عليها ولا يخبر بما كان فيها ، فاذا أصبح حمد الله على ما كان » .

تتميم

(التلازم بين الصبر والشكر)

اعلم انه اختلف في أفضلية كل من الصبر والشكر على الآخر ، فرجح كلا منهما على الآخر طائفة . والظاهر أنه لا ترجيح لأحدهما على الآخر ، لأنهما متلازمان لا ينفك احدهما عن الآخر . اذ الصبر على الطاعة وعلى المعصية هو عين الشكر ، لكون أداء الطاعة وترك المعصية شكراً ، كما مر في باب الشكر . والصبر على الشدائد والمصائب يستلزم الشكر ، لما مر من

أن الشدائد والمصائب الدنيوية تتضمن نعماً، فالصبر على هذه الشدائد يستلزم الشكر على تلك النعم ، ولأن الصبر على المصائب هو حبس النفس عن الجزع تعظيماً لله ـ سبحانه ـ . وهذا هو الشكر بعينه، لانه تعظيم لله يمنع عن العصيان ، والشاكر يمنع نفسه عن الكفران مع ميل النفس اليه ، وهذا هو عين الصبر عن المعصية . وأيضاً ، توفيق الصبر والعصمة من الجزع نعمة يشكر عليها الصابر ، فكل صبر يستلزم الشكر ، وبالعكس .

وبالجملة : لا ريب في استلزام كل من الصبر والشكر للاخر ، فان اجتماعهما في الطاعة وترك المعصية ، بل اتحادهما فيهما، امر ظاهر، كما تقدم. وفي البلاء المقيد الدنيوي ، اذا حصل فيه الصبر ، فلا ريب في عدم انفكاكه عن تصور النعم اللازمة له ، من الثواب الاخروى ، وحصول الانزعاج عن الدنيا والرغبة الى الآخرة ، فيشكر على ذلك . فهو لا ينفك عن الشكر ، لانه يعرف هذه النعم من الله ، كما يعرف البلاء أيضاً من الله، فيفرح بالنعم ، ويعمل بمقتضى فرحه من التحميد وغيره . وفي النعمة المقيدة ، مثل المال ، إذا توسل به الى تحصيل الدين ، فلا ريب في أنه كما تحقق فيه الكر تحقق فيه الصبر أيضاً . إذ في انفاق المال وبذله في تحصيل الدين حبس النفس عما تحبه وتميل اليه ، وثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى. وفي البلاء المطلق ، كالكفر والجهل ، لا معنى لتحقق الشكر أو الصبر فيه ، وفي النعمة المطلقة ، كسعادة الآخرة والعلم وحسن الاخلاق، كما يتحقق فيها الشكر يتحقق فيها الصبر ايضاً . إذ تحصيل السعادة ، والعلم ، والاخلاق الفاضلة ، والابقاء عليها ، لا ينفك عن مقاومته مع الهوى ومنع النفس عما تميل اليه . مع ان الشكر عليهما يستلزم منع النفس عن الكفران ، وهو الصبر على المعصية . حتى أن شكر العينين بالنظر الى عجائب صنع الله يستلزم

الصبر عن الغفلة والنوم ، والنظر الى ما تميل اليه النفس من النظر الى غير المحارم وأمثال ذلك .

فان قيل : استلزام كل من الصبر والشكر للاخر مما لا ريب فيه ، إلا أن الكلام في أنه إذا لم يتحقق الاتحاد بينهما في فعل ، كما في فعل الطاعة وترك المعصية لكونهما متحدين فيهما ، بل تحقق الاستلزام الموجب لتحقق جهتين ، فأي الجهتين أفضل ؟ مثل أن يبتلى أحد بمصيبة دنيوية ، فصبر عليها ، بمعنى أنه عرف أنها من الله وحبس نفسه عن الجزع والاضطراب ، وشكر عليها أيضاً ، بمعنى أنه عرف أن النعم اللازمة لها من الثواب الأخروى وغيرها من الله ، وفرح بها ، وعمل بمقتضى فرحه من التحميد أو طاعة اخرى ، فهل الأفضل حينئذ جهة الصبر ، أو جهة الشكر ؟

قلنا : التأمل يعطى : أن كل صبر هو شكر بعينه ، وبالعكس . فلا تتحقق بينهما جهتان مختلفتان حتى يتصور الترجيح بينهما . فان الصبر على البلاء إنما هو حبس النفس عن الجزع تعظيماً لله ، وهذا هو الشكر ، إذ كل طاعة لله ـ سبحانه ـ شكر ، وفي الشكر على النعم المطلقة منع النفس عن الكفران ، وهو عين الصبر عن المعصية .

فان قلت : فعلى هذا ، يجتمع الصبر والشكر في محل واحد بجهة واحدة ، وقد تقدم انهما متضادان ، اذ الصبر يستدعي ألما ، والشكر يستدعى فرحا ، وقد ذكرت ان اجتماع الصبر والشكر في محل واحد انما يكون من جهتين متغايرتين لا من جهة واحدة .

قلنا : امتناع الاتحاد فيهما انما هو في الصبر والشكر على ما هو كان نعمة وبلاء بعينه ، فانه لا يمكن ان يكون الصبر على فوت ولد ـ اعني حبس النفس عن الجزع ـ هو عين الشكر على النعمة ، اذ موت الولد بعينه ليس

نعمة ، بل هو مستلزم للنعمة . فالشكر على اللازم ، والصبر على الملزوم ، فاختلفت جهتا الصبر والشكر ، فلا اتحاد . وما ذكرناه من الاتحاد انماهو الشكر والصبر على النعمة وترك المعصية ، او على البلاء والطاعة . وندعي أن من وصلت اليه نعمة ، فشكر عليها بعرفانها من الله ، ففرح بها ، وعمل بمقتضى الفرح ، من التحميد او طاعة اخرى ، كان هذا الشكر عين الصبر عن معصية هي الكفران ، او على الطاعة التي هي التحميد وغيره . كذا من ابتلى ببلية ، فصبر عليها بحبس نفسه عن الجزع ، فهذا الصبر عين الشكر بأداء الطاعة التي هي تعظيم الله بكف النفس عن الجزع ، او عن المعصية التي هي الجزع والاضطراب . وهذا الاتحاد والعينية يطرد في كل صبر وشكر ، ولا يتحقق شكر لا يكون عن الصبر من هذا الوجه ، وبالعكس. وليس بينهما تضاد وتغاير اصلا ، والاستلزام واختلاف الجهة انما هو في الصبر على البلاء والشكر على ما يستلزمه من النعم ، ولا يمكن هنا اتحادهما لتضادهما . وفي هذه الصورة ، يكون كل من الصبر والشكر المتميزين عن الأخر باختلاف الجهة عين الآخر ، من حيث ملاحظة الاعتبار السابق ،فلا يمكن الترجيح في هذه الصورة مع اختلاف الجهة ايضا.

فان قيل : عرفان النعم من الله داخل في حقيقة الشكر ، وليس داخلا في الصبر ، فينبغي ان يكون الشكر لذلك افضل من الصبر .

قلنا : في الشق الأول من صورة العينية والاتحاد ، يكون عرفان النعمة داخلا في الصبر ، وفي الشق الثاني منهما ، وفي صورة الاستلزام ، يدخل عرفان البلاء من الله في الصبر . فكما ان الشاكر يرى نعمة العينين من الله ، فكذا الصابر يرى العمى من الله ، فهما في المعرفة متساويان ، ثم جميع ما ذكر في الفرق بين الصبر والشكر إنما إذا كانت حقيقة الصبر حبس النفس

عن الشكوى في البلاء مع الكراهة والتألم (١)، وعلى هذا يكون الرضا فوقه، لو قطع النظر عن كون الصبر شكراً أيضاً ، ويكون الشكر فوق الرضا ، إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح ، والشكر لا يمكن إلا على محبوب يفرح به ، ولو لم يعتبر في مفهوم الصبر الكراهة والتألم ، لصار الرضا والشكر في بعض درجاته ، إذ يمكن أن يصل حال العبد في الحب مرتبة لا يتألم من البلاء أو يفرح به ، لأنه يراه من محبوبه . وحينئذ ، فترك الشكوى في البلاء مع الكراهة صبر ، وبدونها رضا ، ومع الفرح به شكر .

تنبيه

(القانون الكلي في معرفة الفضائل)

اعلم أن المعيار والقانون الكلي في معرفة فضائل الاعمال والأحوال وترجيح بعضها على بعض عند ارباب القلوب : أن العمل كلما كان اكثر تأثيراً في اصلاح القلب وتصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا ، وأشد اعداداً له لمعرفة الله وانكشاف جلاله في ذاته وصفاته وافعاله ، كان أفضل . وعلى هذا القانون، لولا الاتحاد والعينية والتلازم بينهما، لكان اللازم أن يوازن بين كل درجة درجة من درجات الصبر والشكر وترجيح احدهما ، إذ لكل منهما درجات مختلفة في تنوير القلب وتصفيته ، وسبب الاختلاف اسباب :

منها — الاختلاف بين أقسام النعم واقسام البلاء .

ومنها — اختلاف مراتب المعرفة والفرح المأخوذين في الشكر ،

(١) قال استاذ البشر المحقق (الطوسي) - قدس سره - في تعريف الصبر : « الصبر: حبس النفس عن الجزع عند المكروه، وهو يمنع الباطن عن الاضطراب، واللسان عن الشكاية ، والاعضاء عن الحركات غير المعتادة ... » .

واختلاف الطاعة التي تدخل في كل منهما صعوبة وسهولة . فربما كان بعض درجات الصبر اشد تنويراً واكثر اصلاحاً للقلب من بعض درجات الشكر ، وربما كان الأمر بعكس ذلك في بعض آخر من درجاتهما . فان الأعمال والأحوال المندرجة تحت كل منهما كثيرة ، وباختلافها ـ كثرة وقلة ـ تختلف درجاتهما . فمن الأمور والاحوال التي تندرج تحت الشكر : حياء العبد من تتابع نعم الله عليه ، ومعرفته بتقصيره عن الشكر ، واعتذاره من قلة الشكر ، واعترافه بأن النعم ابتداء من الله ـ تعالى ـ من غير استحقاقه لها ، وعلمه بأن الشكر ايضاً نعمة من نعمه ومواهبه ، وحسن تواضعه بالنعم، والتذلل . وقلة اعتراضه ، وحسن ادبه بين يدي المنعم ، وتلقي النعم بحسن القبول ، واستعظام صغيرها ، وشكر الوسائط ، لقوله (ص) : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله ». وقال السجاد (ع) : « اشكركم لله اشكركم للناس». وقال (ع) : «يقول الله ـ تعالى ـ لعبد من عبيده يوم القيامة : اشكرت فلانا ؟ فيقول : بل شكرتك يارب ! فيقول : لم تشكرني اذ لم تشكره » . وقال الصادق (ع) : « اشكر من انعم عليك ، وانعم على من شكرك » . ولا ريب في أنه كلما ازدادت هذه الاحوال في الشكر ، وطال زمانه ، ازداد فضله . وقد نقل : « ان رجلا (كان) يهوى ابنة عم له ، وهي ايضاً تهواه ، فاتفق مزاوجتهما ، فقال الرجل ليلة الزفاف لها : تعالى حتى نحيي هذه الليلة شكرا لله على ما جمعنا ، فقالت : نعم ! فصليا تلك الليلة بأسرها ، ولم يتفرغ أحدهما الى صاحبه . فلما كانت الليلة الثانية، قالا مثل ذلك، فصليا طول الليل... فهكذا يفعلان في ثمانين سنة ، وبقيا على تلك الحالة في ثمانين سنة في كل ليلة ، من دون رجوع لأحدهما الى الآخر ، ومن دون اتفاق مضاجعة بينهما ، فضلا عن شيء آخر » . ولا يخفى أن هذا الشكر أفضل بمراتب من

صبرهما على بلاء العزوبة ، لو لم يحصل بينهما الجمع والوصل .

تتميم

(تفضيل الصبر على الشكر)

اعلم أن الظاهر من بعض الاخبار : ان الصبر أفضل واكثر ثواباً من الشكر . كما روى : « انه يؤتى يوم القيامة بأشكر اهل الارض، فيجزيه الله جزاء الشاكرين . ويؤتى بأصبر اهل الأرض ، فيقال له : اترضى ان نجزيك كما جزينا هذا الشاكر ؟ فيقول : نعم يا رب ! فيقول الله ـ تعالى ـ : كلا ! أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت ، لا ضعفن عليك الأجر عليه ! فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين » . وكقوله (ع) : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » . وهذا يدل على أفضلية الصبر من الشكر، لان المشبه به أعلى رتبة من المشبه . وكقول الباقر (ع) : «مروة الصبر في حال الحاجة والفاقة والتعفف والغنى ، اكثر من مروة الاعطاء » . ويؤيد ذلك قوله ـ تعالى ـ : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) . وينبغي أن يرتكب في أمثال هذه الاخبار تقييدان :

احدهما ـ التقييد ببعض المراتب ، بأن يقول : المراد أن بعض مراتب الصبر افضل من بعض مراتب الشكر . وهذا مما لا ريب فيه ، فان من سلب اعز اولاده وابتلي بالفقر والمرض ، ومع ذلك صبر ولم يجزع ، فهو افضل البتة عن اعطى مالا كثيراً فقال : شكراً لله ، الحمد لله ، من دون ابداء عمل آخر من الطاعات . وليس المراد أن كل ما يسمى صبراً افضل من كل درجة من درجات الشكر . اذ البديهة حاكمة بأن الشكر على نعمة بالاشتغال بالطاعة والعبادات ، وترك المعاصي سنين كثيرة متتالية ، من

دون فتور ، افضل واعلى رتبة من منع النفس عن الجزع لأجل عشرة دراهم سرقت منه .

وثانيهما ــ التقييد بخروجها على ما هو الظاهر عند جمهور الناس من الانفكاك بين الصبر والشكر . فان الجمهور لا يفهمون من حبس النفس عن الجزع عند الابتلاء ببلية إلا الصبر ، ولا يلتفتون الى ان هذا الحبس نوع عبادة حصلت تعظيما لله ، وهو عين الشكر . وكذا لا يفهمون من اظهار التحميد والاشتغال بالصلاة عند وصول نعمة إلا الشكر ، ولا يلتفتون الى أن هذا العمل عين منع النفس عن الكفران ، وهو الشكر بعينه .

ومنها :

الفسق

وهو الخروج عن طاعة المبدأ الحقيقي وعبادته . وضده الطاعة ، وهي تمجيد المبدأ والتخضع له باداء ضروب العبادات المقررة في الشريعة . وعمدة العبادات الموظفة في الشريعة هي : الطهارة ، والصلاة ، والذكر ، والدعاء ، وتلاوة القرآن ، والصوم ، والحج ، وزيارة النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ والائمة ـ عليهم السلام ـ ، والجهاد في سبيل الله ، واداء المعروف ، الشامل للزكاة ، والخمس ، والصدقة المندوبة ، وغيرها . والاخير ــ اعني اداء المعروف باقسامه ـ قد تقدم . والجهاد في هذا الزمان ساقط . فنشير الى بعض الاسرار والدقائق والآداب الباطنة المتعلقة بالبواقي ، في مقاصد وخاتمة . وأما آدابها واحكامها وشرائطها الظاهرة ، فهي مذكورة في الفقهيات .

المقصد الاول

الطهارة ـ حقيقة الطهارة ـ ما ينبغي للمؤمن في الطهارة ـ ازالة الاوساخ ـ آداب الحمام ـ السر في ازالة الاوساخ .

***

اعلم ان الطهارة والنظافة أهم الامور للعباد. إذ الطهارة الظاهرة وسيلة الى حصول الطهارة الباطنة، ومالم تحصل الاولى لم تحصل الثانية . ولذا ورد في مدحها ما ورد ، قال الله ـ سبحانه ـ :

« فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللّٰهُ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ »(١) . وقال : « مَا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ »(٢) .

وقال رسول الله (ص) : « بني الدين على النظافة » . وقال (ص) : « الطهور نصف الايمان» . وقال (ص): «مفتاح الصلاة الطهور» . وقال(ص): « بئس للعبد القاذورة » . وقال (ص) : « من اتخذ ثوباً فلينظفه » . وقال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : « النظيف من الثياب يذهب الهم والحزن ، هو طهور للصلاة » .

ثم للطهارة أربع مراتب :

الاولى ــ تطهير الظاهر من الاحداث والاخباث والفضلات .

الثانية ــ تطهير الجوارح من الجرائم والآثام والتبعات .

(١) التوبة ، الآية : ١٠٩ . (٢) المائدة ، الآية : ٧ .

الثالثة — تطهير القلب من مساوي الاخلاق ورذائلها .

الرابعة — تطهير السر عما سوى الله — تعالى — ، وهي تطهير الانبياء والصديقين . والطهارة في كل مرتبة نصف العمل الذي فيها ، إذ الغاية القصوى في عمل السر أن ينكشف له جلال الله وعظمته ، وتحصل له المعرفة التامة ، والحب والانس . ولا يمكن حصول ذلك ما لم يرتحل عنه ما سوى الله ، ولذلك قال الله — تعالى — :

« قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ » (١) . فان الله وغيره لا يجتمعان في قلب واحد : « وَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ » (٢) .

فتطهير السر عما سوى الله نصف عمله ، والنصف الآخر شروق نور الحق فيه . والغاية القصوى في عمل القلب عمارته بالاخلاق المحمودة ، والعقائد الحقة المشروعة . ولا يتصف بها ما لم ينظف عن نقائضها ، من الاخلاق المذمومة ، والعقائد الفاسدة . فتطهيرها عنها أحد الشطرين ، والشطر الآخر تحليته بالفضائل والعقائد الحقة .

وأما عمل الجوارح ، فالمقصود منه عمارتها بالطاعات . ولا يمكن ذلك ما لم يطهر عن المعاصي والمناهي . فهذا التطهير نصف عملها ، ونصفه الآخر عمارتها بالطاعات . وقس على ذلك الحال في المرتبة الاولى . والى ذلك الاشارة بقول النبي (ص) : « الطهور نصف الايمان » . فان المراد : أن تطهير الظاهر ، والجوارح ، والقلب ، والسر ، من النجاسات والمعاصي

---

(١) الانعام ، الآية : ٩١ .　　(٢) الاحزاب ، الآية : ٤ .

ورذائل الاخلاق وما سوى الله نصف الايمان ، ونصفه الآخر عمارتها بالنظافة والطاعات ومعالي الاخلاق ، والاستغراق في شهود جمال الحق وجلاله . ولا تظنن أن مراده (ص) أن مجرد تطهير الظاهر عن النجاسات بافاضة الماء نصف الايمان ، مع تلوث الجوارح بأخباث المعاصي ، وتنجس القلب باقذار مساوي الاخلاق ، وتشوش السر وتكدره بما سوى الله . فالمراد التطهير في المراتب الاربع ، التي هي من مقامات الدين ، وهي مرتبة يتوقف بعضها على بعض ، ولا يمكن أن ينال العبد ما هو الفوق ، مالم يتجاوز ما دونه ، فلا يصل الى طهارة السر عما سوى الله ، وعمارته بمعرفة الله ، وانكشاف جلاله وعظمته ، ما لم يفرغ عن طهارة القلب عن الاخلاق المذمومة ، وتحليته بالملكات المحمودة . ولا يصل الى ذلك ما لم يفرغ عن طهارة الجوارح من المعاصي وعمارتها بالطاعات . ولا يصل الى ذلك ما لم يفرغ عن ازالة الخبث والحدث عن الظاهر ، وعمارته بالنظافة والنزاهة .

فصل

(حقيقة الطهارة)

طهارة الظاهر ، إما عن الخبث ، أو عن الحدث ، أو عن فضلات البدن ، وما يتعلق بها من الاحكام الظاهرة الواجبة والمحرمة والمندوبة والمكروهة ، مستقصاة في كتب الفقه .

وأما الآداب الباطنة لطهارة الخبث وإزالته عند التخلي لقضاء الحاجة ، أن يتذكر عنده نقصه وحاجته ، وخبث باطنه ، وخسة حاله ، وما يشتمل عليه من الاقذار ، وكونه حامل النجاسات ، ويتذكر باستراحة نفسه عند اخراجها ، وسكون قلبه عن دنسها ، وفراغه للعبادات والمناجاة ، وان

الأخلاق الذميمة التي في باطنها نجاسات باطنة ، واقذار كامنة ، لتستريح نفسها عند اخراجها ، ويطمئن قلبه من ازالة دنسها ، وعند اخراجها يصلح للوقوف على بساط الخدمة ، ويتأهل للقرب والوصول الى حريم العزة . فكما يسعى في اخراج النجاسات الظاهرة لاستراحة البدن مدة قليلة في الدنيا ، فينبغي أن يجتهد أيضاً في اخراج الاقذار الباطنة ، والنجاسات الداخلة الغائضة (١) في الأعماق ، المفسدة على الاطلاق ، لتستريح الروح والبدن في الدنيا والآخرة أبد الآباد . قال الصادق (ع) : « إنما سمي المستراح مستراحاً لاستراحة النفس من اثقال النجاسات ، واستفراغ الاقـذار والكسافات فيها . والمؤمن يعتبر عندها إن الخالص من حطام الدنيا كذلك تصير عاقبته ، فيستريح بالعـدول عنها وتركها ، ويفرغ نفسه وقلبه عن شغلها ، ويستنكف عن جمعها واخذها استنكافه عن النجاسة والغائط والقذر ، ويتفكر في نفسه المكرمة في حال كيف تصير ذليلة في حال ، ويعلم أن التمسك بالقناعة والتقوى يورث له راحة الدارين . فان الراحة في هوان الدنيا ، والفراغ من التمتع بها ، وفي ازالة النجاسة من الحرام والشبهة . فيغلق عن نفسه باب الكبر بعد معرفته إياها ، ويفر من الذنوب ، ويفتح باب التواضع والندم والحياء ، ويجتهد في أداء أوامره واجتناب نواهيه ، طالباً لحسن المآب ، وطيب الزلفى ، ويسجن نفسه في سجن الخوف والصبر والكف عن الشهوات ، الى أن يتصل بأمان الله ـ تعالى ـ في دار القرار ، ويذوق طعم رضاه ، فان المعول على ذلك ، وما عداه فلا شيء » (٢) .

(١) الغائضة : الغائرة . غيض الدمع : حبسه وأخفاه .

(٢) الحديث مذكور في (مصباح الشريعة) ، الباب التاسع . وفي (مستدرك الوسائل) : ١/٣٧ ـ ٣٨ ، كتاب الطهارة . وفي الموضعين اختلاف كثير عما ذكر هنا ، فصححناه كما كان في الموضعين .

وينبغي أن يتأمل في أن ما دفع عنه من الغائط والقذر هو ما كان يشتهيه ، ويحترص في طلبه من لذائذ الأطعمة ، وكلما كانت ألذ عفونتها أشـــد ، فما كانت عاقبته ذلك ، فليحذر من أن يأخذه من غير حله ، فيعذب أبد الآباد لأجله .

فصـــل

(ما ينبغي للمؤمن في الطهارة)

ينبغي لكل مؤمن أن يستحضر عند اشتغاله بالطهارة عن الحدث : أن تكليفه بها للدخول في العبادات والمناجاة مع خالق البريات إنما هو لكون اعضائه التي أمر بغسلها مباشرة للامور الدنيوية، منهمكة في الكدورات الطبيعية ، فخرجت عن أهلية القيام بين يدي الله ـ سبحانه ـ ، والاشتغال بعبادته . فالأمر بغسلها ، لتتطهر عن هذه الكدورات ، فيتأهل للمناجاة . ولا ريب في أن مجرد غسلها لا يطهرها عن الادناس الدنيوية والكدورات الجسمانية ، ما لم يطهر قلبه عن الاخلاق الذميمة ، والعلائق الدنيوية ، وما لم يعزم على الرجوع الى الله ، والانقطاع عن الدنيا وشهواتها . فينبغي أن يكون قلبه عند الطهارة مطهراً عن ذمائم الصفات وخبائث الشهوات ، جازما على فطام الاعضاء التي هي اتباعه وخدامه عن شهوات الدنيا ، لتسري نوريته وطهارته الى تلك الاعضاء ، ثم أمر في الوضوء اولا : بغسل الوجه ، الذي هو مجمع أكثر الحواس الظاهرة ، التي هي أعظم الأسباب الباعثة على مطالب الدنيا ، ليتوجه ويقبل بوجه القلب على الله ، وهو خال من تلك الادناس ، وثانياً : بغسل اليدين ، لمباشرتهما أكثر الأمور الدنيوية والمشتهيات الطبيعية المانعة من الاقبـــال على الآخرة ، وثالثاً : بمسح الرجلين ، للتوصل بهما الى اكثر المطالب الدنيوية والمقاصد الطبيعية .

فأمر بتطهير جميعها ليسوغ له الدخول بها في العبادات والاقبال عليها . وأمر في الغسل بغسل جميع البشرة ، لأن ادنى حالات الانسان وأشدها تعلقاً بالملكات الشهوية حالة الوقاع ، والجميع بدنه مدخل في تلك الحالة . ولهذا قال رسول الله (ص) : « تحت كل شعرة جنابة » . فحيث كان جميع بدنه بعيداً عن المرتبة العلية ، منغمساً في اللذات الدنية ، كان غسله أجمع من أهم المطالب الشرعية ، ليتأهل لمقابلة الجهة الشريفة ، والدخول في العبادة المنيفة . وأمر في التيمم بمسح الاعضاء بالتراب ، عند تعذر غسلها بالماء ، وضعاً لتلك الاعضاء الرئيسة ، وهضماً لها بملاقاتها أثر التربة الخسيسة .

ثم لما كان القلب هو الرئيس الأعظم لهذه الجوارح والاعضاء ، والمستخدم لها في تلك الأمور المبعدة عن جنابه - تعالى - ، وهو الموضع لنظر الله - سبحانه - ، كما قال (ص) : « إن الله لا ينظر الى صوركم ، ولكن ينظر الى قلوبكم » ، فله من ذلك الحظ الاوفر والنصيب الاكمل . فيكون الاشتغال بتطهيره من الرذائل والتوجهات المانعة من درك الفضائل أولى من تطهير الاعضاء الظاهرة عند اللبيب العاقل . واذا لم يمكن تطهيره من الاخلاق الرذيلة ، وتحليته بالاوصاف الجميلة ، لرسوخه على حب الدنيا الدنية ، فليقمه في مقام الهضم والازراء ، ويسقه بسياط الذل والاغضاء . كما أنه عند تعذر غسل الاعضاء بالماء يهضمها ويذللها بالوضع على التراب ، عسى أن يرحم ربه تواضعه وانكساره ، فيهبه نفحة من نفحات نوره اللامع ، فانه عند المنكسرة قلوبهم ، كما ورد في الأثر ، فترق من هـذه الاشارات ونحوها الى ما يوجب لك الاقبال ، ويتدارك سالف الاهمال .

ثم ما ذكر من السر في الطهارة ، يمكن استنباطه — مع الزيادة — من كلام مولانا الصادق (ع) في (مصباح الشريعة) ، حيث قال : « اذا أردت

الطهارة والوضوء، فتقدم الى الماء تقدمك الى رحمة الله، فان الله ـ تعالى ـ قد جعل الماء مفتاح قربته ومناجاته، ودليلا إلى بساط خدمته، وكما ان رحمة الله تطهر ذنوب العباد كذلك النجاسات الظاهرة يطهرها الماء لا غيره، قال الله ـ تعالى ـ:

« وَهوَ الَّذي أرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَـدَيْ رَحمَتِهِ وَأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهوراً » (١). وقال الله ـ تعالى ـ: « وَجَعَلْنا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أفلا يُؤْمِنونَ » (٢).

فكما احيى به كل شيء من نعيم الدنيا، كذلك برحمته وفضله جعل حياة القلوب بالطاعات. وتفكر في صفاء الماء ورقته، وطهره وبركتـه، ولطيف امتزاجه بكل شيء. واستعمله في تطهير الاعضاء التي أمرك الله بتطهيرها، وتعبدك بآدابها في فرائضه وسننه. فان تحت كل واحد منها فوائد كثيرة، فاذا استعملتها بالحرمة انفجرت لك عيون فوائد عن قريب. ثم عاشر خلق الله ـ تعالى ـ كامتزاج الماء بالاشياء، يؤدي كل شيء حقه، ولا يتغير عن معناه، معتـبرا لقول الرسول (ص): (مثل المؤمن الخالص كمثل الماء). ولتكن صفوتك مع الله ـ تعالى ـ في جميع طاعتك كصفوة الماء حين انزله من السماء وسماه طهوراً، وطهر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء » (٣).

ومن الاسرار الواردة في الطهارة وتخصيص بعض الاعضاء بالتطهير

---

(١) الفرقان، الآية: ٤٨. (٢) الانبياء، الآية: ٣٠.

(٣) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة)، الباب العاشر. وعلى (المستدرك): ١ / ٥١ ـ ٥٢، كتاب الطهارة.

في الوضوء ، ما اشار اليه مولانا الرضا (ع) بقوله : « إنما امر بالوضوء ليكون العبد طاهراً إذا قام بين يدي الجبار عند مناجاته إياه ، مطيعاً له فيما امره ، نقياً من الادناس والنجاسة ، مع ما فيه من ذهاب الكسل ، وطرد النعاس ، وتزكية الفؤاد للقيام بين يدي الجبار . وإنما وجب ذلك على الوجه واليدين والرأس والرجلين، لان العبد اذا قام بين يدي الجبار،فانما ينكشف من جوارحه ويظهر ما يجب فيه الوضوء ، وذلك انه بوجهه يسجد ويخضع ، وبيده يسأل ويرغب ويرهب ويتبتل ، وبرأسه يستقبل في ركوعه وسجوده ، وبرجليه يقوم ويقعد . وامر بالغسل من الجنابة دون الخلاء ، لان الجنابة من نفس الانسان، وهو شيء يخرج من جميع جسده،والخلاء ليس هو من نفس الانسان ، إنما هو غذاء يدخل من باب ويخرج من باب » (١) .

فصل

(ازالة الاوساخ)

ينبغي لكل مؤمن ان يطهر بدنه من فضلاته ودرنه وأوساخه ، كشعر

---

(١) هذه الرواية نقلها العلامة (المجلسي) ـ قدس سره ـ في (البحار): ١٨ / ٥٦ ، باب علل الوضوء وثوابه وعقاب تركه ، وعن (العيون والعلل) لشيخ المحدثين مولانا (الصدوق) ـ رضوان الله عليه ـ ، ولم أعثر عليها الا في الموضع المذكور من (بحار الانوار) .

ولايخفى أن ما نقله العلامة (المجلسي) ـ قدس الله روحه ـ في الموضع المذكور فيه اختلاف كثير عما ذكر في نسخ (جامع السعادات) الخطية،بحيث لايمكن تصحيح الرواية الا بنقلها من(البحار)وذكرها في هامش الكتاب.وذلك غير ممكن ، لضيق المقام، فلاجله تركنا تصحيحها ، لعل القاريء الكريم يقف على مصدر آخر لها. فمن اراد الاطلاع على الرواية ، فعليه بمراجعة (البحار) في الموضع المذكور .

الرأس بالحلق ، وشعر الانف والشارب وما طال من اللحية بالقبض ، وشعر الابط والعانة وسائر الاعضاء بالنورة ، وكأظفار اليدين والرجلين بالقلم ، وما يجتمع من الوسخ والقمل في شعر الرأس واللحية بالغسل والتسريح بالمشط ، وما يجتمع من الوسخ في معاطف الاذنين بالمسح ومثله، وما يجتمع منه على الاسنان واطراف اللسان بالسواك والمضمضة ، وما يجتمع في الانف من الرطوبات الملتصقة بالاستنشاق ، وما يجتمع من الوسخ تحت الاظفار بالقلم والغسل ، وما يجتمع منه في رؤس الانامل وفي معاطف ظهورها عقيب اكل الطعام بالغسل ، وما يجتمع من الدرن على جميع بدنه وترشيح العرق وغبار الطريق بالدخول في الحمام .

تنبيه

(آداب الحمام)

ينبغي لمن يدخل الحمام ، أن يتذكر بحرارته حر النار ، ويقدر نفسه محبوساً في البيت ساعة ، ويقيسه الى جهنم ، ويستعيذ بالله منها . قال الصادق (ع) : « فاذا دخلت البيت الثالث ، فقل : نعوذ بالله من النار ونسأله الجنة . وترددها الى وقت خروجك من البيت الحار » . وقال امير المؤمنين (ع) : « نعم البيت الحمام ، يذهب بالدرن ، وتذكر فيه النار». وفيه اشارة الى انه ينبغي للعاقل ألا يغفل عن ذكر الآخرة في لحظة ، فانها مقره ومستقره . فيكون له في كل ما يراه ، من ماء او نار او غيرهما ، عبرة وموعظة . فان المرأ ينظر في كل شيء بحسب همته . فالبزاز اذا دخل داراً معمورة مفروشة ينظر الى الفرش ويتأمل في قيمتها . والحائك إذا دخلها ينظر الى الثياب ويتأمل في كيفية نسجها ، والنجار إذا دخلها ينظر الى ابوابها وشبابيكها ويتأمل في كيفية نجرها وتركيبها ، والبناء إذا دخلها ينظر الى

الحيطان والسقف وكيفية بنائها وإحكامها واستقامتها . فكذلك سالك طريق الآخرة ، لاينظر الى شيء إلا وتكون له موعظة وعبرة من الآخرة. فان نظر الى ظلمة تذكر ظلمة اللحد ، وان نظر الى نار تذكر نار جهنم ، وإن نظر الى حية تذكر افاعي جهنم ، وإن سمع صوتاً هائلاً تذكر نفخة الصور ، وإن نظر الى صورة قبيحة تذكر صورة النكيرين والزبانية ، وإن رأى المحاسبة بين قوم تذكر محاسبة الآخرة ، وإن سمع كلمة رد اوقبول تذكر ما ينكشف له في آخر امره بعد الحساب من الرد والقبول ، وإن رأى شيئاً حسناً تذكر نعيم الجنة ... إلى غير ذلك .

تتميم

(السر في إزالة الاوساخ)

السر في ازالة الفضلات المذكورة عن البدن ظاهر ، فانها توجب تنوير القلب ، وانشراح الصدر ، وطرد الشيطان ، إذ هي كسافات مانعة عن النورية والتجرد ، فتشمئز منها الملائكة ، ويرغب اليها الشياطين . ومن تأمل في الاحكام والآداب التي جاء بها رسول الله (ص) وكانت له بصيرة ناقدة ، يعلم ان شيئاً منها لايخلو عن حكمة ، حتى ان ما صدر عنه في الآداب والحركات والافعال والاقوال ، من ترتيب خاص ، او تخصيص بعدد معين ، او ابتداء من موضع خاص او بواحد معين من الاشياء المتماثلة ، يتضمن حكماً اوحكمة البتة . مثال ذلك : انه (ص) كان يكتحل في عينه اليمنى ثلاثاً وفي عينه اليسرى اثنين ، والسر في هذا الترتيب وهــــذا التخصيص : ان اليمنى اشرف العينين فبدأ بها . وتفاوته بين العينين لتكون الجملة وتراً ، فان للوتر فضلاً على الزوج ، لان الله وتر يحب الوتر ، فلا ينبغي ان يخلو فعل العبد عن

مناسبة لوصف من اوصاف الرب ، وانما لم يقتصر على الثلاث وهو وتر، لان اليسرى حينئذ لا تخصها الا واحدة ، والغالب ان الواحدة لاتستوعب اصول الاجفان بالكحل ، وانما خصص اليمين بالزيادة لان التفضيل لابد منه للايثار ، واليمين افضل ، فهو بالزيادة احق ، وانما اقتصر على الاثنين لليسرى مع كونه زوجاً ، إذ الزوجية في احداهما لازمة ضرورية ، اذ لو جعل لكل واحدة وتراً لكان المجموع زوجاً ، إذ الوتر مع الوتر زوج ، ورعاية الايثار في مجموع الفعل وهو في حكم الخصلة الواحدة احب من رعايته في الآحاد. مثال آخر: روى الجمهور في تقليم الاظفار : « ان رسول الله(ص) كان يبدأ عند تقليم اظفاره الشريفة بمسبحة اليمنى ، ويختم بابهام اليمنى ، بأن يبتدىء من مسبحتها الى خنصرها ، ثم يبتدىء من خنصر اليسرى الى ابهام اليمنى ». وفي طريقنا روايتان : احداهما ان يبدا بخنصر اليمنى ويختم بخنصر اليسرى ، واخراهما بعكس ذلك ، وهي اشهر . فالسر على رواية الجمهور - كما قيل - ان اليد اليمنى اشرف من اليسرى فيبتدىء بها ، ثم على اليمنى خمسة اصابع والمسبحة اشرفها فيبتدا بها ، ثم ينبغي ان يبتدىء بماعلى يمينها لكون اليمنى اشرف ، ولذا استحب في الشرع وضع الطهور وغيره على اليمنى . ولا ريب في انه اذا وضعت الكف على الارض فيمين مسبحة اليمنى هي الوسطى ، ووضع ظهر اليد على الارض وان اقتضى كون الابهام هو اليمين ، الا ان الاعتبار الاول اولى ، إذ اليد اذا تركت بطبعها كانت الكف مائلة الى جهة الأرض ، لأن جهة حركة اليد اليمنى الى جهة اليسار، واليسرى الى جهة اليمين ، واستتمام حركة كل منهمافي جهة يجعل الكف على الارض وظهرها عالياً ، واذا كانت الكف مائلة الى جهة الارض فاعتبار مايقتضيه الطبع اولى ، فتكون يمين المسبحة هي الوسطى . ثم اذا وضعت

الكف على الكف ، صارت الأصابع في حكم حلقة دائرة ، فيقتضى ترتيب الدور الذهاب من يمين المسبحة الى ان يعود الى المسبحة ،فتقع البداءة بخنصر اليسرى والختم بابهامها، ويبقى ابهام اليمنى،وانما قدرت الكف موضوعة على الكف حتى تصير الاصابع كأشخاص في حلقة ليظهر ترتيبها، وتقدير ذلك اولى من تقدير وضع الكف على ظهر الكف ، فان ذلك لا يقتضيه الطبع .

هذا ، واما السر على الرواية الاولى من طريقنا ، فكأنــه اعتبار الاصابع العشرة في حكم صف واحد ثابت على الارض ، والابتداء باليمين ، فاكتفى بما يرى بالنظر الجليل مع ترك اليد بطبعها . واما الرواية الثانية، فلعل السر فيها تحصيل التيامن في كل اصبع بعد الاولى مع الترتيب فيها ، ووضع اليدين على ما يقتضيه الطبع . هذا ، واما اصابع الرجل ، فلم نعثر على خبر يدل على كيفية الابتداء والترتيب فيها . فينبغى اعتبار احد الطريقين المرويين عندنا فيها ، ولعل اعتبار الاولى لاظهرية سرها اولى ، وينبغي ان يكون تقليم اظفارها بعد تقليم اظفار اليدين ان وقعا في وقت واحد ، إذ اليد اشرف من الرجل. وقس على ما ذكر سائر ما ورد من الآداب والتخصيصات فانه لا يخلو شيء منها على سر حكمي ، وإن كانت عقولنا قاصرة عن ادراك اكثرها .

المقصد الثاني

الصلاة ـ حقيقة الصلاة ـ حضور القلب ـ دفع اشكال ـ شرائط الصلاة ـ طريق تحصيل المعاني الباطنة ـ اسرار الصلاة ـ الوقت ـ آداب الصلاة ـ آداب المصلي ـ الاستقبال ـ القيام ـ التكبيرات ـ النية ـ تكبيرة الاحرام ـ دعاء الاستفتاح ـ الاستعاذة ـ الركوع ـ السجود ـ التشهد ـ التسليم ـ افاضة الانوار على المصلي على قدر صفائه ـ ماينبغى في إمام الجماعة ـ ما ينبغي في صلاة الجمعة والعيدين ـ ما ينبغي للمؤمن عند ظهور الآيات .

إعلم أن الصلاة معجون سماوي ، وتركيب إلهي ، ركبت من اجزاء كثيرة مختلفة ، متفاوتة في الفضل والاهتمام بها . فبعضها بمنزلة الروح ، وبعضها بمثابة الاعضاء الرئيسة ، وبعضها بمنزلة سائر الاعضاء .

وتوضيح ذلك : ان الانسان - مثلا - لما كان حقيقة مركبة من اجزاء معينة ، فهو لا يكون انساناً موجوداً كاملا إلا بمعنى باطن هو الروح ، واعضاء محسوسة بعضها في جوفه وبعضها في ظاهره . وهذه الاعضاء متفاوتة المراتب ، إذ بعضها عما ينعدم الانسان بعدمه وتزول الحياة بزواله ، كالقلب والدماغ والكبد والمعدة وأمثالها ، وبعضها وان لم ينعدم بعدمه اصل الحياة ، إلا أنه ترتفع به تمامية الانسان ويصير ناقصاً ، كاليد والرجل والعين وأمثالها ، وبعضها يفوت بفواته الحسن ، كالحاجبين واللحية والاهداب وامثالها ، وبعضها يفوت بفواته كمال الحسن لا اصله ، كاستقواس الحاجبين ، وتناسب الخلقة ، وسواد شعر اللحية ، وامتزاج البياض بالحمرة ، وامثال ذلك . وكذلك الصلاة حقيقة مركبة ، وصورة صورها الشرع من امور متفاوتة ، وتعبدنا باكتسابها . فروحها : النية ، والقربة ، وحضور القلب ، والاخلاص . واعمالها الاركانية : من تكبيرة الاحرام ، والركوع ، والسجود ، والقيام ، بمنزلة الاعضاء الرئيسة ، فتفوت بفواتها الصلاة على الاطلاق ، ولا يمكن تحققها وصحتها بدونها . وسائر الاعمال الواجبة : من الفاتحة ، والسورة ، واذكار الركوع ، والسجدتين ، والطمأنينة فيهما ، وفي رفع الرأس عنهما ، والتشهد ، والتسليم ، وغير ذلك من الاعمال الواجبة التي تبطل الصلاة بتركها عمداً لا سهواً ، بمنزلة اليدين والرجلين وآلات التناسل وغير ذلك ، مما قد تفوت الحياة بزوالها وقد لا تفوت بـه ، والأعمال المسنونة ، والهيئات المندوبة ، والآداب

المستحبة : من القنوت ، ودعاء الافتتاح ، وغير تكبيرة الاحرام من التكبيرات ، والتعوذ ، والزائد عن قدر الواجب في التشهد والتسليم من الاذكار ، وغير ذلك مما لا تبطل الصلاة بتركها عمداً أو سهوا ، ولكن تخرج بها عن الحسن والكمال وزيادة الأجر والثواب ، فهي بمنزلة الحاجبين واستقواسهما واللحية والأهداب وتناسب الخلقة ، وغير ذلك مما يفوت بفوات بعضها الحسن والجمال وبفوات بعض كمالها ، ويصير الشخص بسببه مشوه الخلقة مذموماً غير مرغوب فيه .

واذا عرفت ذلك : فاعـــلم ـ يا حبيبي ـ أن صلاتك قربة وتحفة تتقرب بها الى حضرة ملك الملوك ، كوصيفة يهديها طالب القرب والجاه من السلاطين اليهم . وهذه التحفة تعرض على الله ثم ترد اليك في يوم العرض الأكبر ، فاليك الخيرة في تحسين صورتها أو تقبيحها ، فمن أداها على النحو المأمور به ، باعمالها الواجبة والمندوبة ، وشرائطهـــا الظاهرة والباطنة ، مع الاخـــلاص وحضور القلب ، كان كمن أهدى عبداً صحيحاً سويا شابا جميلا عاقلا كاملا الى ملك من الملوك . ومن اقتصر على اعمالها الظاهرة ، وغفل من الحضور والتوجه والقربة والاخلاص ، كان كمن أهدى عبداً ميتاً بلا روح الى ملك من الملوك . ومن ترك عمداً شيئاً من واجباته ، كان كمن اهدى عبداً مقتولا اليه . ومن اقتصر على أقل ما يجزى كان كمن اهدى اليه عبد حي أعمى ، أو أصم ، او أبكم ، أو مقطوع الاطراف ، أو هرماً ، أو قبيح المنظر ، او مجروح الاعضاء ، أو امثال ذلك . فتنبه ايها الغافل ، وتأمل فى انك اذا اهديت تحفة الى ملك من ملوك الدنيا ، بل الى من دونه بمراتب كثيرة ، من الأمراء والحكام ، كيف تجتهد وتسعى في تجويدها وتحسينها ليقبلها ، فما بالك ايها المغرور تغفل وتتساهل من تحسين هديتك وتحفتك الى ملك الملوك الذي منه

بدؤك واليه عودك ؟ ! وقد ورد : ان كل صلاة لا يتم الانسان ركوعها وسجودها فهي الخصم الاول على صاحبها يوم العرض الأكبر ، وتقول : « ضيعك الله كما ضيعتني ! » .

فصل

(حقيقة الصلاة)

لا بحث لنا عما يتعلق بظاهرها من الاجزاء والشرائط والأحكام ، إذ بيانها على عهدة الفقه . فلنشر الى المعاني الباطنة التي بها تتم حياتها ، والى الأسرار والآداب الخفية الباطنة المتعلقة باجزائها وشرائطها الظاهرة، لتكون ملحوظة للعبد عند فعلها .

فنقول : المعاني الباطنة ، التي هي روح الصلاة وحقيقتها ، سبعة :

الأول — الاخلاص والقربة ، وخلوها عن شوائب الرياء . وقد تقدم تفصيل القول في ذلك .

الثاني — حضور القلب : وهو ان يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به ، حتى يكون العلم مقروناً بما يفعله وما يقوله ، من غير جريان الفكر في غيرهما . فمهما انصرف الفكر عن غير ما هو فيه ، وكان في قلبه ذكر لما هو فيه من غير غفلة عنه ، فقد حصل حضور القلب . ثم حضور القلب قد يعبر عنه بالاقبال على الصلاة والتوجه ، وقد يعبر عنه بالخشوع بالقلب . فان الخشوع في الصلاة خشوعان : خشوع بالقلب : وهو ان يتفرغ لجمع الهمة لها ، والاعراض عما سواها ، بحيث لا يكون في قلبه غير المعبود . وخشوع بالجوارح : وهو أن يغض بصره ، ولا يلتفت ، ولا يعبث ، ولا يتثاءب ، ولا يتمطى ، ولا يفرقع اصابعه ،

وبالجملة : لا يتحرك لغير الصلاة ، ولا يفعل شيئاً من المكروهات ، وربما عبر ذلك بالخضوع .

الثالث — التفهم لمعنى الكلام ; وهو امر وراء حضور القلب . فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ، ولا يكون حاضرا مع معناه . فالمراد بالتفهم هو اشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ . وهذا مقام يتفاوت فيه الناس ، إذ ليس يشترك الناس في تفهم معاني القرآن والتسبيحات ، فكم من معان لطيفة يفهمها بعض المصلين في اثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه قبل ذلك ولا يفهمها غيره . ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر ، فانها تفهم اموراً تمنع تلك الامور عن الفحشاء والمنكر لا محالة .

الرابع — التعظيم : وهو أمر وراء حضور القلب والتفهم . إذ الرجل ربما يخاطب غيره ، وهو حاضر القلب فيه ، ومتفهم لمعناه ، ولا يكون معظماً له .

الخامس — الهيبة : وهي زائدة على التعظيم لأنها عبارة عن خوف منشأه التعظيم ، لأن من لا يخاف لا يسمى هائباً ، ثم كل خوف لا يسمى مهابة ، بل الهيبة خوف مصدره الاجلال .

السادس — الرجاء : ولا ريب في كونه زائداً عما ذكر . فكم من رجل يعظم ملكا من الملوك ، ويهابه ويخاف سطوته ، ولا يرجو بره واحسانه . والعبد ينبغي أن يكون راجياً بصلاته ثواب الله، كما أنه خائف بتقصيره عقابه .

السابع — الحياء : ومستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب ، وهو زائد على التعظيم والخوف والرجاء ، لتصورها من غير حياء ، حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب .

فصل

(حضور القلب)

اعلم ان كون الأمور المذكورة روح الصلاة وحقيقتها ، والمقصود الاصلي منها ، امر ظاهر . إذ الغرض الاصلي من العبادات والطاعات هي تصفية النفس وتصقيلها ، فكل عمل يكون اشد تأثيراً فيهما يكون افضل . ولا ريب في ان المقتضى لصفاء النفس وتجردها وتصقيلها عن الكدورات من الصلاة ليس الا الأمور المذكورة ، وليس لنفس الحركات الظاهرة كثير مدخلية فيها ، وكيف لا يكون حضور القلب والخشوع روح الصلاة ولا يتوقف كمال الصلاة عليه ، مع ان المصلي في صلاته ودعائه مناج ربه ؟ ولا شك أن الكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ، وايضاً الكلام إعراب عما في الضمير ، ولا يتأتى الاعراب عما في الضمير الا بحضور القلب ، فاى سؤال في قوله : « إهدنا الصراط المستقيم » اذا كان القلب غافلا ؟ ولاشك ايضاً أن المقصود من القراءة والاذكار الثناء والحمد والتضرع والدعاء ، والمخاطب هو الله ـ تعالى ـ ، فاذا كان قلب العبد محجوباً عنه بحجاب الغفلة ، ولا يراه ولا يشاهده ، بل كان غافلا عن المخاطب ، ويحرك لسانه بحكم العادة ، فما ابعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرعت لتصقيل القلب ، وتجديد ذكر الله ، ورسوخ عقد الايمان بها . هذا حكم القراءة والذكر . واما الركوع والسجود ، فالمقصود منهما التعظيم قطعاً ، والتعظيم كيف يجتمع مع الغفلة ، واذا خرج عن كونه تعظيما ، لم يبق الا مجرد حركة الظهر والرأس ، وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به ، كما في افعال الحج ، واعطاء المال في الزكاة ، وامساك النفس عن الشهوات في الصوم . فكيف يجعل مجرد هذه الحركة مع خفتها وسهولتها عماد الدين ، والفاصل

بين الكفر والاسلام ، وتقدم على سائر العبادات ، ويجب القتل بسبب تركها على الخصوص ؟ ولكون الحضور والخشوع والخشية عمدة ما يقصد به من الصلاة ، تظاهرت الآيات والاخبار على الترغيب عليها وفضيلتها ومدح اهلها ، وعلى ذم الغفلة والتفكر في امور الدنيا والوساوس الباطلة عند الاشتغال بالصلاة ، وقد تظاهرت الاخبار ايضاً بأن الأنبياء والاوصياء واكابر الاولياء كانوا عند اشتغالهم في الصلاة في غاية الاقبال والخشوع والخوف . قال الله ـ سبحانه ـ :

« الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ » (١) .وقال: « وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكري » (٢) . والغفلة تضاد الذكر، فمن كان غافلا في صلاته لايكون مقيماً للصلاة لذكره . وقال : « ولاتَكُنْ مِنَ الغافِلِينَ » (٣) . وقال : « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِم ساهُونَ » (٤) ، ذمهم على الغفلة عنها مع كونهم مصلين، لالأنهم سهوا عنها وتركوها . وقال: « لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى حَتّى تَعلَمُوا ماتَقُولُونَ » (٥).

قيل: المراد : سكارى من كثرة الهم ، وقيل : من حب الدنيا . ولو حمل على ظاهره ففيه تنبيه على سكر الدنيا ، إذ بين فيه العلة . وقال : حتى تعلموا ماتقولون . وكم من مصل لم يشرب الخمرة وهو لا يعلم ما يقول في

---

(١) المؤمنون ، الآية : ٢ .
(٢) طه ، الآية : ١٤ .
(٣) الاعراف ، الآية : ٢٠٤ .
(٤) الماعون ، الآية : ٤ ـ ٥ .
(٥) النساء ، الآية : ٤٢ .

صلاته . وقال رسول الله (ص) : « من صلى ركعتين ، لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا ، غفر له ما تقدم من ذنبه » . وقال (ص) : « إذا صليت صلاة فريضة ، فصل لوقتها صلاة مودع يخاف ألا يعود فيها » . وقال (ص) : « لا ينظر الله الى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه » . وقال (ص) : « انما فرضت الصلاة ، وامر بالحج والطواف ، واشعرت المناسك ، لاقامة ذكر الله ، فاذا لم يكن في قلبك للمذكور الذي هو المقصود والمبتغى عظمة ولا هيبة ، فما قيمة ذكرك ؟! » .

وعن ابي عبد الله (ع) قال : « قال الله - تبارك وتعالى - : انما اقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي ، ويكف نفسه عن الشهوات من اجلي ، ويقطع نهاره بذكرى ، ولا يتعاظم على خلقي ، ويطعم الجائع ، ويكسو العاري ، ويرحم المصاب ، ويؤوي الغريب ، فذلك يشرق نوره مثل الشمس ، اجعل له في الظلمات نوراً ، وفي الجهالة علماً ، أكلأه بعزتي ، واستحفظه بملائكتي ، يدعوني فألبيه ، ويسألني فأعطيه ، فمثل ذلك عندي كمثل جنات الفردوس ، لا تيبس ثمارها ، ولا تتغير عن حالها » (١) . وفي اخبار موسى : « ياموسى ، اذا ذكرتني فاذكرني وانت تنفض اعضاءك ، وكن عند ذكري خاشعاً مطمئناً ، واذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك ، واذا قمت بين يدي فقم قيام العبد الذليل ، وناجني بقلب وجل ، ولسان صادق » . واوحى اليه (ع) : « قل لعصاة امتك : لا تذكروني ، فاني آليت على نفسي ان من ذكرني ذكرته ، واذا ذكروني ذكرتهم باللعنة » . وفي بعض الاحاديث القدسية : « ليس كل مصل أتقبل صلاته ، انما اقبل صلاة من تواضع

---

(١) الحديث مروي في (بحار الانوار) : ١٨/١٩٦ ، باب آداب الصلاة عن (المحاسن) ، وفيه اختلاف كثير عما ذكر في نسخ (جامع السعادات) ، فصححناه على الموضع المذكور من (بحار الانوار) .

لعظمتي ، ولم يتكبر على عبادي ، واطعم الفقير الجائع لوجهي » . وقال امير المؤمنين (ع) : « طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء ، ولم يشتغل قلبه بما تراه عيناه ، ولم ينس ذكر الله بما تسمع اذناه ، ولم يحزن صدره بما اعطى غيره » . وقال الصادق (ع) : « لاتجتمع الرغبة والرهبة في قلب إلا وجبت له الجنة ، فاذا صليت ، فاقبل بقلبك على الله – عز وجل – ، فانه ليس من عبد مؤمن يقبل بقلبه على الله – عز وجل – في صلاته ودعائه ، الا أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين ، وايده مع مودتهم اياه بالجنة » . وقال الباقر (ع) . « ان العبد ليرفع له من صلاته نصفها وثلثها وربعها وخمسها ، فما يرفع له إلا ما أقبل عليه بقلبه ، وانما امروا بالنوافل ليتم لهم ما نقصوا من الفريضة » . وروي : « أن ابراهيم الخليل كان يسمع تأوهه على حد ميل ، وكان يسمع له في صلاته أزيز كأزيز المرجل (١) » . وكذلك كان يسمع من صدر سيدنا رسول الله (ص) مثل ذلك . وقال بعض أزواجه : « كان النبي (ص) يحدثنا ونحدثه ، فاذا حضرت الصلاة ، فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه » . وكان أمير المؤمنين (ع) اذا أخذ في الوضوء ، يتغير وجهه من خيفة الله . وكان (ع) اذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون ، فقيل له : ما لك يا امير المؤمنين ؟ فيقول : « جاء وقت أمانة عرضها الله على السماوات والارض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها ، وحملها الانسان » . وروى : « أنه وقع نصل في رجله (ع) ، فلم يمكن أحداً من اخراجه . فقالت فاطمة – عليها السلام – : اخرجوه في حال صلاته ، فانه لايحس حينئذ بما يجري عليه . فاخرج وهو في صلاته ، فلم يحس به اصلا » . وكانت

---

(١) الأزيز : صوت غليان القدر . والمرجل – وزان منبر – : القدر من الحجارة .

الصديقة فاطمة ـ عليها السلام ـ تنهج (١) في الصلاة من خيفة الله . وكان الحسن بن علي ـ عليهما السلام ـ اذا فرغ من وضوئه ، تغير لونه ، فقيل له في ذلك ، فقال : «حق على من أراد أن يدخل على ذي العرش أن يتغير لونه» . وكان الامام علي بن الحسين ـ عليهما السلام ـ اذا توضأ اصفر لونه، فيقال له : ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء ؟ فيقول : «إني أريد الوقوف بين يدي ملك عظيم» . وقال أبو حمزة الثمالي : «رأيته يصلي» فسقط رداؤه عن منكبه ، فتركه حتى فرغ من صلاته ، فسألته عن ذلك ، فقال : ويحك ! أتدري بين يدي من كنت ؟ شغلني والله ذلك عن هذا ! أتعلم أنه لا يقبل من صلاة العبد الا ما أقبل عليه ؟ . فقلت له : يابن رسول الله ، هلكنا اذاً . قال : كلا ! ان الله يتم ذلك بالنوافل» . وروى : «أنـه (ع) اذا قام الى الصلاة تغير لونه ، واذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفض عرقاً» . وروى : «أنه (ع) كان اذا قام الى الصلاة كأنه ساق شجرة ، لا يتحرك منه إلا ما حركت الريح منه» . وسئل مولانا الصادق (ع) عن حالة لحقته في الصلاة حتى خرّ مغشياً عليه ، فقال : «ما زلت اكرر آيات القرآن، حتى بلغت الى حال كأنني سمعتها مشافهة عمن أنزلها» (٢) . قيل . وكان لسان الامام (ع) في تلك الحال كشجرة طور حين قالت : «اني أنا الله» . وسئل بعض الأكابر عن صلاته ، فقال : «اذا جاءت الصلاة ، اسبغت الوضوء ، وأتيت الموضع الذي اريد الصلاة فيه ، فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي ، ثم اقوم الى الصلاة ، فأجعل الكعبة بين حاجبي ، والصراط تحت قدمي ، والجنة عن يميني ، والنار عن شمالي ، وملك الموت ورائي ، وأظنها آخر

---

(١) النهج ـ بالتحريك ـ : تتابع النفس واللهاث .

(٢) صححنا الأحاديث الواردة في الصلاة على (بحار الأنوار) . ١٨/١٦٩ـ٢٠٢ ، باب آداب الصلاة .

صلاتي ، ثم أقوم بين الرجاء والخوف ، واكبر تكبيراً بتحنن ، وأقرأ القرآن بترتيل ، واركع ركوعاً بتواضع ، واسجد سجوداً بتخشع ، واقعد على الورك اليسرى ، وأفرش ظهر قدمها ، وانصب القدم اليمنى على الابهام واتبعها الاخلاص ، ثم لا أدري أقبلت مني أم لا ! » .

ثم ، على ما عرفت من كيفية صلاة الأنبياء والاولياء ، مع مشاهدة كيفية صلاتك وصلاة الناس ، تعلم : ان الناس ينقسمون في صلاتهم : الى غافل يتم صلاته ولا يحضر قلبه في لحظة ، والى من يغفل في بعض صلاته ويحضر قلبه في بعض منها ، وهذا تختلف حاله بحسب قلة كل من الحضور والغفلة وكثرتهما ، وزيادة احدهما على الآخر ، فله مراتب غير متناهية . والى من يتم صلاته ولا يغيب قلبه لحظة ، بل يكون حاضر القلب في جميع صلاته ، وربما كان مستوعب الهم بها ، بحيث لا يحس بما يجري بين يديه ، كما لم يحس مولانا أمير المؤمنين (ع) باخراج النصل من رجله الشريفة . وبعضهم حضر الجماعة مدة ، ولم يعرف قط من على يمينه ويساره . وكان وجيب الخليل يسمع على ميلين . وكان جماعة تصفر وجوههم وترتعد فرائصهم عند الصلاة . وكل ذلك غير مستبعد ، فان اضعافه مشاهدة في همّ الدنيا وخوف ملوك الدنيا ، مع ضعفهم وعجزهم ، وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم . حتى يدخل الرجل على ملك أو وزير ، ويحدثه بمهم ويخرج ، ولو سئل عمن كان على حواليه ، وعن ثوب الملك ، لكان غير قادر على الاخبار عنه ، لاشتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حوله :

« وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمّا عَمِلُوا » (١)

فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه . فان موضع

---

(١) الأنعام ، الآية : ١٣٢ . الأحقاف ، الآية : ١٩ .

نظر الله القلوب ، دون ظاهر الحركات . ولذا قال بعض الصحابة : « يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم في الصلاة، من الطمأنينة والهدوء، ومن وجود النعم واللذة والبهجة بها »، فالملحوظ حال القلب لا حال الشخص. ولذا قيل : « من صفات القلوب تصاغ الصور في دار الآخرة ، ولا ينجو :

« إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »(١) »

تنبيه

(دفع اشكال)

إن قيل : المستفاد من الظواهر المذكورة ، أن صلاة الغافل ليست مقبولة إلا بقدر ما اقبل عليه منها ، والفقهاء لم يشترطوا إلا حضور القلب عند النية والتكبير ، فكيف التوفيق ؟

قلنا : فرق بين القبول والاجزاء ، فان المقبول من العبادة ما يقرب العبد الى الله ، ويترتب عليه الثواب في الآخرة ، والمجزي منها ما يسقط التكليف عن العبد ، وان لم يترتب عليه ثواب ولم يقربه الى الله . والناس مختلفون في تحمل التكليف ، فان التكليف إنما هو بقدر الوسع والطاقة ، فلا يمكن أن يكلف الجميع باحضار القلب في جميع الصلاة، إذ لا يقدر على ذلك إلا الأقلون . وإذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة ، فلا مرد له إلا أن يشترط ما ينطلق عليه الاسم ، ولو في اللحظة الواحدة ، وأولى اللحظات به لحظة التكبير والتوجه ، فاقتصر على التكليف بذلك . ونحن — مع ذلك — نرجوا ألا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية ، فانه على الجملة أقدم على الفعل ظاهراً ، واحضر القلب

(١) الشعراء ، الآية : ٨٩ .

لحظة ، وكيف لا والذي صلى مع الحدث ناسياً صلاته باطلة عند الله ، ولكن له أجر ما بحسب فعله وعلى قدر قصوره وعذره ؟ والحاصل : ان الاقبال والحضور هو روح الصلاة ، وان أقل ما يبقى به الروح الحضور عند التكبير ، فالنقصان منه هلاك ، وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح في اجزاء الصلاة ، وكم من حي لا حراك فيه قريب من الميت ، فصلاة الغافل في جميعها ، إلا عند التكبير ، حي لا حراك فيه .

فصل

(شرائط الصلاة)

اعلم أن للمعاني الباطنة المذكورة اسباباً لا تتحقق بدونها .

أما حضور القلب : فسببه الاهتمام .

فان قلت : كل احد تابع لهمه ، فلا يحضر إلا فيما يهمه ، ومهما أهمه أمر حضر فيه قلبه ، شاء أو لم يشأ ، فهو مجبول عليه مسخر فيه ، والقلب اذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلا ، بل كان حاضراً فيما يهمه من امور الدنيا . فلا حيلة ولا علاج لاحضار القلب في الصلاة إلا بصرف الهمة اليها ، والهمة لا تنصرف اليها ما لم يتيقن أن الآخرة خير وأبقى ، وان الصلاة وسيلة اليها . واذا اضيف الى هذا العلم بحقارة الدنيا ومهانتها ، حصل من مجموع ذلك حضور القلب في الصلاة . ولكون الباعث والسبب لاحضار القلب في أمر إنما هو الاهتمام والاعتناء بشأنه ، ترى قلبك يحضر اذا حضرت بين يدي ملك من ملوك الدنيا ، بل بين يدي بعض الأكابر ممن لا يقدر على نفعك وضرك . فاذا كان لا يحضر قلبك عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملكوت والنفع والضر ، فلا تظنن أن له سبباً سوى ضعف الايمان واليقين . فينبغي حينئذ السعي في تقوية اليقين والايمان.

وأما التفهم : فسببه — بعد حضور القلب — ادمان الفكر ، وصرف الذهن الى ادراك المعنى . وعلاجه ما هو علاج احضار القلب ، مع الاقبال على الفكر ، والتشمر لرفع الخواطر الشاغلة بقطع موادها ، أعنى النزوع عن الأسباب التي تنجذب الخواطر اليها . وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر . فان من أحب شيئاً أو بغض شيئاً أو خاف من شيء ، أكثر ذكره . فذكر المحبوب والمبغوض والمخوف يهجم على القلب بالضرورة . ولذا ترى أن من أحب غير الله أو كان قلبه مشغولا بعداوة احد أو بالخوف عنه ، لا تصفو له صلاة عن الخواطر .

وأما التعظيم : فهو حالة للقلب يتولد من معرفتين : إحداهما : معرفة جلال الله وعظمته ، فان من لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه ، وهذه المعرفة من أصول الايمان . الثانية : معرفة حقارة النفس وخستها وذلتها ، وكونها عبداً مسخراً مربوباً لا يقدر شيئاً من النفع والضر . وتتولد من المعرفتين : الاستكانة والانكسار والخشوع لله ، فيعبر عنه بالتعظيم ، وما لم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الرب لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع ، فان المستغني عن غيره الآمن على نفسه ، يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة والجلال ، ونعوت القدرة والكمال ، ولا يكون خاشعاً معظماً له ، لأن معرفة حاجة النفس وحقارتها لم تقترن اليه .

واما الهيبة والخوف : فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله - تعالى - وسطوته ونفوذ مشيته فيه ، مع قلة المبالاة به ، وانه لو أهلك الاولين والآخرين لم تنقص من ملكه ذرة ، مع تذكر ماجرى على الانبياء والاولياء من المصائب وانواع البلاء مع القدرة على الدفع . وكلما زاد العلم بالله وبصفاته وأفعاله زادت الخشية والهيبة .

واما الرجاء : فسببه معرفة لطف الله ـ تعالى ـ وكرمه وعميم انعامه ولطائف صنعه ، ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة . فاذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه ، انبعث منها الرجاء .

واما الحياء : فسببه استشعار التقصير في العبادة ، وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله ، ويقوى ذلك بمعرفة عيوب النفس وآفاتها وقلة اخلاصها وخبث باطنها ، وميلها الى الحظ العاجل في جميع افعالها ، مع العلم بجميع ما يقتضيه جلال الله وعظمته ، والعلم بأنه مطلع على السرائر وخطرات القلب ، وان دقت وخفيت . وهذه المعارف اذا حصلت يقيناً ، انبعث منها ـ بالضرورة ـ حالة تسمى بالحياء .

فصـــل

(طريق تحصيل المعاني الباطنة)

اعلم ان العلاج في تحصيل المعاني الباطنة المذكورة ، اعني الحضور والتفهم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء ، هو تحصيل اسباب هذه المعاني، وقد عرفت اسبابها. وطرق العلاج في تحصيل هذه الاسباب انما يتم بأمرين:

الاول ـــ معرفة الله ، ومعرفة جلاله وعظمته واستناد الكل اليه ، ومعرفة كونه عالماً بذرات العالم وبسرائر العباد . ويلزم ان تكون هـــذه المعرفة يقينية ، ليترتب عليها الاثر . اذ ما لم يحصل اليقين بأمر ، لا يحصل التشمر في طلبه والهرب عنه . وهذه المعرفة هي المعبر عنها بالايمـان . ولا ريب في كونها موجبة لحصول المعاني المذكورة واسبابها . اذ المؤمن يكون البتة حاضر القلب مع ربه عند مناجاته ، ومتفهما لما يسأله عنه ، معظماً له ، وخائفاً منه ، ومستحيياً من تقصيره .

الثاني ـــ فراغ القلب ، وخلوه من مشاغل الدنيا . فان انفكاك

المؤمن العارف ، المتيقن بالله وبجلاله وعظمته ، وباطلاعه عليه من المعاني المذكورة في صلاته ، لا سبب له إلا تفرق الفكر ، وتقسم الخاطر ، وغيبة القلب عن المناجاة ، والغفلة عن الصلاة ، ولا تلهى عن الصلاة إلا الخواطر الردية الشاغلة. فالدواء في احضار القلب هو دفع كل تلك الخواطر ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه .

وسبب توارد الخواطر ، إما ان يكون امرا خارجاً ، او امرا في ذاته باطناً .

والاول : ما يظهر للبصر ، او يقرع على السمع . فان ذلك قد يختطف الهمّ حتى يتبعه ويتصرف فيه ، ثم ينجر منه الفكر الى غيره ، ويتسلسل فيكون الابصار او الاستماع سببا للافتكار ، ثم يصير بعض تلك الأفكار سبباً للبعض . ومن قويت رتبته وعلت همته ، لم يلهه مايجرى على حواسه . ولكن الضعيف لا بد وان يتفرق فيه فكره . فعلاجه : قطع هذه الاسباب ، بأن يغض بصره ، او يصلي في بيت مظلم ، ولا يترك بين يديه ما يشغل حسه ، ويقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره ، ويتحرز من الصلاة على الشوارع ، وفي المواضع المنقوشة المصبوغة ، والعمارات العالية المرتفعة . ولذلك كان المتعبدون يصلون في بيت مظلم صغير ، سعته بقدر السجود ، ليكون اجمع للهم . والاقوياء كانوا يحضرون المساجد ، ويغضون البصر ، ولا يتجاوزونه موضع السجود ، كما ورد الامر به ، ويرون كمال الصلاة في الا يعرفوا من على يمينهم وشمالهم .

واما الثاني : اعني الاسباب الباطنة ، فهي اشد . فان من تفرقت همومه ، وتشعبت خواطره في اودية الدنيا ، لم ينحصر فكره في فن

واحد ، بل لا يزال يطير من جانب الى جانب . وغض البصر لا يغنيه ، فان ما وقع فى القلب من قبل كاف للشغل . فهذا علاجه : ان يرد نفسه قهرا الى فهم ما يقرؤه ، ويشغلها به عن غيره ، ويعينه على ذلك ان يستعد له قبل التحريم ، بان يجدد على نفسه ذكر الآخرة ، وخطر المقام بين يدي الله - تعالى - ، وهول المطلع ، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه من امر الدنيا ، فلا يترك لنفسه شغلا يلتفت اليه خاطره . فهذا طريق تسكين الأفكار . فان لم تسكن افكاره بهذا الدواء المسكن ، فلا ينجيه إلا المسهل الذى يقمع مادة الداء من اعمال العروق ، وهو ان ينظر في الامور الشاغلة الصارفة له عن احضار القلب . ولا ريب في انها تعود الى مهماته ، وهي إنما صارت مهمة لأجل شهواته ، فليعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق . فكل ما يشغله عن صلاته فهو ضد دينه وجند ابليس عدوه ، فامساكه اضر عليه من اخراجه ، فيتخلص عنه باخراجه . وهذا هو الدواء القامع لمادة العلة ، ولا يغني غيره . فان ماذكر من التلطف بالتسكين والرد الى فهم الذكر ، إنما ينفع فى الشهوات الضعيفة ، والهم الذي لا يشغل الا حواشي القلب . واما الشهوة القوية المرهقة ، فلا ينفع معها التسكين ، بل لا تزال تجاذبها وتجاذبك ثم تغلبك ، وتنقضى جميع صلاتك في شغل المجاذبة . ومثاله مثال رجل تحت شجرة اراد ان يصفو له فكره ، وكانت اصوات العصافير تشوش عليه ، فلم يزل يطيرها بخشبة هي في يده ويعود الى فكره ، فتعود العصافير ، فيعود الى السفير بالخشبة ، فقيل له : إن هذا سير الواني ولا ينقطع ، فان اردت الخلاص فاقطع الشجرة . فكذلك شجرة الشهوة ، إذا استعملت وتفرعت اغصانها ، انجذبت اليها الافكار انجذاب العصافير الى الاشجار ، وانجذاب الذباب الى

الاقذار ، والشغل يطول في دفعها . فان الذباب كلما ذب آب ، ولاجله سمي ذباباً ، وكذلك الخواطر . وهذه الشهوات كثيرة قلما يخلو العبد منها ، ويجمعها اصل واحد ، وهو حب الدنيا ، وذلك رأس كل خطيئة ، واساس كل نقصان ، ومنبع كل فساد . ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال الى شيء منها لا يتزود منها ويستعين بها على الآخرة ، فلا يطمعن في ان تصفو له لذة المناجاة في الصلاة . فان من فرح بالدنيا فلا يفرح بالله وبمناجاته ، وهمة الرجل مع قرة عينه ، فان كانت قرة عينه في الدنيا انصرف همه لا محالة اليها . ولكن ـ مع هذا ـ لا ينبغي ان تترك المجاهدة، ورد القلب الى الصلاة ، وتقليل الاسباب الشاغلة ، فهذا هو الدواء ، ولمرارته استبشعته الطباع ، وبقيت العلة مزمنة ، وصار الداء عضالا . حتى ان الاكابر اجتهدوا ان يصلوا ركعتين لا يحدثون انفسهم فيهما بأمور الدنيا ، فعجزوا عنه . فاذاً لا مطمع فيه لامثالنا ، ويا ليت سلم لنا من الصلاة ثلثها او ربعها من الوساوس ، لنكون ممن خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئا .

وعلى الجملة : فهمة الدنيا وهمة الآخرة في القلب مثل الماء الذي يصب في قدح فيه خل ، فبقدر ما يدخل فيه الماء يخرج منه الخل لا محالة ، ولا يجتمعان . ثم جميع ما ذكر إنما هو في الخواطر المتعلقة بالامور المهمة من الدنيا ، حتى اذا خرجت هذه الأمور من القلب ، خرجت منه هذه الخواطر ايضا . وقد تكون الخواطر من مجرد الوساوس الباطنة والخيالات الفاسدة ، من دون تعلقها بشغل وعمل دنيوي يكون لها ، ومن دون اختيار للعبد في خطورها وعدم خطورها. والامر فيها اصعب، وان كان لقلع حب الدنيا وشهواتها عن القلب مدخلية عظيمة في زوالها ايضا ، إذ مادة هذه الوساوس ايضا إما حب المال وحب الجاه، او حب غيرهما من الامور الشهوية الدنيوية . وقد تقدم

تفصيل القول فيها وفي طريق علاجها في بحث الوساوس .

فصـــل

(اسرار الصلاة)

في تحصيل كل واحد من شروط الصلاة وافعالها واركانها اسرار وتنبيهات ، فينبغي للمؤمن المريد للآخرة الا يغفل عنها ، فها هي نذكرها :

اما الاذان : فاذا سمعت نداء المؤذن ، فأخطر في قلبك هول النـــداء يوم القيامة ، وتشمر بباطنك وظاهرك للاجابة والمسارعة ، فان المسارعين الى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الاكبر ، فأعرض قلبك على هذا النداء ، فان وجدته ملوا بالفرح والاستبشار ، مشحونا بالرغبة الى الابتدار ، فاعلم انه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء، ولذلك قال سيد الانبياء : « ارحنا يا بلال ! » ، اي : ارحنا بها وبالنداء اليها ، إذ كانت قرة عينه فيها . واعتبر بفصول الاذان وكلماته كيف افتتحت بالله واختتمت بالله ، واعتبر بذلك ان الله جل جلاله هو الاول والآخر والظاهر والباطن ، ووطن قلبك بتعظيمه عند سماع التكبير ، واستحقر الدنيا وما فيها لئلا تكون كاذبا في تكبيرك ، وانف عن خاطرك كل معبود سواه بسماع التهليل . واحضر النبي (ص) ، وتأدب بين يديه ، واشهد له بالرسالة مخلصا ، وصـــل عليه وآله ، وحرك نفسك ، واسع بقلبك وقالبك عند الدعاء الى الصلاة ، وما يوجب الفلاح ، وما هو خير الاعمال وافضلها . وجدد عهدك بعد ذلك بتكبير الله وتعظيمه ، واختمه بذلك كما افتتحت به . واجعل مبدءك منه ، وعودك اليه ، وقوامك به ، واعتمادك على حوله وقوته . فانه لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

فصل

(الوقت)

واذا دخل الوقت ، استحضر أنه ميقات جعله الله لك ، لتقوم فيه بخدمته ، وتتأمل للمثول في حضرته ، والفوز بطاعته ، وليظهر على قلبك السرور ، وعلى وجهك البهجة عند دخوله ، لكونه سبباً لقربك ووسيلة الى فوزك . فاستعد له بالطهارة والنظافة ، ولبس الثياب الصالحة للمناجاة كما تتأهب عند القدوم على ملك من ملوك الدنيا ، وتلقاه بالسكينة والوقار والخوف والرجاء ، واستحضر عظمة الله وجلاله ، وعدم تناهي قدرته وكماله ، ونقصان قدرك ومرتبتك ، وعدم قابليتك للقيام بخدمته ، وقصورك عن أداء وظائف طاعته .

فصل

(آداب الصلاة)

اذا اتيت بالطهارة في مكانك ، وهو ظرفك الابعد ، ثم في ثيابك ، وهو غلافك الاقرب ، ثم في بشرتك ، وهي قشرك الادنى ، فلا تغفل عن لبك وذاتك ، وهو قلبك ، فطهره بالتوبة والندم على ما فرط ، وتصميم العزم على الترك في المستقبل ، فطهر بها باطنك ، فانه موضع نظر ربك . ثم اذا سترت مقابح بدنك عن ابصار الخلق باللباس ، فاخطر ببالك فضائح سرك التي لا يطلع عليها إلا ربك ، وطالب نفسك بسترها ، وتحقق أنه لا يستر عن عين الله ساتر ، وإنما يكفرها الخوف والندم والحياء ، فتستفيد باظهارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والندم والحياء من مكامنها ، فتذل به نفسك ، ويستكين تحت الخجلة قلبك ، وتقوم بين يدي الله - تعالى -

قيام العبد المجرم المسيء الآبق ، الذي ندم فرجع الى مولاه ، ناكساً رأسه من الخوف والحياء . قال الصادق (ع) : « أزين اللباس للمؤمن لباس التقوى ، وانعمه الايمان ، قال الله ـ تعالى ـ :

« وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ » (١)

وأما اللباس الظاهر ، فنعمة من الله ـ تعالى ـ تستر بها عورات بني آدم ، وهي كرامة اكرم الله بها ذرية آدم ما لم يكرم بها غيرهم ، وهي للمؤمنين آلة لاداء ما افترض الله عليهم . وخير لباسك مالا يشغلك عن الله ـ عز وجل ـ ، بل يقربك من ذكره وشكره وطاعته ، ولا يحملك على العجب والرياء والتزين والتفاخر والخيلاء ، فانها من آفات الدين ، ومورثة للقسوة في القلب . فاذا لبست ثوبك ، فاذكر ستر الله عليك ذنوبك برحمته ، والبس باطنك بالصدق كما البست ظاهرك بثوبك ، وليكن باطنك من الصدق في ستر الهيبة ، وظاهرك في ستر الطاعة . واعتبر بفضل الله ـ عز وجل ـ ، حيث خلق أسباب اللباس ليستر بها العورات الظاهرة ، وفتح أبواب التوبة والانابة والاغاثة ليستر بها عورات الباطن من الذنوب وأخلاق السوء . ولا تفضح أحداً حيث ستر الله عليك ما اعظم منه . واشتغل بعيب نفسك واصفح عما لا يعنيك حاله وامره . واحذر أن يفنى عمرك بعمل غيرك ، ويتجر برأس مالك غيرك ، وتهلك نفسك ، فان نسيان الذنوب من أعظم عقوبة الله في العاجل ، واوفر أسباب العقوبة في الآجل . وما دام العبد مشتغلا بطاعة الله ـ تعالى ـ ، ومعرفة عيوب نفسه ، وترك ما يشين في دين الله ـ عز وجل ـ ، فهو بمعزل عن الآفات ، خائض في بحر رحمة الله ـ عز وجل ـ ، يفوز بجواهر

(١) الاعراف ، الآية : ٢٥ .

الفوائد من الحكمة والبيان . وما دام ناسياً لذنوبه ، جاهلا بعيوبه ، راجعاً الى حوله وقوته ، لا يفلح إذا أبداً » (١) .

فصل

(آداب المصلى)

إذا أتيت مصلاك ، فاستحضر فيه انك كان بين يدي ملك الملوك ، تريد مناجاته ، والتضرع اليه ، والتماس رضاه ، ونظره اليك بعين الرحمة. فاختر مكاناً يصلح ، كالمساجد الشريفة ، والمشاهد المطهرة ، مع الامكان ، فانه ـ تعالى ـ جعل تلك المواضع محلا لاجابته ، وموضع نزول فيوضاته ورحمته ، على مثال حضرة الملوك ، الذين يجعلونها وسيلة لنيل المقاصد والمطالب . فادخلها بالسكينة والوقار ، ومراقباً للخضوع والانكسار . قال الصادق (ع) : « إذا بلغت باب المسجد ، فاعلم انك قد قصدت باب ملك عظيم ، لا يطأ بساطه إلا المطهرون ، ولا يؤذن لمجالسته إلا الصديقون، فهب القدوم الى بساط هيبة الملك ، فانك على خطر عظيم ان غفلت ، فاعلم انه قادر على ما يشاء من العدل والفضل معك وبك . فان عطف عليك برحمته وفضله ، قبل منك يسير الطاعة ، وأجزل لك عليها ثواباً كثيراً . وإن طالبك باستحقاقه الصدق والاخلاص عدلا بك ، حجبك ورد طاعتك وان كثرت . وهو فعال لما يريد . واعترف بعجزك وتقصيرك وانكسارك وفقرك بين يديه ، فانك قد توجهت للعبادة له ، والمؤانسة به . واعرض أسرارك عليه ، ولتعلم أنه لا تخفى عليه اسرار الخلائق أجمعين وعلانيتهم. وكن كأفقر عباده بين يديه . واخل قلبك عن كل شاغل يحجبك عن ربك ، فانه لا يقبل إلا الاطهر والاخلص . وانظر من اى ديوان يخرج اسمك ،

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ٧/١٣٧ ـ ١٣٨ .

فان ذقت حلاوة مناجاته ولذيذ مخاطباته ، وشربت بكأس رحمته وكراماته من حسن اقباله عليك واجابته ، فقد صلحت لخدمته ، فادخل فلك الاذن والامان ، وإلا فقف وقوف من قد انقطع عنه الحيل ، وقصر عنه الامل ، وقضى عليه الاجل . فان علم الله ـ عز وجل ـ من قلبك صدق الالتجاء اليه نظر اليك بعين الرأفة والرحمة والعطف ، ووفقك لما تحب وترضى ، فانه كريم يحب الكرامة لعباده المضطرين اليه ، المقيمين على بابه لطلب مرضاته . قال الله ـ تعالى ـ :

« أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ »(١)»(٢).

فصل

(الاستقبال)

واما الاستقبال ، فهو صرف الظاهر وجهك عن سائر الجهات الى جهة بيت الله . وهذا إشارة الى انه ينبغي ان يصرف وجه القلب عن سائر الاشياء الى الله ، فان الاعمال الظاهرة تحريكات للبواطن على ما يناسبها ، فضبط الجوارح وتسكينها بالاثبات في جهة واحدة لاجل الا تبقى على القلب ، لانها اذا توجهت الى جهات متعددة يتبعها القلب في التوجه الى اشياء متعددة ، فأمر الله بصرفها الى شطر بيته ، ليتذكر القلب صاحبه ، ويتوجه اليه ، ويثبت على ذلك كما تثبت الاعضاء على جهة واحدة . قال رسول الله (ص) : « إن الله ـ تعالى ـ مقبل على المصلي ما لم يلتفت » ، وهذا

---

(١) النمل ، الآية : ٦٢ .

(٢) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ١٢/١٤٠ ـ ١٤١ .

الالتفات يشمل التفات القلب ايضاً ، فكما يجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات الى الجهات ، فكذلك يجب حراسة السر عن الالتفات الى غير الله وغير الصلاة ، فان التفت الى غير الله وغير الصلاة ، فذكره باطلاع الله عليه ، وقبح غفلة المناجي عمن يناجيه وعما يقول له حين المناجاة ، لاسيما اذا كان من يناجيه ملك الملوك . والزم قلبك الخشوع ، فان الخلاص عن الالتفات ظاهراً وباطناً ثمرة الخشوع ، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر ، ولذا قال رسول الله (ص) ـ وقد راى مصليا يعبث بلحيته ـ : « اما هذا ، لو خشع قلبه لخشعت جوارحه ، فان الرعية بحكم الراعي » . وفي الدعاء : « اللهم اصلح الراعي والرعية » ، وهو القلب والجوارح .

وبالجملة : ينبغي لكل مؤمن صرف وجهه الى بيت الله للصلاة ، أن يصرف وجه قلبه الى صاحب البيت ، وكما لا يتوجه الوجه الى جهة البيت إلا بالصرف عن غيرها ، فكذلك لا ينصرف وجه القلب الى الله إلا بالتفرغ عما سوى الله ، وقد قال رسول الله (ص) : « إذا قام العبد الى صلاته ، وكان هواه وقلبه الى الله ، انصرف كيوم ولدته أمه » . وقال (ص): « أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار؟!» قيل : هذا نهى عن الالتفات عن الله ، وملاحظة عظمته في حال الصلاة ، فان الملتفت يميناً وشمالا غافل عن الله وعن مطالعة أنوار كبريائه ، ومن كان كذلك فيوشك أن تدوم تلك الغفلة عليه ، فيتحول وجه قلبه كوجه قلب الحمار في قلة عقله للأمور العلوية وعدم فهمه للمعارف . وقال الصادق (ع) : « إذا استقبلت القبلة ، فآيس من الدنيا وما فيها ، والخلق وما هم فيه ، واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن الله ـ تعالى ـ ، وعاين بسرك عظمة الله ـ عز وجل ـ ، واذكر وقوفك بين يديه ، قال الله ـ تعالى ـ :

« هُنالكَ تَبلو كُلُّ نَفسٍ ما أسلَفَتْ وَرُدُّوا الى اللهِ مَولاهُمُ الحقِّ » (١).

وقف على قدم الخوف والرجاء » (٢).

فصـــل

(القيـام)

وأما القيام ، فهو مثول بالشخص والقلبُ بين يدي الله ـ سبحانه ـ . فليكن رأسك الذي هو أرفع اعضائك مطرقاً مطأطأً متنكساً ، تنبيها للقلب على لزوم التواضع والتذلل والانكسار ، والتبري عن التكبر والترؤس. وينبغي أن تتذكر هاهنا خطر المقام بين يدي الله في هول المطلع عند التعرض للسؤال ، وتذكر في الحال أنك قائم بين يدي الله وهو مطلع عليك ، فليكن قيامك بين يديه على ما يليق بعظمته وجلاله ، وإن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله ، فلا تجعل مالك الملك والملكوت أنزل من بعض ملوك عصرك، فقم بين يديه قيامك بين يدي ملك زمانك ، بل قدر في دوام قيامك في صلاتك أنك ملحوظ بعين كالئة من رجل صالح من أهلك ، أو عن ترغب أن يعرفك بالصلاح ، فانه تهدء عند ذلك أطرافك ، وتخشع جوارحك ، ويسكن جميع أجزائك ، خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين الى قلة الخشوع . وبالجملة : الخضوع والخشوع والاستحياء والانفعال ، يقتضيها الطبع بين يدي من يعظم من ابناء الدنيا ، فكيف لا يقتضيها بين يدي ملك الملوك عند من يعرفه ؟ فمن يكون بين يدي غير الله خاشعا ، ولا يكون بين يدي الله

(١) يونس ، الآية : ٣٠.

(٢) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ١٤١/١٣ .

كذلك ، فذلك لقصور معرفته عن جلال الله وعن اطلاعه على سره وضميره، وعدم تدبره في قوله ـ تعالى ـ :

«الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ، وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ»(١)

فتبا لمن يدعي معرفة الله والعلم بعظمته وجلاله وحبه والخشية منه ، ومع ذلك يستحيي من احد عبيده المساكين الذي لا يقدر على نفع ولا ضر، ولا يستحيي من الله، ويخشى الناس ولا يخشاه !

فصل

(التكبيرات)

وأما التوجه بالتكبيرات ، فينبغي أن تستحضر عندك عظمة الله وجلاله ، وصغر نفسك وذلتها في جنب عظمته ، وقصورك عن القيام بوظائف خدمته . واذا قلت : (اللهم إنك أنت الملك الحق) ، فتذكر عظيم ملكه ، وعموم قدرته ، واستيلاءه على جميع العوالم ، ثم ارجع على نفسك بالذل والانكسار . واذا قلت : (لبيك وسعديك ! والخير في يديك ، والشر ليس اليك) ، مثل نفسك بين يديه ، وتيقن أنه اقرب منك من نفسك ، ويسمع نداءك ، ويجيب دعاءك ، وأن خير الدنيا والآخرة بيده لا بيد غيره ، وأنه خير محض منزه عن الشر . واذا قلت: (عبدك وابن عبديك ، منك وبك ولك واليك) ، فقد اعترفت له بالعبودية ، وبأنه ربك وخالقك ومالكك ، وموجدك ومخترعك ، وانت اثره وفعله ، ومنه وجودك ، وبه قوامك ، وله ملكك ، واليه معادك ، فانت منه ، فلا يتركك ويرحمك ، فألق نفسك الضعيفة العاجزة بين

(١) الشعراء ، الآية : ٢١٨ ـ ٢١٩ .

يديه ، ووكل امورك في الدنيا والآخرة اليه ، ولا تعتمد في مقاصدك إلا عليه ، فاحضر في ذهنك في هذه الفقرات وغيرها من الكلمات التي ينطق بها لسانك أمثال هذه الحقائق ، وترق منها الى ما يفتح عليك من الأسرار والدقائق ، واحفظ نفسك عن الوقوع في أودية الوساوس والهوى ، فتلقى الفيض من العالم الأعلى .

فصل

(النية)

وأما النية ، فحقيقتها القصد الى الفعل ، امتثالا لأمر الله ، وطلبا لتقربه ، ورجاء لثوابه ، وخوفا من عقابه . فينبغي أن تجتهد في خلوصها ألا يشوبها غرض دنيوي فتفسد ، وحقيقة الاخلاص وما يتعلق بها قد تقدمت مفصلة في محلها . وينبغي أن تتذكر هاهنا عظيم لطفه ومنته عليك ، حيث اذنك في المناجاة مع سوء أدبك وكثرة جنايتك ، وعظم في نفسك قدر مناجاته . وانظر من تناجي ، وكيف تناجي ، وبماذا تناجي . وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجلة ، وترتعد فرائصك من الهيبة ، ويصفر وجهك من الخوف والخشية .

فصل

(تكبيرة الاحرام)

واذا كبرت تكبيرة الاحرام ، تذكر ان معناها : انه ـ تعالى ـ اكبر من ان يوصف ، او اكبر من كل شيء ، أو اكبر من أن يدرك بالحواس ، او يقاس بالناس . فانتقل منه الى غاية عظمته وجلاله ، واستناد ماسواه اليه ، بالايجاد والاختراع والاخراج من كتم العدم . وينبغي ان تكون

على يقين بذلك ، حتى لا يكذب لسانك قلبك . فان كان في قلبك شيء هو اكبر من الله - تعالى - عندك ، فالله يشهد أنك كاذب ، وان كان الكلام صدقا ، كما شهد على المنافقين في قولهم : إن النبي رسول الله . وإن كان هواك اغلب عليك من امر الله - تعالى - ، وانت اطوع له منك لله ولأمره ، فقد اتخذته إلهك وكبرته ، فيوشك ان يكون قولك (الله اكبر) كلاما باللسان المجرد ، وقد تخلف القلب عن مساعدته ، وما اعظم الخطر في ذلك ، لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرمه - تعالى - وعفوه . قال الصادق (ع) : « فاذا كبرت ، فاستصغر ما بين السماوات العلى والثرى دون كبريائه ، فان الله - تعالى - اذا اطلع على قلب العبد وهو يكبر ، وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره ، قال : يا كذاب أتخدعني ؟! وعزتي وجلالي ! لأحرمنك حلاوة ذكري ، ولأحجبنك عن قربي والمسرة بمناجاتي ! » (١) . فاعتبر أنت قلبك حين صلاتك ، فان كنت تجد حلاوتها وفي نفسك سرورها وبهجتها ، وقلبك مسرور بمناجاته ، وملتذ بمخاطباته ، فاعلم انه - تعالى - قد صدقك في تكبيرك ، وان سلبت لذة المناجاة ، وحرمت حلاوة العبادة ، فاعلم أنه تعالى كذبك في تكبيرك ، وطردك عن بابه ، وابعدك عن جنابه ، فابك على نفسك بكاء الثكلى ، وبادر الى العلاج قبل ان تدركك الحسرة العظمى .

فصل

(دعاء الاستفتاح)

واما دعاء الاستفتاح ، فأول كلماته : (وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض) ، ومعلوم ان المراد بالوجه هنا هو وجه القلب دون

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ١٤١/١٣ .

الوجه الظاهر ، لأن الله سبحانه منزه عن الامكنة والجهات حتى توجه اليه الوجه الظاهر . فانت تدعي في هذا الكلام ان قلبك متوجه الى فاطر السماوات والارض ، فاياك ان يكون اول مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق ، إذ لو كان قلبك متوجها الى امانيه ، وهمه في البيت والسوق ، او واقعا في اودية الوساوس ، او كان غافلا ، لم يكن مقبــــلا على الله متوجها اليه ، وكنت كاذبا في اول مخاطبتك مع ربك . فاجتهد ان ينصرف قلبك عما سواه ، وتقبل عليه في هذا الوقت ، وان عجزت عنه على الدوام، لئلا تكون كاذبا في اول كلامك . واذا قلت : (حنيفا مسلما)، فاخطر ببالك أن المسلم هو الذي سلم المسلمون من يده ولسانه ، فان لم تكن موصوفا بهذا الوصف كنت كاذبا ، فاجتهد ان تعزم عليه في الاستقبال ، وان تندم على ما سبق من الاحوال . واذا قلت . (وما انا من المشركين) ، فاخطر ببالك الشرك الخفي ، وكونه داخلا في الشرك ، لاطلاق الشرك على القليل والكثير . فلو قصدت بجزء من عبادتك غير الله ، من مدح الناس وطلب المنزلة في قلوبهم ، كنت مشركا كاذبا في هذا الكلام . فانف هذا الشرك عن نفسك ، واستشعر الخجلة في قلبـك ، بأن وصفت نفسك بوصف ليست متصفة به في الواقع . واذا قلت : (محياي ومماتى لله رب العالمين) ، فاعلم ان هذا حال عبد مفقود لنفسه ، موجود لسيده ، فان عن ذاته ، باق بربه ، بحيث لا يرى لذاته من حيث هي قدرة وقوة ، بل يعلم حياته وبقاءه من الله ـ تعالى ـ ، ولا تكون حركاته وسكناته الا لله تعالى . فالقائل بهذا الكلام ، اذا راى لنفسه من حيث هي قدرة واثرا ، او صدر عنه فعل : من الرضا ، او الغضب ، او القيام ، او القعود ، او الرغبة في الحياة ، او الرهبة من الموت لامور الدنيا ، كان كاذبا .

فصـــل

(الاستعاذة)

فاذا قلت : (اعوذ بالله من الشيطان الرجيم) ، ينبغي ان تعلم ان الشيطان اعدى عدوك ، مترصد لصرف قلبك عن الله ، حسداً لك على مناجاتك مع الله وسجودك له ، مع أنه لعن وطرد عن مقام القرب بترك السجدة . وينبغي ألا تكون استعاذتك بالله منه بمجرد القول ، لتكون مثل من قصده سبع أو عدو ليفترسه او يقتله ، فقال : اعوذ منك بهذا الحصن الحصين ، وهو ثابت على مكانه ، فان ذلك لا يفيده ولا ينفعه ما لم يتحرك ويدخل الحصن . فكذلك مجرد الاستعاذة لا ينفعك ما لم يترك ما يحب الشيطان ، وما لم يأت بما يحبه الله . فمن اتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن ، لا يغنيه مجرد القول ، فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عن شر الشيطان ، وحصنه (لا إله إلا الله) ، إذ قال : « لا إله إلا الله حصني ، ومن دخل حصني أمن من عذابي » . والدخول في حصن (لا إله إلا الله) ليس أيضا بمجرد التكلم به ، بل الاذعان القلبي واليقين القطعي بأن كل معبود سواه باطل ، وكل شيء منه وله وبه واليه ، ولا مؤثر في الوجود إلا هو . فالمحصن بالتوحيد من لا معبود له سوى الله ، واما من اتخذ إله هواه ، فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله . ومن مكائد اللعين أن يشغلك في الصلاة بفكر الآخرة ، وتدبير فعل الخيرات ، لتمنع من الحضور وفهم ما تقرأ ، فاعلم أن كل ما يشغلك عن الاقبال الى الله وعن فهم معاني القرآن والاذكار فهو وسواس ، إذ حركة اللسان غير مقصودة ، بل المقصود المعاني . واذا قلت : (بسم الله الرحمن الرحيم) ، فانو به التبرك لا بتدائك بقراءة كلام الله ، والمراد بالاسم هنا

المسمى ، فمعناه : أن كل الأشياء والأمور بالله ، فيترتب عليه انحصار (الحمد لله) ، إذ المراد بالحمد الشكر ، والشكر إنما يكون على النعم، فاذا كانت النعم باسرها من الله فيكون منحصراً به ، فمن يرى نعمة من غير الله، او يقصد غيره سبحانه بشكر لا من حيث إنه مسخر من الله ، ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته الى غير الله سبحانه . واذا قلت : (الرحمن الرحيم) ، فاحضر في قلبك أنواع لطفه ، وضروب احسانه ، لتتضح لك رحمته ، فينبعث بها رجاؤك . واذا قلت :(مالك يوم الدين) ، فاستشعر من قلبك التعظيم والخوف ، أما العظمة فلأنه لا ملك إلا هو ، وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكه . ثم جدد الاخلاص بقولك : (إياك نعبد) . وجدد العجز والافتقار والتبري من الحول والقوة بقولك : (وإياك نستعين) ، وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا باعانته ، وان له المنة ، إذ وفقك لطاعته، واستخدمك لعبادته ، وجعلك أهلا لمناجاته، ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان الرجيم ، واستحضر ان الاعانة لا تكون إلا منه ، ولا يقدر غيره أن يمين احداً ، فاخرج عن قلبك الوسائل والاسباب إلا من حيث إنها مسخرة منه تعالى . واذا قلت : (إهدنا الصراط المستقيم) ، فاعلم انه طلب لأهم حاجاتك ، وهي الهداية الى النهج الحق الذي يسوقك الى جوار الله ، ويفضي بك الى مرضاته، ويوصلك الى مجاورة من انعم الله عليهم نعمة الهداية من الانبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، دون الذين غضب الله عليهم من الكفار والزائفين من اليهود والنصارى والصابئين . واذا تلوت (الفاتحة) كذلك ، فيشبه ان تكون ممن قال الله فيهم بما اخبر عنه النبي (ص) : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، نصفها لي ، ونصفها لعبدي . يقول العبد : الحمد لله رب

العالمين ، فيقول الله ـ عز وجل ـ : حمدني عبدي واثنى علي. وهو معنى قوله: سمع الله لمن حمده ... » الى آخر الحديث . فان لم يكن لك من صلاتك حظ سوى التذاذك بذكر الله في جلاله وعظمته ، فناهيك به غنيمة ، فكيف ما ترجوه من ثوابه وفضله. وكذلك ينبغي ان تفهم وتخرج الحقائق عما تقرأه من السورة ، فلا تغفل عن أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، ومواعظه واخبار أنبيائه ، وذكر مننه واحسانه ، فلكل واحد حق : فحق الأمر والنهي العزم، وحق الوعد الرجاء، وحق الوعيد الخوف، وحق الموعظة الاتعاظ وحق اخبار الانبياء الاعتبار ، وحق ذكر المنة الشكر ، وتكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم ، ويكون الفهم على حسب العلم وصفاء القلب ، ودرجات ذلك لا تنحصر . والصلاة مفتاح القلوب ، فيها تنكشف أسرار الكلمات . فهذا حق القراءة ، وهو ايضاً حق الأذكار والتسبيحات . واعلم ان الناس في القراءة ثلاثة : بعضهم يتحرك لسانه وقلبه غافل . وبعضهم يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان ، فيسمع ويفهم منه كأنه يسمعه من غيره، وهو درجة أصحاب اليمين . وبعضهم يسبق قلبه الى المعاني اولا ، ثم يخدم اللسان قلبه فيترجمه ، وفرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب ، والمقربون السنتهم ترجمان تتبع القلب . ثم ينبغي ان تراعي الهيئة في القراءة ، فترتل ، ولا تسرد ولا تعجل ، فان ذلك أيسر للتأمل ، وتفرق بين نغماته في آية الرحمة والعذاب ، والوعد والوعيد ، والتمجيد والتعظيم ، كان بعضهم اذا مر بمثل قوله :

« مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ »(١).

يغض صوته ، كالمستحيي عن ان يذكره بكل شيء . وروي : « انه

(١) المؤمنون ، الآية : ٩٢ .

يقال يوم القيامة لصاحب القرآن: اقرأ وارق، فكلما قرأ آية صعد درجة».

فصل

(الركوع)

واما الركوع، فينبغي ان تجدد عنده ذكر كبرياء الله، وترفع بذلك معظماً له منبها على غاية عظمته وارتفاعه، وكونه ارفع من ان تصل اليه ايدي العقول والاوهام، ومستجيراً بعفوه من عقابه، وتستأنف بهويك للركوع ذلا وتواضعاً، وتجتهد في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك، وتستشعر ذلك وعزه، وضعفك وقوته، وعجزك وقدرته، واتضاعك وعلوه، وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك، فتسبحه وتشهد له بالعظمة، وانه اعظم من كل عظيم، وتكرر ذلك على قلبك لتترسخ فيه عظمته وجلاله، ثم ترفع عن ركوعك راجياً انه راحم ذلك، وتؤكد الرجاء في نفسك بقولك: (سمع الله لمن حمده) أي: اجاب الله لمن شكره، وتتبع ذلك بالشكر المتقاضي للمزيد، فتقول: (الحمد لله رب العالمين)، ثم تزيد في التذلل والخشوع وتعظيم ربك واجلاله، فتقول: (اهل الكبرياء والعظمة والجود والجبروت)، روى (الصدوق) — رضوان الله عليه — عن اميرالمؤمنين (ع): «انه سئل عن معنى مد العنق في الركوع، فقال(ع): تأويله: آمنت بك ولو ضربت عنقي». وقال الصادق (ع): «لا يركع عبد لله ركوعاً على الحقيقة، إلا زينه الله بنور بهائه، واظله في ظل كبريائه، وكساه كسوة اصفيائه. والركوع اول، والسجود ثان. فمن اتى بمعنى الاول صلح للثاني. وفي الركوع ادب، وفي السجود قرب، ومن لا يحسن الادب لا يصلح للقرب. فاركع ركوع خاشع لله عز وجل بقلبه، متذلل وجل

تحت سلطانه ، خافض له بجوارحه خفض خائف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين » (١) . وحكي : « أن ربيع بن خثيم ، كان يسهر بالليل الى الفجر في ركعة واحدة ، فاذا اصبح ، تزفر وقال : آه ! سبق المخلصون وقطع بنا » . واستوف ركوعك باستواء ظهرك ، وانحط عن همتك في القيام بخدمته إلا بتأييده وعونه ، وفر بقلبك من وساوس الشيطان وخدائعه ومكائده ، فان الله يرفع عباده بقدر تواضعهم له ، ويهديهم الى اصول التواضع والخضوع والخشوع بقدر اطلاع عظمته على سرائرهم .

فصل

(السجود)

واذا هويت الى السجود ، جدد على قلبك غاية الذل والعجز والانكسار ، إذ السجود أعلى درجات الاستكانة ، فمكن أعز أعضائك ، وهو الوجه ، لأذل الاشياء ، وهو التراب ، ولا تجعل بينهما حاجزاً ، بل اسجد على الارض ، لأنه أجلب للخضوع ، وأدل على الذل . فاذا وضعت نفسك موضع الذل ، والقيتها على التراب ، فاعلم أنك وضعتها موضعها ، ورددت الفرع الى اصله ، فانك من التراب خلقت ، واليه رددت . فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله ، وقل : (سبحان ربي الأعلى وبحمده) ، واكده بالتكرار ، إذ المرة الواحدة ضعيفة الآثار ، فان رق قلبك ، وطهر لبك ، فليصدق رجاؤك في رحمة ربك ، فان رحمته تتسارع الى موضع الذل والضعف ، لا الى محل التكبر والبطر . فارفع رأسك مكبراً

(١) صححنا الحديث على الباب ١٥ من (مصباح الشريعة) . وعلى (بحار الأنوار) : ٣٥٦/١٨ ، باب الركوع وآدابه من كتاب الصلاة . وعلى (المستدرك) : ٣٢٥/١ ، باب نوادر ما يتعلق بالركوع من كتاب الصلاة أيضا .

ومستغفراً من ذنوبك ، وسائلا حاجتك ، ثم اكد التواضع بالتكرار ، وعد الى السجود ثانياً كذلك . وسئل مولانا أمير المؤمنين (ع) عن معنى السجدة الأولى ، قال : « تأويلها : اللهم إنك منها خلقتنا » : يعني من الأرض ، وتأويل رفع رأسك : « ومنها أخرجتنا » ، والسجدة الثانية : « واليها تعيدنا » ، ورفع رأسك : « ومنها تخرجنا تارة اخرى » . وقال مولانا الصادق (ع) : « ما خسر والله ـ تعالى ـ قط من اتى بحقيقة السجود ولو كان في العمر مرة واحدة ، وما افلح من خلا بربه في مثل ذلك الحال شبيها بمخادع نفسه ، غافل لاه عما اعد الله تعالى للساجدين من انس العاجل وراحة الآجل ، ولا بعد عن الله تعالى أبداً من احسن تقربه في السجود ، ولا قرب اليه ابداً من أساء ادبه وضيع حرمته بتعليق قلبه بسواه في حال سجوده . فاسجد سجود متواضع لله ذليل ، علم انه خلق من تراب يطأه الخلق ، وانه ركب من نطفة يستقذرها كل احد ، وكون ولم يكن ، وقد جعل الله معنى السجود سبب التقرب اليه بالقلب والسر والروح ، فمن قرب منه بعد من غيره ، الا ترى في الظاهر انه لا يستوى حال السجود الا بالتواري عن جميع الاشياء ، والاحتجاب عن كل ما تراه العيون ؟ كذلك اراد الله تعالى امر الباطن . فمن كان قلبه متعلقاً في صلاته بشيء دون الله تعالى ، فهو قريب من ذلك الشيء ، بعيد عن حقيقة ما اراد الله منه في صلاته . قال الله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » . وقال رسول الله (ص) : « قال الله عز وجل : ما اطلع على قلب عبد فأعلم فيه حب الاخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي ، إلا توليت تقويمه وسياسته ، ومن اشتغل في صلاته بغيري فهو من المستهزئين بنفسه ،

واسمه مكتوب في ديوان الخاسرين » (١).

فصل

(التشهد)

إذا جلست للتشهد بعد هذه الافعال الدقيقة والاسرار العميقة ، المشتملة على الاخطار الجسيمة ـ فاستشعر الخوف التام والرهبة والوجل والحياء ، ان يكون جميع ما سلف منك غير واقع على وجهه ، ولا محصلا بوظائفه وشرائطه ولا مكتوبا في ديوان القبول . فاجعل يدك صفراً من فوائدها ، وارجع الى مبدأ الامر ، واصل الدين ، اعني كلمة التوحيد وحصن الله الذي من دخله كان آمنا ، فاستمسك به ان لم تكن لك وسيلة غيره ، فاشهد لربك بالوحدانية ، واحضر رسوله الكريم ونبيه العظيم ببالك ، واشهد له بالعبودية والرسالة ، وصل عليه وعلى آله ، مجدداً عهد الله باعادة كلمتي الشهادة ، متعرضا بهما لتأسيس مراتب العبادة ، فانهما اول الوسائل واساس الفواضل ، ومتوسلا الى رسول الله بالصلاة عليه ، مترقبا بذلك عشراً من صلاته (ص) عليك ـ كما ورد في الخبر ـ ، ولو وصل اليك منها واحدة افلحت ابداً . قال الصادق (ع) : « التشهد ثناء على الله . فكن عبدا له في السر خاضعا له في الفعل ، كما انك عبد له في القول والدعوى . وصل صدق لسانك بصفاء صدق سرك ، فانه خلقك عبداً ، وامرك ان تعبده بقلبك ولسانك وجوارحك ، وأن تحقق عبوديتك له وربوبيته لك ، وتعلم ان نواصي الخلق بيده ، فليس لهم نفس ولا لحظة إلا بقدرته ومشيته ، وهم عاجزون عن اتيان اقل شيء في مملكته إلا باذنه

(١) صححنا الحديث على : الباب ١٦ من (مصباح الشريعة) . وعلى (بحار الانوار) : ٣٦٣/١٨ ، باب السجود وآدابه .

وارادته . قال الله عز وجل :

« وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ سُبْحانَ اللهِ وَتَعالَىٰ عَمّا يُشْرِكُونَ »(١).

فكن لله عبداً شاكراً بالقول والدعوى ، وصل صدق لسانك بصفاء سرك ، فانه خلقك فعز وجل أن تكون إرادة ومشية لأحد إلا بسابق ارادته ومشيته ، فاستعمل العبودية في الرضا بحكمته ، وبالعبادة فى اداء أوامره ، وقد أمرك بالصلاة على حبيبه محمد (ص) ، فاوصل صلاته بصلاته، وطاعته بطاعته ، وشهادته بشهادته ، وانظر ألا تفوتك بركات معرفة حرمته فتحرم عن فائدة صلاته ، وامره بالاستغفار لك ، والشفاعة فيك ، إن اتيت بالواجب في الأمر والنهي والسنن والآداب ، وتعلم جليل مرتبته عند الله عز وجل » (٢).

فصل

(التسليم)

واذا فرغت عن التشهد ، فاحضر بحضرة سيد المرسلين ، والملائكة المقربين ، وبقية أنبياء الله وأئمته ـ عليهم السلام ـ والحفظة لك من الملائكة المحصين لأعمالك ، واحضرهم جميعاً في بالك . فسلم اولا على نبيك الذي هو أفضل الكل ، وواسطة هدايتك وايمانك ، بقولك : (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) . ثم توجه الى الجميع ، وسلم عليهم بقولك :

(١) القصص ، الآية : ٦٨ .

(٢) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ١٧ . وعلى (بحار الانوار) : ٤٠٣/١٨ . باب التشهد واحكامه .

(السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) . ولا تطلق لسانك بصيغة الخطاب من غير حضور المخاطب في ذهنك ، فتكون من العابثين واللاعبين ، وكيف تسمع الخطاب لمن لا يقصد ، لو لا فضل الله في اجترائه بذلك عن اصل الواجب ، وان كان بعيداً عن درجات القبول ، منحطاً عن اوج القرب والوصول . وان كنت إماماً لقوم ، فاقصدهم بالسلام من تقدم من المقصودين ، وليقصدوا هم الرد عليك ايضاً ، واذا فعلتم ذلك فقد اديتم وظيفة السلام ، واستحققتم من الله مزيد الاكرام . قال الصادق (ع) : « معنى التسليم في دبر كل صلاة : الامان ، اي من اتى امر الله وسنة نبيه (ص) خاضعاً له خاشعاً منه ، فله الامان من بلاء الدنيا ، والبراءة من عذاب الآخرة . والسلام اسم من اسماء الله تعالى اودعه خلقه ، ليستعملوا معناه في المعاملات والامانات والانصافات ، وتصديق مصاحبتهم فيما بينهم ، وصحة معاشرتهم . فان اردت ان تضع السلام موضعه ، وتؤدى معناه ، فاتق الله تعالى ليسلم منك دينك وقلبك وعقلك ، ألا تدنسها بظلمة المعاصي، ولتسلم منك حفظتك الا تبرمهم وتملهم وتوحشهم منك بسوء معاملتك معهم ، ثم مع صديقك ، ثم مع عدوك . فان من لم يسلم منه من هو الاقرب اليه فالابعد اولى ، ومن لا يضع السلام مواضعه هذه فلا سلام ولا اسلام ولا تسليم ، وكان كاذبا في سلامه وان افشاه في الخلق » (١) .

فصل

(افاضة الانوار على المصلي على قدر صفاته)

اعلم ان تخليص الصلاة عن الآفات ، واخلاصها لوجه الله ، واداءها بالشروط الباطنة المذكورة ، من الحضور ، والخشوع ، والتعظيم ، والهيبة ،

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ١٨/١٤٤ .

والحياء ؛ سبب لحصول انوار في القلب ، تكون تلك الانوار مفاتيح للعلوم الباطنة ، وانما يفيض منها على كل مصل على قدر صفائه من كدورات الدنيا ، ويختلف ذلك بالقـــلة والكثرة ، والقوة والضعف ، والجلاء والخفاء ، ويختلف ايضا بما ينكشف من العلوم ، فينكشف لبعضهم من صفات الله وجلاله ، ولبعضهم من عجائب افعاله ، ولبعضهم من دقائق علوم المعاملة ، ولبعضهم غير ذلك ، واولى بالظهور والافاضة لكل شخص ما يهمه ويكون في طلبه . والى ما ذكرنا من ترتب الافاضة العلوية على الصلاة الخالصة لوجه الله المؤداة بالشروط المذكورة ، اشار النبي (ص) بقوله : « ان العبد اذا قام في الصلاة ، رفع الله الحجاب بينه وبين عبده ، وواجهه بوجهه ، وقامت الملائكة من لدن منكبيه الى الهواء ، يصلون بصلاته ، ويؤمنون على دعائه ، وان المصلي لينشر عليه البر من اعنان السماء الى مفرق راسه ، ويناديه مناد : لو علم المصلي من يناجي ما التفت . وان ابواب السماء تفتح للمصلين ، وان الله يباهي ملائكته بصدق المصلي » . فان رفع الحجاب وفتح ابواب السماء كناية عن افاضة العلوم الباطنة عليه . وورد في التوراة : « يا ابن آدم ، لا تعجز أن تقوم بين يدي مصلياً باكياً ، فأنا الله الذي اقتربت من قلبك ، وبالغيب رأيت نوري » . وورد : « ان العبد اذا صلى ركعتين ، عجبت منه عشرة صفوف من الملائكة ، كل صف منهم عشرة آلاف ، وباهى الله به مائة الف » . وذلك لان العبد جمع في الصلاة بين القيام والقعود ، والركوع والسجود ، والذكر باللسان ، وغير ذلك . وليس للملك من الملائكة هذا القسم من العبادة الجامعة بين الكل ، بل هذه الأفعال موزعة عليهم ، فبعضهم قائمون لا يركعون الى يوم القيامة ، وبعضهم ساجدون لا يرفعون الى يوم القيامة ، وهكذا الراكعون والقاعدون ، فان ما اعطى الملائكـــة

من القرب والرتبة لازم لهم ، مستمر على حالة واحدة ، لا تزيد ولا تنقص ، وليس لهم مرتبة الترقي من درجة الى اخرى ، وباب المزيد مسدود عليهم ، ولذلك قالوا : « وما منا إلا له مقام معلوم »، بخلاف الانسان ، فان له الترقى في الدرجات ، والتقلب فى اطوار الكمالات ، ومفتاح مزيد الدرجات هي الصلاة ، قال الله سبحانه : « قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » ، فمدحهم بعد الايمان بصلاة مخصوصة ، وهي المقرونة بالخشوع، ثم ختم اوصاف المفلحين بالصلاة ايضاً ، فقال في آخرها :

« وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » ، ثم قال في ثمرة تلك الصفات : « أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الوارِثُونَ ، ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فيها خالِدُونَ » (١).

فوصفهم بالفلاح اولا ، وبوراثة الفردوس آخراً . فالمصلون هم ورثة الفردوس ، وورثة الفردوس هم المشاهدون لنور الله بقربه ودنوه بالقلب . وكل عاقل يعلم ان مجرد حركة اللسان والجوارح ، مع غفلة القلب ، لا تنتهي درجته الى هذا الحد .

فصـــل

(ما ينبغى في إمام الجماعة)

ينبغى لامام الجماعة : ان يختص من بين القوم بمزيد صفاء القلب ، واقباله الى الله ، والخشوع والتعظيم ، وغير ذلك من الشرائط الباطنة ، لانه القدوة والجاذب لنفوس الجماعة الى الله ، فما اقبح به ان يكون قلبه

(١) المؤمنون ، الآية : ٩ ـ ١١ .

غافلا عن الله ، او واقعاً في اودية الوساوس الباطلة في الصلاة ، ويكون بعض من اقتدى به من القوم خاشعاً حاضر القلب معظماً لله سبحانه ، وما اشنع به ان يكون التفات قلبه الى من وراءه من الناس الذين لايقدرون على شيء من النفع والضر أكثر من التفات قلبه الى مالك الملك والملكوت . أولا يستحيي من علام الغيوب ان ينصب نفسه قدوة لأمة سيد الرسل (ص) ، ويحل محل رسول الله (ص) واوصيائه الراشدين ـ عليهم السلام ـ ، وينوب عنهم ، ويكون تغير قلبه وتأثر نفسه عن ضعفاء العوام الذين اقتدوا به أشد من انفعاله وتأثره من عظمة الله وجلاله ؟! أو لا يخجل عند الله من تفاوت حاله بكثرة المأمومين وقلتهم ؟ فينبغي لكل امام قوم ان يمتحن نفسه ، فان لم تكن له هذه الصفات الخبيثة ، فليؤم ، وإلا فليترك ولا يهلك نفسه ، ويعرف ذلك بأن يكون فرحه بامامة نفسه كفرحه بامامة غيره من امثاله واقرانه ، بل إن كان قصده وفرحه بمجرد اقامة السنة ، واحياء رسوم الملة ، فينبغي ان يكون فرحه بامامة غيره ممن هو مرضي ، والاهتمام به ، اكثر من إمامة نفسه ، لحصول المقصود مع السلامة عن الغوائل المحتملة ، وينبغي ـ ايضا ـ ألا يكون باعثه ومحركه الى المسجد لامامة القوم إلا القربة ورجاء الثواب ، فلو كان في بعض زوايا قلبه باعث خفي من حب الشهرة والمنزلة في القلوب ، أو الوصول الى ما ينتظم به معاشه ، فله الويل والثبور ، ويكون ممن ضل واضل وهلك واهلك !

فصـــل

(ماينبغي في صلاة الجمعة والعيدين)

ينبغي للحاضر الى صلاة الجمعة والعيدين : ان يستحضر ان هذه الايام

أيام شريفة عظيمة ، واعياد مباركة كريمة ، قد خص الله بها هذه الامة ، وجعلها اوقاتاً شريفة لعباده ، ليقربهم فيها من جواره ، ويبعدهم من عذابه وناره ، وحثهم فيها على الاقبال بصالح الاعمال ، وتلافي ما فرط منهم في بقية الايام والشهور من الاهمال . فلا جرم وجب الاهتمام بصلاتها زيادة على سائر الصلوات ، من التهيؤ والاستعداد للقاء الله ، والوقوف بين يديه ، والمثول في حضرته ، والفوز بمخاطبته . فليجتهد بعد الاتيان بالوظائف الظاهرة ، من التنظيف ، والتطييب ، والتعمم ، وحلق الرأس ، وقص الشارب والاظفار ، وغير ذلك من السنن .. في تخليص النية ، واحضار القلب ، واكثار الخشوع ، والابتهال الى الله تعالى في صلاته . وينبغي أن يحضر قلبه في العيدين من قسمة الجوائز ، وتفرقة الرحمة ، وافاضة المواهب فيهما على من كمل صومه وقربانه وقام بوظائفهما ، فليكبر في صلاتهما وقبلها وبعدها في قبول اعماله والعفو عن تقصيراته ، وليستشعر الخجلة والحياء من خسران الرد ، وخذلان الطرد ، فتخسر صفقته ، وتظهر بعد ذلك حسرته ، فيفوز الفائزون ، ويسبق السابقون ، وينجو المخلصون ، وهو يكون من الخائبين الخاسرين .

فصل

(ما ينبغي للمؤمن عند ظهور الآيات)

إذا ظهرت الآيات ، من الكسوف والخسوف والزلازل وغيرها ، ينبغي لكل مؤمن ان يستحضر عندها أهوال الآخرة وزلازلها ، وتكور الشمس والقمر ، وظلمة القيامة ، ووجل الخلائق ، وخوفهم من الاخذ والنكال والعقوبة والاستيصال ، فيكثر في صلاتها من الدعاء والابتهال بمزيد الخضوع والخشوع والهيبة والخوف ، في النجاة من تلك الشدائد ورد

النور بعد الظلمة والمسامحة على الهفوة ، وينبغي ان يكون منكسر النفس ، مطرق الرأس ، مستحيياً من التقصير ، مستشعراً بقلبه عظمة الله وجلاله . وبالجملة : حصول الخوف والخشية ، والمبادرة الى التضرع والابتهال ، واداء الصلاة بالاقبال والخشوع عند ظهور الآيات ، من شعار أهل الايمان . قال سيد الساجدين (ع) : « لا يفزع للآيتين ولا يرهب إلا من كان من شيعتنا ، فان كان ذلك منهما ، فافزعوا الى الله وراجعوه » . وقال الرضا (ع) : « إنما جعلت للكسوف صلاة ، لأنه من آيات الله تعالى ، لايدري ألرحمة ظهرت أم لعذاب ، فاحب النبي (ص) أن يفزع امته الى خالقه وراحمه عند ذلك ، ليصرف عنهم شرها ، ويقيهم مكروهها ، كما صرف عن قوم يونس (ع) حين تضرعوا الى الله تعالى » .

المقصد الثالث

الذكر ـ فضيلة الاذكار ـ الدعاء

***

اعلم انه ينبغي لكل مؤمن أن يكثر من الذكر والدعاء ، لا سيما عقيب الصلاة المفروضة . وقد ورد في فضائلهما من الآيات والأخبار ما لا يمكن احصاؤه ، ولاشتهارها لا حاجة الى ذكرها هنا .

فصـــل

(الذكر)

أما الذكر ، فالنافع منه هو الذكر على الدوام ، أو في اكثر الاوقات ، مع حضور القلب ، وفراغ البال ، والتوجه الكلي الى الخالق المتعال ، حتى يتمكن المذكور في القلب ، وتتجلى عظمته الباهرة عليـــه ،

وينشرح الصدر بشروق نوره عليه ، وهو غاية ثمرة العبادات . وللذكر أول وآخر ، فاوله يوجب الانس والحب ، وآخره يوجبه الأنس والحب ، والمطلوب منه ذلك الحب والانس . فان العبد في بداءة الأمر يكون متكلفاً بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس والفضول الى ذكر الله ، فان وفق للمداومة أنس به وانغرس في قلبه حب المذكور . ومن احب شيئاً أكثر ذكره ، ومن اكثر ذكر شيء ، وان كان تكلفاً ، احبه . ومن هنا قال بعضهم : « كابدت القرآن عشرين سنة ، ثم تنعمت به عشرين سنة » . ولا تصدر النعم إلا من الأنس والحب ، ولا يصدر الانس والحب إلا من المداومة على المكابدة والتكلف مدة طويلة ، حتى يصير التكلف طبعاً . وكيف يستبعد هذا وقد يتكلف الانسان تناول طعام يستبشعه أولا ، ويكابد اكله ، ويواظب عليه ، فيصير موافقاً لطبعه حتى لا يصبر عنه ؟ فالنفس تصير معتادة متحملة لما تكلفت : « هي النفس ما عودتها تتعود » .

ثم اذا حصل الانس بذكر الله انقطع عن غير الله ، وما سوى الله يفارقه عند الموت ، ولا يبقى إلا ذكر الله ، فان كان قد انس به تمتع به وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه ، إذ ضرورات الحاجات في الحياة تصد عن ذكر الله ، ولا يبقى بعد الموت عائق ، فكأنه خلى بينه وبين محبوبه ، فعظمت غبطته ، وتخلص من السجن الذي كان ممنوعاً فيه عما به انسه ، وهذا الانس يتلذذ به العبد بعد موته الى ان ينزل في جوار الله ، ويترقى من الذكر الى اللقاء ، قال الصادق (ع) : « من كان ذاكراً لله على الحقيقة فهو مطيع ، ومن كان غافلا عنه فهو عاص ، والطاعة علامة الهداية ، والمعصية علامة الضلالة ، واصلهما من الذكر والغفلة ، فاجعل قلبك قبلة للسانك ، ولاتحركه إلا باشارة القلب ، وموافقة العقل ، ورضا الايمان ، فان الله

تعالى عالم بسرك وجهرك ، وكن كالنازع روحه ، او كالواقف في العرض الاكبر ، غير شاغل نفسك عما عناك بما كلفك به ربك في أمره ونهيه ووعــده ووعيده ، ولا تشغلها بدون ما كلفك به ربك ، واغسل قلبك بماء الحزن ، واجعل ذكر الله تعالى من اجل ذكره تعالى إياك ، فانه ذكرك وهو غني عنك ، فذكره لك اجل واشهى واثنى واتم من ذكرك له واسبق ، ومعرفتك بذكره لك تورثك الخشوع والاستحياء والانكسار ، ويتولــد من ذلك رؤية كرمه وفضله السابق ، وتصغر عند ذلك طاعتك وإن كثرت في جنب منته ، وتخلص لوجهه ، ورؤيتك ذكرك له ، يورثك الرياء والعجب والسفه والغلظة في خلقه ، واستكثار الطاعة ونسيان فضله وكرمه ، ولا تزداد بذلك من الله تعالى إلا بعداً ، ولا تستجلب به على مضي الايام إلا وحشة . والذكر ذكران : ذكر خالص بموافقة القلب ، وذكر صارف لك ينفي ذكر غيره ، كما قال رسول الله (ص) : (انا لا احصى ثناء عليك ، انت كما أثنيت على نفسك) . فرسول الله (ص) لم يجعل لذكره الله عز وجل مقداراً عند علمه بحقيقة سابقة ذكر الله عز وجل من قبل ذكره ، ومن دونه أولى ، فمن اراد ان يذكر الله تعالى ، فليعلم انه مالم يذكر الله العبد بالتوفيق لذكره ، لا يقدر العبد على ذكره » (١) .

تتميم

(فضيلة الاذكار)

الاذكار كثيرة ، كالتهليل ، والتسبيح ، والتحميد ، والتكبير ،

(١) الحديث مذكور في (مصباح الشريعة) : الباب ١٣٦/٥ . وفي (المستدرك) : ٤٠١/١ ، كتاب الصلاة ، ابواب الذكر . وفي الموضعين اختلاف يسير ، فصححناه على (مصباح الشريعة) ، الموضع المذكور .

والحوقلة ، والتسبيحات الأربع ، واسماء الله الحسنى ، وغير ذلك . وقد ورد في فضيلة كل منها أخبار كثيرة ، والمواظبة على كل منها توجب صفاء النفس وانشراح الصدر ، وكلما كانت أدل على غاية العظمة والجلال والعزة والكمال ، فهي أفضل . ولذا صرحوا بأن افضل الاذكار التهليل ، لدلالته على توحده في الالوهية ، واستناد الكل اليه . وربما كان بعض اسماء الله تعالى في مرتبته أدل ، والعارف السالك الى الله يعلم : أنه قد ينبعث في القلب من عظمة الله وجلاله وشدة كبريائه وكماله ما لا يمكن التعبير عنه باسم .

فصـــل

(الدعاء)

وأما الدعاء ، فهو مخ العبادة ، ولذا ورد في فضله ما ورد من الآيات والأخبار ، ولا حاجة الى ذكرها لاشتهارها . والأدعية المأثورة كثيرة مذكورة في كتب الدعوات ، ولا يتصور مطلب من مطالب الدنيا والآخرة إلا وقد وردت به أدعية ، فمن أراد شيئاً منها فليأخذ من مواضعها .

ومما ينبغي لكل داع ، أن يراعى شرائط وآداباً في الدعاء ، حتى يستجاب له ، ويصل الى فائدته ، وتحصل لنفسه نورانية ، وهي أن يترصد لدعائه الاوقات الشريفة ، والاحوال الشريفة ، والاماكن المتبركة المشرفة ، وان يدعو متطهراً ، مستقبل القبلة ، رافعاً يديه بحيث يرى باطن ابطيه ، وان يخفض صوته بين الجهر والاخفات ، ولا يتكلف السجع في الدعاء ، ويكون في غاية التضرع والخشوع والرهبة ، وأن يجزم ويتيقن اجابة دعائه ، ويصدق رجاءه فيه ، وان يلح في الدعاء ، ويكرره ثلاثاً ، ويفتتح الدعاء بذكر الله وتمجيده ، ولا يبتديء بالسؤال ، وأن يتوب ، ويرد مظالم العباد ، ويقبل على الله بكنه الهمة ، وهو السبب القريب للاجابة ، وان

يكون مطعمه وملبسه من الحلال ، وهو أيضاً من عمدة الشرائط ، وأن يسمى حاجته ، ويعم في الدعاء ، ويبكي عنده ، وهو ايضاً سيد الآداب ، وان يتقدم في الدعاء قبل الحاجة اليه ، وألا يعتمد في حوائجه على غير الله تعالى ، قال الصادق (ع) : « احفظ ادب الدعاء ، وانظر من تدعو ، وكيف تدعو ، ولماذا تدعو ، وحقق عظمة الله وكبرياءه ، وعاين بقلبك علمه بما في ضميرك ، واطلاعه على سرك وما تكن فيه من الحق والباطل ، واعرف طرق نجاتك وهلاكك ، كيلا تدعو الله بشيء عسى فيه هلاكك وانت تظن أن فيه نجاتك ، قال الله تعالى :

« وَيَدْعُو الإنسانُ بِالشرِّ دَعَاءَهُ بِالخَيرِ وَكانَ آلإِنْسانُ عَجُولاً » (١).

وتفكر ماذا تسأل ، ولماذا تسأل ، والدعاء استجابة الكل منك للحق ، وتذويب المهجة في مشاهدة الرب ، وترك الاختيار جميعاً ، وتسليم الامور كلها — ظاهرها وباطنها — الى الله تعالى ، فان لم تأت بشرط الدعاء فلا تنتظر الاجابة ، فانه يعلم السر واخفى، فلعلك تدعوه بشيء قد علم من سرك خلاف ذلك . واعلم انه لو لم يكن الله امرنا بالدعاء ، لكنا اذا اخلصنا الدعاء تفضل علينا بالاجابة ، فكيف وقد ضمن ذلك لمن اتى بشرائط الدعاء ، وسئل رسول الله (ص) عن اسم الله الاعظم ، فقال : (كل اسم من اسماء الله اعظم) . ففرغ قلبك عن كل ما سواه ، وادعه بأى اسم شئت ، فليس في الحقيقة لله اسم دون ، بل هو الله الواحد القهار . وقال النبي (ص): (إن الله لا يستجيب دعاء من قلب لاه) . فاذا اتيت بما ذكرت لك من

(١) الاسراء ، الآية : ١١ .

شرائط الدعاء ، واخلصت سرك لوجهه ، فابشر باحدى ثلاث : إما ان يعجل لك بما سألت ، وإما ان يدخر لك بما هو افضل منه ، وإما ان يصرف عنك من البلاء ما لو أرسله عليك لهلكت » (١) . وسئل من الصادق (ع): ما لنا ندعوا ولا يستجيب لنا ؟ فقال : « لانكم تدعون من لا تعرفونه ، وتسألون من لا تفهمونه ، فالاضطرار عين الدين ، وكثرة الدعاء مع العمى عن الله من علامة الخذلان ، لان من لم يعرف ذلة نفسه وقلبه وسره تحت قدرة الله ، حكم على الله بالسؤال ، وظن ان سؤاله دعاء ، والحكم على الله من الجرأة على الله تعالى » .

المقصد الرابع

(تلاوة القرآن)

اعلم انه لا حد لثواب تلاوة القرآن ، والاخبار الواردة في عظم اجره ووفور ثوابه لا تحصى كثرة ، وكيف لا يعظم اجره وهو كلام الله، حامله روح الامين الى سيد المرسلين ، فتأمل ان الكلام الصادر من الله بلا واسطة ، إذا كان من حيث اللفظ معجزة لغاية فصاحته ، ومن حيث المعنى متضمناً لاصول حقائق المعارف والمواعظ والاحكام ، ومخبراً عن دقائق صنع الله ، وعن مغيبات الاحوال والقصص الواقعة في سوالف القرون والاعوام ، كيف يكون تأثيره للقلوب وتصفيته للنفوس ؟ . وبالجملة : العقل والنقل والتجربة شواهد متظاهرة على عظم ثواب تلاوة القرآن ، والاخبار الواردة فيه مشهورة ، فلا حاجة الى ذكرها ، فلنشر الى بعض ما يتعلق بالتلاوة من الآداب الظاهرة والباطنة :

---

(١) الحديث مذكور في (مصباح الشريعة) : الباب ١٩/ ١٤٥ ـ ١٤٦ . وفيه اختلاف كثير عما هنا ، فصححناه على (المصباح) ، الموضع المذكور .

أما الآداب الظاهرة ، فالوضوء ، والوقوف على هيئـــة الادب ، والطمأنينة ، إما قائما او جالسا ، مستقبل القبلة ، مطرقا رأسه ، غير متربع ولا متكيء ، والترتيل والبكاء ، والجهر المتوسط لو أمن من الرياء ، وإلا فالسر افضل ، وتحسين القراءة وتنزيهها ، ومراعاة حق الآيات ، فاذا مر بآية السجود سجد ، واذا مر بآية العذاب استعاذ منه بالله ، واذا مر بآية الرحمة ونعيم الجنة سأل الله تعالى ان يرزقه ، واذا مر بآية تسبيح او تكبير سبح وكـــبر ، واذا مر بآية دعاء او استغفار دعا واستغفر ، وافتتاح القراءة بقوله : (اعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) ، وأن يقول عند الفراغ من كل سورة : (صدق الله العلي العظيم وبلغ رسوله الكريم ، اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه ، والحمد لله رب العالمين) .

واما الآداب والأعمال الباطنة :

فمنها — فهم عظمة الكلام وعلوه ، وفضل الله تعالى ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله الى درجة افهام خلقه : فلينظر كيف لطف بخلقه في ايصال معاني كلامه الذي هو صفة قائمة بذاته الى افهام خلقه ، وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف واصوات هي صفات البشر ، إذ يعجز البشر عن الوصول الى فهم صفات الله الا بوسيلة صفات نفسه ، ولو لا استتار كنه جمال كلامه بكسوة الحروف ، لما ثبت لسماعه عرش ولا ثرى ، ولا شيء ما بينهما ، من عظمة سلطانه وسبحات نوره ، ولو لا تثبيت الله موسى (ع) لما اطاق سماع كلامه ، كما لم يطق الجبل مبادي تجليه حيث صار دكا ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام إلا بأمثلة على حد فهم الخلق ، ولهذا عبر عنه بعض العارفين ، فقال : « إن كل حرف من كلام الله في اللوح اعظم من جبل قاف ، وان الملائكة لو اجتمعت على الحرف الواحد ان ينقلوه ما اطاقوه ،

حتى يأتي اسرافيل ، وهو ملك اللوح ، فيرفعه . فنقله باذن الله ورحمته ، لا بقوته وطاقته » . وايصال معاني الكلام مع علو درجته الى فهم الانسان مع قصور رتبته ، تشابه من درجة تصويت الانسان البهائم والطيور . فان الانسان لما أراد تفهيم بعض الدواب والطيور ما يريد من اقبالها وادبارها وتقديمها وتأخيرها ، وكان تمييزها قاصراً عن فهم كلامه الصادر عن عقله مع حسنه وترتيبه وبديع نظمه ، فينزل الى درجة تمييز البهائم ، ويوصل مقاصده اليها بأصوات لائقة بها ، من النفير والصفير والاصوات القريبة من أصواتها ، يطيقون حملها . وكذلك الناس ، لما كانوا عاجزين عن حمل كلام الله بكنهه وكمال صفاته ، فتنزل من عرش العظمة والجلال الى درجة أفهامهم ، فتجلى في مظاهر الاصوات والحروف ، وقـد يشرف الصوت لأجل الحكمة المحبوة فيه . فكما ان بدن البشر يكرم ويعزز لمكان الروح ، فكذلك أصوات الكلام تشرف للحكمة التي فيها . والكلام عالي المنزلة ، رفيع الدرجة ، قاهر السلطان ، نافذ الحكم في الحق والباطل ، وهو القاضي العادل ، يأمر وينهى ، ولا طاقة للباطل ان يقوم قدام كلام الحكمة كما لا يستطيع الظل ان يقوم قدام شعاع الشمس ، ولا طاقة للناس أن ينفذوا غور الحكمة ، كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس ، ولكنهم ينالون منها ما تقدر به ابصارهم ويستدلون بـه على حوائجهم . فالكلام كالملك المحجوب ، الغائب وجهه ، المشاهد أمره ، فهو مفتاح الخزائن النفيسة ، وشراب الحياة الذي من شرب منه لم يمت ، ودواء الاسقام الذي من سقى منه لم يسقم .

ومنها — تعظيم المتكلم : فينبغي للقارىء عند الابتداء بالتلاوة ، أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ، ويعلم أنه ليس من كلام البشر ، بل هو كلام

خالق الشمس والقمر ، وفي تلاوة كلامه غاية الخطر ، إذ كما لا ينبغي أن تمس جلده وورقه وحروفه البشرة المستقذرة بخبث أو حدث ، فكذلك لا ينبغي أن تقرؤه الالسنة المستخبثة بقبائح الكلمات ، والا تحوم حول معناه القلوب المكدرة برذائل الاخلاق والصفات ، فكما أنه لا يصلح لمس ظاهر خطه كل يد ، بل هو محروس عن ظاهر بشرة اللامس ، إلا اذا كان متطهراً ، فكذلك لا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ، ولا لنيل معانيه كل قلب ، بل باطن معناه لعلوه وجلاله محجوب عن باطن القلوب ، إلا اذا كانت منقطعة عن كل رجس، مستنيرة بنور التعظيم والتوقير. وبالجملة: ينبغي ألا يترك عند التلاوة تعظيم المتكلم له ، ليتحقق تعظيم الكلام ايضاً ، اذ تعظيم الكلام بتعظيم المتكلم ، ولو لم تحضره عظمة المتكلم لغفلة قلبه ، فليرجع الى التفكر في صفاته وافعاله ، ويستحضر ان المتكلم هو الــذي اوجد واظهر بمجرد ارادته كل ما يشاهده ويسمعه ، من العرش والكرسي والسماوات والارضين ، وما فيها وما تحتها وما فوقها ، وانه الخالق والرازق للجميع ، والكل في قبضة قدرته مسخر أسير ، ومردد بين فضله ورحمته ، وبين نقمته وسطوته ، وجميع ذلك لا نسبة له الى عوالم المجردات . فالتفكر في امثال ذلك يوجب استشعار القلب لعظمة المتكلم والكلام . ولمثل هذا التعظيم كان بعضهم اذا نشر المصحف للتلاوة غشي عليه ، ويقول : (هو كلام ربي ، هو كلام ربي !) .

ومنها — الخضوع والرقة : قال الصادق (ع) : « من قرأ القرآن ، ولم يخضع ولم يرق قلبه ، ولا ينشيء حزناً ووجلا في سره ، فقــد استهان بعظيم شأن الله تعالى ، وخسر خسراناً مبيناً . فقاريء القرآن محتاج الى ثلاثة اشياء : قلب خاشع ، وبدن فارغ ، وموضع خال . فاذا خشع لله قلبه فر منه

الشيطان الرجيم ، قال الله تعالى :

« فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ » (١).

فاذا تفرغ نفسه من الاسباب ، تجرد قلبه للقراءة ، فلا يعرضه عارض فيحرمه بركة نور القرآن وفوائده . فاذا اتخذ مجلساً خالياً ، واعتزل عن الخلق بعد ان اتى بالخصلتين : خضوع القلب وفراغ البدن ، استأنس روحه وسره بالله عز وجل ، ووجد حلاوة مخاطبات الله عز وجل عباده الصالحين ، وعلم لطفه بهم ومقام اختصاصه لهم ، بفنون كراماته ، وبدائع اشاراته ، فان شرب كأساً من هذا المشرب حينئذ ، لا يختار على ذلك الحال حالا ، ولا على ذلك الوقت وقتاً ، بل يؤثره على كل طاعة وعبادة ، لان فيه المناجاة مع الرب بلا واسطة ، فانظر كيف تقرأ كتاب ربك ومنشور ولايتك ، وكيف تجيب اوامره ونواهيه ، وكيف تمتثل حدوده :

« وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ ، لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » (٢) .

فرتله ترتيلا ، وقف عند وعده ووعيده ، وتفكر في امثاله ومواعظه ، واحذر أن تقع من اقامتك حروفه في اضاعة حدوده » (٣) .

ومنها ـــ حضور القلب ، وترك حديث النفس : وهو يترتب على التعظيم ، فان من يعظم شيئاً ، كلاما كان او غيره ، يستبشر ويستأنس

(١) النحل ، الآية : ٩٨ .

(٢) فصلت ، الآية : ٤١ ـ ٤٢ .

(٣) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ١٤٢/١٤ .

به ، ولا يغفل عنه . ولا ريب في ان القرآن يشتمل على ما يستانس به القلب وتفرح به النفس ، ان كان التالي اهلا له .

ومنها — التدبر : وهو زائد على حضور القلب ، اذ التالي ربما لم يتفكر في غير القرآن ، ولكنه اقتصر على سماعه من نفسه ، من دون تدبر فيه . والمقصود من تلاوة القرآن التدبر فيه في الباطن ، قال الله سبحانه :

« أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفالُها »(١).

وقال أمير المؤمنين (ع) : « لا خير في عبادة لا فقه فيها ، ولا في قراءة لا تدبر فيها ». وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بالترديد فليردد . ولذلك كان الاكابر كثيرا ما يكررون بعض الآيات مرات كثيرة للتدبر فيها ، وربما يقفون عند آية مدة مديدة ، وقال بعضهم : « لي في كل جمعة ختمة ، وفي كل شهر ختمة ، وفي كل سنة ختمة ، ولي ختمة منذ ثلاثين ما فرغت منها بعد ! » ، وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه .

ومنها — التفهم : وهو ان يستوضح من كل آية ما يليق بها . إذ القرآن يشتمل على ذكر صفاته تعالى ، وذكر افعاله ، وذكر الجنة والنار ، واحوال النشأة الآخرة ، وذكر احوال انبيائه ، واحوال المكذبين ، وأنهم كيف اهلكوا ، وذكر احكامه واوامره ونواهيه وغير ذلك . فان مر بآيات صفاته تعالى ، كقوله :

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »(٢) .

---

(١) محمد - صلى الله عليه وآله - ، الآية : ٢٤ .

(٢) الشورى ، الآية : ١١ .

وكقوله تعالى : « الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ ... » الى آخر الآية (١) ، وغير ذلك .

فليتأمل في معاني هذه الاسماء والصفات ، لتنكشف لـه اسرارها المكنونة تحتها ، ولا تنكشف هذه الأسرار إلا للمؤيدين في فهم كتاب الله . قال أمير المؤمنين (ع) : « ما اسر الي رسول الله (ص) شيئاً كتمه عن الناس ، إلا ان يؤتى الله عز وجل عبداً فهماً في كتابـه » . وإن مر بآيات الأفعال ، اي الآيات الحاكية عن خلقـه السماوات والارض ، وما فيهما من الملائكة والكواكب والجبال والحيوان والنبات ، وما بينهما من السحب والغيوم والرياح والامطار وغير ذلك ، فليفهم التالي منها عظمة الله وجلاله . إذ الفعل يدل على الفاعل ، فعظمته تدل على عظمته . وينبغي ان يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل ، إذ من عرف الحق رآه في كل شيء ، إذ كل شيء منه وبه واليه وله ، فهو الكل في وحده ، ومن لا يراه في كل ما يراه فكأنه ماعرفه ، ومن عرفه عرف ان كل شيء ما خلا الله باطل ، وان كل شيء هالك إلا وجهه ، وان اعتبر من حيث هو ، إذ مع قطع النظر عن الواجب وايجاده ، لا ذات ولا وجود ، بل محض العدم وعدم المحض . فذات كل شيء ووجوده وثباته وبقاؤه بالله العلي العظيم . فاذا قرأ التالي آية تدل على شيء من عجائب صنعه وغرائب فعله ، فليتأمل في تلك العجائب ، ثم يترقى منها الى اعجب العجائب ، وهي الصفة التي صدرت منها هذه الاعاجيب . واذا سمع وصف الجنة والنار وسائر احوال الآخرة ، فليتذكر ان ما في هذا العالم من النعم والنقم لا نسبة له الى ما في عالم الآخرة ، فلينتقل من ذلك

(١) الحشر ، الآية : ٢٣ .

الى عظمة الله تعالى ، وينقطع اليه باطناً ، ليخلصه من عقوبات تلك النشأة ، ويوصله الى نعيمها ولذاتها . واذا سمع احوال الانبياء ـ عليهم السلام ـ من تكذيبهم وضربهم وقتلهم، فليفهم منه صفة الاستغناء لله تعالى من الرسل والمرسل اليهم ، وانـه لو اهلك جميعهم لا يؤثر في ملكه ، واذا سمع نصرتهم في الامر ، فليفهم قدرة الله وارادته لنصرة الحق ، واما احوال المكذبين ، وما جرى عليهم من العقوبات وضروب النكال ، فليستشعر الخوف من سطوته ونقمته ، ويعتبر في نفسه ، ويعلم انه غفل واساء الادب ، واغتر بما امهل ، فربما تدركه النقمة . وكذلك اذا سمع الوعد والوعيد والامر والتهديد . فلا يمكن استقصاء ما يفهم من القرآن ، لانه لا نهاية له ، إذ (لا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) .

« قُلْ لَـوْ كانَ البَحرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِـدَ البَحرُ قَبلَ أنْ تَنفِدَ كَلِماتُ رَبِّي » (١) .

ولكل عبد منه بقدر استعداده ومقدار فهمه وصفاء نفسه .

ومنها ـــ التخلي عن موانع الفهم : وهي التقليد والتعصب لمذهب ، فان ذلك بمنزلة حجاب لمرآة النفس يمنعها عن انعكاس غير معتقدها فيها ، والجمود على تفسير ظاهر ، ظاناً ان غيره تفسير بالرأي لا يجوز ارتكابه ، وصرف الهمة والفهم الى تحقيق الحروف وما يتعلق بها من الامور المتداولة بين القراء ، فان قصر التأمل على ذلك مانع من انكشاف المعـــاني ، والاصرار على الذنوب الظاهرة والباطنة ، ومتابعة الشهوات المظلمة للقلب الموجبة للحـرمان عن انكشاف الاسرار والحقـائق فيه ، واشراق المعـارف الحقة عليه . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « اذا عظمت

(١) الكهف ، الآية : ١١٠ .

امتي الدينار والدرهم ، تنزع منها هيبة الاسلام، واذا تركوا الامر بالمعروف حرموا بركة الوحي » . وقد شرط الله تعالى الانابة في الفهم والتذكر ، قال الله تعالى :

« تَبصِرةً وذِكرىٰ لِكُلِّ عَبدٍ مُنيبٍ » (١) . وقال تعالىٰ : « وَما يَتَذَكَّرُ إلاّ مَنْ يُنيبُ » (٢) . وقال تعالى : « إنَّما يَتَذَكَّرُ أُولو الألبابِ » (٣) .

ومنها — التخصيص : وهو ان يقدر انه المقصود بكل خطاب في القرآن ، من الامر والنهي والوعد والوعيد ، حتى انه لو سمع قصص الاولين ، يجزم بأن المقصود الاعتبار دون مجرد الحكاية والتشمر . فما مَن قصة في القرآن إلا وسياقها الفائدة في حق النبي وامته ، ولذلك قال سبحانه :

« ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ » (٤)

فان القرآن جميعه هـدى وشفاء ورحمة ، ونور وموعظة وبصائر للعالمين . فكل احد اذا قرأه ينبغي ان تكون قراءته كقراءة العبد كتاب مولاه الذي كتب اليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه . قال بعض الاكابر : « هذا القرآن رسائل اتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده ، فنتدبرها في الصلوات ، ونقف عليها في الخلوات ، وننفذها في الطاعات بالسنن المتبعات » .

ومنها — التأثر : وهو ان يتاثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختـلاف الآيات ، فيكون له بحسب كل فهم حال : من الخوف ، والحزن ، والوجل ،

(١) ق ، الآية : ٨ . (٣) الرعد ، الآية : ٢١ . الزمر ، الآية : ٩ .
(٢) المؤمن ، الآية : ١٣ . (٤) هود ، الآية : ١٢٠ .

والوجد ، والفرح ، والارتياح ، والرجاء ، والقبض ، والانبساط . فاذا سمع الوعيد ، فليضطرب قلبه ، ويتضاءل من الخوف كأنه يموت ، وان سمع وسعة الرحمة ووعد المغفرة ، فليفرح ويستبشر كأنه يطير من الابتهاج ، واذا سمع وصف الجنة ، فلينبعث باطنه شوقاً اليها ، واذا سمع وصف النار، فلترتعد فرائصه خوفاً منها ، واذا سمع صفات الله واسماءه ونعوت جلاله ، فليتطأطأ خضوعا لجلاله واستشعاراً لعظمته وكبريائه ، واذا سمع ذكر الكفار ما يستحيل على الله من اتخاذ الولد وامثاله ، فليغض صوته وينكسر في باطنه حياء من قبح مقالتهم ... وقس على ذلك غيره من الآيات المختلفة. ومهما تمت المعرفة ، كانت الخشية اغلب الأحوال على القلب ، اذ التضييق غالب على آيات القرآن ، إذ لا ترى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقروناً بشروط يقصر الاكثرون عن نيلها ، ولذلك كان في الخائفين من يصير مغشياً عليه عند استماع آيات الوعيد ، ومنهم من مات بمجرد استماعها . وبالجملة: المقصود الاصلي من القرآن ، استجلاب هذه الاحوال الى القلب والعمل به ، وإلا فالمؤنة بتحريك اللسان بحروفه خفيفة . وحق تلاوة القرآن ان يشترك فيها اللسان والعقل والقلب . فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل إدراك المعاني ، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالحالات المذكورة . فاللسان واعظ القلب ، والعقل مترجم ، والقلب متعظ .

ومنها ـ الترقي : وهو ان يترقى الى ان يسمع الكلام من الله تعالى ، لا من نفسه . فدرجات القراءة ثلاث : الاولى : وهي ادناها ، ان يقدر العبد أنه يقرؤه على الله تعالى واقفاً بين يديه ، وهو ناظر اليه ومستمع منه ، فتكون حاله ـ على هذا التقدير ـ التملق والسؤال والتضرع والابتهال . الثانية : ان يشهد بقلبه ، كأن ربه يخاطبه بألطافه ، ويناجيه باحسانه

وإنعامه ، فمقامه الهيبة والحياء والتعظيم والاصغاء . الثالثة : ان يرى في الكلام المتكلم ، وفي الكلمات الصفات ، فلا ينظر الى نفسه والى تلاوته ، ولا الى تعلق الانعام به من حيث إنه منعم عليه ، بل يكون مقصور الهم على التكلم ، موقوف الفكر عليه ، كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم من غيره . وهذه درجة المقربين والصديقين ، وما قبله من درجات اصحاب اليمين ، وما خرج عن ذلك فهو درجات الغافلين . وقد اخبر عن الدرجة العليا سيد الشهداء — ارواحنا فداه — حيث قال (ع) : « الذي تجلى لعباده في كتابه ، بل في كل شيء ، وأراهم نفسه في خطابه ، بل في كل نور » . وأشار اليها الامام ابو عبد الله الصادق (ع) حيث قال : « والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه في كلامه ! ولكن لا يبصرون » . وروى : « أنه لحقته حالة في الصلاة حتى خر مغشياً عليه ، فلما سرى عنه ، قيل له في ذلك ، فقال (ع) : ما زلت أردد الآية على قلبي ، حتى سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته » . وفي مثل هذه الدرجة تشتد البهجة ، وتعظم الحلاوة واللذة . ولذلك قال بعض الحكماء : « كنت اقرأ القرآن ، فلا اجد له حلاوة ، حتى تلوته كأني أسمعه عن رسول الله (ص) يتلوه على اصحابه ، ثم رفعت الى مقام فوقه ، فكنت اتلوه كأني اسمعه من جبرئيل يلقيه على رسول الله (ص) ، فعندها وجدت لذة ونعيماً لا اصبر عنه » . وقال حذيفة : « لو طهرت القلوب ، لم تشبع من قراءة القرآن » . وذلك لأنها بالطهارة تترقى الى مشاهدة المتكلم في الكلام ، بل التوحيد الخالص للعبد ألا يرى في كل شيء إلا الله ، إذ لو رأى غيره ، لا من حيث إنه منه وله وبه واليه ، كان مشركا بالشرك الخفي .

ومنها — التبري : وهو ان يتبرى من حوله وقوته ، ولا يلتفت

الى نفسه بعين الرضا والتزكية . فاذا قرأ آيات الوعد ومدح الأخيار ، فلا يشهد نفسه ولا يدخلها في زمرتهم ، بل يشهد اهل الصدق واليقين ، ويتشوق الى ان يلحقه الله بهم . وإذا قرأ آيات المقت والوعيد ، وذم العصاة والمقصرين ، شهد نفسه هناك ، وقدر انه المخاطب خوفا واشفاقاً . والى هذا أشار مولانا امير المؤمنين (ع) ، حيث قال في وصف المتقين : « واذا مروا بآية فيها تخويف ، أصغوا اليها مسامع قلوبهم ، وظنوا ان زفير جهنم في آذانهم » . فاذا رأى القارىء نفسه بصورة التقصير في القراءة ، كانت رؤيته سبب قربه . فان من شهد البعد في القرب ، لطف له بالخوف ، حتى يسوقه الى درجة اخرى في القرب وراءها ، ومن شهد القرب في البعد ، مكر به بالأمن الذي يفضيه الى درجة اخرى في البعد اسفل مما هو فيه . ومهما كان مشاهداً نفسه بعين الرضا ، صار محجوباً بنفسه . فاذا جاوز حد الالتفات الى نفسه ، ولم يشاهد الا الله تعالى في قراءته ، كشف له سر الملكوت بحسب احواله ، فحيث يتلو آيات الرحمة والرجاء ، يغلب على حاله الاستبشار ، وتنكشف له صورة الجنة ، فيشاهدها كأنه يراها عياناً ، وان غلب عليه الخوف ، كوشف بالنار ، حتى يرى انواع عذابها ، وذلك لأن كلام الله عز وجل يشتمل على السهل اللطيف ، والشديد العسوف ، والمرجو والمخوف ، وذلك بحسب اوصافه ، إذ منها الرحمة واللطف .

ومنها — القهر والبطش والانتقام : فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات ينقلب القلب في اختلاف الحالات ، وبحسب كل حالة منها يستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة ، إذ يمتنع أن يكون حال المستمع واحداً والمسموع مختلفاً ، إذ فيه كلام راض ، وكلام غضبان ، وكلام منعم ،

وكلام منتقم ، وكلام جبار متكبر لا يبالي ، وكلام منان متعطف لا يهمل .

المقصد الخامس

(الصوم)

اعلم ان الصوم اجره عظيم ، وثوابه جسيم ، وما يدل على فضله من الآيات والاخبار اكثر من ان يحصى ، وهي معروفة مشهورة ، فلا حاجة الى ذكرها ، فلنشر الى ما يتعلق به من الامور الباطنة :

فصــــل

(ما ينبغي للصائم)

ينبغي للصائم ان يغض بصره عن كل ما يحرم النظر اليه ، او يكره ، أو يشغل القلب ويلهيه عن ذكر الله تعالى ، ويحفظ اللسان عن جميع آفاته المتقدمة ، ويكف السمع عن كل ما يحرم او يكره استماعه ، ويكف بطنه عن الحرام والشبهات ، ويكف سائر جوارحه عن المكاره . وقد ورد في اشتراط جميع ذلك في الصوم في ترتب كمال الثواب عليه اخبار كثيرة. وينبغي ايضاً ألا يستكثر من الحلال وقت الافطار بحيث يمتليء ، إذ ما من وعاء ابغض الى الله عز وجل من بطن مليء من حلال ، كيف والسر في شرع الصوم قهر عدو الله ، وكسر الشهوة والهوى ، لتتقوى النفس على التقوى ، وترتقى من حضيض حظوظ النفس البهيمية الى ذروة التشبيه بالملائكة الروحانية ، وكيف يحصل ذلك اذا تدارك الصائم عند الافطار ما فاته ضحوة نهاره ، لا سيما اذا زيد عليه في ألوان الطعام ، كما استمرت العادات في هذه الأعصار ، وربما يؤكل من الاطعمة في شهر رمضان ما لا يؤكل في عدة شهور . ولا ريب في ان المعدة اذا خليت من ضحوة النهار الى العشاء ، حتى

هاجت شهوتها وقويت رغبتها ، ثم اطعمت من اللذات ، وأشبعت من ألوان المطاعم ، وجمع ما كان يأكل ضحوة الى ما يأكل ليلا ، واكل الجميع في الليل مرة او مرتين او اكثر ، زادت لذتها ، وتضاعفت قوتها ، وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عادتها ، فلا يحصل ما هو المقصود من الصوم ، اعني تضعيف القوى الشهوية التي هي وسائل الشيطان ، فلا بد من التقليل ، وهو ان يأكل في مجموع الليلة أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم ، من دون ضم ما يأكل في النهار اليه ، حتى ينتفع بصومه . والحاصل : ان روح الصوم وسره ، والغرض الأصلي منه : التخلق بخلق من اخلاق الله تعالى ، اعني الصمدية ، والاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بقدر الامكان ، وهذا إنما يحصل بتقليل الاكل عما يأكله في غير وقت الصوم ، فلا جدوى لمجرد تأخير اكلة وجمع أكلتين عند العشاء ، ثم لو جعل سر الصوم ما يظهر من بعض الظواهر ، من ادراك الأغنياء ألم الجوع والانتقال منه الى شدة حال الفقراء ، فيبعثهم ذلك على مواساتهم بالاموال والاقوات ، فهو ايضاً لا يتم بدون التقليل في الاكل .

فصل

(ما ينبغي للصائم عند الافطار)

ينبغي لكل صائم أن يكون قلبه بعد الافطار مضطرباً ، معلقا بين الخوف والرجاء ، إذ ليس يدري ايقبل صومه فهو من المقربين أو يرد عليه فهو من الممقوتين ، وليكن الحال كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها . روى : «ان الامام ابا محمد الحسن المجتبى (ع) مر بقوم يوم العيد وهم يضحكون ، فقال (ع) : إن الله تعالى جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه ، يستبقون فيه لطاعته ، فسبق اقوام ففازوا ، وتخلف أقوام فخابوا ، فالعجب كل

العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه المسارعون ، وخاب فيه المبطلون ، اما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن باحسانه ، والمسيء عن اساءته ! » ، اي كان سرور المقبول يشغله عن اللعب ، وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك .

فصل

(درجات الصوم)

الصوم ثلاث درجات :

الاولى — صوم العموم : وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة ، وهذا لا يفيد ازيد من سقوط القضاء والاستخلاص من العذاب .

الثانية — صوم الخصوص : وهو الكف المذكور ، مع كف البصر والسمع واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن المعاصي ، وعلى هذا الصوم تترتب المثوبات الموعودة من صاحب الشرع .

الثالثة — صوم خصوص الخصوص : وهو الكفان المذكوران ، مع صوم القلب عن الهمم الدنية ، والاخلاق الردية ، والافكار الدنيوية ، وكفه عما سواه بالكلية ، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر في ما سوى الله واليوم الآخر ، وحاصل هذا الصوم اقبال بكنـه الهمة على الله ، وانصراف عن غير الله ، وتلبس بمعنى قوله تعالى : « قل الله ثم ذرهم » ، وهذا درجة الانبياء والصديقين والمقربين ، ويترتب عليه الوصول الى المشاهدة واللقاء ، والفوز بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب احد . والى هذا الصوم اشار مولانا الصادق (ع) حيث قال : « قال النبي (ص) : الصوم جنـة ، أي ستر من آفات الدنيا وحجاب من

عذاب الآخرة . فاذا صمت فانو بصومك كف النفس عن الشهوات ، وقطع الهمة عن خطرات الشياطين ، وانزل نفسك منزلة المرضى ، ولا تشتهي طعاما ولا شرابا ، وتوقع في كل لحظة شفاءك من مرض الذنوب، وطهر باطنك من كل كدر وغفلة وظلمة يقطعك عن معنى الاخلاص لوجه الله . قال رسول الله (ص) : قال الله تعالى : الصوم لي وانا اجزى به . والصوم يميت مراد النفس وشهوة الطبع ، وفيه صفاء القلب ، وطهارة الجوارح ، وعمارة الظاهر والباطن ، والشكر على النعم والاحسان الى الفقراء ، وزيادة التضرع والخشوع والبكاء ، وحبل الالتجاء الى الله، وسبب انكسار الهمة ، وتخفيف الحساب ، وتضعيف الحسنات ، وفيه من الفوائد ما لا يحصى ولا يعد ، وكفى بما ذكرنا لمن عقله ووفق لا ستعماله » (١) .

تتميم

من صام شهر رمضان اخلاصا لله وتقربا اليه ، وطهر باطنه من ذمائم الاخلاق ، وكف ظاهره عن المعاصي والآثام ، واجتنب عن الحـــرام ، ولم يأكل إلا الحلال ، ولم يفرط في الاكل ، وواظب على جملة من النوافل والادعية وسائر الآداب المسنونة فيه ، استحق المغفرة والخلاص عن عذاب الآخرة ، بمقتضى الاخبار المتواترة . ثم ان كان من العوام ، حصل له من صفاء النفس ما يوجب استجابة دعوته ، وان كان من اهل المعرفة ، فعسى الشيطان لا يحوم على قلبه ، فينكشف له شيء من الملكوت ، لا سيما في ليلة القدر ، إذ هي الليلة التي تنكشف فيها الاسرار ، وتفيض على

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ٢٠ . وعلى (المستدرك) : ٥٨٩/١ ـ ٥٩٠ ، كتاب الصوم .

القلوب الطاهرة الانوار ، والمناط والعمدة في نيل ذلك تقليل الاكل بحيث يحس ألم الجوع ، إذ من جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام فهو محجوب عن عوالم الانوار ، ويستحيل ان ينكشف له شيء من الاسرار.

المقصد السادس

(الحج)

اعلم ان الحج اعظم اركان الدين ، وعمدة ما يقرب العبد الى رب العالمين ، وهو اهم التكاليف الالهية واثقلها ، واصعب العبادات البدنية وافضلها ، واعظم بعبادة ينعدم بفقدها الدين ، ويساوى تاركها اليهود والنصارى في الخسران المبين . والاخبار التي وردت في فضيلته وفي ذم تاركه كثيرة مذكورة في كتب الاخبار ، والاحكام والشرائط الظاهرة له على عهــدة الفقهاء ، فلنشر الى الاسرار الخفية ، والاعمال الدقيقة ، والآداب الباطنة ، التي يبحث عنها ارباب القلوب :

فصــــل

(الغرض من ايجاد الانسان)

اعلم ان الغرض الاصلي من ايجاد الانسان معرفة الله والوصول الى حبه والانس به ، والوصول اليــه بالحب والانس يتوقف على صفاء النفس وتجردها . فكلما صارت النفس أصفى وأشد تجرداً ، كان انسها وحبها بالله اشد وأكثر . وصفاء النفس وتجردها موقوف على التنزه عن الشهوات، والكف عن اللذات ، والانقطاع عن الحطام الدنيوية ، وتحريك الجوارح وايقاعها لاجله في الاعمال الشاقة ، والتجرد لذكره وتوجيه القلب اليه . ولذلك شرعت العبادات المشتملة على هذه الامور ، اذ بعضها

انفاق المال وبذله ، الموجب للانقطاع عن الحطام الدنية ،كالزكاة والخمس والصدقات ، وبعضها الكف عن الشهوات واللذات ، كالصوم ، وبعضها التجرد لذكر الله وتوجيه القلب اليه ، وارتكاب تحريك الاعضاء وتعبها ، كالصلاة ، والحج من بينها مشتمل على جميع هذه الامور مع الزيادة ، إذ فيه هجران اوطان ، واتعاب ابدان ، وانفاق اموال ، وانقطاع آمال ، وتحمل مشاق ، وتجديد ميثاق ، وحضور مشاعر ، وشهود شعائر ، ويتحقق في اعماله التجرد لذكر الله ، والاقبال عليه بضروب الطاعات والعبادات ، مع كون اعماله اموراً لا تأنس بها النفوس ، ولا تهتدي الى معانيها العقول ، كرمي الجمار بالاحجار ، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار ، اذ بمثل هذه الاعمال يظهر كمال الرق والعبودية ، فان سائر العبادات اعمال وافعال يظهر وجهها للعقل ، فللنفس اليها ميل ، وللطبع بها انس .

وأما بعض اعمال الحج ، كرمي الجمار وترددات السعي ، فلا حظ للنفس ولا انس للطبع فيها ، ولا اهتداء للعقل الى معانيها ، فلا يكون الاقدام عليها الا لمجرد الامر وقصد الامتثال له من حيث انه امر واجب الاتباع ، ففيها عزل العقل عن تصرفه ، وصرف النفس والطبع عن محل انسه ، فان كل ما ادرك العقل معناه مال الطبع اليه ميلا ما ، فيكون ذلك الميل معينا للامتثال ، فلا يظهر به كمال الرق والانقياد ، ولذلك قال النبي (ص) في الحج على الخصوص : « لبيك بحجة حقا وتعبداً ورقا ! » ، ولم يقل ذلك في غيره من العبادات . فمثل هذه العبادة ـ أي مالم يهتد العقل الى معناه ووجهه ـ أبلغ انواع العبادات في تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطبع والبغي الى الاسترقاق ، فتعجب بعض الناس من هذه الافعال العجيبة مصدره الجهل بأسرار التعبدات ، وهذا هو السر في وضع الحج ،

مع دلالة كل عمل من اعماله على بعض احوال الآخرة ، او في بعض اسرار أخر — كما يأتي — ما فيه من اجتماع اهل العالم في موضع تكرر فيه نزول الوحي ، وهبوط جبرئيل وغيره من الملائكة المقربين على رسوله المكرم ، ومن قبله على خليله المعظم — عليهما افضل الصلاة — ، بل لا يزال مرجعاً ومنزلا لجميع الأنبياء ، من آدم الى خاتم ، ومهبطاً للوحي ، ومحلا لنزول طوائف الملائكة . وقد تولد فيه سيد الرسل (ص) وتوطأت اكثر مواضعه قدمه الشريفة وأقدام سائر الأنبياء ، ولذلك سمى بـ (البيت العتيق)، وقد شرفه الله تعالى بالاضافة الى نفسه ، ونصبه مقصداً لعباده ، وجعل ما حواليه حرماً لبيته ، وتفخيماً لامره ، وجعل عرفات كالميدان على فناء حرمه ، واكد حرمة الموضع بتحريم صيده وقطع شجره ، ووضعه على مثال حضرة الملوك ، فقصده الزوار من كل فج عميق ، ومن كل أوب سحيق ، شعثاء غبراء ، متواضعين لرب البيت ، ومستكنين له ، خضوعا لجلاله ، واستكانة لعزته وعظمته ، مع الاعتراف بتنزهه عن ان يحومه بيت او يكتنفه بلد .

ولا ريب في ان الاجتماع في مثل هذا الموضع ، مع ما فيه من حصول المؤالفة والمصاحبة ، ومجاورة الابدال والاوتاد والاخيار المجتمعين من أقطار البلاد ، وتظاهر الهمم ، وتعاون النفوس على التضرع والابتهال والدعاء الموجب لسرعة الاجابة ، بذكر النبى (ص) واجلاله ، ونزول الوحي عليه ، وغاية سعيه واهتمامه في اعلاء كلمة الله ونشر احكام دينه ، فتحصل الرقة للقلب ، والصفاء للنفس . ثم لكون الحج أعظم التكليفات لهذه الامة ، جعل بمنزلة الرهبانية في الملل السالفة ، فان الامم الماضية اذا أرادوا العمل لاصعب التكاليف واشقها على النفس ، انفردوا عن الخلق ،

وانحازوا الى قلل الجبال ، وآثروا التوحش عن الخلق بطلب الانس بالله ، والتجرد له في جميع الحركات والسكنات ، فتركوا اللذات الحاضرة ، وألزموا انفسهم الرياضات الشاقة ، طمعاً في الآخرة ، وقد اثنى الله عليهم في كتابه ، وقال :

« ذٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ » (١) . وقال تعالى : « وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ما كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إلا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ » (٢) .

ولما اندرس ذلك ، واقبل الخلق على اتباع الشهوات ، وهجروا التجرد لعبادة الله تعالى ، وفروا عنها ، بعث الله تعالى من سرة البطحاء محمداً (ص) ، لاحياء طريق الآخرة ، وتجديد سنة المرسلين في سلوكها ، فسأله اهل الملل من الرهبانية والسياحة في دينه ، فقال (ص) : « ابدلنا بالرهبانية الجهاد والتكبير على كل شرف — يعني الحج — ، وابدلنا بالسياحة الصوم » . فانعم الله على هذه الامة ، بأن جعل الحج رهبانية لهم ، فهو بازاء اعظم التكاليف والطاعات في الملل السابقة .

فصل

(ما ينبغي في الحاج)

ينبغي للحاج ، عند توجهه الى الحج ، مراعاة امور :

الاول — أن يجرد نيته لله ، بحيث لا يشوبها شيء من الاغراض الدنيوية ، ولا يكون باعثه على التوجه الى الحج الا امتثال امر الله ، ونيل

(١) المائدة ، الآية : ٨٥ . (٢) الحديد ، الآية : ٢٧ .

ثوابه ، والاستخلاص من عذابه ، فليحذر كل الحذر ان يكون له باعث آخر ، مكنون في بعض زوايا قلبه ، كالرياء والحذر عن ذم الناس وتفسيقهم لو لا يحج ، او الخوف من الفقر وتلف امواله لو ترك الحج ، لما اشتهر من ان (تارك الحج يبتلى بالفقر والادبار) ، او قصد التجارة او شغل آخر ، فان كل ذلك يخرج العمل من الاخلاص ، ويحجبه عن الفائدة وترتب الثواب الموعود ، وماأجهل من تحمل الاعمال الشاقة التي يمكن ان تحصل بها سعادة الابد ، لاجل خيالات فاسدة لا يترتب عليها سوى الخسران فائدة، فيجتهد كل الجهد ان يجعل عزمه خالصا لوجه الله ، بعيداً عن شوائب الرياء والسمعة ، ويتيقن انه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص ، وان من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الملك وحرمه والمقصود غيره ، فليصحح في نفسه العزم ، وتصحيحه باخلاصه باجتناب كل ما فيه رياء وسمعة .

الثاني — ان يتوب الى الله تعالى توبة خالصة ، ويرد المظالم ، ويقطع علاقة قلبه عن الالتفات الى ما وراءه ، ليكون متوجها الى الله بوجه قلبه ، ويقدر انه لا يعود ، وليكتب وصيته لاهله واولاده ، ويتهيأ لسفر الاخرة ، فان ذلك بين يديه على قرب ، وما تقدمه من هذا السفر تهيئة لاسباب ذلك السفر ، فهو المستقر واليه المصير . فلا ينبغي ان يغفل عن ذلك عند الاستعداد لهذا ، فليتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الاخرة .

الثالث — ان يعظم في نفسه قدر البيت وقدر رب البيت ، ويعلم انه ترك الاهل والاوطان ، وفارق الاحبة والبلدان ، للعزم على امر رفيع شأنه ، خطير امره : اعني زيارة بيت الله الذي جعل مثابة للناس ، فسفره هذا لا يضاهي اسفار الدنيا . فليحضر في قلبه ماذا يريد ، واين يتوجه ، وزيارة من

يقصد ، وانه متوجه الى زيارة ملك الملوك في زمرة الزائرين اليه ، الذين نودوا فأجابوا ، وشوقوا فاشتاقوا، ودعوا فقطعوا العلائق، وفارقوا الخلائق واقبلوا على بيت الله الرفيع قدره والعظيم شأنه ، تسليا بلقاء البيت عن لقاء صاحبه ، الى ان يرزقوا منتهى مناهم ، ويسعدوا بالنظر الى مولاهم ، فليحضر في قلبه عظم السفر ، وعظمة البيت ، وجلالة رب البيت ، ويخرج معظما لهما، ناوياً ان لم يصل وادركته المنية في الطريق لقي الله وافداً اليه بمقتضى وعده .

الرابع — ان يخلي نفسه عن كل ما يشغل القلب ، ويفرق الهم في الطريق ، او المقصود ، من معاملة او مثلها ، حتى يكون الهم مجردا لله ، والقلب مطمئنا منصرفا الى ذكر الله وتعظيم شعائره ، متذكراً عند كل حركة وسكون امراً اخرويا يناسبه .

الخامس — ان يكون زاده حلالا ، ويوسع فيه ويطيبه ، ولا يغتم ببذله وانفاقه ، بل كان طيب النفس به ، إذ انفاق المال في طريق الحج نفقة في سبيل الله ، والدرهم منه بسبعمائة درهم ، قال رسول الله (ص) : « من شرف الرجل ان يطيب زاده اذا خرج في سفر » . وكان السجاد (ع) اذا سافر الى الحج ، يتزود من اطيب الزاد ، من اللوز والسكر والسويق المحمض والمحلى . وقال الصادق (ع) : « اذا سافرتم ، فاتخذوا سفرة وتنوقوا فيها » . وفي رواية : « انه يكره ذلك في زيارة الحسين (ع) » . نعم ينبغي ان يكون الانفاق على الاقتصاد من دون تقتير ولا اسراف ، والمراد بالاسراف التنعم بأطائب الاطعمة ، والترفه بصرف انواعها على ما هو عادة المترفين ، واما كثرة البذل على المستحقين ، فلا اسراف فيه ، اذ لا خير في السرف ، ولا سرف في الخير . وينبغي — ايضا — ان يكون له طيب النفس فيما اصابه من خسران ومصيبة في مال وبدن ، لان ذلك من دلائل

قبول حجه ، فان ذهاب المال فى طريق الحج يعد الدرهم منه سبعمائة في سبيل الله ، فالمصيبة في طريق الحج بمثابة الشدائد في طريق الجهاد ، فله بكل أذى احتمله وخسران أصابه ثواب ، فلا يضيع منه شيء عند الله .

السادس — أن يحسن خلقه ، ويطيب كلامه ، ويكثر تواضعه ، ويجتنب سوء الخلق والغلظة في الكلام ، والرفث والفسوق والجدال ، والرفث اسم جامع لكل فحش ولغو وخنى ، والفسوق اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله ، والجدال هو المبالغة في الخصومة والمماراة بما يورث الضغائن ويفرق الهم ويناقض حسن الخلق . قال رسول الله (ص) : « الحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة » ، فقيل : يارسول الله،ما بر الحج ؟ قال : « طيب الكلام واطعام الطعام » . فــلا ينبغى ان يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجماله ، وعلى غيرهما من اصحابه ، بل يلين جانبه، ويخفض جناحه للسائرين الي بيت الله ، ويلزم حسن الخلق ، وليس حسن الخلق بجرد كف الاذى ، بل احتمال الاذى ، وقيل : سمى السفر سفراً ، لانه يسفر عن اخلاق الرجال .

السابع — ان يكون اشعث أغبر ، غير متزين ولا مائل الى اسباب التفاخر والتكاثر ، فيكتب في المتكبرين ويخرج عن حزب الضعفاء والمساكين، ويمشي ان قدر ، خصوصاً بين المشاعر . وفي الخبر : « ما عبد الله بشيء افضل من المشي » . وينبغي ألا يكون الباعث للمشي تقليل النفقة، بل التعب والرياضة في سبيل الله ، ولو كان القصد تقليل النفقة مع اليسار فالركوب افضل . وكذا الركوب افضل لمن ضعف بالمشي ، وساء خلقه ، وقصر في العمل ، ففي الخبر : « تركبون احب الي ،فان ذلك اقوى على الدعاء والعبادة». وكان الحسن بن علي ـ عليهما السلام ـ يمشي وتساق معه المحامل والرحال .

واذا حضرت الراحلة ليركبها ، فليشكر الله تعالى بقلبه على تسخيره له الدواب ، لتتحمل عنه الاذى ، وتخفف عنه المشقة . وينبغي ان يرفق بها، فلا يحملها ما لا تطيق .

فصل

(الميقات)

اذا خرج عن وطنه ، ودخل الى البادية ، متوجها الى الميقات ، وشاهد العقبات ، فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت الى ميقات يوم القيامة، وما بينهمامن الاهوال والمطالبات، وليتذكر من هول قطاع الطريق هول منكر ونكير، ومن سباع البوادي وحياتها وعقاربها حيات القبر وافاعيها وعقاربها وديدانها ، ومن افراده عن اهله واقاربه وحشة القبر ووحدته وكربته ، وليكن في هذه المخاوف في اعماله واقواله متزوداً لمخاوف القبر .

فصل

(ما ينبغي في الميقات)

اذا دخل الميقات ، ولبس ثوبي الاحرام ، فليتذكر عند لبسهما لبس الكفن ولفه فيه ، وانه سيلقى الله ملفوفا في ثياب الكفن لا محالة ، فكما لا يلقى بيت الله الا بهيئة وزيٍ يخالف عادته ، فكذلك لا يلقى الله بعد الموت الا في زي يخالف زي الدنيا ، وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب، اذ ليس مخيطاً، كما ان الكفن ايضا ليس مخيطا، واذا احرم وتلبى، فليعلم ان الاحرام والتلبية اجابة نداء الله، فليرج ان يكون مقبولا ، وليخش ان يكون مردوداً، فيقال : لا لبيك ولا سعديك ! فليكن بين الخوف والرجاء متردداً ، وعن حوله وقوته متبرأ ، وعلى فضل الله وكرمه متكلا . فان وقت التلبية هو

بداية الامر ، وهو محل الخطر . وقد روى : « ان علي بن الحسين ـ عليهما السلام ـ لما أحرم ، واستوت به راحلته ، اصفر لونه وانتفض ، ووقعت عليه الرعدة ، ولم يستطع ان يلبي . فقيل له : لم لا تلبى ؟ فقال : اخشى ان يقول ربي : لا لبيك ولا سعديك ! فلما لبى غشي عليه وسقط من راحلته . فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه » . فليتذكر الملبي عند رفع الاصوات في الميقات خائفا راجيا ، انه اجابة لنداء الله تعالى ، اذ قال تعالى :

« وأذِّنْ في ٱلنَّاسِ بالحَجِ يأتوكَ رِجالاً » (١) .

ويتذكر من هذا النداء نداء الخلق بنفخ الصور ، وحشرهم من القبور ، وازدحامهم في عرصات القيامة لنداء الله ، منقسمين الى مقربين ومبعدين ، ومقبولين ومردودين ، ومرددين فى أول الامر بين الخوف والرجاء ، مثل تردد الحاج في الميقات ، حيث لا يدرون ايتيسر لهم اتمام الحج وقبوله املا .

فصل

(ما ينبغى عند دخول مكة)

ينبغي ان يتذكر عند دخول مكة : انه قد انتهى الى حرم من دخله كان آمنا ، وليرج عنده ان يأمن بدخوله من عقاب الله ، وليضطرب قلبه من الا يكون اهلا للقرب والقبول ، فيكون بدخول الحرم خائبا مستحقا للمقت ، وليكن رجاؤه في جميع الاوقات غالبا ، اذ شرف البيت عظيم ، ورب البيت كريم ، والرحمة واسعة ، والفيوضات نازلة ، وحق الزائر منظور ، واللائذ المستجير غير مردود . واذا وقع البصر على البيت ، فليحضر في قلبه عظمته ، ويقدر كانه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه ،

(١) الحج ، الآية : ٢٧ .

وليرج ان يرزقه لقاءه كما رزقه لقاء بيته ، وليشكر الله على تبليغه اياه الى بيته ، والحاقه اياه بزمرة الوافدين اليه ، ويتذكر عند ذلك ايصاب الخلائق الى جهة الجنة آملين لدخولها كافة ، ثم انقسامهم الى مأذونين في الدخول ومصروفين عنها ، إنقسام الحاج الى مقبولين ومردودين .

فصل

(ما ينبغي عند الطواف)

وينبغي عند الطواف ان يمتليء قلبه من التعظيم والمحبة والخوف والرجاء ، ويعلم انه في الطواف متشبه بالملائكة المقربين الطائفين حول العرش ، وليعلم ان المقصود طواف قلبه بذكر رب البيت ، دون مجرد طواف جسمه بالبيت ، فليبتدي الذكر به ويختم به ، كما يبتدأ الطواف من البيت ويختم بالبيت، فروح الطواف وحقيقته هو طواف القلب بحضرة الربوبية والبيت مثال ظاهر في عالم الشهادة لتلك الحضرة التى لاتشاهد بالبصر ، وهو عالم الغيب وعالم الملك والشهادة ، مدرجة الى عالم الغيب والملكوت لمن فتح له الباب . وما ورد من ان البيت المعمور في السماوات بازاء الكعبة ، وان طواف الملائكة بها كطواف الانس بهذا البيت ، ربما كان اشارة الى ما ذكرناه من المماثلة ، ولما قصرت رتبة الاكثرين عن مثل ذلك الطواف ، أمروا بالتشبه بهم بقدر الامكان ، ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم .

فصل

(ما ينبغي عند إستلام الحجر)

ينبغي أن يتذكر عند استلام الحجر الاسود ، أنه بمنزلة يمين الله في أرضه ، وفيه مواثيق العباد . قال رسول الله (ص) : « استلموا الركن، فانه

يمين الله في خلقه ، يصافح بها خلقه مصافحة العبد او الدخيل ، ويشهد لمن استلمه بالموافاة » ، ومراده (ص) بالركن : الحجر الاسود ، لأنه موضوع فيه ، وإنما شبه باليمين ، لأنه واسطة بين الله وبين عباده في النيل والوصول والتحبب والرضا ، كاليمين حين التصافح . وقال الصادق (ع) : « إن الله تبارك وتعالى لما أخذ مواثيق العباد ، أمر الحجر فالقمها ، فلذلك يقال : اماني اديتها ، وميثاقي عاهدته ، لتشهد لي بالموافاة» . وقال (ع) : « الركن اليماني باب من أبواب الجنة ، لم يغلقه الله منذ فتحه» . وقال (ع) :« الركن اليماني بابنا الذي يدخل منه الجنة ، وفيه نهر من الجنة تلقى فيه اعمال العباد » ، قيل : انما شبه بباب الجنة ، لأن إستلامه وسيلة الى وصولها ، وبالنهر ، لأنه تغسل به الذنوب . ثم لتكن النية في الاستلام والالتصاق بالمستجار ، بل الممارسة لكل جزء من البيت ، طلب القرب حباً وشوقاً للبيت ولرب البيت ، وتمسكا وتبركاً بالممارسة ، ورجاء للتحصن عن النار في كل جزء لا في البيت ، ولتكن نيته في التعلق بأستار البيت الالحاح في طلب المغفرة وسؤال الامان ، كالمقصر المتعلق بثياب من قصر في حقه ، المتضرع اليه في عفوه عنه ، المظهر له أنه لا ملجأ منه إلا اليه ، ولا مفزع إلا عفوه وكرمه ، وأنه لا يفارق ذيله حتى يعفو عنه ، ويعطيه الامان في المستقبل .

فصل

(السعي)

السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت ، يضاهي تردد العبد بفناء دار الملك ، جائياً وذاهبا مرة بعد اخرى ، إظهاراً للخلوص في الخدمة ، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة ، كالذي دخل على الملك وخرج ، وهو لا يدري ما

الذي يقضي به الملك في حقه من قبول أورد ، فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد اخرى ، يرجو أن يرحمه في الثانية إن لم يرحمه في الاولى ، وليتذكر عند تردده التردد بين الكفتين ، ناظراً الى الرجحان والنقصان ، مردداً بين العذاب والغفران .

فصل

(ما ينبغي عند الوقوف بعرفات)

وأما الوقوف بعرفات ، فليتذكر بما يرى من ازدحام الخلق ، وارتفاع الأصوات ، واختلاف اللغات ، واتباع الفرق أئمتهم في التردد على المشاعر : عرصات يوم القيامة وأهوالها ، وانتشار الخلائق فيها حيارى ، واجتماع الامم مع الانبياء والأئمة ، واقتفاء كل امة نبيهم ، وطمعهم في شفاعته لهم ، وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول . واذا تذكر ذلك ، فليتضرع الى الله تعالى ويبتهل اليه ، ليقبل حجه ويحشره في زمرة الفائزين المرحومين . وينبغي ان يحقق رجاءه ، إذ اليوم شريف والموقف عظيم ، والنفوس من أقطار الارض فيه مجتمعة ، والقلوب الى الله سبحانه منقطعة ، والهمم على الدعاء والسؤال متظاهرة ، وبواطن العباد على التضرع والابتهال متعاونة ، وايديهم الى حضرة الربوبية مرتفعة ، وابصارهم الى باب فيضه شاخصة ، واعناقهم الى عظيم لطفه وبره ممتدة ، ولا يمكن ان يخلو الموقف عن الأخيار والصالحين ، وأرباب القلوب والمتقين ، بل الظاهر حضور طبقات الابدال وأوتاد الارض فيه ، فلا تستبعدون ان تصل الرحمة من ذي الجلال بواسطة القلوب العزيزة والنفوس القادسة الشريفة الى كافة الخليقة ، ولا تظنن انه يخيب آمال الجميع ، ويضيع سعيهم ، ولا يرحم غربتهم وانقطاعهم

من الأهل والاوطان ، فان بحر الرحمة اوسع من ان يضن به في مثل هذه الحالة ، ولذا ورد : أنه من أعظم الذنوب ان يحضر عرفات ويظن ان الله لم يغفر له .

فصـــل

(المشعر)

واذا فاض من عرفات ودخل المشعر ، فليتذكر عند دخوله فيه : ان الله سبحانه قد أذن له في دخول حرمه بعد ان كان خارجاً عنه ، إذ المشعر من جملة الحرم ، وعرفات خارجة عنه ، فليتفاءل من دخول الحرم، بعـــد خروجه عنه ، بأن الله سبحانه قربه اليه وكساه خلع القبول ، وأجاره وآمنه من العذاب والبعد ، وجعله من اهل الجنة والقرب .

فصـــل

(ما ينبغي عند الرمي والذبح)

واذا ورد منى ، وتوجه الى رمي الجمار ، فليقصد به الانقياد والامتثال ، اظهاراً للرق والعبودية ، وتشبيهاً بالخليل الجليل (ع) ، حيث عرض له ابليس اللعين في هذا الموضع ليفسد حجه ، فأمره الله تعالى ان يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأصله . وينبغي ان يقصد انه يرمي الحصا الى وجه الشيطان ويقصم به ظهره ، ويرغم به أنفه ، إذ امتثال امر الله تعالى تعظيماً له يقصم ظهر اللعين ويرغم انفه . واذا ذبح الهدي ، فليستحضر ان الذبح اشارة الى انه بسبب الحج قد غلب على الشيطان والنفس الامارة وقتلهما ، وبذلك استحق الرحمة والغفران ، ولذا ورد : انه يعتق بكل جزء من الهدي جزء منه النار . فليجتهد في التوبة والرجوع عما كان عليه قبل ذلك من الاعمال

القبيحة ، حتى يصير حاله احسن من سابقه ، ليصدق عليه إذلاله الشيطان والنفس الامارة في الجملة . ولا يكون في عمله من الكاذبين . ولذلك ورد : ان علامة قبول الحج ؛ أن يصير حاله بعد الحج أحسن مما كان عليه قبله . وفي الخبر : أن علامة قبول الحج ترك ما كان عليه من المعاصي ، وأن يستبدل باخوانه البطالين اخوانا صالحين ، وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة .

تتميم

(أسرار الحج)

قد ورد عن مولانا الصادق (ع) خبر يتضمن عمدة أسرار الحج ودقائقه ، فلنذكره تيمنا بكلماته الشريفة :

قال (ع) : « اذا أردت الحج ، فجرد قلبك لله عز وجل ، من قبل عزمك ، من كل شغل شاغل وحجب كل حاجب ، وفوض امورك كلها الى خالقك ، وتوكل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك ، وسلم لقضائه وحكمه وقدره ، وودع الدنيا والراحة والخلق ، واخرج من حقوق يلزمك من جهة المخلوقين ، ولا تعتمد على زادك وراحلتك واصحابك وقوتك وشبابك ومالك ، مخافة ان يصير ذلك عدوا ووبالا ، فان من ادعى رضا الله ، واعتمد على شيء ما سواه ، صيره عليه عدواً ووبالا ، ليعلم أنه ليس له قوة ولا حيلة ولا لأحد الا بعصمة الله تعالى وتوفيقه ، واستعد استعداد من لا يرجو الرجوع ، واحسن الصحبة ، وراع اوقات فرائض الله تعالى وسنن نبيه (ص) ، وما يجب عليك من الأدب ، والاحتمال ، والصبر ، والشكر ، والشفقة ، والسخاوة ، وإيثار الزاد

على دوام الاوقات ، ثم اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك ، والبس كسوة الصدق والصفاء والخضوع والخشوع ، واحرم من كل شيء يمنعك عن ذكر الله عز وجل ويحجبك عن طاعته ، والب بمعنى إجابة صافية خالصة زاكية لله عز وجل في دعوتك له ، متمسكاً بالعروة الوثقى ، وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت . وهرول هرولة فراً من هواك ، وتبرأ من جميع حولك وقوتك ، واخرج من غفلتك وزلاتك بخروجك الى منى ، ولا تتضمن مالا يحل لك ولا تستحقه، واعترف بالخطأ بالعرفات ، وجدد عهدك عند الله تعالى بوحدانيته ، وتقرب اليه ، واتقه بمزدلفة ، واصعد بروحك الى الملأ الأعلى بصعودك على الجبل ، واذبح حنجرة الهوى والطمع عند الذبيحة ، وارم الشهوات والخساسة والدناءة والافعال الذميمة عند رمى الجمرات ، وأحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرك ، وادخل في امان الله وكنفه وستره وكلاءته من متابعة مرادك بدخول الحرم ، وزر البيت متحققا لتعظيم صاحبه ومعرفته وجلاله ، واستلم الحجر رضى بقسمته وخضوعا لعظمته ، وودع ما سواه بطواف الوداع ، وصف روحك وسرك للقاء الله تعالى يوم تلقاه بوقوفك على الصفا ، وكن ذامرة من الله بفناء أوصافك عند المروة ، واستقم على شروط حجتك ، ووفاء عهدك الذي عاهدت ربك ، واوجبت له الى يوم القيامة ، واعلم بان الله لم يفترض الحج ، ولم يخصه من جميع الطاعات بالاضافة الى نفسه بقوله تعالى :

(وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيه سبيلاً)(١)

---

(١) آل عمران ، الآية : ٩٧ .

ولا شرع نبيه (ص) سنة في خلال المناسك على ترتيب ما شرعه، إلا للاستعداد والاشارة الى الموت والقبر والبعث والقيامة، وفضل بيان السبق من دخول الجنة أهلها ودخول النار أهلها، بمشاهدة مناسك الحج من أولها الى آخرها، لاولى الالباب وأولي النهى» (١).

خاتمـــة

(زيارة المشاهد)

في الاشارة الى بعض الامور الباطنة المتعلقة بزيارة المشاهد.

اعلم ان النفوس القوية القدسية، لا سيما نفوس الانبياء والأئمة (ع)، اذا نفضوا أبدانهم الشريفة، وتجردوا عنها، وصعدوا الى عالم التجرد، وكانوا في غاية الاحاطة والاستيلاء على هذا العالم، فامور هذا العالم عندهم ظاهرة منكشفة، ولهم القوة والتمكن على التأثير والتصرف في مواد هذا العالم، فكل من يحضر مقابرهم لزيارتهم يطلعون عليه، لاسيما ومقابرهم مشاهد أرواحهم المقدسة العلية، ومحال حضور أشباحهم البرزخية النورية، فانهم هناك يشهدون،

«بَلْ أَحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ» (٢)

وبما آتاهم الله من فضله فرحون، فلهم تمام العلم والاطلاع بزائري قبورهم، وحاضري مراقدهم، وما يصدر عنهم من السؤال والتوســل والاستشفاع والتضرع، فتهب عليهم نسمات ألطافهم، وتفيض عليهم من رشحات انوارهم، ويشفعون الى الله في قضاء حوائجهم، وإنجاح

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ٢١.

(٢) آل عمران، الآية: ١٦٩.

مقاصدهم ، وغفران ذنوبهم ، وكشف كروبهم . فهذا هو السر في تأكد استحباب زيارة النبي والائمة ـ عليهم السلام ـ، مع ما فيه من صلتهم وبرهم واجابتهم ، وإدخال السرور عليهم ، وتجدد عهد ولايتهم ، واحياء امرهم ، وإعلاء كلمتهم ، وتنكيت أعدائهم . وكل واحد من هذه الأمور مما لا يخفى عظيم اجره وجزيل ثوابه . وكيف لا تكون زيارتهم أقرب القربات ، وأشرف الطاعات ، مع ان زيارة المؤمن ـ من جهة كونه مؤمنا فحسب ـ عظيم الأجر جزيل الثواب ، وقد ورد به الحث والتوكيد والترغيب الشديد من الشريعة الطاهرة ، ولذلك كثر تردد الأحياء الى قبور أمواتهم للزيارة ، وتعارف ذلك بينهم ، حتى صارت لهم سنة طبيعية ، وأيضاً قد ثبت وتقرر جلالة قدر المؤمن عند الله ، وثواب صلته وبره وادخال السرور عليه . واذا كان الحال في المؤمن من حيث إنه مؤمن ، فما ظنك بمن عصمه الله من الخطأ ، وطهره من الرجس ، وبعثه الله الى الخلائق أجمعين ، وجعله حجة على العالمين ، وارتضاه إماماً للمؤمنين ، وقدوة للمسلمين ، ولأجله خلق السماوات والارضين ، وجعله صراطه وسبيله ، وعينه ودليله ، وبابه الذي يؤتى منه ، ونوره الذي يستضاء به ، وأمينه على بلاده ، وحبله المتصل بينه وبين عباده ، من رسل وانبياء وأئمة واولياء.

ثم ، الأخبار الواردة في فضيلة زيارة النبي والأئمة ـ عليهم السلام ـ مما لا تحصى كثرة . قال رسول الله (ص) : « من زار قبري بعد موتي، كان كمن هاجر إلي في حياتي ، فان لم تستطيعوا فابعثوا إلي بالسلام ، فانه يبلغني ». وقال (ص) لأمير المؤمنين (ع) : « يا أبا الحسن ، إن الله تعالى جعل قبرك وقبر ولدك بقاعا من بقاع الجنة ، وعرصة من عرصاتها ، وإن الله جعل قلوب نجباء من خلقه ، وصفوة من عباده ، تحن اليكم ، وتحتمل المذلة

والاذى فيكم ، فيعمرون قبوركم ، ويكثرون زيارتها ، تقربا منهم الى الله، ومودة منهم لرسوله ، أولئك ياعلي المخصوصون بشفاعتي ، والواردون حوضي ، وهم زواري وجيراني غداً في الجنة . ياعلي ، من عمر قبورهم وتعاهدها فكأنما أعان سليمان بن داود على بناء بيت المقدس ، ومن زار قبوركم عدل ذلك سبعين حجة بعد حجة الاسلام، وخرج من ذنوبه حتى يرجع من زيارتكم كيوم ولدته امه . فابشر ، وبشر أولياءك ومحبيك من النعيم وقرة العين ، بما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ولكن حثالة من الناس يعيرون زوار قبوركم ، كما تعير الزانية بزناها ، أولئك شرار امتي ، لا تنالهم شفاعتي ، ولا يردون حوضي » (١) . وقال الصادق (ع) : « لو ان احدكم حج دهره، ثم لم يزر الحسين بن علي ـ عليهما السلام ـ لكان تاركا حقا من حقوق رسول الله (ص) ، لان حق الحسين عليه السلام فريضة من الله واجبة على كل مسلم » . وقال الرضا (ع) : « ان لكل إمام عهداً في عنق اوليائه وشيعته ، وان من تمام الوفاء بالعهد وحسن الاداء زيارة قبورهم ، فمن زارهم رغبة في زيارتهم ، وتصديقا بما رغبوا فيه ، كان أئمته شفعاءه يوم القيامة » . والاخبار في فضل زيارة النبي والائمة المعصومين ، لا سيما زيارة سيد الشهداء وابي الحسن الرضا ـ عليهم افضل التحية والثناء ـ ، وفضل زيارتهما على الحج والعمرة والجهاد ، اكثر من ان تحصى ، وهي مذكورة في كتب المزار لاصحابنا ، فلا حاجة الى ايرادها هنا .

---

(١) صححنا الحديث على (مستدرك الوسائل): ٢/١٩٥ ـ ١٩٦ ، كتاب الحج ، ١٠ ، ابواب المزار وما يناسبه .

فصـــل

(ما ينبغي للزائر عند دخول المدينة المنورة)

واذا عرفت فضل زيارتهم وسرها ، وعظم قدرهم وجلالة شأنهم ، فينبغي أن تكثر التواضع والتخضع والانكسار عند الدخول في بلادهم ، ومراقدهم المنورة ، ومشاهدهم المكرمة ، وتستحضر في قلبك عظمتهم وجلالهم ، وتعرف عظيم حقهم ، وغاية جدهم وسعيهم في ارشاد الناس وإعلاء كلمة الله .

فاذا قربت المدينة المنورة ، ووقع بصرك على حيطانها ، تذكر أنها البلدة التي اختارها الله لنبيه (ص) ، وجعل اليها هجرته ، وانها البلدة التي فيها شرع فرائض ربه وسننه ، وجاهد عدوه ، واظهر بها دينه ، ولم يزل قاطنا بها الى ان توفاه الله ، وجعل تربته فيها .

ثم مثل في نفسك اقدام رسول الله (ص) عند ترددانك فيها ، وتذكر أنه ما من موضع قدم تطأه الا وهو موضع قدمه العزيز ، فلا تضع قدمك عليه إلا على سكينة ووجل ، وكن متذكراً لمشيه وتخطيه في سككها ، وتصور سكينته ووقاره ، وخشوعه وتواضعه لعظمة ربه ، وما استودع الله في قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره ، حتى قرنه بذكر نفسه ، وانزل عليه كلامه العزيز ، واهبط عليه روح الامين وسائر ملائكته المقربين ، واحبط عمل من هتك حرمته ، ولو برفع صوته فوق صوته . ثم تذكر مامن الله به على الذين ادركوا صحبته ، وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه . واعظم تأسفك على ما فاتك من صحبته ، وتضرع الى الله ألا تفوتك صحبته في الآخرة ، ولتعظم رجاءك في ذلك ، بعد ان رزقك الله الايمان ، واشخصك من ارضك لأجل زيارته ، محبة له ، وتشوقاً اليه .

ثم اذا دخلت مسجده ، فتذكر أن أول موضع اقيمت فيه فرائض الله تلك العرصة ، وانها تضمنت افضل خلق الله حياً وميتاً ، فارج الله غاية الرجاء أن يرحمك بدخولك اياه خاشعاً معظما ، وما أجدر ذلك المكان بان يستدعي الخضوع من قلب كل مؤمن .

ثم اذا أتيته للزيارة ، فينبغي ان تقف بين يديه خاضعا خاشعا خائفا، وتزوره ميتا كما تزوره حيا ، ولا تقرب من قبره الا كما تقرب من شخصه الكريم لو كان حيا ، إذ لا فرق بين ميته وحيه ، ولو وجدت التفرقة في قلبك لما كنت مؤمنا ، ولتعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك ، وأنه يبلغه سلامك وصلواتك . فمثل صورته الكريمة في خيالك ، جالسا على سرير العظمة بحذائك . واحضر عظيم رتبته في قلبك ، وقد ورد : أن الله تعالى وكل بقبره ملكا يبلغه سلام من سلم عليه من امته . وهذا في حق من لم يحضر قبره ، فكيف بمن فارق الاهل والوطن ، وقطع البوادي شوقا الى لقائه ، واكتفى وقنع بمشاهدة مشهده المنور ، إذ فاتته مشاهدة طلعته البهية وغرته الكريمة . وقد قال (ص) : « من صلى عليّ مرة ، صليت عليه عشراً » . فهذا جزاؤه عليه في الصلاة عليه بلسانه ، فكيف بالحضور لزيارته ببدنه ؟

واذا فرغت من زيارته ، فأت المنبر وامسحه بيدك ، وخذ برمانتيه ، وامسح بهما وجهك وعينيك ، وتضرع الى الله ، وابتهل اليه ، واسأل حاجتك . وتوهم صعود النبى (ص) المنبر ، ومثل في قلبك طلعته البهية ، قائما على المنبر ، وقد احدق به المسلمون من المهاجرين والانصار ، وهو يحمد الله بافصح الكلمات واللغات ويحث الناس على طاعة الله . واسأل الله ألا يفرق في القيامة بينه وبينك ، ويجعلك في جواره ، ويعطيك منزلا في قرب داره .

فصل

(ما ينبغي للزائر عند دخول النجف وكربلاء)

واذا دخلت ارض النجف لزيارة امير المؤمنين وسيد الوصيين (ع)، تذكر انها وادي السلام، ومجمع أرواح المؤمنين، وقد شرفها الله وجعلها اشرف البقاع، وجنة المؤمنين، فما من مؤمن خالص إلا وبعد الموت يأتي روحه اليها، ويتنعم فيها مع سائر المؤمنين، الى ان يدخلوا دار كرامته العظمى في القيامة الكبرى. وقد اكد شرافتها وعظم قدرها، بأن جعلها مدفن وصي رسوله، بعد ان كانت مدفن آدم ابي البشر، ونوح شيخ المرسلين — عليهما السلام —. فاسأل الله ان يأتي بروحك اليها، ويدخلك في زمرة المؤمنين، ويجعلها محل دفنك، لتنال شفاعة مولاك (ع)، ولا يحشرك مع الكفار والعصاة في وادي برهوت.

واذا أتيت لزيارته، تذكر عظيم مرتبته عند الله وعند رسوله، وراع الآداب التي ذكرناها في زيارة رسول الله (ص).

واذا أردت أرض كربلاء، لزيارة سيد الشهداء (ع)، فتذكر ان هذه الأرض هي التي قتل فيها سبط الرسول واولاده واقاربه واجناده، واسرت فيها أهاليه وأهل بيته، فجدد الحزن على قلبك، وادخلها أشعث اغبر، منكسر الحال، محزون القلب، كئيباً حزيناً باكيا، واحضر في قلبك حرمة هذه الارض وشرافتها، فانها الارض التي في تربتها الشفاء، ولا يرد فيها الدعاء، وقد يجعلها الله يوم القيامة ارفع بقاع الجنة، فتردد فيها على سكينة ووجل.

ثم اذا دخلت الحائر للزيارة، ووقع بصرك على ضريحه المنور، ثم

على ضريح اصحابه المستشهدين معه ، المجتمعين في موضع واحد في جواره ، فمثل في قلبك اشخاصهم، وتذكر وقائعهم وما جرى عليهم من البلايا والمحن، واحضر في نفسك ابا عبد الله الحسين (ع) واقفا في عرصة كربلاء ، ويأتى اصحابه واحداً واحـــداً يستأذن منه للجهاد ، قائلا : السلام عليك يا ابا عبد الله ! وهو يأذن له ، ويلقى نفسه في الميدان على الجم الغفير ، فيقتل في سبيله ، واذا أيس من حياته ، ينادي بأعلى صوته : ادركني يا ابا عبد الله ! وهو (ع) يسرع اليه كالصقر المنقض ، ويأخذ جثته من الميدان ، ويلحقه بسائر اخوانه الشهداء . فمثل في نفسك امثال ذلك ،وجدد عليهم الحزن والبكاء ، وتمن كونك معهم في تلك العرصة ، وقل : يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما !

ثم راع الآداب الباطنة لزيارته (ع) ، وقس على ذلك زيارة كل واحد من الائمة ـ عليهم السلام ـ ، فانه ينبغى لك ان تستحضر ، عند حضورك كل واحد منهم ، جلالة شأنه ، وعظمة قدره ، وعظيم حقه ، وتتذكر ما يناسب حاله ، وما جرى عليه ، ثم تستشعر في قلبك ما يترتب عليه ، من التعظيم ، والاجلال ، والخوف ، والحزن ، والفرح ، وامثال ذلك .

●●●

هذا آخر كتاب (جامع السعادات) والحمد لله على اتمامه ، واسأل الله ان يجعلنا من العاملين به ، وينفع به جميع عباده السالكين اليه . وقد وقع الفراغ من جمعه وتأليفه ، في سلخ شهر ذى القعدة الحرام سنة ست وتسعين ومائة بعد الألف من الهجرة النبوية ، على مهاجرها الف الف سلام وتحية.

❊❊❊

هذا آخر ما كتبه المصنف (قدس سره)

فهرس الجزء الثالث من (جامع السعادات)

مطبعة النعمان ـ النجف الاشرف تلفون ٢٠٩٧


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

